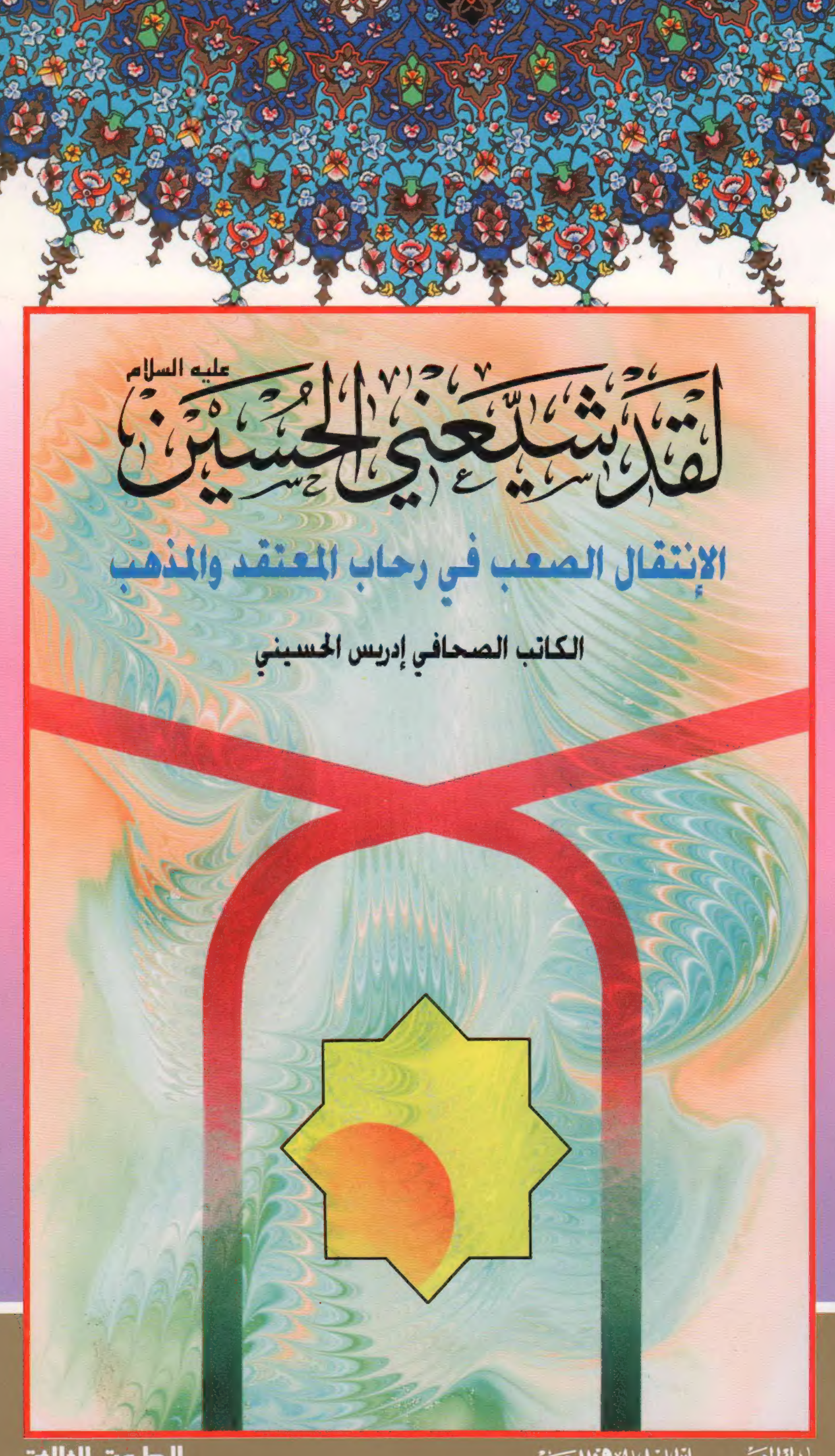




الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة

دار النخيل للطباعة والنشر




لقد شيعني الحسين عليه السلام



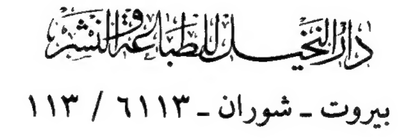
الكاتب الصحافي إدريس الحسيني




الإنتقال الصعب في رحاب المعتقد والمذهب

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة
١٩٩٥م/ ١٤١٦هـ

التنضيد الضوئي : نورالدين إبن جمال موسى




بيروت ـ شوران ـ ٦١١٣ / ١١٣


بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة الناشر للطبعة الاولى

رحلة الزمن التي بدأت منذ الخلق الاول لأبينا آدم (ع) مرت بالعديد من الانعطافات التاريخية التي كان لها الاثر الأكبر في صياغة الانسان الراشد ، حتى توصله بالنهاية الى دخول جنان الله عزوجل .

وكان ابطال هذه الرحلة المضنية هم الانبياء والاولياء والصالحون والشهداء وحسن اولئك رفيقاً . . الذين حملوا لواء الهداية والتحرير . . هداية الانسان الى خالقه ومن لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض أو السماء . . وتحرير الانسان من الصنم بشكليه المادي والاصطناعي ، وتحريره من الثقافة الجامدة التي تربط عقل الانسان باغلال المجتمع ، وضغوط الذات ، وقوة السلطان ، وبريق المال والثروة ، حتى يصاغ بعد ذلك بصياغة الايمان ، وينطبع بطابع العبودية التي يقول عنها عزوجل : ﴿ **ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون** ﴾[1] ، اذاً من هنا بدأت الرحلة . . والى هنا انتهت .

ولكن السؤال : كيف نقرأ المضامين الشاملة لهذه الرحلة ؟ .

ان قراءتنا لهذه المضامين الحقيقية خلال هذه الرحلة الطويلة ـ بالطبع قراءتنا لتاريخ البشرية الماضي الذي يشكل دعائم لهذه المضامين ـ لابد أن تكون قراءة باحث يبحث عن الحقيقة ، هدفه الاسمى رؤية باصرة ونظرة ثاقبة لما جرى خلال هذه الرحلة . . يفهم بها الماضي وينظر الى الحاضر بمنظارها ويبني المستقبل على ضوئها .

---

(١) ـ سورة البقرة ( آية : ١٣٨) .

ولهذا الامر دعا القرآن ونادى العقل بضرورة قراءة التاريخ ، لأن الدراسة الواعية للتاريخ تكشف السياق الزمني الذي يسير على ضوئه الحاضر ( الغائب ) عن الابصار ، وعلى أساسها ايضاً تتشكل المحددات الاولى لصياغة المستقبل .

من هنا كان لزاماً على المنصفين ان يفهموا التاريخ بملاحظة هذه المعاني ، لأن قراءته من دون هذه المعاني تعني ان تكون هذه الدراسة مطيّةً للاهواء المذمومة ، ومطبعة للافكار المسمومة ، وسوقاً يتشابه على المشتري فيه الصالح والفاسد .

وحينها تقع الكارثة . . حيث ينقطع الانسان عن تاريخه ، والمنقطع عن التاريخ كمن لا أصل له . . . ولا يخفى ان الاصل يمده بالتجربة ويصحح له المسيرة ويوحي اليه بصحة المعتقد .

ولا تسأل ـ عزيزي القارىء ـ ماذا يحصل بعدئذ لهذا الانسان ؟ ! .

ان دواعي المصلحة تعمي عينيه ، فيقرأ التاريخ قراءة مغلوطة ، يخطّىء الصحيح ، ويصحّح الخطأ ، ويسوِّد طبق ذلك آلاف الاوراق ليثبت مدّعاه ، لاسيما وأن المال يدعمه ، وصقل الاوراق يجمله ، وحسن الاغلفة يبرزه ، فيغتر بذلك كل من يقرأ تاريخه اعتباطاً بلا تحليل وبلا مقارنة ، حتى يقع ـ بشعور أو لا شعور ـ في الجمع بين احداث متناقضة تاريخياً لا يجتمع احدها بالاخر على الاطلاق .

ان افضل ما يمكن ان نطبق عليه ما تقدم هو تاريخ التجربة الاسلامية الاولى في مجال الدولة وبناء المجتمع وتحديداً العقيدة ؛ اذ ينبغي ان لا يكون للعصبية مجال في الحكم على ذلك ، وانما القول الفصل ندعه للحقيقة التي يسطع بها التاريخ منسجمة مع السياق الاسلامي العام الذي جاء ذكره في آيات الذكر الحكيم وفي روايات النبي صلى الله عليه وآله وسلم والائمة المعصومين (ع) .

وهذا ما حاول كاتب هذه الدراسة الوصول اليه؛ وأحسبه وفِّق كثيراً الى ذلك ، حيث انه درس التاريخ دراسة تحليلية موضوعية منصفة ، أعمل فيها العقل ، وآمن بالنقل ، وفهم مطلوب الواقع المعاصر . . فأيقن ان المنهج الافضل هو منهج أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .

واخيراً لابد أن نشير الى ان الكاتب الذي ينتمي في النسب الى سلالة اهل البيت عاش واقعاً فيه عوامل البعد عن الدين حيث رأى سيطرة الاجنبي الواضحة في كل شيء ، حتى في لباس المسلمين ولسانهم . . الخ . لكنه مع ذلك بقوة عزمه ونفاذ بصيرته انتمى الى مؤسسة دينية ومعهد علمي كان له اثر واضح على صعيد وطننا الاسلامي الكبير ، فتربى في كنفها . . أخذ من العقيدة ما يبصره ويغنيه ، ومن الفهم الديني المتجدد ما يجعله ينظر الى ما يجري بروح عصرية لا تتجاوز الثوابت ، ومن الثقافة الشرعية والدينية ما يجعله ينطلق في رحاب الواقع .

ان هذا كله جعل هذا الكتاب الذي بين يديك رحلة سافر عبرها كاتبها من التاريخ والواقع الى مذهب أهل البيت (ع) . . وهذا هو الذي يدعونا الى أن تجد مثل هذه الكتابات آذاناً صاغية وقلوباً واعية تبحث عن الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة .



# الإهداء

أهدي كتابي هذا الى والدتي العزيزة ، الوحيدة في هذا العالم الجهنمي، القادرة على سكب الحنان عليّ . في عالم لن يدع لي ( الحق ) فيه ، قلبا عطوفاً ! .

والى كل ضمير يتسع بعقل وحنان ، لصرخة حائر في دروب الحقائق المضنية ، يبحث عن ( حبل ) نور يتعلق به .

إنها زفرة باحث عن الحقيقة ، في زمن الحصار .

إنها الرحلة والمنعطف في ذلك الرحاب الوسيع ، رحاب التصور والمعتقد ! .

ادريس الحسيني .



# مقدمة الطبعة الأولى

من المخاطِب ، ومن المخاطَب ؟ .

أود أن أشير ـ بادي ذي بدء ـ الى حقيقة ، اريد الاّ تغيب عن القارىء ، وهو يتهيأ لقراءة هذا الكتاب . هي انني لست مذهبياً في المسلك ، وان قناعاتي مهما كانت ، فانها لا تجازف بي بعيداً .

أنا مسلم . وانطلق من صميم الحب للدين ، وليس من صميم الحقد والتآمر .

انني لم أشأ ولن أشاء ان اجعله برميلَ بارودٍ ، لتفجير المعرفة التأريخية من جدبد . كما لا أريد به تعميق الفجوة الطائفية بين المذاهب ، ولكن ما اردته فقط الدفاع عن الحقيقة المرّة والضائعة ، بسبب التراخي في كشف الحق والمزايدة عليه .

انني لم اطلب الانتقام من سنوات التجهيل ، الذي مارسه في حقنا علماؤنا من العامة . انني اوّدُّ فقط أن أمدّ يد المساعدة لمن أراد ان يتحرر من سلطة الفكر الجاهز ، من الأسر الموروث ، اريد ان أسجل تجربتي حتى لا يبقى بعدي مُغفَّل . ليكن ما يكون . ولكن لا يبقى مُغفَّل ! .

انني أسمى نفساً من أن أنتقمَ من أشخاص معينين ، ولكنني لا أجد حرجاً في التعرض لأفكارهم .

في تجربتي هذه ، ليس هاماً ان أُعَرف الناس بشخصيتي ، فقيمة الموضوع

الذي يتبناه هذا الكتاب ، أهم بكثير . هذه تجربتي في خط العقيدة ، وأنا مسؤول عنها . لذلك أتوخى لها ان تكون حرّة ، طليقة ، بلا قيود ! .

فيها أفكار قد تؤذي البعض ، وأخرى تستهوي آخرين . ولكن هدفي ، ليس هؤلاء ولا أولئك . ولكنها ( الحقيقة ) ! .

اكتب تجربتي هذه ، لأسجل حلقة من الإنتصار الشيعي في دائرة الفكر والاعتقاد . كما لا أُريد لهذه التجربة ان تكون نسخة لما سطّره السابقون . لا أريد الحبك على نفس المنوال الذي لا يتعدى مجال السجال المحدود في زوايا ضيقة من الخلافات . أي ، معارك ( تقولُ وأقولُ ) ، أو على نمطِ الزمخشريات : « إن قلتَ قلتُ » أريدها ان تكون إشارات واسعة ، لقضايا متشعبة في التأريخ والعقيدة .

لاأريد أن احجب القارىء عن هذه الحقيقة التي لا تقل أهمية عن القضية المصيرية للأمة ، فيما يتصل بكيانها الحضاري ككل . أنا لست غبياً حتى أكفِّرَ أحدا ! وان كان السني الوهابي ، يُكفِّر[٢] ، من جراء الافق المعرفي الضيق والافلاس العقائدي الكبير . سأحاول ان اكون متحرراً . ليس تحرر « موضة » ، وانما تحررٌ ساكنٌ في نفسي وروحي نبذ زماناً . منطلقي هو التحرر من كل سلطة في نقد الأفكار . لأن أجيالاً من القمع ، لم تنتج إلا أفكاراً بائسةً واتجاهاتٍ رثةً . شعاري « امنحني حرية ، امنحك فكراً راقياً » ! اذن ، لنتحرر ، ونحرر الكلمة .

سأقول للتاريخ ، بانني أهتم بالقضية الدينية التأريخية ، بتفتح عقلي ، هو ذات التفتح الذي قادني الى ينابيع العقيدة نفسها والالتزام بتكاليفها حسب المستطاع . سأقول للتاريخ ، حتى لا أُتهم بالتقليد والرجعية ، انني كنت متحرراً من كل وضع عقيدي في بيئتي . ولم تكن لدي أزمة في الحرية . انني لم أرث شيئاً من ذلك على الاطلاق .

ولا أنكر أن « أبي » قد ربّاني على حكايات الافرنج . ومنه تعرفت على الثورة الفرنسية ، ولويس الرابع عشر ، ونابليون . قبل أن أعرف شيئاً عن هجرة محمد

---

(٢) ـ أقصد تكفير الوهابية للشيعة وبعض المسلمين .

صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة ، وكل ما ربحت من هذا الوسط ، هو الحرية ! أي دعه يمر ، دعه يعمل ! لذلك ما كانوا ليراقبوني وأنا أمرّ في انفاق المعتقد . ولكن ماذا ؟ .

أنا على كل حال ، أحمد الله تعالى ، انني لم انشأ في أسرة تضرب ابناءها على الصلاة ، لأن المغاربة لا يعرفون كيف يضربون ابناءهم ، والذين وجدوا لهم آباء يضربونهم على الصلاة هم اليوم ابعد الناس عن العقيدة الصحيحة . هذه الحرية العقائدية في بيتي ساعدتني على أن أدخل في معترك الاختيارات الفكرية دون مسبقات .

اريد ان أؤكد مرة ثانية على ان شخصيتي لا تحتاج الى ترجمة دقيقة . لأنها لا تنسجم مع مقاصد الكتاب . ولكن كل ما يمكن قوله بهذا الصدد هو انني انسان مسلم ، مهتم بالقضية الدينية ، وباحث في الفكر الانساني عموماً ، والفكر الاسلامي على وجه الخصوص ، وهذا هو الطموح الذي ظل يراودني منذ الصبا ، وتجاوزت كل العقبات من أجل تحقيقه .

اصولي اسماعيلية ، فانا من الاسماعيلية الذين يقطنون منطقة على مقربة من مدينة وادزم ، من فخذة تدعى « الحسينيون » تنحدر من اسماعيل بن جعفر الصادق (ع) . لدينا قرابة مع الادارسة . فهم ابناء عمنا ، لأنهم « حسنيون » بينما نحن « حسينيون » . حظيت بولادة ميمونة ، بمدينة « مولاي ادريس » وهي مدينة صغيرة ، تقع قرب « وليلي » مدينة رومانية قديمة . واسم المدينة على اسم « ادريس » وهو بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب (ع) ، حيث جاءها لاجئاً بعد إفلاته من قبضة العباسيين على اثر معركة « فخ » ، ولم يكن المغاربة ليزهدوا في واحد يحمل شرف بيت النبوة ، اذ سرعان ما تنازلوا له عن الحكم فصار حاكماً للمغرب . وله الآن فيها ضريح ـ مثل ما لأبنه ضريح في مدينة « فاس »تُشدُّ اليه الرحالُ ، ويُنظَّمُ حولَه « البربُر » في كل سنةٍ موسماً ملؤه الأهازيج والأفراح .

ومنذ ذلك العهد لم يكن المغرب يحمل نصباً لتراث آل البيت (ع) .

إن « الشمة » العلويةَ وجدت فيه مع الدولة الادريسية ، ومع نفوذ الفاطميين ، وحتى الموحدين .

نعم ، كان المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للبلاد منذ فترة غير قصيرة ولا يزال ، غير ان المذهب المالكي لم يتناقض ـ رغم ذلك ـ مع تقاليد المغاربة في ولائهم للبيت النبوي ، ولم تدخل الوهابيةُ المغربَ إلا في عهود متأخرةٍ جداً . وكما أن الوهابية حاربت المذهب المالكي والمالكية بالمدينة المنورة فقد حاولوا ذلك في المغرب عن طريق الدكتور الهلالي لكن بلا جدوى .

هذا كل ما يمكن قوله ، كي لا يظن البعض انني مجهول ، مدسوس . انني على يقين من ان رفاقي من أهل السنة والجماعة ـ اولئك الذين قضينا معهم فترة ايمانية ـ مخلصون ، ولكنني مدركٌ أن « اللّوثة » الوهابية تمكنت من بعضهم لما انتهى بها الحال الى تهديدنا من خلال نشر التهم والإشاعات الهدامة . وكأنهم لا يزالون على عقلية الظلام الأموي . حيث الاعتقاد بمذهب آل البيت (ع) سيتحول الى جريمة ، يعاقب عليها القانون . وكنت دائماً أودّ لو أنبههم بان القانون لم يوجد في المجتمع المدني ، والدولة الحديثة ليعيقَ حركةَ الفكر ، وحريةَ الاعتقادِ ، ولا أظن انني في مجتمع يوجهه « شريح » القاضي الذي افتى بقتل الامام الحسين (ع) ولا في مجتمع معاوية بن ابي سفيان الذي قال عن أصحاب آل البيت (ع) « اقتلوهم بالظنِة والشبهة » ! .

وأنا أعرف انهم متجاهلون وان كانوا في أغلب الاحوال مغفلين ، ولكن هذا سوف لا يمنعني من أن اقول كلمتي .

أن أكون من شيعة الإمام علي عليه السلام ، وأن أختار لنفسي طريق النبوّة في مسلك آل البيت (ع) ، ليس عيباً ! أنما العيب كل العيب ، في الاّ أكون كذلك بعد أن حصل لي العلم بوجوب هذا .

ففي اللحظات التي ظهرت لي الأحداث على حقيقتها ، قامت ـ فوراً ـ حرب بين عقلي ونفسي ، فالنفس عزّ عليها اقتلاع « ضرس » العقيدة السابقة ، والعقل عزّ عليه ان يتغاضى عن الحقائق الواضحة القطعية ، فإماً أن أتبع طريقاً موروثاً ، بعقلية الفولكلور ، أو أن اسلك سبيل القناعة ونور العقل ؟ .

كان هذا أخطر قرار اتخذت في حياتي ، لكي انتقل بعدها الى رحاب التحديات الفكرية والاجتماعية .

وهذا الكتاب ، سيكون شمعة مهداة لكل من أراد اختراق الانفاق المظلمة . لقد تجنبت اغراقه بالمفاهيم التقنية المعقدة ، توخياً للتبسيط . لأن هدفي هو اولئك « المغفلون » الذين يعانون ما عانيته يوماً ما من بؤس الجواب .

لقد تجنبت قدر الإمكان كل هذا ، حتى لا أكون نخبوياً في هذا المقام . لأنني توصلت الى قناعتي هذه بطريق غير نخبوي ؛ ولدي مع النخبة ، فرصة خاصة ، في المستقبل ان شاء الباري .

والكتاب سيكون جولة سريعة في تجربة تلامس كل محطات الامة الرئيسية . والغاية منه يمكن حصرها في جملة من النقاط :

١ ـ ان المسؤولية تقتضي نصرة الحق مهما كان الثمن وان الساكت عن الحق شيطان أخرس .

٢ ـ لابد من مبادرة شجاعة لكسر حجاب الانغلاق ، لأن هذا الأخير غير مرغوب فيه دينياً ، وان الاسلام جاء ليفتح لنا آفاق السماوات والأرض ، لا ليركسنا في زاوية الانغلاق .

٣ ـ لكي لا يتوهم إخواننا من العامة ، انهم هم وحدهم الموجودون ، ومن أجل معرفة الآخر ، معرفةً ، تنسخ ما علق به من شبهات دعائية ، ومن ثم الاعتراف به كواقع ، له جذوره الراسخة في عمق التاريخ الاسلامي .

٤ ـ إننا ونحن ننشد الوحدة ، يجب أن نكشف الغطاء عن بعضنا البعض ، حتى نتكافأ في معرفة بعضنا البعض ، وحتى نتكافأ في السلب والإيجاب ، وهذا يمنحنا دفعا عمليا للتوحد سياسياً وحضارياً ، وهو المانع الوحيد ضد التآكل المذهبي .

وأخيراً وليس آخراً ، لأنني عرفت كيف كنت واي مسير اخترت ، وأدركت مدى قيمة الحقيقة في حسبان الباحثين عنها ، وأدركت مدى الجهد الذي بذلته لخلع جبة التقليد عني ، واختراق جدار سميك ، سميك . . من الضلالات والأعراف والتقليد ولكي أذوق طعم تجربتي ، يجب أن أقدم هذه المعونة الإنسانية

لمن أراد أن يذكر .

من أجل الحق

الحق وحده

وما توفيقي الاّ بالله ! . .

ادريس الحسيني

# مقدمة المؤلف للطبعة الثالثة

في البداية أود التقدم بالشكر لدار النخيل لمدى أهتمامها بهذا المؤلف ، خصوصاً وقد أزمعت على طبعه للمرة الثالثة . وقامت بطبع كتابي الآخر « الخلافة المغتصبة » وهي تزمع طبعه مرة آخرى ، ولاادري كيف أعبر عن شكري العميق لهذه المؤسسة الثقافية التي آلت على نفسها الدفاع عن مذهب أهل البيت (ع) أمام هجوم المغرضين وحملاتهم الشرسة ضد الاسلام وأئمة أهل البيت (ع) ، حيث تتحمل الدار عبء كبيراً في انارة شمعة في الظلام الدامس الذي يلف الامة الاسلامية اليوم . وفي مقابل هذه الجهود المضنية التي تتحملها الدار ،لايسعنا الا ان ندعو للقائمين عليها بدوام التوفيق والثواب الجزيل من رب العالمين لما يقومون به من عمل صالح يسجل في صحيفة أعمالهم ويخلد في التاريخ لهذه الدار التي سلكت هذا الدرب الوعر والذي يحتاج الى جرأة وشجاعة وصبر ، جرأة وشجاعة مقابل أعداء أهل البيت (ع) الذين يحاولون تشويه صورة الشيعة والتشيع ، وصبر على البلاء والمحن من قبل الاصحاب والاصدقاء الذين لايفهمون قيمة هذه الاعمال الجريئة والعظيمة في آن واحد .

ولعلني في هذه المقدمة الثانية ساغتنم الفرصة لأستدراك الكثير مما تجنبنا تبيانه أو نسينا التعرض له في الطبعة الاولى والثانية . ومحاولة وضع وضبط غالبية مصادر الروايات والحوادث والتي تغاضينا عنها في الطبعتين السابقتين ، ويعود الفضل الكبير في انجاز هذه المهمة الى قسم التحقيق في الدار الذي ساعدني كثيراً في اكمال هذه المهمة الشاقة ، كما ألفيتها فرصة لتوضيح الكثير من الغموض والأشكالات

التي أثارها الكتاب وأبداها الكثير من القراء ، والأخوة من المشايخ والعلماء . لقد تحدث الكثير منهم عن جانب الحدية التي تميز بها الكتاب ، وعن الطابع الهجومي الذي واكبه . ولعمري أنه لموقف صعب جداً بالنسبة لي في أن أقنع الجميع وأرضيهم . ذلك بان الأمر يتعلق بتجربة شخصية فيها من الخصوصيات ما يند عن الأنجلاء ويمتنع عن الأفصاح .

أن الأمر ـ بادىء ذي بدء ـ يتعلق برحلة شاقة ، مضنية . بصراع طويل الأمد . ومعلوم بان الرحلات الكبرى والصراعات الطويلة تترك آثارها على الشخص مهما حاول التظاهر بالحياد . ولعلي أعرف أن ثمة أسباباً رئيسية عززتها خلفيات معينة هي التي تجعل صراحتي ثقيلة على البعض ومحرجة لي . وسوف أرجعها الى ثلاث نقاط أساسية :

**١ ـ خطاب الحياد والموضوعية .**

هذه الخلفية حرية بأن تجعل الكثير يمتعض من صراحتي . فالذين يطلبوه مني الكتابة بهذه الروح في موضوع كهذا ، ربما على جانب كبير من الخطأ في فهم ظروفي النفسية والمعرفية . ذلك أنني ارى نفسي داخل هذه الدائرة ومحكوما بأجواءها ، بحيث لا يمكنني أصطناع الحياد والموضوعية ، اللهم إلا من باب التظاهر الكاذب .

أنني لست أمام ذرة من اليورانيوم أحاول السيطرة عليها بروح حيادية ، موضوعية أذ الحياد هنا ضمان أمان . لكن هذه الحيادية في مقام تحليل العقائد تبقى موقفا سلبياً لا معنى له على الأطلاق . إنني خرجت من دائرة الى أخرى . . وأنا مضطر الى أن أخرج عن حيادي لأنني محكوم بهذا التحول وبذاك الأنتقال . أما الموضوعية فإنها لا تعني عندي في هذا المقام سوى فصل الذات عن موضوع الدراسة وعليه فلست في هذا الكتاب ببعيد عن موضوع الدراسة ، بل أنا أحيانا موضوعها ، لأن الأنتقال جرى علي ، وأنا الذي واجهته بكل ملكاتي . فانا بالتالي خارج عن معادلة الموضوعي واللاموضوعي . أنني متمرد على العامة وتمردي هذا نتيجة لتربيتهم إيّاي .

**٢ ـ خطاب الوحدة :**

كتابي هذا ليس ضد الوحـدة الإسلامية . ومن رأى ذلك فهو مخطىء لا محالة . أنني من جهتي لم أطالب الأخوة في مذهب السنة والجماعة بأن يحرقوا كل كتبهم التي تعرضت بالتكفير والتفسيق لعلماء وأصحاب الأئمة هذا المذهب . ولا أحاكمهم على ما هي عليه براجهم وجرائدهم ودعاياتهم ضد مدرسة أهل البيت (ع) . . أنما هو قول بقول ، ونقد بنقد وتجريح بتجريح . أريد كما سبق القول ، أن نكشف الغطاء عن بعضها البعض ، لتتكشف سلبيات الجميع ، لتكون الوحدة ناضجة واعية . أن الوحدة التي تدعونا الى السكوت وقتل العقل ومحاصرة الحقيقة هي وحدة على جانب كبير من الغباء . لماذا نحاول إلغاء تراث ضخم ، وتاريخ عملاق ، ونقف منه موقفاً صلبا لا يترك له فرصة للتعبير عن نفسه . إن الوحدة يجب أن تختزل هذا التناقض والأختلاف . ثم أنني أحسب نفسي خارج هذه المنظومة الوحدوية . لأنني أنسان يعيش قلق الأنتقال . أنا من أهل السنة والجماعة أصلا ، وفي كنفهم ترعرعت ، وأستنشقت كمياءهم . . أعرفهم ، بل أنني نموذج منهم تجاوزت نفسي لكي أدخل في رحاب الحق بكل قوة ويقين .

٣ ـ خطاب الكتابة الجديدة :

يعاتبني الكثير عن عدم أخذي بأسلوب الكتابة الحديثة الذي يعتمد الهدوء ويتجنب عنف الكلمات . ومن جهتي ارى ذلك أسلوباً آخر وليس الأسلوب الأمثل .

ليس هناك في حقيقة الأمر محدد لاسلوب الكتابة . ففي عصر القراءة وخطاب النص ، يكون المهم هو القراءة ، واستكشاف الغياب . وتلك هي وظيفة المفكك والمحلل الماهر . وعندما يكون الكاتب منتميا لقضية ما ، ويتحرك داخل دائرة معينة ، فان نمط الكتابة يتميز عنده . فالكتابة هي قبل كل شيء ذوق ، وفن لابد لها من ساحة حرة للممارسة . أنا أكتب بهذا النمط ، وأعتقد أنه النمط السليم لمفهوم الكتابة . الكتابة هي منعكس ومجلي لمختلف « الغيابات » و « المكبوتات » التاريخية . وفي أعتقادي هذا هو النوع من الكتابة الذي لا يترك امكاناً لقراءات متعبة مملّة تبحث خلف السطور والكلمات وفي باطن العبادات . أريد لهذه التقاليد

ان تخترق عالم كتابنا ، وبأن نكون صرحاء في أدب ، وفرسان في مسؤولية وذلك هو مبدأ القوة ، قوة الحق المبين ، وما توفيق الى الله .

هـ . أدريس ( الحسيني ) .

٢٠ / ٦ / ١٩٩٥ م .

# لماذا الرجوع الى التاريخ ؟

ليس ثمة شيء في ديننا ، إلا وله علاقة بالتاريخ ، وما نملكه اليوم من عقائد وأحكام وثقافات اسلامية ، كلها جاءتنا عن طريق الرواية ، فحري بنا ، أن يكون التاريخ عندنا ، هو ( أمّ العلوم كلها ) .

بعضهم بلغ من الحكمة شأواً بعيدا ، فيقول : « لا داعي للبحث عن هذه القضايا القديمة في التاريخ ، لأنها باعثة على الفتنة » .

لقد تحول البحث عن الحقيقة ، فتنة في قاموس هذا الصنف من الناس ، وكأنهم يرون أن البقاء على التمزق الباطني ، حيث تتشوش الحقيقة ، وتغيب ، أفضل من الإفصاح عن الحق الذي من أجله أُنزل الوحي ، وتحركت قافلة الرسل والأنبياء ، وكأن مهمة الدين هو أن يأتي بالغموض ، وكأن الله عزوجل أراد أن يبلبل الحقائق ، ويقمعها بحكمة : « لاتبحث في التاريخ... مثلما بلبل لغة الانسان في اسطورة بابل » .

انني ادركت منذ البداية ـ ايضاً ـ أن الحقيقة أغلى ، وأنفس ، من الرجال دون استثناء ، وانه لابد لي أن أوطن نفسي وأهيئها للطوارىء في معترك التنقيب عن الحقائق الضائعة ، والفضائح الغابرة .

كنت واضعاً نصب عيني احتمال الفراق ، مع مجموعة شخصيات كانوا يجرون مني مجرى الدم ، وكنت واعياً منذ البداية ، ومدركاً لأهداف الرسالة الاسلامية ، التي جاءت لتعلم الناس قيم السماء ، لاقيم الأرض .

فماذا تكون قيمة ابي هريرة ـ مثلاً ـ في ميزان الدين ، حتى نعطل البحث ـ بسبب التقديس ـ عن الحقيقة التأريخية ، وفي سبيل التغطية على فضائحها ، نلجأ لتزوير الحقائق كلها ، وهل « أبو هريرة » أصل من أصول العقيدة ، حتى يحرم عليَّ محاسبته تأريخياً ، والآعتراف بأفعاله القباح ؟! أو ليس من الآفك أن نسكت عن فضائحه ، فتختلط بحقائق الدين ، ليكون الاسلام ضحية كل تلك المفاسد ؟ ! .

ان أبا هريرة ـ مثلاً ـ ليس شخصية قديمة نستغني عن كشف حقيقتها ، لأنه حاضر فينا ، وهو « كمبيوتر » معاوية الخاص بالرواية ، مع انه آخر من أسلم ، ولم يعش مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طويلاً . فمن هو هذا الذي وضع نفسه أو وضعوه هم ، راوية لسنة رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في زمن الإمام علي (ع) ؟ . وإن امةً تميلُ الى ابي هريرة وتقّوي مروياته ، وتترك الإمام علي (ع) وتضعف احاديثه ، هي في حق التاريخ وحق الإنسانية ، اقبح أمة يمكن الانتساب اليها ، أليس هذا هو واقعنا ؟ ! اننا لم نعد نجد الإمام علي (ع) إلاّ في الكتابات المسيحية[٣] والاستشراقية ، وقَلّ أن تجد من الإمة من انصف هذا العملاق المجهول . وعندما كتب النسائي وهو أحد شيوخ الحديث المشهورين لدى السنة كتاباً أسماه « خصائص الإمام علي » تلقى بذلك عقاباً شديدا وأُخضع للسياط ، واتهمه بعد ذلك « ابن تيمية » بالتشيع ، وصنفه هو وابن عبد البر في الذين تشيعوا بالحديث !! ؟ .

ان التعامل مع التاريخ ، هو تعامل مع مشروع ماضوي منتظم في نظرية قائمة . والنظرية هذه ـ ومع امتداد الزمن ـ اكتسبت أنياباً حادة ، تُمارس بها تهويلا على الباحث ؛ وبهذه الأنياب بقي التاريخ لغزا الى ان كسب قدسيته المطلقة .

والنظرية التأريخية المتوفرة في كتاباتنا تحتاج الى عقلية مسؤولة وجبارة ، مسؤولة حتى لا تزيغ في منعرجات الأحداث وتقف بعيداً عن الحقيقة ، وجبارة ، لأنها تحتاج الى أليات الحفر والتفكير التأريخي ؛ ولكي نكسر أنياب النظرية التأريخية

---

(٣) ـ أقصد ما كتبه نصري سلهب ( في خطى علي ٤٠ ) وجورج جورداق ( الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ) .

القائمة نحتاج الى معاول هدم علمية .

لقد تحول التاريخ الإسلامي في اللاشعور الفكري الى « قطعة » معصومة من التاريخ . علماً ان هذه النظرة مستحيلة في منطق التاريخ ، ومنطق الدين نفسه ، والسياسة التي استطاعت ان توظف الثقافة القشرية للدين في سبيل التغطية الايديولوجية للأحداث التاريخية ، ظلت مكشوفة تاريخياً بحكم أن المؤرخين لها لم يملكوا قدرة مطلقة على تجيير حقائق التاريخ كلها لصالح السياسات المتواترة في تاريخ السلطة الإسلامية .

وكانت لهذا التاريخ « المؤدلج » بمفاهيم التيار الأموي ، قدرةٌ على التحكم في مسار الفكر والثقافة الإسلامية ايضا . وتوظيف الأرقام الكبرى والأسماء المرموقة في الدين الإسلامي ، كلّه كان تكتيكاً أموياً لستر التوجه « الهدّام » للبلاط الاموي ، والذي يرى فيه بعضُ المؤرخين انه حكم وفق المنطق الأموي البحت . هذا التيار كان لايجد بُدّا من ان يتصرف في الجهاز الديني لأغراض خاصة ، وذلك انسجاماً مع الواقع الإسلامي يومها ، الذي كان الدين أحد مكوناته الإجتماعية والحضارية .

هذه بعض الخفايا التي يوصلنا إليها « التاريخ » وبدونها لا نستطيع معرفة سوى ما يقدم إلينا على طبق الايديولوجيا . إن طرح سؤال من قبيل : لماذا نبحث في التاريخ ؟ ، هو عين التخلف الفكري ، لأنه لم يعد يوجد من يشك في أهمية التاريخ ، ومن القرآن تعلمت الامة قيمة النظر في التاريخ ، وللتاريخ سننه وقوانينه التي تجري على كل البشر[٤] .

يقول تعالى : ﴿ **كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا** ﴾[٥] .

واذا كان القرآن الكريم مصدراً لتعريف الناس بماضي الأمم ، فمن ياترى يعرفنا بتاريخ أمتنا نحن ؟ أليس هو القرآن والتاريخ المحرران من كل قمع ايديولوجي ، وكل استبداد سياسي ؟ ! .

---

(٤) ـ يقول السيد محمد تقي المدرسي : ان فهم التاريخ ضرورة لفهم الشريعة ( التاريخ الإسلامي .. دروس وعبر ( ص ١٣ ) .

(٥) ـ سورة طه ( آية : ٩٩ ) .



# لماذا الحديث عن الشيعة والسنّة ؟

الحديث عن « الشيعة والسنة » هو حديث عن الإسلام في واقعه التاريخي ، فالذين لم يفهموا الشيعة ، وأغلقوا نوافذ الجهل على انفسهم وأجيالهم ، واكتفوا بمذاهبهم ، لا يمكنهم ادراك قيمة « الحسم » الاعتقادي . وان التغييب والتجهيل المستمرَّيْن ، هما اللذان يولدان الفرقة ، وأن الوحدة لا يمكنها ان تأتي من دون فهم وادراك ، للآخر .

ان المسلك « المذهبي » الذي سيطر على وعي الامة ، هو الذي سلبها قابلية التوحد والتعايش ، وهو مسلك نرفضه اطلاقاً ، ولقد كنت أظن ان الشيعة هم ايضاً ، يحجبون عامتهم عن افكار واعتقادات أهل السنة والجماعة ، ولكنني وجدت عكس ما كنت اتصور . وفي مكتبات الشيعة وحوزاتهم كتب لأهل السنة والجماعة ومراجعهم وكتب استدلالاتهم ، بل حتى تلك الكتابات الدعائية السخيفة والتشهيرية الوهابية ، وهي في متناول أصغر طالب في حوزاتهم ، ولكنني لم أعرف مؤسسة سنية احتوت على كتاب من كتب الشيعة ، وهذا مسلك غير متكافىء في التعاطي مع المذاهب الأخرى .

والصورة التي نقلها الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء النجفي في « أصل الشيعة وأصولها » عن التشهيرات الغبية ضد الشيعة ليست باطلة . فأنا السني المنشأ ، لم أكن أجد في بيئتنا ما يعرّف بالشيعة تعريفاً حقيقياً ، وكل مذهب من مذاهب الدنيا ، نستطيع الاحاطة به في بيئتنا سوى « الشيعة » فان حصار الوهابية

عليهم اقوى من « جدار برلين » . نعم ، قد كنا نُعَلَّم ان الشيعة ، اصحاب طريقة غريبة عن كل البشر ، وان اشكالهم ربما لها ـ أيضاً ـ بعض الخصوصيات ، وأن يكون تصور الناس للشيعة على انهم اصحاب أذناب البقر ، كما أشار آل كاشف الغطاء ، ليس مبالغة منه ، وحال الامة كذلك ، لقد تعجب الشامي ، وهو يسمع ان علياً (ع) قُتل بالمحراب ، فقال : « أو عليٌّ يصلي » ؟ ! .

وقد ذكر صاحب العقد الفريد في باب كتاب الياقوتة في العلم والأدب : « قال ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : اخبرني رجل من رؤساء التجار قال : كان معنا في السفينة شيخ شرس الأخلاق ، طويل الإطراق ، وكان اذا ذُكِرَ له الشيعة غضب وأربدَّ وجهه وزوى من حاجبيه ، فقلت له يوماً : يرحمك الله ، ما الذي تكرهه من الشيعة ، فاني رأيتك اذا ذكروا غضبت وقبضت ؟ قال : ما أكره منهم إلا هذه الشين في أوّل اسمهم ، فاني لم أجدها قط إلا في كل شرّ وشؤم وشيطان وشغب وشقاء وشنار وشرر وشين وشوك وشكوى وشهوة وشتم وشح .

قال أبو عثمان : فما ثبت لشيعيّ بعدها قائمة » .

هكذا كان يفهم أعداء الشيعة الشيعة . وذلك لأنهم يجهلون حقيقتهم وقديماً قال الإمام علي (ع) « الإنسان عدو ما جهل » .

واذا كرّسنا واقع التجهيل والتغييب ، فلربما ـ لا سمح الله ـ ورد من يرى في « السين » السنية : سوء ، وسم ، وسؤر ، وسحاق ، وسقم ، وسخط ، وسب ، وسقط ، وسخب ، وسرقة ، و . . و . . . وهذا التجهيل ، أمتد اليوم ليأخذ أشكالاً مختلفة كلها تنظر الى المسألة الشيعية بمنظار أسود .

أقول : ان الحديث عن « السنة والشيعة » ضرورة ، لأن فيه تفويتاً للفرصة على تجار الفرقة والطائفية ، ليعرف بعضنا بعضا بكل وضوح وجلاء .

لقد رأيت بأم عيني حركة التشهير والتجهيل التي تبعد الناس عن الوعي الصحيح . ومن المضحكات التي لم أكن أعهدها عند علماء الأديان السماوية . ان يقوم ( تقي الدين الهلالي ) في آخر أيّامه ، بإعادة توزيع منشوره القديم « مناظرة » واعطائه للأميين الذين يحيطون به كحواريّي المسيح (ع) . لقد جاءني البعض بهذا

المنشور الساذج ، وهم يتوخون هدايتي ، كانوا يتصورون بانني مفتون أو قد حلّ بي جنون . وما أن اطلعت عليه حتى مزقت حجب الصمت ، ورحت أفضح حقائق الكاتب والكتاب . كان هناك واحد من الشيوخ ممن تخرج على يدي « تقي الدين الهلالي » وربما يروي عنه الحديث . سألته عن مصلحة الإسلام وراء نشر مثل هذه المنشورات .

فأجاب : انها خدمة الاسلام .

قلت له : شيخنا ، الا ترى ان هذا منكر ؟ ! .

قال : أعوذ بالله ، اتق الله ، انه تقي الدين الهلالي وما أدراك .

كنت أعلم ان هذا الشيخ ، أكثر « أُمية » من جدتي ، ولكنني حاولت اقناعه ، بان يجد له صناعة اخرى ، غير الفتنة ! .

نعم ، ان تقي الدين الهلالي جاء فتّاناً ولم يأت ليوحد الصفوف ، وهو أكبر مروّج للوهابية في المغرب . وكان واجهة سعودية في البلد ، ومن انحاز الى صفه من الشباب أعطاه تزكية ، وبعثه الى « جدة » .

في يوم من الإيام ـ قبيل موته ـ رحت أزوره ، وكان قد خرج من المستشفى للتو ، وكان في مرضه الأخير ، وبينما أنا واقف قدّام الباب ، اذا بصديق لي يخرج من البيت وقد بدت على وجهه حمرة ، ولما سألته عن السبب قال لي : لقد ندمت على هذه الزيارة ، ان الشيخ ، لا يزال مستمراً في تكفيره للعلماء المسلمين ، لقد كفّر مجموعة علماء وخطباء ، وكان من بين اولئك الذين اصابتهم شرارة التكفير ، الشيخ عبد الحميد كشك ، لأنه يكثر من مناداة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في خطاباته ، والرسول ميّت ، وهذا شرك صريح ![6] .

وفي نفس المناسبة ، قام بتوزيع منشوراته الفتّانة ! .

كان الشيخ تقي الدين الهلالي قد أجرى حواراً أو مناظرة ، مع بعض خطباء الشيعة ـ من مستوىً معين ـ وانني لم أعرف من هم الشيعة الذين ناظرهم ، ولم

---

(٦) ـ أعتقد أن الفهم الوهابي للتوحيد ، ليس إلا تصوراً نجدياً ، بدويا . وبهذا التصور جعلوا من الإسلام ديناً راكداً ، جامداً ، لا يتعدى المسواك ، والمسك ، واللحى ، والتقصير و . . .

أكن أدري ما السبب الذي جعل تقي الدين الهلالي يستنكف عن مناظرة رجال الشيعة الكبار ، مثل السيد الحكيم ، والسيد الخوئي ، والسيد الصدر ، والسيد محمد الشيرازي ، وعشرات العلماء والمراجع المعاصرين له في العراق ولبنان وقم . . . وعجبت كيف راح يبحث في القرى عن الأميين ، وهؤلاء موجودون طوع البنان . وكيف لا يستحيي من الله ولا من التاريخ ان يقول إنهم من كبار علماء الشيعة ، في زمن المراجع الكبار . أليس هذا هو التجهيل ؟ انهم يكتبون للأميين والمغفلين ! لذلك تراهم لا يتورعون عن التلفيق .

لقد أهدوني هذه المناظرة بين « عالم » يخدم آل سعود ، وشيعيين مجهولين ، لا يعرفهما أحد ، وأهديتهم كتاب « المراجعات » الأضخم حجماً ، والأضبط مضموناً ، وهو حوار موضوعي ومتكافىء وهادىء بين عالمين معروفين للجميع . الأول ، شيعي عاملي ، خريج النجف الأشرف هو السيد شرف الدين الموسوي العاملي ، والآخر شيخ للأزهر هو الشيخ سليم البشري ، وشتان ، شتان بين الهديتين[7] .

لهذا ، كان الحديث عن « الشيعة والسنة » ضرورة تقتضيها وأدالفتنة ورفع الجهل .

لقد انجلت تلك الصورة التي ورثتها عن « الشيعة » وحل محلها المفهوم الموضوعي الذي يتأسس على العمق العلمي المتوفر في الكتابات التأريخية ، والذين لم يتحرروا من أصدقائي من تلك النظرة هم اولئك الذين اكتفوا بالموروث ، وسحقاً للموروث .

بل وانهم اليوم لهاربون من السؤال ، ويتجاهلون الموضوع ، حتى لا يتحملوا مسؤولية البحث ، ونتائجه ! .

ويجب أن يجرى الحديث البنّاء حول هذه المسألة ، لأسباب أُخرى لا تحصى . فبعد أحداث مكة المكرمة ، التي راح ضحيتها مسلمون كثر ، اهتز الاعلام العربي الرسمي وغير الرسمي ، وتحول الى موجة موحدة ذات ايقاع واحد ، موضوعها

---

(٧) ـ يعد كتاب المراجعات نموذج متقدم للحوار الموضوعي في المجال المذهبي .

الرئيسي : « الشيعة والتشيع » . ويومها كانت « الجدبة » في المغرب غير بسيطة . قام المستر « مصطفى العلوي » بحملة مسعورة ، ومدفوعة الثمن ايضاً ، واتهم الشيعة فيها بألوان من التهم التقليدية ، لم أجد لها مصدقات في واقع التراث الشيعي . وكنت على علم راسخ ، بأن مصطفى العلوي ، هذا ، لم يمسك كتاباً واحداً من امهات الكتب الشيعية . ولم تمض السنوات ، حتى يعلن « العلوي المدغري » وزير الاوقاف ، في الدروس الرمضانية ، عن الحقيقة ، ويُكذِّب من اتهموا الشيعة بذلك . وخسىء « مصطفى العلوي » .

وفي هذه الأثناء ، جاء فخامة « ابو بكر الجزائري » زائراً للمغرب ، يحمل في حقيبته أوراقاً وهابية جديدة ، كان كما بدا لنا مبعوثاً رسمياً من جهة هو ساكنها . وتواجد في تلك الأثناء في أحد بيوت الأصدقاء . وكانت كلمته تتمة لما سبق من « هرج ومرج » حول « الشيعة والتشيع » ومحاولاً رسم صورة كاذبة وتشهيرية ، ضد الشيعة ، مستغلاً بذلك جهل الناس بحقيقة التاريخ ، ولكنه ضل الطريق هذه المرة .

فقام أحد الأصدقاء ، وقال له : عفوا هلا حدثتنا عن « الماسونية » ونشاطها في العالم الاسلامي ؟[٨] .

لهذا التجهيل ، ولهذا التشهير ، كان « الحديث عن الشيعة والسنة » ضرورة ، لتفويت الفرصة على الصيادين في الماء العكر ، وبذلك يمكننا أن نمنح التقاعد لمثل تلك الشخصيات التي دأبت على طلب الرزق بوظيفة التفريق والتشتيت .

---

(٨) ـ وكان هذا الشاب للأسف من أهل السنة والجماعة مما أحرج ابا بكر الجزائري .

هوامش مدخل .

# مدخل

من هم الشيعة ؟ ومن هم السنة ؟ .

إن التسمية التي اطلقت على الفريقين ، ليست وفيّة للحقيقة . وهي أسماء سموها من عند أنفسهم ، نزّاعة للتشويه والتضليل ، أكثر من حرصها على الموضوعية . واستخدام الاسمين في الأبعاد التضليلية ، كان من دأب التيار الأُموي . فالنقطة الحساسة التي توحي بها المفارقة بين الاسمين ، هو أن « سنة » الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لها شَمّتُها في عنوان « السنة والجماعة » ، في الوقت الذي لا رائحة لها في عنوان « مذهب الشيعة » . هذا يعني ان مذهب الشيعة يقف مقابلا لمذهب « السنة والجماعة » بما هي الممثل الوحيد لسنة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ! .

وهذا التشويه ، والتضليل قد آتى أُكله على امتداد الأيام التي تلت عصور المحنة ، فلقد أصبح « الشيعة » يفتقدون للمسوغات النفسية والاعلامية في ذهن الجمهور .

والسؤال الصميمي هنا : من هم الشيعة ، ومن هم السنة ؟ .

# السنة ..

السنة في اللغة ، تعني الطريقة ، والمنهاج ، وسنة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) معناها طريقته . وفي لسان العرب لابن منظور : السنة ، والتسنن تعني الطريقة المحمودة المستقيمة ، ولذلك قيل : فلان من أهل السنة ، بمعنى ، انه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة ، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريقة ، ويقال للخط الأسود على متن الحمار : سنة .

واصطلاحاً : تعني كلَّ ما صدر عن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من قولٍ وفعلٍ وتقريرٍ . ويسمي السنة مذهبهم « أهل السنة والجماعة » ويقصدون بذلك انهم اصحاب الطريقة المحمودة[9] . واتباع الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، والجماعة ، وغيرهم لا يسلك طريق النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهي الجماعة التي قال عنها الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) « يد الله مع الجماعة » .

---

(٩) ـ هذا المعنى في الواقع جديد على هذا العنوان . لأنه تاريخياً كان له هدف معين ومعنى آخر ، كما سنوضح ! .

# الشيعة

والشيعة لغة ، هم الأتباع والأنصار . وفي لسان العرب « هم القوم الذين يجتمعون على الأمر ، وكلّ قوم اجتمعوا على أمر ، فهم شيعة . وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيعٌ .

وفي القرآن الكريم : ﴿ وان من شيعته لإبراهيم ﴾[10] .

وشايعه تأتي بمعنى والاه ، من التولي .

يقول الكميت :

ومـــاليَ إلا آل احمـــد شيعـــة ومالي إلا مذهب الحق مذهبُ .

و « الشيعة » اصطلاحاً يراد بهم أتباع وأنصار آل البيت (ع) ، وهم الذين ناصروهم في كل محنهم ، وسلكوا سبيلهم ، ووالوهم .

يقول ابن خلدون[11] : ( أعلم ان الشيعة لغة هم الصحب والاتباع ، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على اتباع علي وبنيه « رضي الله عنهم » ) .

---

(١٠) ـ سورة الصافات ( آية : ٨٣ ) .

(١١) ـ تاريخ ابن خلدون ، الفصل السابع والعشرون : في مذهب الشيعة في حكم الإمامة ( ص ٣٤٨ ) .

والشيعة حسب تعريف علمائهم ، هم الذين يسلكون سنة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مأخوذةً من عترته الطاهرة .

بيد ان الملابسان السياسية والأيديولوجية التي رافقت حركة الفرقتين أضفت على القضية مجموعة من الشبهات لا تحصى ولا تعد ، وبالتالي يكون من الضروري التعرض الى المصطلحين بشكل أعمق يستمد مرتكزاته من عمق التاريخ الاسلامي ذاته .

ذلك لأن أعداء الشيعة طالما تحاملوا على الشيعة ، ملتمسين كل سلبية غريبة وإلصاقها بهم . وفي ذلك يقول طه حسين[١٢] :

« وما أكثر ما شنع خصوم الشيعة على الشيعة » .

---

(١٢) ـ اسلاميات ـ طه حسين ـ ( ص ٧٦١ ) .

# ثم ماذا ؟

اني مازلت اتتبع تاريخ المذاهب الاسلامية ، حتى انتهيت الى ان مذهب آل البيت (ع) هو أول مذهب في الإسلام . وهذا لا يعني انهم انفردوا عن غيرهم بطريقة ابتدعوها ، ولكنهم احتفظوا بموقعهم الأصيل الذي عرفوا به ، هذا في الوقت الذي شردت فيه جميع الملل والنحل ، وتفرقت تبتغي الحق عند غير أهله .

يقول السيد محسن الأمين في الأعيان[١٣] : « فما يظهر من فهرست ابن النديم من أن تسمية اتباع علي (ع) باسم الشيعة كان ابتداؤه من يوم الجمل ليس بصواب ، بل تسميتهم بذلك من زمن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال ابن النديم في الفهرست ما لفظه : ذكر السبب في تسمية الشيعة بهذا الاسم . قال محمد بن اسحاق : لما خالف طلحة والزبير على علي وأبيا إلاّ الطلب بدم عثمان بن عفان فصدهما علي (ع) ليقاتلهما حتى يفيئا الى أمر الله جل أسمه ، فسمي من أتبعه على ذلك الشيعة ، فكان يقول شيعتي » .

فالتشيع ليس بدعة في تاريخ الاسلام . ولطالما حاول البعض الصاقه بالعهود المتأخرة . بل لقد بلغت القسوة ببعضهم فربطه « بالفرس » .

وكان لهذه الدعايات أثرٌ عليَّ في البداية ، مع انني لم استسلم لها بسهولة ، فلم أكن سلسا لتقبل كل فكرة بدون اختيار .

---

(١٣) ـ أعيان الشيعة ـ السيد محسن الأمين ( ١ / ١٩ ) .

واستقرت قناعتي في النهاية بعد ان تأكدت من تلك الحبكات الخرافية ، ففي « فجر الاسلام » لأحمد أمين ـ وهو من أكبر المناصبين للشيعة ـ يقول : « كانت البذرة الأولى للشيعة ، الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ان أهل بيته أولى الناس ان يخلفوه »[١٤] .

وفي دحض فكرة « فارسية » التشيع ، قال : « والذي أرى ـ كما يدلنا التاريخ ـ ان التشيع لعلي بدأ قبل دخول الفرس في الاسلام ، ولكن بمعنى ساذج ، وهو ان علياً أولى من غيره من وجهتين ، كفايته الشخصية وقرابته للنبي »[١٥] .

فالذين لا يعلمون ـ من اخواننا السنة ـ يجب ان يدركوا ، كما أدركت ـ منذ فتحت قلبي للحقيقة ـ أن أغلب علمائهم من « فارس » .

انني ما زلت اقتفي آثار علماء السنة الكبار ، في البلاغة والنحو والفقه والحديث والتصوف . . فأجد الأغلبية الغالبة منهم ، فُرسا . ومنهم : الترمذي والنسائي وابن ما جة القزويني والإمام الرازي والقاضي البيضاوي وابو زرعه الرازي ، والفيروز آبادي ( صاحب القاموس المحيط ) والزمخشري والإمام فخرالدين الرازي ، والكازروني وابو القاسم البلخي والقفال المروزي والتفتازاني والراغب الاصفهاني والبيهقي والتبريزي الخطيب ، والجرجاني وأبو حامد الغزالي . . وغيرهم مما يعجز عن عدّهم اللسانُ ويضيق عنهم المقام . فأعلام « السنة والجماعة » الفطاحل ، وعلماؤهم النحارير ومحدثوهم النقاريس ، كانوا من بلاد « فارس » .

والتشيع أُدخل الى فارس ، من بلاد العرب ، وساهم في نشر التشيع في بلاد فارس علماء من العراق ، وجبل عامل والاحساء ، والمدينة المنورة .

ليست التسمية ـ اذاً ـ هي موضوع الاشكال ، وانما الواقع الفعلي للمذهبين هو موضوع النقاش . اذ اننا ونحن ننظر في سنة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) القولية والفعلية والتقريرية . سوف نتبين أي الفريقين أقرب اليها .

---

(١٤) ـ فجر الإسلام ( ٣٦٦ ) .

(١٥) ـ نفس المصدر ( ٢٧٧ ) .

ان الشيعة لم يكونوا يوماً مبتدعة ، بل ان مذهبهم قائم في الأساس على « النص » . واذا ثبت ان الاسلام الحقيقي بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) تمثل في علي (ع) فان التشيع لعلي (ع) هو التعبير المرحلي عن التشيع لمحمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بالثبات على تعاليمه وتوصياته في حق علي (ع) والذي هو الاسلام .

فإسم « السنة » أتى كاستراق للفرصة لمحاصرة « الشيعة » اصطلاحيا ، لأن التيار السائد يومها لم يكن له من الحجة سوى اللعب على وتر المفاهيم القشرية . وكان اليوم الذي تحولت فيه الخلافة الى ملك عضود ، هو عام الجماعة ، ومنها جاء « السنة والجماعة » ! .

كان همي أن أبحث عن الاسلام الحق ، فأنا لم أكن أبحث عن التمذهب . وما أن دخلت في لجج التاريخ ، حتى تبين لي أن الباحث عن اللامذهبية ، كالباحث عن السراب . ان الاسلام ، تفرق أهله الى فرق لا تحصى ، وما بقي من اسلام حق ، بدا للمتمذهبين ، مذهباً ، فأي المذاهب اذاً تمثل الاسلام الصحيح ؟ او حتى ما يقارب ٩٥ في المائة من الاسلام الصحيح ؟ .

ومن يضمن لي يومها ان هذه الفرقة أو تلك ، هي الأقرب الى « الحقيقة » وأنا في خضم المعترك ابحث عن خشبة نجاة ؟ ! ولكنني لم أشك في القرآن الكريم . ففيه عثرت على مقومات البحث عن الحقيقة . تعلمت أن من شروط البحث عن الحقيقة ، عدم الاستماع الى القول الواحد ، وإلى الفرقة الواحدة . ولكن **﴿ الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ﴾**[١٦] .

كما رأيت ان الله ، يمدح القلة ويذم الكثرة ، حسب معايير الحق والباطل . . حيث يقول **﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾**[١٧] .

كما يقول ذامّا الكثرة الجاهلة **﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾**[١٨] .

ان قلبي بدأ ينفتح ، شيئاً فشيئاً على التاريخ ، والشيعة الآن اصبحوا جزءاً

---

(١٦) ـ سورة الزمر ( آية : ١٨ ) .
(١٧) ـ سورة سبأ ( آية : ١٣ ) .
(١٨) ـ سورة الحجرات ( آية : ٤ ) .

من الاسلام ، وهذا ما توصلت اليه حتى تلك اللحظات . لقد كان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أول من تكلم في الشيعة ، ووصفهم للصحابة . وأول من ربط التشيع بالإمام علي (ع) ، وهو يريد بذلك إثارة المستقبل في ذهن الصحابة ، ويلفت المسلمين الى قيمة علي (ع) في الآن وفي المستقبل . ليكونوا في اجوائه حين يقع ما يقع . وإلّا ماذا يعني أن يقول : « رحم الله علياً ، اللهم أدر الحق معه حيث دار »[19] ؟

أخرج ابن عساكر[20] عن جابر بن عبدالله قال : كنا عند النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فاقبل علي (ع) فقال النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : « والذي نفسي بيده ، ان هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة . ونزلت ﴿ **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية** ﴾[21] .

وأخرج ابن مردويه عن علي (ع) قال : « قال لي رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية** ﴾ ؟ ، هم أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض اذا جاءت الامم للحساب تدعون غرّاً محجلين »[22] .

وروى ابن حجر في الصواعق المحرقة ، وهو من أكبر الناقمين على الشيعة عن ابن عباس انه قال ، لما انزل الله تعالى : ﴿ **إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية** ﴾ ، قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لعلي (ع) : « هم انت وشيعتك ، تأتي انت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين ، ويأتي عدوك غضاباً مقمحين .

قال : من عدوي ؟ قال : من تبرأ منك ولعنك[23] .

---

(١٩) ـ صحيح الترمذي ( ٥ / ٢٩٧ ح ٣٧٩٨ ) ، والمستدرك على الصحيحين ( ٣ / ١٢٤ ) ، وشرح النهج ( ١٠ / ٢٧٠ ) ، والفتح الكبير ( ٢ / ١٣١ ) ، وجامع الاصول ( ٩ / ٤٢٠ ) .

(٢٠) ـ الدر المنثور ( ٦ / ٣٧٩ ) ، ويمكن مراجعة المصادر التالية التي أكدت ذات المعنى بالفاظ مختلفة عن الرسول الاكرم (ص) : شواهد التنزيل ( ٢ / ٣٥٦ ـ ٣٦٦ ) ، وتفسير الطبري ( ٣٠ / ١٤٦ ) ، وفرائد السمطين ( ١ / ١٥٦ ) ، والصواعق المحرقة ( ١٥٩ ) ، وتذكرة الخواص ( ١٨ ) .

(٢١) ـ سورة البينة ( آية : ٧ ) .

(٢٢) ـ الدر المنثور ( ٦ / ٣٧٩ ) .

(٢٣) ـ الصواعق المحرقة ( ٩٦ ) .

وروى الحمويني الشافعي في فرائد السمطين ان الآية الكريمة : ﴿ **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية** ﴾ نزلت في علي (ع) فكان أصحاب محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) اذا أقبل علي (ع) قالوا قد جاء خير البرية[٢٤] .

وروى ابن المغازلي المالكي في مناقبه عن ابن عباس ، قال : سألت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عن قوله تعالى : ﴿ **والسابقون السابقون اولئك المقربون** ﴾[٢٥] فقال : قال لي جبريل : « ذلك عليّ وشيعته هم السابقون الى الجنة المقربون من الله » لكرامته »[٢٦] .

ولما كانت الأحاديث التي ربطت الآية بعلي (ع) وشيعته ، قد تواترت واستعصى تكذيبها ، لمّا كان رُواتها من فطاحل اهل السنة والجماعة ، حاول ابن حجر ـ في صواعقه المحرقة ـ ان يفلسفها ويخنقها بترهاته المعهودة ، قائلاً : عن علي (ع) قال : « إنّ خليلي رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال ياعلي إنك ستقدم على الله وشيعتك راضين مرضيين ويقدم عليه عدوك غضاباً مقمحين ، ثم جمع عليّ يديه الى عنقه يريهم الإقحام . قال ـ بن حجر ـ وشيعته هم أهل السنة ولا تتوهم الرافضة ، والشيعة قبحهم الله »[٢٧] .

ولا أحد يشك في هذا التهافت الباطل . اذ كيف يستقيم كلام هذا ـ المخرِّف ـ وهل يظن انه يكتب للأرانب ؟ اذا كان شيعة علي (ع) هم أهل السنة ، فأعداؤه من ؟ هل هم شيعته الذين قاتلوا الى جنبه الطاغوت الاموي ؟ ونحن الى الآن ، لم نجد تراث بني أُمية سوى عند أهل السنة ، ولم نجده عند الشيعة قط .

---

(٢٤) ـ فرائد السمطين ( ١ / ١٥٦ ) .

(٢٥) ـ سورة الواقعة ( آية : ١٠ ـ ١١ ) .

(٢٦) ـ المناقب لإبن المغازلي ( ٣٢٠ ) ، وورد هذا الحديث بالفاظ اخرى في شواهد التنزيل ( ٢ / ٢١٣ ح ٩٢٤ ) ، والدر المنثور ( ٦ / ١٥٤ ) ، والبداية والنهاية ( ١ / ١١٤ ) ، فضائل الخمسة ( ١ / ١٨٤ ) ، وتفسير ابن كثير ( ٤ / ٢٨٣ ) ، والصواعق المحرقة ( ٧٤ ) ، والعقد الفريد ( ٥ / ٩٤ ) .

(٢٧) ـ الصواعق المحرقة ( ١٥٣ ـ ١٥٥ ) .

ومن المؤسف بالنسبة لي ، أن بدأت أخسر بعض كُتّابي المقربين . الذين ما ألفنا منهم سوى العمق في الدراسة والتحليل . انه عزيز علي ان أرى صاحب « التاريخ الاسلامي » محمود شاكر ، يقول : « بل لم تكن كلمة الشيعة تحمل أكثر من معنى التأييد والمناصرة . ولكنها غدت مع الزمن فكرا خاصاً وعقيدة خاصة ، وَنُسِّبَ الى الأوائل أقوال لم يقولوها وأخبار لم يعرفوها ، وأفكار لم تخطر على بالهم أبداً »[٢٨] .

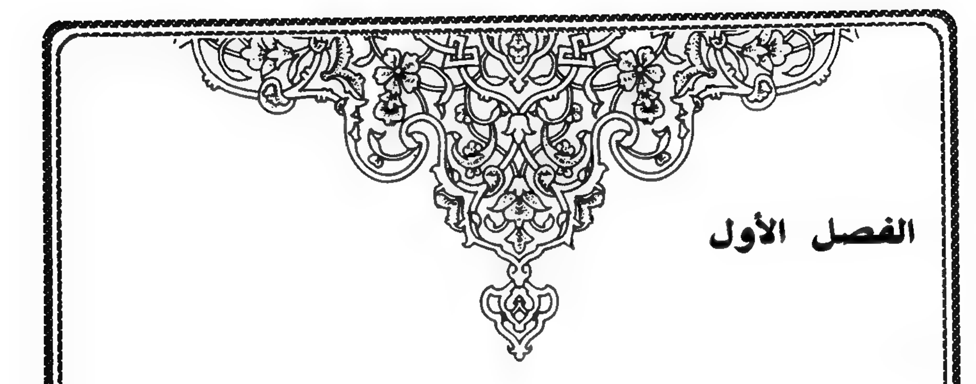
وكان على استاذنا الجليل أن يبحث أكثر من ذلك . فمع أنه لم ينكر أن كلمة « الشيعة » كانت في البداية . إلاّ أنه لم يحفر في الخلفيات التاريخية ، التي أظهرت التشيع كحالة مذهبية ، انفردت بأفكار وعقائد خاصة ، فأستاذنا لم يحدِّثنا عن الآخرين ، وهل ثبتت افكارهم وعقائدهم ؟ ! لقد ابتعد المسلمون عن الأفكار والعقائد في صفائها الاسلامي الأول ، حتى بدت لهم عقائد أهل البيت (ع) وكأنها هي المتحركة . فهم أشبه بمن يعتقد بحركة الجبال والأشجار من وراء نافذة القطار ، ثم هل خصوصية هذه الأفكار والعقائد ، دليل على أخطائها ؟ .

كنت متأكداً من أن هؤلاء يجتهدون في دائرة أخطائهم ، ويتألقون في فلسفة الباطل .

فالشيعة لغة واصطلاحاً ، هم اولئك الذين تمحوروا حول الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ومن بعده حول آل البيت (ع) استجابة للنصوص الواردة .

---

(٢٨) ـ التاريخ الإسلامي ـ الخلفاء الراشدون والعهد الأموي . لمحمود شاكر .



## الفصل الأول

# كيف كان تصوري للتاريخ الاسلامي ؟

لم يكن وعيي التاريخي يختلف عن وعي أهل السنة والجماعة . فمنذ البداية كانوا قد زرقوني بهذا التأريخ ، وبمزاج خاص حول التاريخ الاسلامي .

وهذا الوعي الذي تلقيته مثل ما أتلقى القرآن ـ عند الكُتّاب ـ لم يكن يختلف ـ هو الآخر ـ عن وعي جدّتي بالتاريخ . إنه « دزّينة » من الحكايات « المفبركة » على نمط القصّاصين بـ « جامع الفنا »[1] ، انه تاريخ « كان ياماكان » و « كان في قديم الزمان » . وتحول التاريخ عندنا فجأة الى ملجأ لكل من ضاقت به الحياة . ليتفسح في فجاجه لاهيا . لقد تلقينا دروسا ـ ديماغوجية ـ خاصة ، لفهم التأريخ الاسلامي . وان « نترضّى » بعد ذكر كل اسم ينتمي الى جوقة القديم . واذا رأينا الدم والفسق والكفر ،ليس لنا الحق سوى ان نغمض الأعين ، ونكف الألسن ، خوفاً من الغيبة التاريخية . ثم نقول : **﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾**[2] ، عملية لجم مبرمجة ، وقيود توضع على عقل الانسان ، قبل ان يدخل الى محراب التأريخ المقدس . لقد علمونا ان نرفض عقولنا لنكون كائنات « روبوت » توجهنا كمبيوترات مجهولة .

وغلبت السياسة على التاريخ ، وحولته الى بؤس حقيقي .

---

(١) ـ ساحة كبيرة بمدينة مراكش ـ المغرب ـ يكثر فيها السياح وحيث يكثر القصّاصون الذين يسردون حكايات عن النبي ( ص ) والصحابة وبعض الرجال القدماء .

(٢) ـ سورة البقرة ( آية : ١٣٤ ) .

وخفنا من عقولنا ، ومن التاريخ ، ومن الموروث والفولكلور . . بل وعاش كل واحد منا هاربا من عقله . . ومن التاريخ الى الأوهام ! فكان تصوري في تلك الأثناء ـ تصوراً سطحياً .

# الخلافة الراشدة

من الدروس ـ الديماغوجية ـ التي حقنوا بها وعينا . هو أن ما كان في التاريخ الاسلامي ، هو الصواب المطلق . ولم يكن في الامكان أبدعُ مما كان . . وان الايمان كل الايمان ، هو التصديق بما وقع . والخلافة الرشيدة ، حبكةٌ جميلة جداً ، بل وانها تكاد تطفح إبداعا . وما زلتُ اضحك من نفسي ، لتقبلها بسذاجة الأميين .

لقد تلقيت منهم واقع الخلافة الراشدة من دون مناقشة . واذا راودتني نفسي بتساؤلات قمعتها ، لتستقيم على التزام التجاهل . واذكر ان الشك بهذه الحبكة طرأ علي وأنا ابن خمسة عشر عاماً ، غير انني طويت الصفحة عن ذلك الشك ، وتعمدت نسيانه .

لقد مات رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهو راضٍ عن أصحابه من الشرق الى الغرب . وأنه خلّف وراءه « تركيبة » ثورية ، حضارية ، قيادية ، رباعية اسمها : أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، وكنت أحياناً أتساءل حول ما اذا كان التسلسل التلقائي للخلافة « الراشدة » أمراً متوقعاً منذ البداية . فلقد قرأت الكثير من الروايات ، كلها تتحدث عن فضائل الأربعة ، بهذا الترتيب الرباعي ! .

فكيف مات الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكيف خلفه هؤلاء الأربعة بالتوالي ؟ أهل السنة والجماعة علمونا ، ان محمداً ( صلى الله عليه وآله وسلم )

مات وهو راض عن الجميع . وانه قال لأبي بكر ، صلِّ بالناس . ومن هذا استنبط عمر بعقله المستنير ، ان ابابكر ، هو الجدير بالخلافة ، فبايعه ، ثم لمّا كان عمر هو فاروق الامة ، استطاع ان يصرف الناس الى مبايعة أبي بكر ، فبايعوه رغبة . . . ولم يتخلف عنه أحدٌ أبداً . !! وبأن الشورى التي جرت في السقيفة كانت عملية اسلامية ، متأصلة في الشريعة . وحتى علي (ع) لم يتمرد عن المبايعة . وذلك بنص ما أخرجه أحمد والبيهقي بسند حسن عن علي ، انه قال لما ظهر يوم الجمل :

« أيها الناس ، أن رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لم يعهد الينا في هذه الأمارة شيئاً ، حتى رأينا من الرأي ان نستخلف أبا بكر فأقام واستقام حتى مضى لسبيله ، ثم ان ابا بكر رأى من الرأي ان يستخلف عمر فأقام واستقام ، ثم ضرب الدين بجرانه ثم ان اقواما طلبوا الدنيا فكانت أمور يقضي الله فيها » .

وإنه لم يحدث أن تمرد واحد من المسلمين الصحابة على أبي بكر ، لأنه كان غاية في الجدارة ، وأقرب الناس في وعي الصحابة الى رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وان الإمام علياً (ع) كان مطيعاً له ، معترفاً به ، وفي ذلك تحدثنا الرواية عن الدارقطني وابن عساكر والذهبي وغيرهم : ان علياً أقام بالبصرة حين بايعه الناس فقام اليه رجلان فقالا له : أخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه لتستولي على الأمر وعلى الأُمة . تضرب بعضها ببعض . أعَهْدٌ من رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عُهِدَ اليك ؟ فحدثنا فانت الموثوق به والمأمون على ما سمعت ، فقال : أما ان يكون عندي عهد من رسول الله في ذلك فلا والله . لأني كنت أول من صدّق به فلا أكون أولّ من كذب عليه . ولو كان عندي منه عهد في ذلك ما تركت أخا بني تيم بن مرة وعمر بن الخطاب يثبان على منبره ، ولقاتلتهما بيدي ، ولو لم أجد إلاّ بردي هذه ، ولكن رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لم يقتل قتلاً ، ولم يمت فجأة ، ومكث في مرضه اياماً وليالي يأتيه المؤذن فيؤذنه للصلاة ، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني . . الخ .

وهكذا استمر الحكم الراشدي ، بتآخٍ مطلق ، وانسجام دقيق . والتحق سيدنا ابو بكر بالرفيق الأعلى وخلفه عمر بن الخطاب . وكان ذلك اجتهاداً منه

يقتضي الطاعة من باقي المسلمين ، لأن في رأيه السداد المطلق ، ولأنه توخى مصلحة الإسلام من وراء اختياره هذا ، ولأن أمره سنةٌ تقتضي الطاعة الشرعية ، طبقاً للحديث « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » ! .

وجاء عمر ، وبقي خليفةً عادلاً ضرب أروع مثال على الزهد والشهامة والعدل . . ثم استشهد من قبل « أبي لؤلؤة » المجوسي . وترك الأمر في ستة أشخاص ، منهم عثمان وعلي بن أبي طالب . وكان أن سلمت الخلافة لعثمان بن عفان ، بعد أن رفض علي (ع) الأخذ بسنة الشيخين أي سنة ابي بكر وعمر واقتصر على القول : « بسنة الله ورسوله » ! .

وبقي عثمان ـ ذو النورين ـ سائراً على طريق الإيمان والعدالة وفي عهده كثرت الخيرات . وما قيل عنه وأُثير من دعايات مغرضة ، كان مصدره دس المنافقين . والغاية منه الأساءة الى صحابيٍ جليلٍ ، كانت تستحي منه الملائكة . وان ما فعله من تقريب « طريد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ».( الحكم ابن العاص ) ونفيه لأبي ذر الغفاري (رض) كان اجتهاداً . نعم يجب الثورة على الطغاة الذين لا يعدلون . اما عثمان فإنه صحابي يحرم التعرض لسياسته بالنقد . وفي النهاية مُني هذا الأخير بأعداء من الخوارج ، اقتحموا عليه الدار ، وقتلوه . وبعد ذلك بويع علي بن أبي طالب ، ومن ثم بدأت الفتنة .

وكل ما وقع بعد ذلك كان له مبررات يحرم علينا التفصيل فيها والأمعان في الأستفسار عنها . وخير الناس عندها يؤمئذ ، من التزم الصمت او قال : تلك فتنة طهرنا الله منها ، فلنطهر منها ألسنتنا[٣] ؟ .

تمر هذه الفتنة التي كشف فيها الغطاء عن أشياء ساءت المسلمين . لأن فيها تظهر حقيقة معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، وعائشة بنت أبي بكر ، وطلحة والزبير . . وكل هؤلاء قاموا بأشياء تناقض الصورة التي نقلت لنا عنهم ، ونحن نقرأ في تراجمهم وتسير السفينة ، حتى كربلاء ، حيث يجب أن تغلق المنافذ

(٣) ـ إن اخواننا المسلمين السنة لا يتورعون عن الحديث في سلوك السياسيين السوفيات قبل سقوط المعسكر الاشتراكي وينعون على الأشتراكيين أن يعرضوا عن سيرة زعمائهم في معرض طرح افكارهم . ما هذا التناقض ؟ ؟ .

أو تكتم الأنفاس ، وتعمى الأبصار ، لتجاوز هذا النفق المظلم . لأن الذي قتل الحسين بن علي عليهما السلام ، وسبى نساءه ، هو « أمير المؤمنين » يزيد بن معاوية . وفي زمن لا يزال فيه أثار متبقية للصحابة .

نغمض أعيننا ونفتحها على تاريخ ايديولوجي جاهز . كتبته أقلام التزلف على دف القيان ورقصات جواري البلاط ، حيث تغدو عندنا الدولة الأموية ، دولة الإسلام المقبولة ، بغض النظر عن الدماء التي سفكت ، والأعراض التي هتكت ، والمفاهيم التي نسخت ، فمعاوية بن أبي سفيان « أمير المؤمنين » يروي له التاريخ عندنا أروع المناقب واسمى الفضائل[٤] .

لقد وقع ما وقع بين علي ومعاوية بن أبي سفيان ، وكل ذلك كان أجتهاداً ، وكانت فتنة سقط فيها علي ومعاوية معاً ، وكلاهما مسؤول عن الذي وقع . وان الصراع كان على الخلافة والسلطة ، وان الفئة الصائبة يومها هي تلك التي اعتزلت الفتنة وغلقت عليها ابواب المساجد ، ولبثت في البيوت ، وليعطَ لها القاب نظير « حمامة المسجد » لأنها انزوت فيه في وقت كانت مصلحة الدين تقتضي تقديم التضحية والدخول في الجهاد .

جاءني يوماً أحد اصدقائي الطلبة ، يسألني عن معاوية وقتاله لعلي (ع) في صفين ، وقبل أن أباشر في الجواب ، نطق أحد الحاضرين قائلاً : اللعنة عليه ! فنهرته ، ثم قلت : اعوذ بالله ، لماذا تلعنه ؟ قال : لأنه قاتل عليّاً . قلت له : ومع ذلك ، فان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول ( لاتسبوا أصحابي ) .

وبهذه الكلمة البائسة الغبية ، المصحوبة بتماوج « كاريكاتوري » يختزل وقاراً مصطنعاً . استطعت ان أُسكت صديقنا .

فمعاوية رجل مؤمن . كان شديد البكاء في دين الله . وكريماً يعطي بلا حساب . يقول محمد بن عبد الوهاب[٥] : « وبالجملة فلم يكن ملك من ملوك

---

(٤) ـ أقول ، ولعل الدليل الواقعي ، الملموس على أهل السنة والجماعة نزعوا منذ البداية منزعاً ضد آل البيت (ع) ومع خط الأمويين ، إن واقع الثقافة السنية يؤكد ذلك . فالسني على امتداد العالم الإسلامي ، لا يعرف عن أئمة آل البيت (ع) أكثر مما يعرف عن مناقب أعدائهم . لنكن اذاً صرحاء ! .

(٥) ـ في عقائد الإسلام ( ٢٢٠ ) .

الاسلام خيراً من معاوية ولا كان الناس في زمن ملك من ملوك المسلمين خيراً منهم في زمن معاوية اذا نسبت أيامه الى أيام بعده » .

بل وان الإمام علياً لم يكن يتحرك بدافع الشرع في حربه مع معاوية ، ولم يكن واجباً قتال أهل الشام . وأنه لم يكن يعرف انه سيقع في هذا المأزق ، ولودّ لو يتجنبه بكل ثمن ، وفي ذلك يقول محمد بن عبد الوهاب : « قال العلماء رحمة الله عليهم[٦] ان قتال أهل الشام ليس بواجب ، قد أوجبه الله ورسوله . ولو كان واجباً لم يمدح النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الحسن بتركه[٧] . فدل الحديث على ان ما فعله الحسن بن علي مما يحبه الله ورسوله وتواترت الأخبار عن علي (رض) بكراهة هذا القتال في آخر الأمر . لما رأى اختلاف الناس واختلاف شيعته عليه وتفرقهم وكثرة الشر الذي اوجب انه لو استقبل من أمره ما استدبر ما فعل ما فعل » .

والإمام علي كان لا يرى في معاوية رجلاً فاسقاً . بل إنه رآه خير الرجال الذين يمكنهم ردّ الفتنة .

يقول ابن عبد الوهاب[٨] : « من ذلك ما اخرجه غير واحد من أهل العلم[٩] » ، انّ علياً (رض) قال « لا تكرهوا امارة معاوية ، فانكم لو فقدتموه لرأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها »[١٠] .

بل ان معاوية كان يُشْهَدُ بعلمه وفقهه . وثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس (رض) ان رجلاً قال له : هل لك في أمير المؤمنين معاوية إنه أوتر بركعة فقال : أصاب انه فقيه « فهذه شهادة ابن عباس وهو من أكابر علماء

---

(٦) ـ نفس المصدر أقول هذه العبارة « قال العلماء » من هم هؤلاء العلماء ؟ هل هم علماء السنة ، ام علماء الحنابلة ام الوهابيين ؟افصح عنها وحررها من ظلاميتها ياابن عبد الوهاب ! .

(٧) ـ ولو كان ابن عبد الوهاب يحمل شيئاً ما من الذكاء ، لتذكر ان الرسول ( ص ) مدح شيعة علي (ع) لنصرتهم اياه .

(٨) ـ نفس المصدر السابق .

(٩) ـ ما زلت أناقش ابن عبد الوهاب في هذا التلبيس ، من هم هؤلاء الذين ذكروا هذا الحديث ولماذا يخفي اسماءهم ، وما ادرانا لعلهم عنده اهل علم وعندنا ليسوا كذلك !! .

(١٠) ـ أقول : ولذلك ما ترك علي (ع) جهداً إلا واستخدمه في قتال معاوية ! .

الإسلام »[11] .

أما الحسن فلم يكن فتّانا مثل الأخرين . انه رجل مؤمن كباقي المسلمين ليست له ميزة دونهم إلاّ أنه ابن فاطمة بنت رسول الله ، بل فيه عيب ، أنه كان مزواجاً مطلاقاً . ولكنه حسناً صنع ، لمّا تخلّى عن الخلافة لصالح معاوية ، ابتغاء حقن الدماء . وهو بذلك يكون افضل من أبيه . يقول بن عبد الوهاب :

« ومن ذلك انسلاخ الحسن (رض) عن الخلافة لمعاوية . قال ابو عمر بن عبد البر في الأستيعاب في ترجمة الحسن بن علي (رض) كان رحمه الله حليماً ورعا ، دعاه ورعه ( الذي لم يوجد ربما في أبيه ) وفضله الى أن ترك الملك والدنيا رغبةً فيما عند الله . وقال : والله ما أحب منذ عرفت ما ينفعني وما يضرني ان ألي أمر أمة محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) على ان يهراق في ذلك محجمة دم . وكان من المبادرين الى نصرة عثمان (رض) والذابين عنه . ولما قتل أبوه علي (رض) بايعه أكثر من اربعين ألفاً كلهم قد بايعوا أباه علياً ـ قبل موته ـ على الموت ، وكانوا أطوع للحسن واحب فيه منهم في أبيه[12] . فبقي نحو سبعة أشهر خليفة في العراق وما وراءها من خراسان .

ثم سار الى معاوية وسار معاوية إليه .

ولعل بذلك كان هذا العام . هو عام الجماعة ، حيث سكت الضمير ، وبقي حكم الامة بين أصابع أحفاد بني عبد الدار .

أما الذين ناصروا معاوية ، وأججوا الفتنة ، مثل عمرو بن العاص ، وابي هريرة واشباههم ، فقد كانوا مؤمنين بالنص[13] قال آدم ، عن حماد بن سلمة عن محمد بن عمر وعن أبي سلمة عن ابي هريرة (رض) قال ، قال النبي ( صلى الله

---

(١١) ـ ولّما كان معاوية كثير العلم والفقه والفضل ، سئل الإمام النسائي عن سبب عزوفه عن تخريج كتاب حول معاوية نظير « الخصائص » فقال : ماذا اقول فيه « لا أشبع الله بطنك » ؟ ! انه الشيء الوحيد الذي حصل عليه من فضل من قبل الرسول ( ص ) ! .

(١٢) ـ انها النزعة الناصبية التي لم تفارق الوهابية منذ نشوئها والى اليوم .

(١٣) ـ أقول ، من الغريب ، المضحك ، أن يكون الإيمان وهو حالة مع الله تكتسب بالجهد والرياضة والتربية ، تثبت بالنص للواحد دون الأخر . . فتلك روائع العدل الإلهي عند الوهابيين .

عليه وآله وسلم ) « إبنا العاص مؤمنان عمرو وهشام » وأما معاوية ، فقد ورد عنه أنه من أهل الجنة .

ولم يكن الحجاج سوى تلك الشخصية المؤمنة في التاريخ الإسلامي الذي تنقل عنه الحكم والعبر والمواعظ .

وذات مرة قلت لأحد المشايخ الكبار :

عجباً ، لست ادري كيف يقبل المسلمون بأمثال الحجاج بن يوسف الثقفي ، ذلك السفاح ، ما وقر عالماً ولا عامياً .

فقال شيخنا الموقّر : اعوذ بالله ، نحن أهل السنة والجماعة ، نعتقد في ايمانه واسلامه ، وقد قال فيه العلماء خيراً رغم كل ذلك ، فهو من الصالحين ، لأنه « شكل القرآن »[14] ؟ !! .

كذلك سارت الأمور . وسقط مُلك بني أمية ، وجاء بنو العباس وكان الرشيد ، وكان المأمون . . « وكان ياما كان » وكان الإيمان بعد الإيمان . . . وكان ربك غفوراً رحيما ! .

والخلافة كما عرفتها لم تكن ذات مفهوم خاص . ولكنني تجوّزا اعتبرتها « شورى » ودليلي على ذلك ، السقيفة ، لا كما هي في التاريخ ، بل كما تخيلتها ، ورسمتها في ذهني بالشكل الذي تتناغم فيه مع الشخصيات التي أقدسها في ذهني جهلا .

وما فعله ابو بكر تجاه عمر بن الخطاب ، هو مجرد استثناء . لأنه ما وجد البديل الكفء .

والخلافة كما تعلمتها من السنة ، ليست منصباً إلهياً . وانما هي شأن من شؤون الدنيا ، تم بالإتفاق . وان الإتفاق الذي جرى في السقيفة صحيح وتام . وأن يفرض عمر بن الخطاب رأيه ، أمر طبيعي لأن الحق نزل على لسان عمر كما في

---

(١٤) ـ إن الحجاج هذا ، قتّل كثير من الصحابة والعلماء وعامة المسلمين وسفك دماءهم ، ويعز على أهل السنة تكفيره . أما ورعهم عن تكفير الشيعة ، فزهيد ، لأنهم يسبون الصحابة : وهذا هو الجهل المبين ؟ .

الروايات . وان الرسول قد أخطأ واصاب عمر أكثر من مرة . وأن محمداً ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول : « كلما تأخر عني الوحي ، ظننت انه نزل عليك ياعمر » .

فليس عيباً ان يفرض عمر بن الخطاب رأيه في السقيفة ، لأنه أكثر شدّة في دين الله ، ومهاب الجناب ، يفرّ منه الشيطان . أما عن أئمة اهل البيت (ع) فانهم مجاهيل . لا نعرفهم ، واذا اتفق ان سمعنا بواحد منهم ، فليس له خاصية . تميزه عن الآخرين .

لا أقول ان الإمام علياً وفاطمة الزهراء والحسن والحسين عليهم السلام . كانوا صغاراً في اعيننا . . كلا ! والسبب في ذلك ان هؤلاء كانوا عظماء في نفوسنا منذ البداية لقد ورثنا حبهم وتفضيلهم[١٥] .

وما زالوا كذلك حتى ورد علينا التيار السلفي وسمومه النجديّة التي لم تفلح في اقتحام مجتمع أصيل في حبه للبيت النبوي .

ولا أقول عني شخصياً أنني يوماً ما كنت افضّلُ أحداً على آل البيت (ع) وإن كان مذهب العامة يقيمهم على قدم المساواة مع غيرهم ، لقد ادركتُ منذُ البداية ان العقيدة الوهابية « أخشن » من أن « تحتضن » روحي وقلبي . ولعلي تصوفتُ يوماً ما . وما كان لي أبداً أن أنفتح على عالم الحضرة ، أو أجد شمة الأنفاس الرحمانية ، في عقيدة بدوية جافة ، لا يتجاوز فيها القلب والروح حدود اللحية ، أو عود الأراك ، أو المسك . . . ولم أكن أجد « عُمَرَ » في التصوف إلاّ « تجملاً » من بعض المتصوفة العليلين[١٦] .

ومن هذه النافذة ، استطعت اكتشاف التراث الروحي لآل البيت النبوي (ع) الذي لم يستطع التصوف رغم شفافيته الخارقة ، احتضانهم . وحالات الأئمة من آل البيت (ع) مع الله ، مما لا يبلغه أهل المقامات العليا في العرفان الإلهي . . .

---

(١٥) ـ أقصد ان الإسلام في بلاد المغرب لم يكن يتفق مع التراث الناصبي . لقد تأصل حب البيت النبوي في عقيدة المغاربة منذ تأسيس الدولة الإسلامية في المغرب .

(١٦) ـ أو أحياناً يجدون في سيرة عمر ما يدعمون به آراءه الشاذة ، واعتماداً على مرويات غير صحيحة . وفي كل الأحوال لم تكن شفافية التصوف تنسجم مع ما وصلنا من سيرة عمر .

ولقد خرّ المتصوفة أمام الإمام زين العابدين ( علي بن الحسين (ع) ) عاجزين ، وأعلنوا انه من أهل الأسرار . لقد جاء التيار السلفي ، ليوقف عليّاً ومعاوية على قدم المساواة .

ويكون اولئك الرموز من العترة الطاهرة ، مجرد افراد من المسلمين ليس الاّ . اما باقي الأئمة من آل البيت (ع) فليسوا شيئاً ، ولم نعرف عنهم ما يميزهم . واننا لنعرف سفيان الثوري ، وابن المسيب ، والزهري ، وسعيد بن جبير ، وابا يزيد البسطامي ، و . . و . . . ولا نعرف شيئاً عن الإمام الصادق ، والباقر و الهادي . . . وقليل منا من يعرف اسماءهم ولا أحد يعرف عن تفاصيل سيرتهم ! ليس ذلك لخلوّ آثارهم . وانما بسبب التعتيم المفروض على فضائلهم منذ بداية الأئمة . وإلا فانها راسخة في عمق التاريخ .

وكانت الفضائل المزيفة لرجالات العامة بلغت حداً ، تحجب فيه بضبابها الكثيف ، عظمة آل البيت (ع) . فعمر بن الخطاب . كان في كل فضائله على قدر من الكمال لا يسمح لشخصية مثل الإمام علي (ع) بالظهور في ثقافة السنة والجماعة . فهو الذي يصيب يوم يخطىء النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهو الذي لو تدخل الأمة جميعها الى النار لنجى منها . وان الله نصر الإسلام به[١٧] وانه هو الذي نفرت منه الشياطين . . وهو في عبقرية العقاد ، اعظم من الواقع بكثير بحيث من عبقرياته التي أحصاها عليه العقاد أنه كان يحلق شعره عند أحد الحلاقين . فتختخ عمر ، واذا بالحلاق يسقط مغمياً عليه ، من الفزع . وتتحول « الدرة » العمرية الى إحدى مكونات عبقريته عند العقاد ، وهلم جرا .

اما ابو بكر من قبله فهو كل شيء . فلقد وُضِعَ ايمانُ الأمة في كفة ووضع ايمان ابي بكر في كفة ، فرجحت كفة أبي بكر ، وأنه الصديق الأكبر . وان الله بعث جبريل الى محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ليبلغه السلام ، ويبلغ ابا بكر من ربه السلام ، ويقول له ان الله راضٍ عنك فهل انت راضٍ عنه ! ويكفي هذا !

---

(١٧) ـ إن الجهل والعمى هو الذي يجعل الإنسان يصدّق هذه الحكايات الجوفاء . . وأتحدى كل العالم السني من الشرق الى الغربي ، ان يثبت لي دور عمر بن الخطاب في معركتين مصيريتن للأمة هما : « بدر » « وأحد » ، هذا دون ان أضيف « الخندق » والباقي الكثير .

يكفي ان يكون رب السماوات والأرض يلتمس من أبي بكر الرضى !!! .

واما عثمان ، فهو ذو النورين ، الذي تستحي منه الملائكة . ولا تستحي من الأخرين . وأنه الرجل الذي صرف كل أمواله في نصرة الإسلام . وأنه من المهاجرين السابقين للإيمان .

واما عائشة بنت أبي بكر ، فهي كل شيء ، وكأن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ترك النبوة لديها . فهي أم المؤمنين الوحيدة ـ دون غيرها ـ التي يجب أخذ نصف الدين عنها .

وهكذا ظلت صورتهم في ذهني . وسأتطرق الى ما ورد فيهم من فضائل ، حملتها روايات أهل الحديث لنعالج بعد ذلك مدى صدقها ونقف عند أهدافها .

وكنت بين الفينة والأخرى اسمع أن الشيعة غنوص ، وسبئيون . ولم اكن اعرف القصة بالضبط . لكن بعد ذلك قرأت في كتب السنة ان بعض الغلاة قد الّهوا علياً ، وهم السبئيون . وهم الذين شكلوا مصدراً فكرياً للشيعة بعدها . والسبئيون ، نسبة الى عبدالله بن سبأ ، أحد اليهود المندّسين ، يقول محمد رشيد رضا[18] : « وكان مبتدعٌ أصولهُ يهودية اسمه ( عبدالله بن سبأ ) أظهر الإسلام خداعاً ، ودعا الى الغلوّ في علي ( كرّم الله وجهه ) لأجل تحريف هذه الأمة وافساد دينها ودنياها عليها » .

وحتى ذلك الوقت ، لم اكن أعرف كيف استطاع « عبدالله بن سبأ » ان يمرر هذا التراث الشيعي الهائل ، الى اصحاب علي (ع) ولست أعرف من هو هذا الشخص الذي أنعم الله عليه ، بهذه المقدرة على الأبداع ، وهذه الخبرة في قلب المعادلات التاريخية من دون أن تضبطه عدسة المؤرخين ، وان يتمكن من خلط الأوراق ، وكأنه قفز أكثر من ألف سنة الى الأمام ليتلقّى فنون التسلل والدعاية في مراكز ( المخابرات الأمريكية والسوفياتية ) ! .

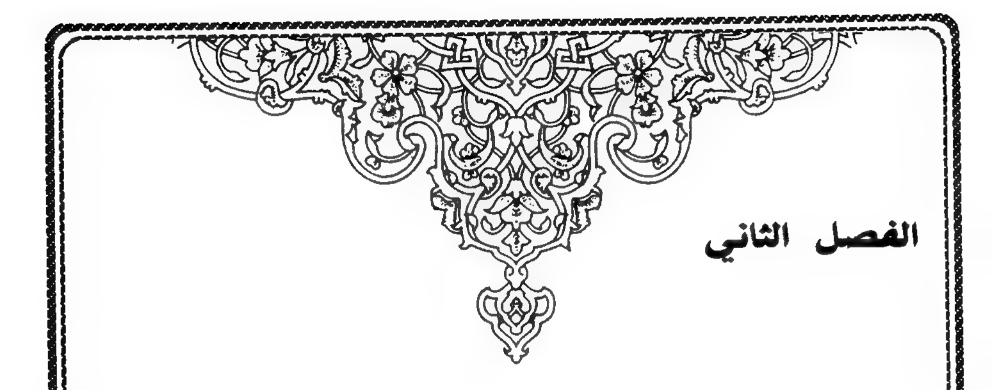
من هو ابن سبأ ؟ .

من هم الغنوص ؟

---

(18) ـ السنة والشيعة ٤ ـ ٦ .

هذا ما بقيت أتساءل عن معرفته ، ولم أجد له جواباً عند علماء السنة . سوى تكرار لتلك الروايات المغرضة ! وفجأة رأيتُ نفسي ، أتمثل ـ كوجيطو ـ ديكارتي جديد . منهجاً شكّياً ، ابتغاء الحق فكانت الأزمة يومها ، أزمة يقين ، وما أثقلها من أزمة على طلاب الحقيقة . ولكن كيف يتسنى لي الخروج من هذا المأزق الأعتقادي ؟ .



الفصل الثاني

# مرحلة التحول والانتقال

دوّت المدافع في آفاق الخليج ، وحمي الوطيس ، واهتزت الأوضاع الأمنية والسياسية في المنطقة . انتشر الغضب الشيعي في كل مكان من الدنيا . وفي كل الأصقاع سجلت عمليات كفاحية تبعث باريج الدم الحسيني . لقد خلفت حرب الخليج وراءها الدمار ، والكوارث السياسية والإجتماعية . التاريخ الآن يضحك بقوة . ويرفع سوطه عالياً ليهوي به على الهامات الذليلة . فيدع عليها الأخاديد الحمراء ، عاراً ظل يرفس في خاصرة الجبروت ، ليعلن حقه في عصر الكفاح .

اختلف الناس مشارب عديدة . ازاء ما جرى في هذه المنطقة . البعض ضاقت في عينيه الرؤية فأوّلها بمحدودية ذهنية . والبعض الآخر رأى فيها ناراً على علم الرذيلة قد اشتعل . وكشفا مباغتا عن وضع بات منّوماً حيناً من الدهر لم يكن فيه للحق سلطان .

أعادت النهضة الشيعية شرف قضيتها ، وأبرزت على العالم ـ كل العالم ـ سؤالاً كنا نظن أنه انتهى وقُبِرَ مع الغابرين . وان العصر لا يتسع لمثل هذا من التساؤلات « الظلامية » المسبوكة بخيوط العنكبوت العتيقة .

قالوا : انه صراع قديم .

قلنا : وهل حسمتموه ، حتى ننهيه ؟ ! .

قالوا : تلك فتنة طهرنا الله منها . وليس لنا مصلحة في استحضارها والخوض فيها .

قلنا : حسناً وهلا أنصفتم التاريخ ؟ وهلّا تبرأتم من الظالمين ؟ وهلا اخترتم طريقاً غير طريق الأقدمين ، الفتّانين ؟ حتى لا تروا في أنفسكم الحاجة الى الرجوع . ثم كيف طهرنا الله منها ، وهي ما زالت حاضرة فينا ، بعيوبها ومسوخاتها ؟ وتساءل الناس ، وتساءلنا معهم . وانتصر السؤال الحقيقي مع انتصار النهضة الشيعية الكبرى . مع بروز عاشوراء بكل مراسيمها الدامية . عادت قضيتنا لتطرح من جديد وبلغة البكاء ، على عالم يدعي أنه أستدرك أخطاء الماضين وشرّع القانون ! عادت القضية ، يوم عادت « الدمعة الشيعية الرقيقة » يوم تداخل السياسي بالإعتقادي ، في محراب النضال المقدس ، وقالت السماء يومها كلمتها ، وتحققت النبوءة الرسولية : « لو كان الإسلام في الثريا ، لناله رجال من فارس » .

في هذه الأجواء المتوترة ، وعلى بساط الأحداث السياسية ، وحفيف الفتن العاصفة . طرحت سؤالاً على نفسي :

لماذا هؤلاء شيعة ونحن سنة ؟ .

تحول هذا السؤال في ذهني الى شبح ، يطاردني في كل مكان . يسلبني في كل اللحظات مصداقيتي . نعم ، فلا حق لي أن أزوّد فكري بالجديد ، حتى أحسم مسلماتي الموروثة ، وأسسي الأعتقادية الجاهزة ، وما قيمة أفكار تتراكم على ذهني من دون ان يكون لها أساس اعتقادي متين ؟ .

تجاهلتُ الأمر ـ في البداية ـ وتناسيته حتى اخفف عن نفسي مضاضة البحث . بيد ان ثقل البحث كان أخف علي من ثقل السؤال ، وأقلّ ضغطاً من ضمة الحيرة ، والشك المريب .

وقع بين يدي كتابان يتحدثان عن فاجعة كربلاء وسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، الأمر هنا أشدّ مرارة من ذي قبل . إنني ولأول مرة أجد كتاباً يحمل لهجة من نوع خاص . مناقضة تماماً لتلك الكتب التي عكفتُ على قراءتها . لم أكن أعرف أن صاحب الكتاب رجل شيعي . لأنني ما كنت اتصور أن الشيعة مسلمون ! فكانت تختلط عندي المسألة الشيعية بالمسألة البوذية أو السيخية . والوضع « السني » لا يجد حرجاً في ان يملي علينا ذلك . ولا يستحي من الله ولا

من التاريخ ليغذي نزعة التجهيل والتمويه . إنه كان يكرس هذه النظرة لدى الأفراد . ولا يصحح مغالطاتهم . وفجأة وجدتُ نفسي مخدوعاً . لماذا هؤلاء لا يكشفون الحقائق للناس ، كما هي في الواقع ؟ لماذا يتعمدون إبقاءنا على وعينا السخيف ، تجاه اكبر واخطر مسألة وُجدتْ في تاريخ المسلمين ؟ ثم لماذا لا يتأثرون بفاجعة الطف العظمى ، تلك التي ماجت في دمي الحار بالأنصاف . والتوق الى العدالة . فتدفقت بالحسرة والرفض والمطالبة بالحق الضائع في منعطفات التاريخ الإسلامي .

وطبعي الذي لا أنكره ، ولن انكره ، انني لا أحب الخادعين والجاهلين ، واني لناقم على هؤلاء ، وارافعهم الى الله والتاريخ ! .

كنت في تلك الفترة صاحب بساطة عقائدية كباقي الناس ، وببساطتي هذه كنت أبدو اوعاهم عقيدة ، وكنت ذا ثقافة أحادية ، هي ثقافة أهل السنة والجماعة ، فالجو الذي أحاط بي ، هو جو الصحوة البتراء النائمة ، التي انحرفت بوعيي الى مواقع تافهة . وفجأة وجدتني ملتزماً بخط لا أعرف له أساساً تاريخياً . وصرت واحداً من « الأخوان » المناضلين الذين ضاقوا بظلم الواقع ، وارادوا ان يعيدوا سيناريوهات العذاب التي جرت وقائعها في السجن الحربي وليمان طرة في مصر . كانت خيالاتي قليلة الخصوبة لا تتجاوز « المذابح » و « لماذا أعدموني » كنت أهوى التمثيل والمسرح ، لذلك انطلقت كالسهم الى مغامرات سخيفة .

في تلك اللحظة ، غمرتني أدبيات الحركة الإسلامية . وأخذت مني مأخذها وتملكني فكر « المحنة » لدى سيد قطب ، بكلماته المشعة أدبا ، والتي حملت في أحشائها تلك الظلال الوارفة بياناً وبديعاً . فأبيت إلّا ان أغزو الظلم قبل ان يغزوني . . ولعلي تعثرتُ كثيراً بسبب الأدبيات التي عبثت بوعيي الصغير يومئذ . ولا انكر أنني كنت من أنصار « الهجرة والتكفير » وانني ما ازال أحفظ عن ظهر قلب تراتيل الفريضة الغائبة .

وفي لحظة ـ من عمري ـ ذهبية . طرحت على نفسي سؤالاً :

تُرى ، ما هو هذا الظلم الذي ما زلت كل حياتي اشتكي منه وافرض من خلاله كل الأوهام على نفسي ؟ .

لم أجد جواباً شافياً في ذهني . سوى ما رَكَز في نفسي من أدبيات حركية استلهمتها من كتابات معينة . وكلمات جميلة لم أجد لها في ثقافتي الجمهورية[1] بديلاً ! .

سارت هذه الكلمات الفضفاضة الفارغة من مضامينها العلمية والواقعية ، تدق الطبول في ذهني . حتى صرت كالمهووس ، لا قرار لي .

**فاجعة الطف ! .**

هذه وحدها الحدث الذي أعاد رسم الخريطة الفكرية النقية في ذهني . إن هذا الظلم الذي اشكو منه اليوم ليس جديداً على الأمة ، فلقد سبقه ظلم أكبر . وعلى أساس هذا الظلم القديم قامت افكاري : ان هؤلاء الظالمين اليوم يسلكون طريقاً أسسه رجالات كانوا يشكلون حجر عثرة امام مسيرة الأئمة من آل البيت (ع) حتى اذا ورد جيل المحنة حالياً ، فاراد ان يُنظّم مشروعاً لمعارضة الظلم السياسي في الأمة على قاعدة الظلم نفسه الذي كان سبباً في التمكين لهؤلاء الظلمة . سؤال غريب ، لكنه واقعي[2] ! . ترى تناقضاً رهيباً بين تنزيه ظلمة الماضي وتثوير المجتمع على ظلمة الحاضر . . فما الفرق بين الماضي والحاضر ؟ .

ثم قالوا : « ان هذا ليس دورنا الآني . فيكفي أن نحارب الأستعمار والأستكبار الخارجي وما فات مات » .

قلت : هذا جميل . ولكن أعترفوا بي إذاً وصححوا رؤيتكم تجاهي ، ثم نتوحد في الثورة والكفاح ؟ .

انني اكتب هذا الكلام بعد ان حاولت جهدي ان اهمش التاريخ للتوحد في المسؤولية . لقد افسدوا على غير مرة امري . حتى ذلك الأمر الذي لم نكن نريد به سوى مقاومة ظلم الواقع .

---

(١) ـ نسبة الى « الجمهور » .

(٢) ـ كنت أتساءل لماذا أحارب هذا الظلم ، وفي فقه الجماعة ما يدعّمه وقد قال سعيد حوى في إجاباته ( لانمضي بعيداً عن أحتجاجات العصرة من لم يدخل في بيعة الإمام الظالم فالأمر في حقه واسع ) ، ( أي يجوز الخروج وعكسه أيضاً ) لكن الأفضل له الدخول والطاعة ؟ !! .

كنت كلما طرحت سؤالاً على نفسي ، رأيت شيطاناً يعتريني ويقول لي : « دع عنك هذا السؤال . فهل أنت اعظم من ملايين المسلمين الذين وجدوا قبلك ؟ وهل انت أعلم من هؤلاء الموجودين ؟ حتى تحسم في هذه المسألة » .

كنت اعلم ان هؤلاء الملايين لم يطرحوا هذا السؤال على أنفسهم بهذه القوة والإلحاح . وكنت اعتقد رغم ذلك ان المسألة لا تحتاج الى شهادة أزهرية حتى نحسم فيها . إنها مسألة ظلم بواح . عرفه القاصي والداني من العالم . وهل معرفة الظلم تحتاج الى عقلية أفلاطونية رفيعة .

ثم لماذا تقولون « ملايين المسلمين » انا أريد ان تقولوا ملايين « من » المسلمين ، هم اصحاب مذهب السنة والجماعة . لأن الخطاب الاول اذا قيل بهذا اللفظ فهو ينطوى اذاً على مزاجية خاصة . هي مزاجية الإلغاء لملايين المسلمين غير أهل السنة والجماعة ـ وهم من الشيعة الإمامية والزيدية ـ في هذا العالم .

قالوا : « لا مع ذلك فأنت صغير ، ولا يجوز على أي حال شق الصف ، ومخالفة الجماعة » لأن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول :

« يد الله مع الجماعة » ! « وانّ امتي لا تجتمع على ضلالة » .

وعلى كل حال ، فلم تكن هذه الأعتراضات الوسواسية بالتي تردني عن أندفاعي الى كشف الحجاب عن الحقيقة المخبوءة . لكّن شيئاً حزّ في نفسي وهو هذه الكثرة الغالبة . لقد كبرت في عيني . وصعب علي مخالفتها . لولا ان هداني الله ، بيد ان شيئاً واحداً جعلني انتصر عليها ولا أبالي ، وهو أنني وجدتها جاهلة ، واستحضرت « جديتي » التي ورثتها من فكر « الهجرة والتكفير » . فهذا الأخير على علاّته ، علّمني كيف أخالف المجتمع الجاهلي . فهذا احتياط جليل مكنني من الصمود أمام الأمواج البشرية المتدفقة . والتي ليس لها منطق في عالم الحقائق سوى كثرتها .

كنت أطرح دائماً على اصدقائي . قضية الحسين المظلوم ، وآل البيت (ع) لم اكن أطرح شيئاً آخر ، فانا ظمآن الى تفسير شافٍ لهذه المآسي . لأنني وبالفطرة التي اكسبنيها كلام الله ـ جلَّ وعلا ـ لم أكن اتصور ، وانا مسلم القرن العشرين ،

كيف يستطيع هؤلاء السلف « الصالح » ان يقتّلوا آل البيت (ع) تقتيلا ! لكن أصحابي ، ضاقوا مني وعزّ عليهم أن يروا فكري يسير حيث لا تشتهي سفينة الجماعة . وعزّ عليهم ان يتهموني في نواياي .

وهم قد ادركوني منذ سنيّ البراءة وفي تدرجي في سبيل الدعوة الى الله . قالوا بعد ذلك كلاماً جاهلياً . لشدّ ما هي قاسية قلوبهم تجاه آل البيت (ع)[٣] .

ومن هنا بدأت القصة ! .

وجدت نفسي امام موجة عارمة من التساؤلات التي جعلتني حتماً أقف على قاعدة اعتقادية صلبة ، انني لست من اولئك الذين يحبون ان يخدعوا او ينوّموا . لا ، ابدا ، أنا لا أرتاح حتى أجدد منطلقاتي ، وأعالج مسلماتي ، فلتقف حركتي في المواقف ، مادامت حركتي في الفكر صائبة . أنا لا أتكلم عن الأوضاع الأخرى التي ضيقت علي السبيل . ولا عن إعلان البعض ـ غفر الله لهم ـ عن مواقفهم الشاذة تجاه قضية كهذه لا تحتاج الى اكثر من الحوار .

ان هذه الفكرة التي أنقدحت في ذهني باللطف الإلهي جعلتني أدفع اكبر ثمن في حياتي . وكلفتني الفقر والهجرة والأذى . . وما زادني كل ذلك إلا إيماناً واصرارا . وتذكرت قولةً شهيرة للإمام علي (ع) لما قال له احد شيعته : اني احبك يأأمير المؤمنين فأجابه : إذاً ، فأعدَّ للفقر جلباباً .

ان هذه الطريق ، طريق وعرة . فيها تتجلى اقوى معاني التضحية . وفيها يكون الأستقرار والهناء بدْعاً . فأئمة هذه الطريق ما ارتاح لهم بال ولا قرّ لهم جنان . لقد يُتّموا ، وذّبحوا ، وحوربوا عبر الأجيال ! .

ان قصتي مع الواقع الأمني والإجتماعي لا موقع لها في هذا الكتاب ، ولكن التركيز هنا ، سيكون على المسألة الشيعية ، وما دار حولها من مطارحات وسجالات .

لم تكن عندي يومها المراجع الكافية لأستقصاء المذهب الشيعي لكنني اسندت

---

(٣) ـ وان الواحد منهم يُكفّر كل حكومات مصر ، لمّا يذكر مقتل حسن البنا ، وسيد قطب . . وهم يعلمون أن الذين قتلوا الحسين (ع) وآل البيت (ع) هم أشد كفراً ونفاقاً ، لكنهم يتادبون معهم ! .

ذلك القليل الذي أملكه من كتب الشيعة بدراساتي النقدية والمعمقة ، لكتب « أهل السنة والجماعة ».

قال لي أحد المقربين يوماً :

من الذي شيّعك ، واي الكتب اعتمدتها ؟ ! .

قلت له : اما بالنسبة لمن شيعني ، فانه جدي الحسين (ع) ومأساته الأليمة ، أما عن الكتب ، فقد شيعني صحيح البخاري والصحاح الأخرى .

قال كيف ذلك ؟ .

قلت له : اقرأها ، ولا تدع تناقضاً إلا احصيته ، ولا « رطانة » إلا وقفت عندها ملّيا . . . اذ ذاك ستجد بغيتك .

كان لدي اخ أصغر مني ، يسألني باستمرار عن التشيع . وكنت أقول له : أنت تعرف كيف تقرأ ، فعليك بالبحث الشخصي ، واذا اوقفك شيء ، ساعدتك . . . فانا أضجر من أن أورّث للأخرين افكاراً جاهزة . ولعله اليوم وصل .

ويعلم الله ، أنني رسّخت قناعاتي الشيعية . من خلال مستندات أهل السنة والجماعة انفسهم . ومن خلال ما زخرت به من متناقضات . وكان الكتاب أحياناً يتعرض بالشتم والسباب للشيعة ، واذا بي أزداد بصيرة ببراءتهم ، كما لا أخفي واقع روحي التي تمزقت ، وهي تلهث خلف المخرج من هذه التناقضات ، ويشهد الخالق وهو حسبي ، أنني كنت أسهر الليالي وانا اقرأ وادعو الله ان يجد لي مخرجاً ، وكان دعائي الذي يلازمني : « اللَّهُمَّ أرِني الحق حقاً وأرزقني أتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وأرزقني أجتنابه » .

في يوم من الأيام لم يبق لي سوى أن اخلع جبة أهل السنة والجماعة . فلم يبق أمامي دليل واحد يسند مصداقية مذهبهم غير أن العادة ـ قبحها الله ـ حالت بيني وبين التغيير ، وما اصعب المرء وهو يتحول من مذهب لآخر ، وما أشد برزخ الأنتقال الإعتقادي . لابد لي إذا ، من محفز روحي يشجعني على هذا الإنتقال ، لابد من شمة رحمانية ، تكشف لي الغطاء عن الإختيار الرشيد .

كانت ليلة غنية بالطلب من الرحمان ، والإلحاح عليه ، لكشف هذه الغمة عني . فلقد أوصلني عقلي الى هذه النقطة ، ولم يبق لي إلا التوسل بالخالق الجليل .

في تلك الليلة ، رأيت رؤية ، اودعت في قلبي طمأنينة رائعة ، رأيت اني قصدت بيت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكانت عائشة هي من فتح لي الباب ، وسالتها عن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فأشارت الى انه هناك في الغرفة ، دخلت عليه ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهو مستلقٍ على فراشه يتأمل السماء ، اقتربت منه واذا به ينتبه إليّ ، فأخذ مكانه جالساً ، وسلمت عليه ، وعيني من الرّهْبِ دامعة ، وكان الطعام الذي وضعه لي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من جنس طعام العرب ، لكنه خالٍ من اللحم . كنت منشغلاً بطرح السؤال ، فأخشى ان تفوتني هذه الفرصة . فسألته عن الشيعة[٤] ومآسيهم وأن هذا حتما يؤلمه . . فطأطأ رأسه وقال لي : نعم يابني ، نعم .

ثم دعاني الى الطعام . . . فأكلت والدموع لمّا تجَفّ من عيني .

ان الأمة التي قتلت الحسين (ع) وسبت أهله الطاهرين . لا يمكن الثقة بها مطلقاً . ولا يمكنني ان أؤوّل هذه الأحداث لصالح الفكر السائد . مثلما لا استطيع تأويل الدم الطاهر بالماء الطبيعي . ان هذه الدماء التي سالت ، ليست مياهاً نهرية . إنما هي دماء أشرف من أوصى بهم النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في هذه الأمة . افقدتني الامَّةُ الثقةَ في نفسها . ومهما قالوا فانهم لن يقنعونني بأن دم الحسين (ع) لم يرق بيد مسلمين حكموا الأمة الإسلامية . وكان تعامل ائمة السنة والجماعة معهم ، تعاملاً حسناً .

الأمة التي لم ترع أبناء الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بعده ، لا يمكن أن ترعى سنته بعده . قل ما شئت . قل ان المسلمين في العهد الأول ، اجتهدوا في قتل أهل البيت (ع) وقل ان هذه الأفكار التي وردت في كتب الشيعة دخيلة ، ولا

---

(٤) ـ كانت يومها الحرب العراقية ـ الإيرانية على أشدها ، وقد بدأ العالم جميعه يلتفت الى إيران على أساس أنها العدو الأول . وسألته يومئذ عن سلامة موقف الإمام الخميني (قدس سره) فأقرني وكأنني فهمت من تأمله الحزين . . حزنه على هذه الأمة المفتونة . .

حقيقة لها في التاريخ الإسلامي . لكن هل يستطيع واحد من المسلمين ، من المحيط الى المحيط ، ان يدعي ان الحسين (ع) لم يمت شهيداً مظلوماً بأمر من أمير المؤمنين ( يزيد بن معاوية ) وبفتوى رسمية من « شريح القاضي » وسيوف الجيش الأموي الحاقد ، في بيئة ترعرع فيها فكر العامة ، وعلى أثر حدث فريد من نوعه في تاريخ الاسلام ، هو حدث تحويل الخلافة الى ملك عضوض[٥] ، حيث ينصب ( يزيد بن معاوية ) غصباً على المسلمين وان العام الذي اضطر الحسن (ع) أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية ، حقناً للدماء . سمي عام الجماعة ؟.

كلا وألف كلا . . فلا أحد يستطيع ذلك ، لأن التاريخ أبى إلا ان يبقى أميناً لقضايا المستضعفين ولو كره المفسدون .

كنت وقتذاك أبحث عن شيء واحد ، هو أن أتأكد من حقيقة العلاقة والتلازم بين الفكر الشيعي ، والأئمة من آل البيت (ع) ، وهل هم فعلاً مصدر هذه الأفكار ؟ او ان الفكر جديد كل الجدة ، ولم يكونوا قد تداولوه في عصر الائمة ؟ .

إنني ادركت بعد ذلك ، ان الأئمة كانوا أكبر من أن يتبعوا غيرهم ، وما ثبت في التاريخ الإسلامي أنْ تعلّمَ إمامٌ من أئمة اهل البيت (ع) على يدٍ عاميةٍ ، بل هم في الأغلب كانوا أساتذة لأئمة أهل السنة والجماعة ، الذين ما لبثوا أن مالوا واستكانوا لرغبة الأمراء والخلفاء ، وسكتوا عن أشياء ، وضخموا اخرى . واخضعوا فكر الأمة لغريزة « البلاط » .

والسؤال : هل ما عليه الشيعة اليوم من عقيدة وعبادات كان جارياً في عصر الأئمة ؟ .

بينما أنا اتصفح تفسير « ابن كثير » اذا بي أعثر على تفسير الآية الكريمة ﴿ **وامسحوا برؤوسكم وارجلكم** ﴾ [٦] حيث أوردَ وجهات النظر الفقهية المختلفة ، وبين القائلين بالغسل والقائلين بالمسح استحضر خطاباً للحجاج بن يوسف الثقفي ،يقول فيه بالغسل . وكان هو الخطاب الحاسم في تفسير ابن كثير

---

(٥) ـ أي من خلافة مغتصبة الى ملك عضوض أنكى وأمر .

(٦) ـ سورة المائدة ( آية : ٦ ) .

للآية الكريمة . واورد قصة عن اصحاب زيد بن علي (رض) قال ابن أبي حاتم حدثنا ابي حدثنا اسماعيل بن موسى اخبرنا شريك عن يحي بن الحرث التيمي يعني الخابر قال نظرت في قتلى اصحاب زيد فوجدت الكعب فوق ظهر القدم وهذه عقوبة عوقب بها الشيعة بعد قتلهم تنكيلا بهم في مخالفتهم الحق واصرارهم عليه[٧] وهكذا قتلوا في المعركة ومسخت جثثهم ) ، حيث انقلبت اكعابهم الى ظهر الرجل .

الله اكبر وشهد شاهد من أهلها . ان هذه الممارسة الفقهية والعبادية لم تأت من الأهواء اللاحقة ، بل كانت متداولة في عصر الأئمة ، وتحت سمع واحد من قيادات بني هاشم والمقربين الى الأئمة ، وهو زيد بن علي بن الحسين (رض) . فاذا كان ( زيد بن علي (رض) ) واصحابه مسخوا في تفسير ابن كثير ، فياتاريخ سجل ، أنني أول الممسوخين ! ان هذا ليس هو أول لغم في تراث أهل الجماعة يفجر غضبي ، ففي مقدمة ابن خلدون ، حقيقة أخرى ، يجب الوقوف على وقاحتها . اذ قال : « وشذّ أهل البيت في مذاهب ابتدعوها ، وفقه انفردوا به » ! .

ان هذا يعني ان المتهم الأول هم آل البيت (ع) الذين قال فيهم الرب سبحانه : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾[٨] .

هذان المثالان طمأناني ، على مدى تمازج « الشيعة » بآل البيت (ع) . وكانَ أهلُ البيت (ع) ايضاً موضع اتهام مع أشياعهم .

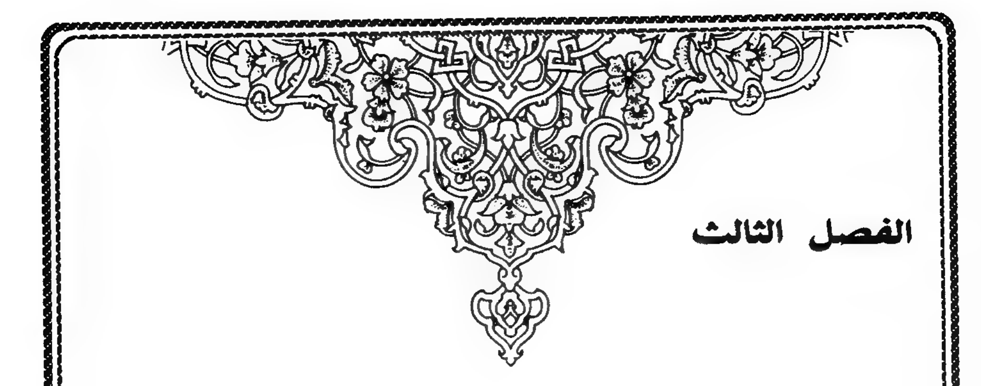
خرجت الى الساحة بقوة ، بعد أن تشبعت بكل المقومات السجالية والكلامية . وبعد ان وقفت على آخر تذرعات العامة ، وحصلت لي سجالات كثيرة ، وحوارات طوال ، مع مختلف طبقاتهم ، ويعلم الله انهم كانوا في كل الأحوال ضعيفي الحجة ، سقيميها . هزيلي المنطق عليليه . لا يصمدون امام ابسط مقولة عقلية في الحوار . كيف يُراد لي ان اسلك مذهباً يقوم على الصنمية

---

(٧) ـ تفسير ابن كثير سورة المائدة ( آية : ٢٨ ) .

(٨) ـ سورة الأحزاب ( آية : ٣٣ ) .

التاريخية . إنني ادركت منذ البداية انني لم اكن على الإسلام كما كانوا يدعون . وانما على مذهب من الإسلام إسمه « مذهب السنة والجماعة » كيف يعقل ان تلغى المذاهب الأخرى ؟ ويبقى مذهب واحد ، مستبد بعقول الناس ، ولم تكن له قدرة على الأستمرارية ، إلّا لأنه بقي مذهباً رسمياً ، لكل الدول التي تعاقبت على الخلافة في ما بعد .



## الفصل الثالث

# وسقطت ورقة التوت !

# كلمة البدء

سنحاول ضبط النفس في معركة « إعادة تحليل التاريخ » لنجنبه القراءات ذات البعد الأستعراضي . وذات التطلع الأيديولوجي . نريد أن نحلل فقط . ونركب في عمق الحدث لا خارجه . اي لا نركب من أجل نتيجة خارجة عن إطار الحدث لنجعل صورتها الحقيقية واضحة للعيان ، انا هنا أتناول المسألة « الشيعية » من وجهة نظر تاريخية ، وليس من وجهة نظر مذهبية ، اي ما هي المسألة وما خلفيات نشوئها من خلال الحدث وصورتها الحقيقة . والتحليل والتركيب ، وهما عمليتان مزدوجتان ، ليستا سوى إجراء منهجي للكشف عن الحدث ، مجردا عن الأوهام التي تعلقت به . اذاً ، نحن لا نقوم بعملية تركيبية على التاريخ الإسلامي ، وهي العملية التي تطغى على أغلب مؤرخي هذا التاريخ ، وانما نريد ان نحلل ، والعملية التحليلية ، ليست سوى تفكيك للمركب التاريخي الموضوعي ، من أجل الوصول الى أجزائه البسيطة ، التي ساهمت في تكوينة . ولهذا سنبدأ بشبهة الأطروحة « السبئية » المفتراة ، على « الشيعة » وعلى تهمة الأصل الغنّوصي ، والثنوي الفارسي للتشيع . كما ذهب نفرٌ من المؤرخين القدماء ونقل عنهم بعض المعاصرين ، من ذوي النظر الموروث .

هل أصل الشيعة سبئية ، وغنوص ، وزرادشتية ايرانية ؟ .

أظن ان الذين قالوا بذلك ، كانوا « بهلوانيين » اكثر مما هم مؤرخون ، ففي عصر استخدام العقل والمعايير العلمية ، طرح الغنوصية والسبئية يدل على ركاكة

عقل وفجاجة فكر وربما جهل أغلبهم « التاريخ » مستقلاً عن « المذهبية » ، أو مستقلاً عن المدرسة الأموية ، ولعله جهل الغنوص والزرادشتية معاً .

يحاول الكثير من المؤرخين إبراز « السبئية » كمفتاح لفهم الظاهرة « الشيعية » وذلك لأنها أقرب المفاهيم الى المؤرخ « البهلواني » حيث لا تكلفه عناء البحث فيكتفي بالقشور ، ويستنكف عن الغوص في الأعماق .

وقصة السبئية : ان رجلاً يهودياً من صنعاء باليمن ، أمه حبشية ، لذلك سمي بابن السوداء كان قد أظهر اسلامه في عهد عثمان . وخاض عملية نشر الأفكار الهدّامة ، مستعيناً بمفاهيم يهودية . وكان أحد مصادر القلاقل ، والفرقة في زمن عثمان . وعلى هذا المنوال ، حبك مؤرخون كثر أساطيرهم يقول الجابري :[1] « وان جميع من له المام بأحداث القرن الهجري الأول يعرف كيف ، أن مصادرنا التاريخية ، او بعضها على الأقل ـ المصادر السنية عموماً ـ تجعل « الفتنة » زمن عثمان ، من تدبير شخص إسمه « عبدالله بن سبأ » ، ثم قال أيضاً : « وقد أطلقت مصادرنا التاريخية على حركة المعارضة لمعاوية اسم « السبئية » نسبة الى عبد الله بن سبأ هذا »[2] . ويبدو ان الجابري الذي دخل التراث من « خشمه » لم يستطع التحرر من التقليد الموروث . فهو لم يجتهد من وراء تلك الموروثات التاريخية الجاهزة . مع أنه في مقدمة « العقل السياسي العربي » حاول جهده ليقنع القارىء ، بأنه سيعتمد ارقى ما أنتجت العلوم الإنسانية من مناهج في سبر المعرفة . بل واين هي علمويته واركيولوجيته ، التي اعتمدهما لقراءة التراث ؟ وهل « ميشل فوكو » على « أوروباويته » وماركس على « ماديته » وباشلار على « قطائعه » يستطيع ان يقرأ التاريخ من زاوية « السنة » فقط ؟ كذلك تلتقي النظرة التقليدية بالنظرة « الحداثوية » في المواقف ضد الشيعة في التاريخ . والجابري يعبر عن هذا التقليد الموروث بـ « مصادرنا » المصادر السنية عموماً !! والالمام الذي عرضه كمقدمة لطرحته « البهلوانية » هو الالمام المبتور عن جميع من له إلمام بأحداث القرن الهجري الأول . فهذا الإلمام الذي يتحدث عنه « الجابري » هو

---

(١) ـ العقل السياسي العربي ( ٢٠٧ ) .

(٢) ـ نفس المصدر ـ ٢٠٧ اقول وعلى هذا يكون علي (ع) وابو ذر (رض) السبئيان الأولان .

إلمام واحدي يناقض مفهوم « الإلمام » الموضوعي ! .

نقول للجابري انك تدعونا الى الإلمام . ولن يحصل هذا إلّا ضمن المصادر السنية ، اي المصادر المعادية للشيعة وهذا انحراف ـ موضوعي ـ يكشف عن النزوة المذهبية الجامحة .

ولذلك لا يستحي أن يتقدم بتساؤل تحليلي : « كيف نفسر الطابع الغنوصي الهرمسي الذي طغى على التشيع منذ وقت مبكر »[٣] ؟ .

فهو يفسر ، حقائق جاهزة ، ويبحث لها عن المسوغات العلموية ـ الأيديولوجية ـ من دون التفكير في طرح السؤال خلف هذه الحقائق ، ومناقشتها في ذاتها ، والى أي حد هي موضوعية ، فالبناء منذ البداية مذهبي ـ خلافاً لما أدّعاه من حياد ـ وهذا هو البؤس التاريخي كما يحترفه « حداثيو » السنة[٤] .

ولم اكن أعلم أن الجابري الى هذا المستوى من البساطة في تقبل الحقائق التاريخية ، هل هو فعلاً مخلص في طرحته ؟ ام انه يستغل الفراغ المعرفي في بيئة يحدد المذهب وعيها التاريخي . يقول بان السبئية هم أول من أطلق على علي بن أبي طالب ، لقب « الوصي » .

سوف نبيّن للجابري ، انه يرمي الكلام على عواهنه ، وبأنه لا يحسن قراءة التاريخ . فهو لم يأت بجديد بقدر ما ارتبط بمصادر أهل السنة والجماعة . مع أنه تفلسف في اكثر من قضية في التاريخ الإسلامي . فهذا ان دل على شيء فإنما يدل على العجز والكسل في التماس الحقيقة التاريخية ، عن طريق الجهد والجهاد « العلمي » . والذين استلهم منهم الجابري وغيره من المعاصرين « قذيفة » السبئية هم مؤرخو السنة فقط .

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية : « وذكر سيف بن عمر أن سبب تألب الأحزاب على عثمان أنّ رجلاً يقال له : عبدالله بن سبأ ـ كان يهودياً فأظهر الإسلام وصار الى مصر فأوحى الى طائفة من الناس كلاماً أخترعه من عند

---

(٣) ـ نفي المصدر ٢١٣ .

(٤) ـ مجلة البصائر العدد ٨ ، مشكلة التراث وأزمة المنهج ، د . الجابري نموذجاً ـ الهاني ادريس .

نفسه »[٥] .

انني لا أزال اتتبع حقيقة السبئية ، حتى وجدتها أبأس « تلفيقة » في تاريخ الإسلام . بحيث سرعان ما تلاشى تماسكها ، وتداعى صرحها التلفيقي . لينتهي الى مصدر مجهول ، كمجهولية « بن سبأ » نفسه . والذين ربطوا بين التشيع والسبئية ، ليسوا إلا مستهلكين ، لبضاعة أموية عتيقة .

يقول د. إبراهيم بيضون : « والسبئية ، اسطورة كانت أم حقيقة ، فهي على هامش التشيع ومتناقضة في الصميم مع الفكر الشيعي ، بخلفيته السياسية البحتة »[٦] .

لقد أجاد المؤرخون السنة ، تقنية التصوير التاريخي ـ التركيبي ـ حينما جعلوا من « عبد الله بن سبأ » صورة تبلغ حد الأسطورة . بحيث جعلوا منه شخصية قادرة على النفوذ في اللاشعور الاسلامي . لإعادة تشكيله . وجعلوا منه مرجعاً لأفكار كانت هي المرتكز الأساسي للمعارضة ، التي تزعمها كبار الصحابة ، ضد عثمان ! .

ولمّا كانت معارضة عثمان ، ذات مسلك جماهيري ، تقدمه رجال من كبار الصحابة ، حاول المؤرخون السنة ، التلفيق على عاداتهم والتهجم على أحد أكابر الصحابة ، وهو أبو ذر الغفاري واعتبروا عبدالله بن سبأ ، هو ملهم افكار أبي ذر ( رض ) وهو الذي حرضه على معاوية بالشام ، وبالتالي على خلافة عثمان . وهم يريدون بذلك القول بأن اباذر (رض) لم يكن على بينة من دينه . وكان يحتاج الى رجل يهودي ، حديث الإسلام ، ليعلمه أحكام الدين . وليلقنه شعارات قرآنية كقوله تعالى ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾[٧] .

وأبو ذر (رض) المعروف بتشدده في الدين الى درجة الرفض المطلق لأراء الخلفاء ، لم يكن كما صوره اولئك الذين كانوا يريدون تبرير كل الأحداث التي

---

(٥) ـ البداية والنهاية ( ٧ / ١٦٧ ) .

(٦) ـ الدولة الأموية والمعارضة ٤٥ .

(٧) ـ سورة التوبة ( آية : ٣٥ ) .

وقعت في عصر عثمان واختزالها ، بنوع من التعسف ، في حركة موسادية ، لعبد الله بن سبأ . يقول د . طه حسين :

« ومن أغرب ما يروى من أمر عبد الله بن سبأ هذا أنه هو الذي لقن أبا ذر نقد معاوية فيما كان يقول من أن المال هو مال الله وعلمه ان الصواب ان يقول إنه مال المسلمين . ومن هذا التلقين الى أن يقال أنه الذي لقن أبا ذر مذهبه كله في نقد الأمراء والأغنياء وتبشير الكانزين للذهب والفضة بمكاوٍ من نار ، وما أعرف إسرافاً يشبه هذا الأسراف »[8] .

ثم يستطرد قائلاً :

« فما كان أبو ذّر في حاجة الى طارىءٍ محدث في الإسلام ليعلمه أن للفقراء على الأغنياء حقوقاً . وان الله يبشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بعذاب أليم ، لم يكن ابو ذر بحاجة الى هذا الطارىء ليعلمه هذه الحقائق الأولية من حقائق الإسلام . وابو ذر سبق الأنصار جميعاً وسبق كثيراً جداً من المهاجرين الى الإسلام . وهو قد صحب النبي فأطال صحبته ، وحفظ القرآن فأحسن حفظه ، وروى السنة فأتقن روايتها . وعرف من الحلال والحرام ما عرف غيره من أصحاب النبي الذين لزموه فأحسنوا لزومه »[9] .

ولكي يتبين لنا ما اذا كان أبو ذر الغفاري (رض) في حاجة الى من يعلمه الدّين من أهل الكتاب المندسين ، نتأمل ما جاء في الرواية : « إن ابا ذر قال ذات يوم لعثمان بعد رجوعه من الشام الى المدينة : لا ينبغي لمن ادّى الزكاة ان يكتفي بذلك حتى يعطي السائل ويطعم الجائع وينفق من ماله في سبيل الله . وكان كعب الأحبار حاضراً هذا الحديث ، فقال : من ادّى الفريضة فحسبه فغضب ابو ذر ، وقال لكعب : ياابن اليهودية ما أنت وهذا . أتعلمنا ديننا ! ثم وجأه بمحجنته »[10] .

يقول د . طه حسين ، معلقاً على هذه الرواية : « فأعجب لرجل من أصحاب

---

(٨) ـ اسلاميات ( ٧٦١ ) .

(٩) ـ نفس المصدر ( ٧٩١ ) .

(١٠) ـ مروج الذهب ( ٢ / ٣٣٩ ) .

النبي ينكر على كعب أن يجادل في الدين ، ثم يتلقى الدين نفسه عن عبد الله بن سبأ »[11] ، ثم قال :

« وما اكثر ما شنع خصومُ الشيعة على الشيعة »[12] .

وهكذا تقتضي السياسة ، ان يتحول ابو ذر الغفاري (رض) الى رجل مراهق ، مشاغب ، يتحرك بالوشاية . يقول الطبري :

«ان ابن السوداء لقي اباذّر فأوعز إليه بذلك ، وإنّ ابن السوداء هذا أتى أبا الدّرداء ، وعبادة بن الصامت فلم يسمعا لقوله ، وأخذه عبادة الى معاوية وقال له : هذا والله الذي بعث إليك اباذر » .

وقد ذكرت روايات ابن سبأ في غير مكان من تراث أهل السنة والجماعة . فقد ذكره ابن خلدون في مقدمته ، وابن الأثير في تأريخه وابو الفداء في مختصره .

إننا لم نعثر على تفاصيل شافية في هذا الباب ، تخلو من التناقض او نقص في الإسناد . اذ أن خبر « ابن سبأ » لم يجرِ في كتب التاريخ الكبرى مجرى المتواترات . بل وان كثيراً من كتب التاريخ المهمة التي ذكرت احداث هذه الحقبة ، لم تشر إليه . يقول طه حسين[13] :

ويخيّل إليّ ان الذين يكبرون من أمر ابن سبأ الى هذا الحد يسرفون على انفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً . وأول ما نلاحظه انا لا نجد لأبن سبأ ذكراً في المصادر المهمة التي قصّت أمر الخلاف على عثمان ، فلم يذكره ابن سعد حين قصَّ ما كان من خلافة عثمان وانتقاض الناس عليه . ولم يذكره البلاذري في « الأنساب » وهو فيما ارى أهم المصادر لهذه القصة واكثرها تفصيلاً . وذكره الطبري عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر .

إن خبر « عبدالله بن سبأ » تقلص في تسلسله النهائي ، ليستقر في مصدر واحد ، هو « سيف بن عمر » ، وان كل من قال بهذا الرأي إنما رجع إليه من دون

---

(١١) ـ اسلاميات ( ص ٧٦٠ ) .

(١٢) ـ نفس المصدر السابق .

(١٣) ـ نفس المصدر ( ص ٧٦٠ ) .

استشكال . فإبن الأثير ، هو واحد من الذين قالوا بفكرة « السبئية » أخذها من أبي جعفر الطبري . يقول ابن الأثير : « فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام ابو جعفر الطبري ، اذ هو الكتاب المعوّل عند الكافّة عليه ، والمرجوع عند الإختلاف إليه ، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه . لم أخل بترجمة واحدة منها »[١٤] .

اما ابن خلدون فقد أخذها هو أيضاً من أبي جعفر الطبري . حيث قال ( في التاريخ ) « هذا أمر الجمل ملّخصا من كتاب ابي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به ولسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين . وابن كثير يرجع في ذلك نفسه حيث قال : « هذا ملخص ما ذكره ابو جعفر بن جرير رحمه الله » ، وكل الرواة الذين اخبروا عن « عبدالله بن سبأ » أخذوها من الطبري ، او ابن عساكر ، أو الذهبي ، سواء المتقدمين منهم كأبن كثير وأبي الفداء وابن الأثير وابن خلدون ، او المتأخرين من أمثال رشيد رضا ، وحسن إبراهيم ، واحمد أمين .

وكل اولئك الذين أخبروا عن عبدالله بن سبأ من الطبري[١٥] ، وابن عساكر[١٦] ، والذهبي[١٧] ، فانهم رجعوا في ذلك الى مصدر أحادي ، هو « سيف بن عمر التميمي » الذي توفى بعد ( ١٧٠ هـ ) . وبعد ان تبين للقارىء ان سادتنا المؤرخين آجتمعوا كلهم في نهاية المطاف عند مستقر « سيف بن عمر التميمي ، جاء الوقت لكي نقف وقفة مع ترجمته ، فمن هو سيف بن عمر » ؟ ما قصته ؟ وكيف أنفرد بخبر « عبدالله بن سبأ » دون غيره من المؤرخين وأهل الأخبار ؟ .

---

(١٤) ـ تاريخ ابن الأثير ( ١ / ٥ ) .

(١٥) ـ الطبري في سنده ، يرد القصة في تاريخ الأمم والملوك قائلاً : « كتب بها عليّ السّرّي يذكر أن شعيباً حدّثه سيف عن عطية عن يزيد الفقعسيّ قال : لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر ، فقال ياأباذّر الا تعجب لمعاوية » .

(١٦) ـ ابن عساكر يذكر القصة في تاريخه بهذا السند : « أخبرنا أبو القاسم السمرقندي . أن أبا الحسين النقّور . أن أبا طاهر المخلّص . ان أبا بكر بن سيف أن السّريّ بن يحيى ، أن شعيب بن إبراهيم ، أن سيف بن عمر » .

(١٧) ـ أما الذهبي فسنده في القصة « وقال سيف بن عمر عن عطية عن يزيد الفقعسيّ ، لّما خرج ابن السوداء الى مصر . . » .

الظاهر ، هو أن « سيف بن عمر » هذا الذي عرف بالنوادر القباح ، في رواياته ليس رجلاً مقبول الرواية ، وقد عرّفه الطبري بأنه ـ سيف بن عمر ـ التميمي الأسدي . قيل كان كوفياً . حسب ما ورد في ـ تهذيب التهذيب ـ وكانت وفاته بعد السبعين والمائة ببغداد في أيام الرشيد . وله مؤلفات كـ« الفتوح الكبير » و « الردّة » و « الجمل ومسيرة عائشة وعلي » ، وترفض منه الرواية من قبل جمهور من المحدثين . ولا اعلم له فيما اعلم ، من وثق روايته . ومن هؤلاء النسائي الذي ضعفه ، وقال : متروك الحديث ليس بثقة ، ولا مأمون . وتركه الحاكم ، وقال : « متروك ، أتهم بالزندقة ، وكذّبه ابو داود وقال : ليس بشيء ، كذّاب » .

وقال ابن حجر عن رواة حديث ورد سيف في سنده : « ضعاف وأشدهم ضعفاً سيف » . وقال فيه ابن عبد البر : « سيف متروك وانما ذكرنا حديثه للمعرفة » وقال ابن حبان : « يروي الموضوعات عن الأثبات ، أتهم بالزندقة » وقال : « قالوا : كان يضع الحديث »(١٨) .

ومما أخذ على سيف بن عمر ، أنه صاحب الغرائب في الأخبار ، وهو صاحب مسلسلة من الروايات الشاذة عن منطق العقل والشرع ، ومن بين تلك الروايات ، ما ذكره عن عمر وتجويزه لزوجه « أم كلثوم » الجلوس أمام الرجل الأجنبي . وهو صاحب رواية « فتح سوسة » التي فتحها المسلمون بفضل الدّجال « ابن صياد » وحديث « الى الجبل ياسارية » عن عمر بن الخطاب اذ ذكر انه خاطب الجيوش من خلف مسافات طويلة . . وما شابه ذلك من الأساطير التي ضعفها المحدثون .

وابن سبأ هذا الذي انفرد ـ سيف بن عمر ـ بخبره ، كان مجهول الأثر . ولم يُعرف عنه في « الأنساب » ، أصل . وكل ما قيل حوله انه يهودي من صنعاء بينما أسمه مبهم ، اذ هناك عشرات من عبد الله ، ينتسبون الى « سبأ » يمكن ان نطلق عليهم هذا الاسم ولا نعلم هل أُريد به « عبدالله السبائي » الذي كان في عهد الإمام علي (ع) وهذا لم يكن شيعياً ، بل كان رأس الخوارج الذين قاتلوا علياً (ع)

---

(١٨) ـ راجع : عبدالله بن سبأ وأساطير أخرى .

وحاربوه . بل مما ورد ايضاً ، ان السبئية لم تكن تعني في القاب القدماء ، سوى « القبلية » المنسوبة الى سبأ بن يشجب . ولم تتحول الى عنوان مذهبي ، سوى في العهود المتأخرة ، وبالأقلام التحريفية . وهكذا يتحول في الكتابة التاريخية عبد الله السبائي الخارجي الى عبد الله بن سبأ الأسطوري . الذي غالباً ما كان يطلق على أحد الصحابة الإجلّاء كما سنرى .

والغريب في الأمر أنهم نسبوا فكرة « الوصية » و « العصمة » الى عبد الله بن سبأ ، وقالوا بأنه أوّل من قال بها . وانه استلهمها من الفكر اليهودي . ولست ادري متى كان اليهود يعترفون بالعصمة لأنبيائهم ، وبالأحرى لأوصيائهم . واليهود اكثر الملل تقتيلاً لأنبيائها . وليس في الكتاب « المقدس » لهم سوى التهوين والتقليل من قداسة الأنبياء . وفي سفر التكوين ( الأصحاح ١٩ ) نرى كيف ان النبي لوط لمّا صعد من صوغر ، وسكن في الجبل وابنتاه معه . وانه بات ليلتين في جماع مع ابنتيه ، بعد ان سقي خمراً ، وان البنت البكر ولدت منه ابنا اسمه موآب ، وهو ابو الموآبيين الى اليوم . وولدت الصغرى من ابيها ولداً ، وسمّته « ابن عمي» وهو ابو بني عمون الى اليوم وهذه وقصص اخرى مثل قصة ثامار مع حموها يهوذا التي وردت في سفر التكوين ( إصحاح ٣٨ ) ، التي تبين ان كلاً من موسى وهارون ينحدران من الحرام « وثمار » هذه التي انوجدت في شجرة يسوع واعتبرت من اصوله التي انحدر منها وهي « زانية » خدّاعة ! كما في جينيالوجيا اليسوع لدى « متى » وغيره[١٩] ، والعياذ بالله .

فهذه هي العصمة المعروفة عند اليهود بخصوص انبيائهم وأوصيائهم وامتدت الى المسيحية نفسها . ولست أعلم ، اي غباء وجهل يجعل البعض يصدق أن عصمة الأوصياء ، هي من وحي العقيدة اليهودية ـ المزعومة ـ لعبد الله بن سبأ .

إنني ما زلت أبحث عن هذا الشخص الأسطوري الهارب بين فجاج التاريخ « المفبرك » واضرب الرأي هنا بالرأي هناك ، عسى ان أحصل على صواب يشفي غليلي من الجهل ونهمي الى اليقين ، من هذه الأمية التاريخية . ويجعلني أعبد الله

---

(١٩) ـ أي جعل ثمار ضمن « الشجرة » المنسوبة لعيسى ، دون أن يلتفت الى أن عيسى ليس له أب حتى يحصل له نسب ، وهذه أيضاً من تأثير العقيدة اليهودية على النصرانية .

على يقين من أمري .

من هو عبدالله بن سبأ ـ الأسطورة ـ ؟ من هو الشخص الذي تحول بفعل التحريف والتصحيف الى ابن سبأ الغامض ؟ .

أقول ، وللصراحة ، ان اسطورية ـ ابن سبأ ـ لم تشف غليلي ايضاً . ولابد من البحث في ملفها ، بآليات حفر دقيقة . لأنها لم تأتِ من فراغ . إنها مادة إعلامية ـ تشهيرية ـ ووراءها أجهزةٌ تاريخية ـ ايديولوجية . فمن وراءها ؟ ولماذا ؟ تثبت الروايات ، ان عبد الله بن سبأ . كان معروفاً لدى السلطة في عهد عثمان . وبالضبط لدى معاوية . بشهادة الرواية التي تؤكد على وجوده ، ومعرفة معاوية به كما تقدم . فقد اورد الطبري : ان ابن السوداء لقي اباذّر فأوعز إليه بذلك . وان ابن السوداء هذا أتى أبا الدّرداء ، وعبادة بن الصامت فلم يسمعا لقوله ، وأخذه عبادة الى معاوية ، وقال له : هذا والله الذي بعث إليك اباذّر .

وعلى الرغم من اكتشافهم له . لم ينالوا منه ، ولا ذكر التاريخ انه تعرض للعقوبة في زمن عثمان ومعاوية . بل ما اكدته اخبارهم ، أنه قتل في عهد علي . وما زلت اتساءل فيما اذا كان هذا زهداً في الجهاز الأموي تجاه اخطر شخصية ـ وهمية ـ تهدد مواقع الأمويين ، وخلافة عثمان . لم أقوَ على استساغة أن « شبق » السلطة الذي أعماهم الى درجة النيل من كبار الصحابة وقتل آل البيت النبوي « ع » كيف زهدّهم في النيل من شخصية مثل ـ ابن سبأ ـ لا وزن له في الوجدان الإسلامي يومئذ ، او اذا رفضنا هذا التصور ، يمكن افتراض ان الجهاز الأموي كان مقرّا بهذه المؤامرة ، التي يتزعمها هذا اليهودي ، او ربما كانت لهم يد فيها . وعلى أي حال فان الوقائع التاريخية ، تؤكد ، بان العنصر « الفتّان » الذي اطلقوا عليه اسم ـ عبد الله بن سبأ ـ لم يكن إلا معارضاً قوياً ، له وزنه في المجتمع الإسلامي . وما دام عبد الله بن سبأ ـ الشخص الأسطوري ـ لم نعثر عليه ضمن لأئحة المحكوم عليهم بالعقوبة والتعزير في زمن عثمان . كان من المنطق الذي يدخل في الأعتبار عامل « اللعبة السياسية » الأموية ، ان نبحث عنه ـ حقيقة ـ بين اشخاص المعارضة الرئيسين ، الذين طالتهم يد عثمان بالانتقام . فمن هم هؤلاء الذين شكلوا جبهة معارضة في زمن عثمان ، ونالوا حقهم من القمع الأموي ؟ .

لقد ثبت عند المؤرخين ان الذين تزعموا حركة المعارضة في عهد عثمان هم رجال الصحابة ، ومنهم ابو ذر الغفاري وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر ، وابن مسعود . . « وعدد آخر من الصحابة سنتطرق إليهم اثناء الحديث عن خلافة عثمان . وكان عمار بن ياسر (رض) رجلاً نشيطاً ، ومزعجاً للأمويين ، وعثمان ، مما حدا بهم الى وضعه في منطقة الضوء ، والتفكير في التخلص منه . وكان المانع لهم من قتله جهاراً أو فرض العقوبة عليه ، هو كونه غدا مقياساً في وجدان المسلمين للهدى والضلالة ، منذ رسخ في ذلك الوجدان ان ابن سُميّة ، تقتله الفئة الباغية » وانه ليس من مصلحة الطغمة الأموية يؤمئذ أن تتخذ ضده الأجراءات الحاسمة وتدخل معه في نزاع مباشر ، اذاً لسقطت إعلامياً ، وخسرت باقي الجولات . وكان مما حفظه المسلمون يومها من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ـ ابن سمية ـ عمّار تقتله الفئة الباغية . ويدلنا على هذه « المعيارية » ما ذكره ابن الأثير :[٢٠] ، عن عُمارة بن خزيمة بن ثابت قال :

شهد خزيمة بن ثابت الجمل وهو لا يسلّ سيفاً . وشهد صفين ولم يقاتل وقال : لا أقاتل حتى يقتل عمار ، فانظر من يقتله فاني سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول : « تقتله الفئة الباغية » فلما قتل عمّار قال خزيمة « ظهرت لي الضلالة » ثم تقدّم حتى قتل . وكان الجهاز الأموي السري يدرك مدى الخطورة التي ستواجهه فيما لو أتخذ تدابير قمعية مباشرة ضد عمّار بن ياسر (رض) ، والحديث الذي اشتهر عندهم ، كان أحد رواته « ابو هريرة » وهو أحد أنصارهم . لذلك سيحاولون عدم الوقوع في التناقض ، فيما اذا أقدموا على مواجهة عمّار .

وعمّار بن ياسر (رض) كان أكثر استفزازاً لعثمان وحاشيته . ومؤلبا عليه لا يفتر عن كشف مساوئه للناس .

وفي سنة خمس وثلاثين ـ على حد تعبير المسعودي ـ « كثر الطعن على عثمان (رضي الله عنه) وظهر عليه النكير لأشياء ذكروها من فعله » ثم ومن ذلك ـ ذكر المسعودي :[٢١] ما نال عمّار بن ياسر من الفتن والضرب ، وانحراف بني مخزوم

(٢٠) ـ أسد الغابة ( ٣ / ٦٣٢ ) .

(٢١) ـ مروج الذهب ( ٢ / ٣٤٧ ) .

عن عثمان من أجله » ، واستمرت تحركات عمّار بن ياسر ، في صفوف الناس ، لاتثنيه عن مسؤوليته ، هيبة الأمويين ، ولا صولجان سلطانهم . وقد تلقّى غير مرة تهديداً مباشراً من قبلهم ، فما منعه ذلك من مواصلة نشاطاته المعارضة لعثمان ومن حوله من أزلام أموية . « لقد قدم معاوية بن أبي سفيان من الشام بعد ان أحس بمن يعارض عثمان فأتى مجلساً فيه علي بن أبي طالب (ع) ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوّام ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمّار بن ياسر ، فقال لهم : يامعشر الصحابة : أوصيكم بشيخي هذا خيراً « عثمان » ، فوالله لئن قُتِلَ بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلاً ورجالاً ، ثم أقبل على عمّار بن ياسر وهذا التخصيص له اسبابه التي ذكرناها سابقاً فقال : « ياعمّار ، إن بالشام مئة ألف فارس ، كلّ يأخذ العطاء ، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون عليّاً ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته . . فأياك ياعمّار أن تقعد غداً في فتنة تنجلي ، فيقال هذا قاتل عثمان ، وهذا قاتل عليّ »[٢٢] .

وهذا التحذير لم يحد من تحرك عمّار ، في الكشف عن عورات الجهاز الأموي في خلافة عثمان . لقد جاء معاوية ووجه خطابه لجماعة من الصحابة . ثم خصّ عماراً بخطاب تقريعي ، يحذره فيه من مغبّه الأستمرار على « تحريضه » ( فإياك ياعمّاران تقعد غداً في فتنة تنجلي ) وكان على معاوية ، ان يركّز على رأس الحربة ـ عبد الله بن سبأ ـ فيما لو كان هو المحرض الحقيقي ضد عثمان . غير أنه ركزّ على عمّار . . وفي ذلك لغز واضح .

ومن ذلك ما ذكر ابن قتيبة : « ثم تعاهد القوم ليدفعنّ الكتاب في يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمّار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة : فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه الى عثمان ، والكتاب في يد عمّار جعلوا يتسللون عن عمّار ، حتى بقي وحده ، فمضى حتى جاء دار عثمان ، فاستأذن عليه ، فاذن له في يوم شات ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية ، فدفع إليه الكتاب فقرأه . فقال له : أنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال : نعم قال : ومن كان معك ؟ قال كان معي نفر تفرقوا فرقاً منك ، قال : من هم ؟ قال : لا أخبرك

(٢٢) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٣٨ ) .

بهم . قال : فلم اجترأت عليّ من بينهم ؟ فقال مروان : ياأمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود ( يعني عمّار » قد جرّأ عليك الناس . وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه ، قال عثمان : اضربوه ، فضربوه وضربه عثمان معهم . حتى فتقوا بطنه ، فغشي عليه ، فجرّوه حتى طرحوه على باب الدار ، فأمرت به أمّ سلمة زوج النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فأدخل منزلها ، وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم ، فلما خرج عثمان لصلاة الظهر ، عرض له هشام بن الوليد بن المغيرة ، فقال : اما والله لئن مات عمّار من ضربة هذا لأقتلنّ به رجلاً عظيماً من بني أمية ، فقال عثمان : لست هناك »[٢٣] .

وكان هذا إشارة الى ما قام به عمّار من تشويش على الجهاز الأموي . كما كشف عن الجرأة التي كان يمارسها عمّار تجاه اقطاب السلطة في عصر عثمان . وبقي عمّار مناوئاً للأمويين ، لا يخشى في الحق لومتهم .

وكان عثمان قد أمر بجمع القرآن وحرقه ، والإبقاء على مصحف رسمي موحد ، وكانت في مصاحف الصحابة ، حواشٍ تتخللها ، هي بعض ما تلقوه من تأويل عن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، من اولئك ابن مسعود الذي أشتهر بمصحفه وأبى ابن مسعود أنْ يُسلّمَ مصحفه الى عبد الله بن عامر وكان بالكوفة .

وفي تاريخ اليعقوبي : « فدخل ابن مسعود وعثمان يخطب » فقال عثمان : « إنه قد قدمت عليكم دابّةُ سوء ، فكلّمه ابن مسعود بكلام غليظ فأمر به عثمان ، فجُرّ برجله حتى كُسر له ضلعان . فتكلّمت عائشة ، وقالت قولا كثيراً . . الخ »[٢٤] .

وظل ابن مسعود مستاءً من سياسة عثمان ، حتى وافته المنية . وفي ذلك يورد اليعقوبي : « فأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفي ، وصلّى عليه عمّار بن ياسر . وكان عثمان غائباً فُستر أمرهُ . فلما انصرف رأى عثمان القبر ، فقال : قبر من هذا ؟ فقيل : قبر عبد الله بن مسعود . قال : فكيف دُفِن قبل أن أعلم ؟ فقالوا : ولي أمره عمّار بن ياسر ، وذكر أنّه أوصى الاّ يخبر به ، ولم يلبث إلاّ يسيرا

---

(٢٣) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٣٣ ) .

(٢٤) ـ تاريخ اليعقوبي ( ٢ / ١٧٠ ) .

حتى مات المقداد . فصلّى عليه عمّار ، وكان أوصى إليه ، ولم يؤذن عثمان به ، فاشتدّ غضب عثمان على عمّار ، وقال : ويلي على ابن السّوداء ! أما لقد كنت به عليّاً »[٢٥] .

فهذا الإزعاج المستمر للسياسة الأموية ، وهذا التحدي الدائب الذي كان يسجله « عمّار » كان لابد له من حلّ . على ان يكون حلاّ سياسياً ، يجّنب الأزلام الأموية ، مخاطر التصفية الجسدية . وكان عثمان أوّل من استخدم ـ في سبابه لعمار ـ لقب ابن السوداء . وهذا التعبير ، أوقع الخليفة في مطبّات جسام . فأولاً ، هذا اللمز لأمّ عمار ، وهي اوّل شهيدة في الإسلام . ثانياً إطلاقه هذا الأسم كانت له امتدادات سيئة ، بحيث أضحى ـ هذا اللقب ـ أسما رسميا ، لعمّار ، تتداوله ، العناصر الأموية . وكان ان تطورت الحالة الى أن تم تصحيف « ابن السوداء » عمّار الى « ابن السوداء » السبئي ـ الأسطورة ـ الذي صاغوا له قصصاً في نوادرهم الغريبة .

فابن سبأ هذا الذي يقال ، أنه أول محرض ضد عثمان ، لم يثبته التاريخ والظاهر من السير والتواريخ ، ان المعارض الأول و « المشاغب » والمحرض السياسي الرئيس ضد خلافة عثمان ، كان هو عمّار بن ياسر . وهو البادىء للناس سوءات الحكم ، والذي تلقى التهديدات ، لأنه من الصعوبة ان يتعرضوا له بالقتل المباشر ـ للأسباب التي ذكرناها ـ وهو المكنىّ عند عثمان وحاشيته الأموية ، بابن السوداء ، وهو الذي كانت له رابطة خاصة بالإمام علي (ع) وآل البيت (ع) وعلى هذا الأساس تنقشع غيوم « البؤس » التاريخي المتلبس بأيديولوجيا البلاط الأموي . وهكذا تنكمش « تلفيقة » السبئية ، لتلقى على كاهل محرّف وضّاع ، مرفوض الرواية ، وهو سيف ابن عمر ، وتتوضح بعدها الأسباب التاريخية لنشوء « فكرة السبئية » وتنقشع الغيوم ولاتنقشع على الذين مازالوا ممسكين بالعظام التاريخية . لقد تبين لي ان في تاريخنا مبدعين ، لايعجزون عن حبك الأساطير في أرقى خيالاتها . لقد كان للسياسة في تاريخنا خيال ، يظللها من الشموس الكاشفة .

---

(٢٥) ـ نفس المصدر السابق .

وليست هذه أول خرافة ، تلقى بهذا الشكل « التهريجي على التشيع » بل هناك أخريات من تلكم الشبهات المحبوكة بالأصابع المأجورة والمسيئة ، بالترغيب والترهيب الأموي ، لابد من الوقوف على هزالها .

# الزرادشتية الايرانية والتشيع

لم يكتف خصوم الشيعة بشبهة ـ السبئية ـ فحسب بل أوردوا شبهات أخرى دعموا بها مسلمتهم الأيديولوجية . ومن تلك الشبهات الكثيرة والمتناقضة تهمة « التأثير الفارسي في التشيع » .

يقولون بأن الفرس مازالوا يحتفظون بالعداوة للعرب ، ولذلك تبنوا نظرية المعارضة ، وجهدوا من أجل بلورتها وإعادة صياغتها . فكان أن أدخلوا في التشيع افكاراً زرادشتية ، كتلك التي تضفي على الأئمة طابعاً خاصاً كالعصمة ، والوصية .

وقالوا بأن ذلك منسجم مع ديانتهم ، التي تعتبر « الملوك » ذوي خصائص تفوق عامة الناس .

وكان تمسكهم بخط أهل البيت (ع) وميلهم إليهم يعود الى القرابة التي تجسدت في تزاوج الأئمة بالفرس « كشهربانويه » الفارسية الساسانية ، بنت الملك « يازدجرد » آخر ملوك الساسانيين . والتي أنجب منها الإمام الحسين (ع) الإمام زين العابدين (ع) ، وهذه الشبهة ، كشبهة « السبئية » يمكن ان تؤثر على عقول مفلسة في المعرفة التاريخية . وليس ثمة عاقل يستطيع ادعاء هذه « الشبهة » من دون « رطانة » .

فلابد ان يفتشوا لنا في التشيع عن مواطن تجلي الفكر « الثنوي » الفارسي ، واين مقولتا النور والظلمة اللتان تعتبران ركناً في العقيدة الثنوية الفارسية ، وأساساً

للمذهب الزرادشتي[٢٦] ؟ ! .

وربما قالوا ، إن هذا الفكر ، تسرب بفعل التأثير الغنوصي على التشيع . والذين لفقوا فكرة « الغنوصية » والقوها على التشيع : هم بلا شك قوم سطحيون . أو كسالى لا يتعبون انفسهم ، لاقناع أتباعهم . ولعل وجود بعض نقاط التشابه والتجانس في بعض مفردات الأديان والفلسفات ، يجعل بعض قصار النظر يتهمون التشيع بالغنوصية او الزرادشتية .

والظاهر ان الذين نسبوا التشيع الى الحركة الغنوصية هم الذين اطلعوا على الجانب « العرفاني » من التشيع ، كما تجلى في اسفار صدر المتألهين ، وكذلك عند السهروردي . . وليست الغنوصية في اصطلاحها الأول سوى ـ جنوسيس ـ العرفان ، وهو الإسم الذي أطلقه الغنوص على انفسهم في القرن الثاني للميلاد . وهو مذهب منتقى من كثير من الأتجاهات الفلسفية والدينية ، كالزرادشتية والأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية ووجود اشكال من الأعتقادات كوحدة الوجود ، وهي اساس الأعتقاد الثنوي الزرادشتي ، وهذا لا يعني ان التشيع هو صنيعة لهكذا مذاهب . اذ ان العرفان الشيعي كالتصوف السني ، لا يمثل اساس المذهبين ، وان العرفان الشيعي لايختلف عن التصوف السني ، فهذا الأخير ، منه تأثر العرفانيون الشيعة . وابن عربي المالكي السني ، اكثر الذين قالوا بوحدة الوجود ، وكذا ابن سبعين .

أما باقي الأفكار الغنوصية ، كالهلّانية ، والفيثاغورية . . فليس لها أثر على التشيع إطلاقاً . بقدر ما توجد بعض مفرداتها في المذاهب الأخرى ، ولم اكن اتصور كيف ربط بعض « مهرجي » التاريخ ، بين التيار الفارسي والشيعي ، معتبرين الأول أساساً وروحاً للثاني . ولم نفهم بعد ذلك اين كان الفرس يوم الجمل وصفين ، والنهروان وكربلاء . . وهي حروب اسلامية بين الشيعة ومعارضيهم من العرب .

---

(٢٦) ـ ذلك لأنهم أستبعدوا أنْ يوجد إله واحد خالق للخير والشر معا . فابتدعوا إلهاً للخير ( النور ) وآخر للشر (آله الظلمة ) ومنها يفيض باقي الخيرات أو الشرور . ومن ثم يرى البعض أن وحدة الصدور أو الخلف لها اثارها في الفكر الثنوي ، راجع « العدل الإلهي » لمرتضى المطهري .

ويرى اصحاب هذه الرؤية ، ان سبب ذلك راجع ، لضعف الفرس أمام العرب ، وعجزهم عن الأستقلال الذاتي . فكانوا يعملون على دعم تيار أهل البيت (ع) من أجل القضاء على دولة الخلافة كتمهيد لاستقلالهم ، بينما التاريخ يثبت ان الفرس استطاعوا بعد مئة سنة من فتح « فارس » بناء قوة عسكرية . هذه القوة هي التي أسقطت الدولة الأموية وسلمتها للعباسيين . وكانوا حريين بأن يستبدوا بها ، او على الأقل ، يلتمسوا من خلالها استقلالهم الذاتي . ولم يكن الفرس يخططون للأستقلال عن الخلافة الآّ في العصور المتأخرة ، حيث بات وضع الخلافة نزّاعاً الى العروبة اكثر من التزامه الإسلامي وبعد ما واجهه الأعاجم من مضايقات وانتهاكات لحقوقهم في ظل الخلافة العثمانية المتأخرة .

وبقي أغلبية المجوس على دينهم طوال الخلافة ، حتى اذا استقلوا دخل اغلبهم الى الإسلام ، وحسن ايمانهم ، فقد بدأ الأستقلال السياسي منذ اوائل القرن الثالث الهجري ، وكان كثير من الفرس باقين الى ذلك الحين على ما لهم من دين من المجوسية والمسيحية والصابئية وحتى البوذية[٢٧] ، بينما ايران في زمن استقلالها ، وبالضبط في العهد الصفوي ، دخل أغلبها الإسلام[٢٨] .

وبقي الفرس المسلمون ، متشددين ضد الأفكار الثنوية والمجوسية الى ان اسقطوا آخر قلاع الأمبراطورية الإيرانية ليعيدوا للإسلام مجده ويحرروا « اللغة » و « التاريخ » العربيين من الأسر « الشاهنشاهي » ، ولم تكن لدى الفرس مواقف غير متوازية في تعاطفهم مع الأئمة (ع) وأمهاتهم . ولم تكن « شهربانويه » بأفضل من « نرجس الرومية » أم الإمام المهدي ، في التصور الفارسي الإسلامي[٢٩] .

لقد بدأ الأنحراف يبدد التصور الأموي والعباسي ، للعنصر الأعجمي ، وظنا أنهما ملكاً الشعوب والأعراف الأخرى ، بعروبتها وإسلامهم . فراحا ، يُكبران أمر العروبة ، فارضين أعرافهما على الشعوب الأخرى . والعنصر الفارسي العريق

---

(٢٧) ـ إيران والإسلام ٩٣ .

(٢٨) ـ الذين أعتمد عليهم الأمويون في قتل آل البيت كانوا عناصر أعجمية ومنهم بعض الفرس كشمر بن ذي الجوشن ، الذي قطع رأس الحسين (ع) فقد كان فارسياً .

(٢٩) ـ المصدر السابق .

في الحضارة والتمدن ، لم يكن ليسمح للعربي بأن يستذله ويستعبده . لذلك اشرابت الفتنة بعنقها ، وأطلت ، فانبعث الصراع بين النزوع الأموي وبعده العثماني ـ القومي ـ وبين النزوع الفارسي ، الذي كان مستاءً من الأنحراف في الخلافة ، منحازاً بذلك الى محور آل البيت (ع) . يقول الأستاذ مرتضى المطهري [٣٠] :

« وان اكثر أهالي طبرستان وشمال ايران كانوا لم يتعرّفوا على الإسلام الى ما بعد القرن الثالث ولذلك فهم كانوا يحاربون عساكر الخلفاء . وبقي اكثر أهالي كرمان الى ما بعد عهد الأمويين على المجوسية . وكان اكثر أهل فارس وشيراز على عهد الأصطفري ( صاحب كتاب المسالك والممالك ) من المجوس » .

ولم يكن التشيع من ابداع الفرس إلا عند مهرجي التاريخ ، فالعرب سبّاقون الى التشيع . وهم الذين أدخلوه الى فارس . والدليل على ذلك : ان معظم علماء السنة الكبار في التفسير والحديث والأدب ، واللغة . . هم من فارس . وبقيت ايران على السنة الأموية في سبّ علي (ع) ولعنه في المساجد وعلى المنابر . بل ان بعض المدن الإيرانية رفضت ان تحيد عن لعن الإمام علي (ع) في عهد عمر بن عبد العزيز . وابت الإستجابة لقراره كمدينة اصفهان .

وارتبط الفرس بعدها بالأئمة ، وقدموا كل من ينتسب إليهم من « السادة » العرب . واحيوا اللغة العربية اكثر من العرب . ومنهم روّادها الكبار مثل سيبويه النحوي ، وصاحب القاموس المحيط الفيروز ابادي ، والزمخشري رائد البلاغة ، وخصتهم النبوءة الرسولية ، بمديح خاص وربطت مصير الإسلام بهم . ومما ورد فيهم من القرآن ، انهم القوم الذين قال فيهم الله تعالى : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[٣١] ، ذكر الزمخشري في تفسيره انه سئل رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عن القوم ، وكان سلمان الفارسي الى جنبه ، فضرب على فخذه ، وقال : « هذا وقومه ، والذي نفسي بيده ، لو كان الإيمان منوطاً بالثريا ، لتناوله رجال من فارس »[٣٢] .

---

(٣٠) ـ الإسلام وإيران ٩٢ .

(٣١) ـ سورة محمد ( آية : ٣٨ ) .

(٣٢) ـ تفسير الكشاف ( ٤ / ٣٣٠ ) .

وذكر الرازي في تفسيره ، روي ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) سئل عمن يستبدل بهم إن تولوا ، وسلمان الى جنبه فقال : « هذا وقومه . ثم قال : لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لناله رجال من فارس »[٣٣] .

ومثل ذلك ذكر ابن كثير في تفسيره ، اذ قال ابن ابي حاتم ، وابن جرير ، حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، اخبرني مسلم بن خالد عن العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة ، قال : إن رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) تلا هذه الآية : ﴿ **وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ قال يارسول الله من هؤلاء ؟ قال فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي (رض) ثم قال « هذا وقومه ، ولو كان الدين عند الثريا ، لتناوله رجال من الفرس »[٣٤] .

وذكر صاحب التبيان وقيل : مثل سلمان واشباهه من ابناء فارس ، ولم يجز الزجّاج ان يستبدل الملائكة ، لأنه لا يعبر بالقوم عن الملائكة ، لا يكونون أمثالكم ، لأنهم يكونون مؤمنين مطيعين ، وأنتم كفار عاصون [٣٥] ، وكذلك اخرجه الترمذي والحاكم والطبري وابن حبان .

وإخلاص الفرس للإسلام ، ما زلنا نراه في وضح النهار ، في ايران وافغانستان ، وسبق الفرس العرب اليوم في تشكيل دولتهم الإسلامية وفكروا في تصدير الثورة والوعي الإسلامي الى باقي الشعوب العربية ، وهذا هو عين الإعجاز في نبوءة القرآن .

وبالنتيجة ، تتلاشى النظرة التعسفية للتاريخ الإسلامي ، تلك التي تصور الفرس على اساس انهم هم الذين اختلقوا « التشيع » بحكم عدائهم للإسلام والعرب . وهاهم ـ دون الرجوع الى التاريخ ـ بإمكانهم الرجوع الى مجوسيتهم ، وهم في موقع قوة . ولو فعلوا ذلك ، لأراحوا أطرافاً عربية ، ولكنهم لا يفعلون . فالتشيع في النهاية ، هو الصيغة التي احتوت المسلمين الطلائع ، المعارضيين

---

(٣٣) ـ تفسير الرازي ( ٢٨ / ٧٦ ) .
(٣٤) ـ تفسير ابن كثير الجزء راجع سورة محمد .
(٣٥) ـ التبيان ( ٩ / ٣١١ ) .

للخلافة المنحرفة ، وهو وليد « المدينة » والمناطق العربية ، ولم يدخل الى ايران سوى في العهود المتأخرة ، ولم يزدهر التشيع في ايران سوى مع تكوين الدولة الصفوية ( ١٥٠٢ م ) ، وسوف يتبين لنا ، ان التشيع له جذوره في عمق الرسالة الإسلامية المحمدية . وان ما أورده الخصوم ، إن هي إلا أساطيرُ الأولين ، أعادوا لوكها على ألسنتهم ، والله متمّ نوره ولو كره الحاقدون .

# وأثرت السؤال !

إنني ما زلت أنزع الأشواك من اقدام التاريخ الإسلامي ، لأكوّن لنفسي رؤية موضوعية حوله . ولست ببعيد عما عاناه ابن الهيثم في إحدى اطوار تجربته . وقد رأى ان ابن اليهودي يصير يهودياً ، وابن النصراني يصير نصرانيا . . وبأنه سمع حديثاً يقول : « كل مولود يولد على الفطرة ، فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » ثم ان الأمة الإسلامية هي نفسها انشطرت الى مذاهب شتى ، وطرائق قددا .

وقد جاء في الحديث النبوي الشريف : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة »[٣٦] ، والغريب ان الناجية واحدة والباقي في النار ! .

ثم رحت اطرح على نفسي السؤال تلو السؤال . ما ادراني أنني على حق ؟ .

ترى لو أنني ولدت في ايران او العراق او لبنان . . ماذا سأكون ياترى ؟ ما ذنبي ، إن كنت أجهل الفئة الناجية ؟ ما ذنبي ، ما ذنبي ؟ وكنت مقتنعا أن الله منح الإنسان « العقل » حتى يستنير بنوره . وأن العقل رسول باطن ، يرشد الى أسلم السبل وأهداها .

وليكن ما يكون . ولكن لابد لي أن افكر ، وأمارس كينونتي في الوجود ،

---

(٣٦) ـ ابو هريرة ـ رواه ابن ماجه ورواه ابن مالك عن عوف بصيغة اخرى .

لأبرىء ذمتي ، طلباً للحق والتماسا للنجاة ، وبعدها أطلب العذر على تقصيري . المهم هو الوصول الى « القطع » الذي تثبت به المعذرية . وهذا القطع لابد أن يحصل بالأجتهاد والبحث الحثيث .

كان اثقل شيء علي يومئذ ، أن اقرأ تاريخ « الفتنة الكبرى » . والغريب أنني كنت اقرأ صفحة ثم أتوقف متعوذاً بالله ، وكأنني أنا المسؤول عن كل ما وقع . اقرأ التاريخ خلسة ، وخفية ، وكأنني أمارس الفحشاء والمنكر ، وما زلت أتذكر الأصحاب ، وقد بدأوا يوجهون لي النقد . لأنني بدأت أخرج عن الإيمان ، وأهتم بالفتن . إنني كنت ادرك انهم لا يقولون إلا ما لقنوه . وبرمجوا عليه في تعاملهم مع « الفتنة الكبرى » حيث البؤرة الوحيدة التي تعكس حقيقة الأنحراف الذي طرأ على نفوس الكثير من الذين أكبرهم التاريخ في أذهاننا إكباراً زائداً .

كان همّي ان أعرف قدر الإمكان ، الفئة الناجية . ولم اكن أتصور ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يتحدث عن خلاف الأمة ، ثم لا يعطيها مفتاح النجاة ، اذن ، لما كان نبيّا هادياً ، فما ذنب مسلمي القرون اللاحقة ان كانت ستأتي بعد وجود الخلاف ، فترثه إرثا ؟ ! .

ثم عدت للحديث لأرى هل في أحشائه ما يرشدني الى الهدى ويجنّبني الضلال . وما أثارني هو تعامل مختلف الفرق ، مع هذا الحديث . اذ كل فرقة تتبناه لصالحها . فقد قرأت مرّة ، لسعيد حوى كلاماً قال فيه : بأنه بإجماع الجمهور ، ان الفئة الناجية هي أهل السنة والجماعة . وتساءلت يؤمئذ عن الحل في هذه الكلمات . هل الجمهور يتفق على نفسه ؟ وليس هو أوّل من قالها ، بل كثرت في كتابات المتقدمين أيضاً . لقد روي عن معاوية بن أبي سفيان ، انه قال : ألا ان رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قام فينا فقال : ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وان هذه الملّة ستفترق على ثلاث وسبعين : اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة ، وهي الجماعة »[٣٧] .

والجماعة التي وطّد اركانها معاوية ، كانت تعني العداء المطلق لآل

---

(٣٧) ـ سنن أبي داوود ( ٤ / ١٩٨ ) .

البيت (ع) ، الجماعة التي بقيت وفية لمعاوية ، حيث تجتمع جميعها على سبّ ولعن علي (ع) من على المنابر .

« وروي عبد الله بن عمر عن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ليأتين على أمتي ما أتى على بني اسرائيل حذو النعل ، حتى ان كان منهم من أتى امّهُ علانية ، لكان في أمتي من يصنع ذلك ، وان بني اسرائيل تفرقت اثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة ، قالوا : ومن هي يارسول الله قال : ما انا عليه وأصحابي »[٣٨] .

وعلى كل حال ، فانني لم أفهْم من كلمة « الجماعة » حلاً يشفي غليل عقلي علماً ان الجماعة التي تحدث عنها معاوية ، هي الجماعة التي استجابت له ، في حكم الجاهلية . وبها قاتل الإسلام في شخص علي (ع) وبمثله قتل ابنه « يزيد » الإمام الحسين (ع) وباقي عترته الطاهرة .

والحق كما افهمه ، ليس مسألة كمية ، عددية . والجماعة هي ان تكون على حق ولو كنت وحدك ـ كما قالها ابن مسعود ـ وليتني أعرف اي الصحابة الذين ذكرهم حديثُ ابن عمر الجديرون بالأتباع . وايهم اتبع وقد تفرقوا فرقاً ونحلا ؟ . وسمعتهم مرة يقولون : « اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، ولست اعلم ان هذا الحديث المشكوك فيه عند أهل الرواية[٣٩] هل يحتوي على اقل قدر من المنطق . وكيف اهتدي سواء اتبعت علياً او معاوية ، اباذر او عثمان . . ابا هريرة او عمّار . . ولعمري كيف يجتمع النقيضان ؟ ! .

وهبني سلّمت بهذا الحديث على علّته ،أفلستُ على السنة والهداية اذا سلكت طريق علي (ع) ؟ أوليس هو على الأقل من الصحابة ؟ واذا قالوا إنه بريءٌ ونزيه ، وأنه لم يخالف الجماعة ، قلنا عن بعض الأصحاب لماذا قتلوا حسينا ، لماذا نفوا اباذر ، لماذا قتلوا عمّاراً لماذا مثّلوا بمحمد بن أبي بكر و . . و ؟ وإذا قالوا إنها السياسة ، قلنا : ولماذا لم يتقوا الله في السياسة ؟ ! [٤٠] .

(٣٨) ـ صحيح الترمذي ( ٥ / ٢٦ ح ٢٦٤١ ) .

(٣٩) ـ طعن فيه ابن حزم ، وابن حنبل ، بل وأعتبره الأول موضوعا .

(٤٠) ـ إنني أحكي ما دار في نفسي في مسيرة البحث عن الحل العقيدي . وأنا لا أهدف ان أُحوّل الكتاب كما سبق ذكره الى معركة ( إن قالوا قلنا ) .

إنني ورثت مجموعة تقديسات متناقضة ، تجرعتُها على حينِ غفلةٍ من نضجي ووعيي التاريخي . ورثت حبّ ابي ذر وعثمان ، علي ومعاوية ، وخالدبن الوليد ، وفاطمة الزهراء . . سواء بسواء . . لا ميزات ولا درجات . . ولكن التاريخ ، علمني ألاّ أكون مناقضاً للحقيقة . وإلا كيف يتسع القلب لحب الشيء ونقيضه . كيف أحب اباذر (رض) وعثمان الذي نفاه الى « الربذة » حتى يرضي بني عشيرته ؟ ! وواحداً من الطلقاء ، « معاوية » إذ كان من المؤلفة قلوبهم .

وكيف أجمع بين حب معاوية ويزيد السفاكين ، وبين حب علي وبنيه تركة النبوة ومشكاة النور الإسلامي ؟ ! لم تتمكن مني مراوغات التاريخ ، وحيل « القصاصين » .

والسؤال الذي يجب ان يطرحه كلُ مسلمٍ على نفسه : لماذا أنا مع هذه الفرقة ولست مع تلك ؟ .

هل الوراثة هي السبب أم الإجتهاد والقناعة ؟ ؟ .

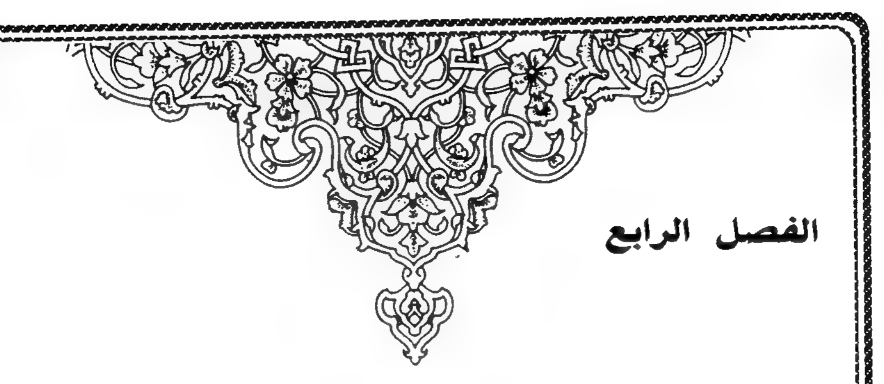
اذا كانت القناعة كما يدعي البعض ، فهي ، تعني الانسحاب من المذهب والبدء في مسيرة للبحث محايدةٍ ، ومتكافئة ، او قراءة التاريخ من اجل البحث عن الصواب ، والاستعداد النفسي لخسران الكثير من المسلمات ، والقراءة عن هذه الفرقة وكأنها فرقة القارىء ، ثم تحكيم العقل ، والقرآن ، والوجدان . وجدير بنا القول آنئذٍ : « اللهم ما عرفتنا من الحق فحملناه وما قصرنا عنه فبلغناه »[41] .

أما ان نصم الآذان ، ونعمي الأبصار ، بحجة الإيمان والتقوى فهو خداع نفسي ، وهروب من ضغوط الحق ، ودفن للرأس في الرمال .

كان قصدي هو بلوغ الحقيقة ، والوصول الى القافلة الناجية . . ولذلك كان من الضروري أن أخرج نفسي من ضيق التمذهب والفرقية ، لأنظر من بعيد متحرراً من ذلك الضباب الكثيف الذي يمكن ان يحجب عني الرؤية . كان شكّي منهجياً . في البحث عن المعرفة التاريخية ، فانطلقتُ . وبأدوات محايدة وبعقلية مشتاقة الى سبر أغوار الحقيقة .

---

(٤١) دعاء الإمام زين العابدين ( الصحيفة السجادية ) .



## الفصل الرابع

# من بؤس التاريخ الى تاريخ البؤس !
# ( حقائق جديدة = رؤية جديدة ! )

« اضرب بعض الرأي ببعض يتولد منه الصواب
وامخض الرأي مخض السقاء » .

أمير المؤمنين علي (ع) .



# رحلة جديدة مع التاريخ

أريد هنا ، ان اوقف التاريخ الإسلامي على قدميه ، بعد ان ظل في أذهاننا منقلباً على وجهه . وخطوة واحدة جديرة بإيقافه على رجليه ، هي أن نفتح أعيننا مباشرة على كل ما وقع ، ونحكم الوجدان ، ليس إلّا ! وتاريخ الفتنة الكبرى أو مقتل عثمان ، ليس بداية ، بل نتيجة لمقدمات اختصرت بفعل التزامن والاستمرارية ، لتنتج ما حصل .

وبذور الأزمة ، يمكن ضبطُها في عصر النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولا أنكر أنني سوف أتوصل بمجموعة من المعطيات العلمية ، والإجتماعية ، والسياسية ، والنفسية ، فالظاهرة التاريخية ، هي من صنع الإنسان ، فهو حر في أختياراته ، مريد في مسالكه . وأحياناً تجده محاصراً ضمن محددات جغرافية وبيئية . لكن هذه الأخيرة لا تلغي « تحرره » على المستوى السياسي والإجتماعي والنفسي .

ثم لا ننسى « العامل الأقتصادي » كأحد المحددات الأساسية لفهم الظاهرة الإجتماعية التاريخية . وذلك يمكن رصده من خلال التحولات الإجتماعية والسياسية والعقدية في ظل التطور الأقتصادي في المجتمع الاسلامي ، إنا نتعامل مع بشر ، ذوي ابعاد مختلفة يعتريهم الضعف والقوة حسب التحولات التي تطرأ على تلك الأبعاد .

سوف نحفر في كل الأتجاهات ، وفي كل الأبعاد من أجل الوقوف على حقيقة

الظاهرة التاريخية ، مجردة عن أوهامها ، وبذلك يمكن للتاريخ الإسلامي ان يتمثل واقفاً على رجليه .

# سيرة الرسول : المنطلق والمسيرة !

نحن اذ نتحدّث عن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لا نريد ان نرسم له سيرة تفصيلية كما هي عادة « السير » . فهذا العمل لا يتناسب مع مقاصد الكتاب . ولكننا سنحاول قراءتها ضمن معطياتنا المنهجية ، مركزّين على المحطّات الحساسّة ، التي تعتبر مفتاحاً لفهم الظاهرات التي شهدها التاريخ الإسلامي فيما بعد .

مع ذلك وحين نمسك « سفراً » عن السيرة ، عادة لا نتجاوز بعض الأبعاد التي يذكرها في البداية ، وهي الأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية والنفسية للمجتمع الذي ظهرت فيه « البعثة » .

لقد جاء الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مبشراً وهادياً الى قومه ، ومعارضاً لكل ما زخز به المجتمع العربي من امراض اجتماعية وسياسية وأخلاقية ، وأثناء ممارسته ( صلى الله عليه وآله وسلم ) للدعوة في المجتمع الجاهلي ، كان يتعرض لنمط من الأذى ، تقف وراءه نفوس ، هي خلاصة ما انتجه مجتمع الجزيرة العربية ، وبكل المحددات التي تولدها البيئة الجاهلية ، والإنسان العربي قبل الإسلام ، كان يعاني انهياراً حضارياً يؤشر بالموت النهائي للمجتمع الجاهلي .

فسياسياً كانت أطراف الجزيرة العربية ، خاضعة للنفوذ الإستعماري ، من قبل قوتين عظيمتين ، تمارسان توازنهما الحربي والسياسي في حين ان الوسط بقي منفلتا عن هاتين السلطتين ويعيش فراغاً سياسياً قاتلاً . وكانت تلكما القوتان ، هما

« فارس » و « الروم » .

وبينما استولى الفرس على الشرق[1] ، كان النفوذ الروماني في الشمال من الجزيرة العربية . وضمن هذا التمزق ، بين إمبراطوريتين عظيمتين . كانت هنالك تشكيلة لاهوتية تتحرك في الداخل . وتؤسس لها كيانها الخاص في مجتمع الجزيرة ، وتطمح الى بناء مستقبلها البعيد ، بنفس هادىء ، ومخطط بعيد المدى ، وكانت تلك هي المجموعة اليهودية التي انتشرت في ربوع الجزيرة العربية ، وسيطرت على جزء من الأقتصاد فيها . مما خولها القدرة على السيطرة على القرار السياسي أحياناً .

وهذه الفئة ـ بعكس النصارى ـ[2] لم تكن لها جهة تسندها ، ولا قوة تدعمها سوى الاعتماد على قدراتها الذاتية . وبالتالي استطاعت الفئة اليهودية كسب نفوذها في قلب الجزيرة ، من خلال ممارستها لسلطتين :

**الأولى** : ـ سلطة لاهوتية ، بحيث احتكر اليهود ، وخصوصاً في المدينة ، الخطاب الديني المغلق .

**ثانياً** : ـ سلطة اقتصادية ، من خلال السيطرة اليهودية على الأنتاج الزراعي .

هاتان السلطتان منحتا فرصة لليهود ، للسيطرة على جزء من المجتمع العربي ، وأحياناً توجيهه ، مستغلة بذلك وضع « التجزئة » العربية ، والتفكك القبلي السائد . وكان من سلوكها المزدوج ، تجاه القضايا العربية يومها ، ما تعرض له القرآن : **﴿ ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم ★ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالأثم والعدوان ★ وان يأتوكم أسارى تفادوهم ★ وهو محرم عليكم اخراجهم ★ افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾**[3] .

---

(١) ـ عندما جاء الإسلام كان المنذر بن ساوى العبدي ، والياً على منطقة البحرين في شرق الجزيرة العربية وهو من ابناء المنطقة ، من قبل الفرس ، وفي فترة قبل ذلك حكم الفرس اليمن ، غير أنهم خرجوا منها بعد مجيء الأحباش المدعومين من الرومان . ثم ما لبثت المنطقة أن استقلت بعد ثورة « سيف بن ذي يزن » ! .

(٢) ـ كان ذراع النصارى في الجزيرة العربية ، هم الرومان .

(٣) ـ سورة البقرة ( آية ٨٥ ) .

وملخص الحالة ان اليهود في المدينة كانوا ثلاث فرق هم : بنو قريظة ، بنو النضير ، وبنو قينقاع . وحيث أن الوضع التجزيئي الغالب على المجتمع العربي يومها ، اقتضى أن ينقسم الى جبهتين متصارعتين على مدى السنين ، هما الأوس ، والخزرج . كانت هذه الفرق اليهودية تتمركز تكتيكياً ضمن الجبهتين . فبنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس . وعندما يقع القتال بين الفريقين ، تجد كل فرقة من هؤلاء ، تقاتل الى جنب حليفتها وبالنتيجة ، يتم قتل اليهودي من قبل اليهودي . وكان قتل اليهودي لليهودي محرماً في ميثاقهم . ثم لمّا تنتهي الحرب وتهدأ حدتها ، ينظر اليهودي من كل الفرق الى أخيه اليهودي الأسير في معسكره ، فيلجأ الى فديه ، وذلك استجابة لنداء التوراة . ولهذا عقب القرآن : ﴿ **افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾[٤] ولقد اغرق اليهودُ العرب بالأساطير والخرافات . فنتج عن ذلك واقع مجتمعي مقلب ، بعين على سبيل الكهانة والسحر والخرافة ، حيث أنشلّت إمكانياته على الترقي . فراح نحو الأقوال ، واقترب من الغناء . وكان اليهود يمعنون في واقع التجزئة ويكرسون حالة التمزق القبلي لأنهم بذلك يحققون فرصتهم للبقاء والسيادة . وغالباً ما كانوا يصنعون الحروب الطوال بين القبيلة والأخرى ، فيما لو أحسوا بخطر هذه القبيلة او تلك .

وكان للعاملين القبلي والتجاري ، دورهما في توجيه المجتمع العربي وبقي هذا هو السبب المانع لهم من السماع الى دعوة الرسول ، بمكة . فمن جهة رفضوا ميزة « النبوة » في محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لا لأنه الشخص المحترم ، الأمين و . . الخ . ولكن لأنه ينتسب الى عشيرة بني هاشم ، العريقة بنبالتها ، ومقامها في أرض الجزيرة العربية . فابوا عليها ان تجتمع لها كل الأمتيازات التي ترفعها درجات ، حيث يعز على القبائل الأخرى . ان تكون الرفادة والسقاية ، ثم النبوة في بني هاشم ، لذلك كانوا يبرزون وجهة نظرهم القبلية . محددين بها « طبيعة » النبوة . ويدلنا على ذلك ما عاناه الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في دعوته . فيروي ابن هشام في السيرة ، ان النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عرض نفسه

---

(٤) ـ سورة البقرة ( آية ٨٥ ) .

على بني عامر بن صعصعة وشرح لهم دعوته ، وأجابه رجل منهم ، قائلاً :

« أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر لله يضعه حيث يشاء . فقال له : افنهدي نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه » وكان العامل القبلي ، حاجزاً ضد اسلامهم . كما كان دافعاً لهم للكيد بالإسلام . لقد ورد عن إبن الأثير . « ان أُبي شريف التقى مع ابي جهل فقال له : « اترى محمداً يكذب ؟ فقال ابو جهل : كيف يكذب على الله وقد كنا نسميه الأمين لأنه ما كذب قط ؟ ولكن إذا أجتمعت في بني عبد مناف السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة فأي شيء يبقى لنا » ؟ . « وكان ابو سفيان يقول : كنا وبنو هاشم كفرسي رهان ، كلما جاؤوا بشيء جئنا بشيء مقابل ، حتى جاء منهم من يدعي بخبر السماء ، فأنّا وانّى نأتيهم بذلك » ؟ ! .

إنه المنطق الذي يحكم حياة العرب قبل الإسلام ، وبقي مسيطراً على أغلبية النفوس بعد بعثة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولما عرض دعوته على بني عامر بن صعصعة ، قال رجل منهم : « والله لو أنني أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب »[٥] .

وشيئاً فشيئاً ، بدأ عمود الدين يقوى ، وباتت شوكة الكفر تضعف . وقامت الحروب الضارية بين المسلمين والمشركين .

وحيث أن الأغلبية الساحقة في النهاية لم تدخل طوعاً في الدين ، ولا أعتقاداً به . وإنما كرهاً وغلبة ، فأنها انطوت على النفاق وبيتت الشر لبني هاشم . لمحمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الذي جاءهم بالإسلام . ولعلي (ع) الذي قتّل آباءهم وأجدادهم .

والفترة التي فصلت بين « الفتح » ووفاة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لم تكن كافية لنزع الطبائع القبلية من هؤلاء الوافدين على الدين .

ونلاحظ أن المؤامرة على الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد بدأت بعد

---

(٥) ـ السيرة النبوية ( ٢ / ٥١ ) .

الفتح . حيث حاول المنافقون الذين كانوا يشكلون جزءاً من المجتمع الإسلامي . أن يغتالوا الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في اللحظات الأولى التي توفرت لديهم فيها الفرصة . وقد ذكر ابو بكر البيهقي في « دلائل النبوة » عن عروة قال : « لما رجع رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قافلاً من تبوك الى المدينة ، حتى اذا كان ببعض الطريق مكر به ناس من أصحابه فتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق وارادوا ان يسلكوها معه ، فأُخبر رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) خبرهم فقال : من شاء منكم ان يأخذ بطن الوادي فانه اوسع لكم فأخذ النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) العقبة وأخذ الناس بطن الوادي إلا النفر الذين ارادوا المكر به فقد استعدوا وتلثموا ، وأمر رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ، فمشيا معه وأمر عماراً ان يأخذ بزمام الناقة وأمر حذيفة بسوقها فبينما هم يسيرون اذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوهم ، فغضب رسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وأمر حذيفة ان يراهم ، فرجع ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم وضربها ضرباً بالمحجن وابصر القوم وهم متلثمون فارعبهم الله حين ابصروا حذيفة وظنوا ان مكرهم قد ظهر فأسرعوا حتى خالطوا الناس واقبل حذيفة ، حتى ادرك رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فقال اضرب الراحلة ياحذيفة وامش انت ياعمّار ، فاسرعوا وخرجوا من العقبة ينتظرون الناس فقال النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ياحذيفة هل عرفت من هؤلاء الرهط أحداً ، فقال حذيفة عرفت راحلة فلان وفلان ، وكانت ظلمة الليل قد غشيتهم وهم متلثمون ، فقال عليه السلام : هل علمتما شأن الركب وما ارادوا . قالا : لا يارسول الله ، قال : فانهم مكروا ليسيروا معي حتى اذا اظلمت لي العقبة طرحوني منها . قالا : افلا تأمر بهم يارسول الله اذا جاءك الناس تضرب اعناقهم ، قال اكره ان تتحدث الناس وتقول ان محمداً قد وضع يده في اصحابه ، فسمّاهم لهما ثم قال اكتماهم » .

هكذا ، اذن كان واقع المجتمع الإسلامي ، بعيد الفتح . حيث تبنت طبقة المشركين ، خيار « النفاق » والعمل في الظل . وتأسيس كيانها القوي داخل مجتمع الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) والتخطيط للمستقبل على المدى البعيد . وكان بنو أمية بزعامة « ابي سفيان » هم المناوئون الأوائل لحركة « النبوّة » ، وعند

الفتح ، كانوا من الذين عفى عنهم الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فسموا بالطلقاء حيث ذكر اليعقوبي : « ثم قال : ما تظنون وما انتم قائلون ؟ قال سهيل : نظنّ خيراً ونقول خيراً ، أخ كريم وابن اخ كريم . وقد ظفرت . قال : فاني اقول لكم كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم ، ثم قال : ألا لبئس جيران كنتم فاذهبوا فانتم الطلقاء »[6] .

وعبارة « انتم الطلقاء » تفيد معنى آخر ، يناقض مفهوم الإيمان والإسلام . فهم دخلوا الإسلام كرهاً ، وخوفاً من زحف الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وما زال الأمويون يضمرون حقدهم وانتقامهم وتربصهم برسول الله ولذا آذقوا آل البيت النبوي ، كؤوس المنايا ! .

وحالة الأنتقام بقيت ساكنة ، تتطور مع تطور الزمن ، لتخرج الى دنيا الأفصاح ، فتصنع أبشع جرائم التاريخ .

لقد جاء اليوم الذي تسلم فيه « يزيد بن معاوية » مسؤولية أمة محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكان ما كان ، حتى كان رأس ابن بنت رسول الله ، وحفيده الأكرم ، الإمام الحسين (ع) بين يديه ينكت ثناياه بقضيب .

روى ابن اعثم والخوارزمي وابن كثير وآخرون ، ان يزيد بن معاوية تمثل يومها بهذه الأبيات :

ليت اشياخي ببدر شهدوا     جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحا     ثمّ قالوا يايزيد لاتشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم     وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لست من عقبة ان لم انتقم     من بني أحمد ما كان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا     خبر جاء ولا وحي نزل

وستبدأ تجليات الروح القبلية ، والأنتقامية ، تظهر ، فور رحيل النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لتتحرك النفوس صوب المطامع والمنافع الخسيسة ، وبذلك تسهل على الفئة المنافقة فرصة ، لتقوية نفوذها ، وقد وقع ذلك ، وبدأ من

(٦) ـ تاريخ اليعقوبي ( ٢ / ٦٠ ) .

السقيفة . ولابد ونحن ندرس « السقيفة » كحدث . ان ندرك الجذور التاريخية التي تربطها بسيرة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وان لها ـ اي السقيفة ـ أبعادها فينا الى الآن ، وستبقى . ودون ان ننسى استحضار تلك المحطّات التي أوجزناها سريعاً ، أي عن واقع الجزيرة العربية القبلية ، واليهود والمنافقين . . وغيرها مما اشرنا إليه من محطات .

وفي تلك الأثناء لم تغب قضية الوصاية والخلافة . وهي أمر يدرك بالوجدان . في مجتمع يهتم بالقيادة ، وبخلافتها المرشحة . ذلك لأن المشروع الرسالي في عصر النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقتضي الإهتمام ، ولفت الأنظار لذلك الأمتداد القيادي لرسالة الإسلام . حتى لا يطرأ على التصور المناوىء أن المشروع النبوي ، مشروع وقتي ينتهي ، بانتهاء صاحبه .

ولم يكن من منطق الرسالات السابقة ـ كما هو ليس من دأب نظم الحكم والقيادة في المجتمع النبيل الذي يملك نظرية أخلاقية حول الحاكم ـ ان تغيب هذه المسألة المتصلة بواقع الرسالة الإسلامية ومستقبلها المصيري . ومن خلال « المسعودي »[٧] نثبت أن فكرة الوصية ، من القضايا التي شهدتها كل رسالات السماء . بل إن الرسالة التي اتت الى قوم معينين ، وفي اطار زمني محدود ، لم تغب فيها ، قضية الوصية ، فكيف يمكن تصور « الغائها » بخصوص رسالة عالمية ، وفي اطار زمني ممتد ، وساحة الإنسان اينما كان وحيث حلّ . فأجدر بهكذا رسالة ان تحدد قضية الخلافة[٨] ، وحيث ان الخلاف حول الخلافة ، نشأ فور وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فهذا يعني ان المسألة ليست بذلك المستوى من « التفاهة » حتى لا يوفر لها الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) صيغة شرعية ، تحول دون مضاعفاتها . او لعله لم يحط بذلك علماً ، وبما سيحدث بعده من خلاف بسبب الصراع على أمر الخلافة ، وهذا ينافي عصمته ، وعصمة الوحي .

---

(٧) ـ كتاب « إثبات الوصية » .

(٨) ـ اذا كان البعض يرى أن الخلافة في أمر الدنيا هي المقصود ، فنحن نتحدث عن الخلافة في الدين . والخلافة في الدين هي نفسها الخلافة في أمور الدنيا ، لأن هذه الأخيرة مرتبطة بالتشريع الإلهي .

ثم إن الأصل في القيادة ، هي الوصية . ولم تكن الشورى ، سوى تبرير تاريخي لما وقع في سقيفة بني ساعدة . اذ ان التاريخ يفضح حقيقة الشورى التي اعتمدوها في السقيفة . بل انها ـ اي الشورى ـ أثبتت « بؤسها » في انتخاب صيغة الحكم ، وفي خلق الممانعة الشرعية والمطامع النفسية والقبلية التي كانت سائدة يومها ، وليس من السهولة التغاضي عما وقع حول الخلافة من خلاف وتضارب ! « وما استلّ سيف في الإسلام ، مثل ما استلّ على قاعدة الإمامة » كما يؤكد المؤرخون[٩] .

إن الأخذ بشرعية الإمامة ، كمسالة خاضعة لأمر الشارع ، ستسقطنا في مأزق اتهام الكثير ممن حُسبوا على الصحابة في تاريخ الإسلام . سيكون الخارج عنها يشكل الأغلبية . ولن يبقى إلا آل البيت وكبار الصحابة . غير اننا لو سلمنا بشرعية الخلافة ، كمسألة اختيارية خاضعة لأختيار اهل الحل والعقد ، وأنها تشكل في حد ذاتها « أمراً شرعياً » أي ان الخارج عن قرار السقيفة ، سيكون مخالفاً لتكليف شرعي ، فهنا ايضاً ، سنسقط في نفس المأزق ، هو مأزق إتهام الأغلبية الساحقة التي رفضت الشورى ، وقيدت إليها بالعنف ، ولن يبقى امامنا من الملتزمين بالشرع إلاّ ابو بكر ، وعمر ، من الصحابة . وهذا مخالف للواقع . اذ ان التاريخ احصى لهذين الرجلين مخالفات كثيرة لأمر النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، مما لا ينطبق على سيرة علي (ع) والصحابة الذين تجمعوا في بيته كسلمان الفارسي ، وعمار ، وابي ذر ، والمقداد . . وإذا كان علي (ع) والذين معه ، لم يسجل عليهم التاريخ تلك المخالفات المفضوحة ، فكيف يخالفون الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بعد موته . وكيف لا يخالف الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بعد مماته ، اولئك الذين كفروا بالإمامة ، اذا كانوا ممن تعود على مخالفة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في حياته ، بل ومجادلته بسوء الأدب . اننا سواء اخذنا « بالوصية » أو « بالشورى » نضطر الى اتهام قافلة ممن سمّوا بالصحابة ، بمخالفة الشرع . . فتأمل .

إن هذه الأهمية التي تلابس « قضية الإمامة » كما تؤكد ذلك النتائج والوقائع

---

(٩) ـ الملل والنحل ( ١ / ٢٤ ) .

التي أسفر عنها غياب الرسول : تبينّ مدى أهميتها في عهد الرسول الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) والقرآن الذي فيه تبيان لكل شيء .
والرسالة الإسلامية بشكل عام ، حيث فيها حلول لكل قضايا المجتمع بما فيها سفاسف الأمور ، فلابد أن يكون فيها حلٌ لقضية الخلافة التي هي أعظم قضية في التصور الإسلامي .

إن الأمر لو كان شورى لما كان من المنطقي ، عقلاً وشرعاً ، ان يتمرد عليها جيل من السابقين في الإسلام ، ما كانوا يريدونها لأنفسهم وانما أرادوها للإمام علي (ع) . الأنقسام يدلنا على ان القضية فيها إمّا « غصب » أو « ادعاء » ، فإمّا ان يكون علي (ع) ومن معه « يدعون » أمراً ليس لهم ، او أن الأخرين « اغتصبوا » حقاً ليسوا من أهله . ومن هنا سننطلق في معالجة المشكلة في نطاقها التاريخي الحقيقي .

قلت بأن إثبات الوصية لازم حياة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فكان يحملُ همها ضمن همه النبّوي الأول . إذ فرض نفسه مع الإمام علي (ع) بشكل ملفت للنظر . فرض نفسه كنبي رسول ، ونصّب الإمام علياً كوصي وخليفة . وهذا منطق لا يمجّه طبع له ادراك بفلسفة الحكم ، وتاريخه البشري . بل حتى في طبيعة الحكم الديمقراطي الراقي . لم يكن الإنسان يستغرب اذا أُعلن عن رئيس امريكي ومعه نائبه . ومنذ ترشيح « ريغان » عرف نائبه « بوش » وكذا « كلنتون » كان نائبه معه « غور » قبل ان يتسلم الرئاسة من « بوش » . انها تقاليد في الحكم الديمقراطي لا ترفضها روح القوانين . . وكما لا تناقض انماط السلطة والحكم الوضعي ، فهي ايضاً لا تناقض مسار النبوة والرسالة(١٠) اذا سلمنا بأن موسى (ع) نبي الله وهارون (ع) خليفته ، عاشا معاً . وقضى كلاهما في مجتمع بني اسرائيل ، من دون ان يكون ذلك مُعرباً عن تناقض .

فرض الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) نفسه ، كواسطة رسالية ، لنقل

---

(١٠) ـ وهنا يثبت المسعودي في « إثبات الوصية » وصايا الأنبياء من آدم الى محمد (ص) وعدّ أوصياءهم جميعاً حيث جعل لأدم ، شيث ، ولإبراهيم إسماعيل ، وليعقوب يوسف ، ولموسى يوشع بن نون ، ولعيس شمعون ولمحمد علي (ع) والأحد عشر من ولده ! .

الوحي من الله سبحانه ، الى الناس ، وأقام علياً (ع) كمؤازر ووزير ووصي . ولست أدري هل في سنن الأولين والآخرين ، ان يُعهد بالأمر الى غير الوزير والوصي . علماً ان اختيارات الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كلها حكيمة ، وهو معصوم بوساطة الوحي . وليس شيء يستوجب مدخلية « الوصي » كمسألة « مصير الأمة » .

كيف أوجد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) خلافة ـ علي (ع) في بداية الدعوة ؟ .

ثم كيف نستطيع رصد تميزات الدور « الإمامي » أو « الوصائي » في زمن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) والخصوصيات الرسالية التي انفرد بها الإمام علي (ع) في زمن الرسالة ؟ .

سنحاول استنطاق التاريخ ، والكشف عن أعماقه ، ليتبين لنا ما إذا كان الأمر كذلك .

ذكر المورخون[١١] انه لمّا نزلت الآية ﴿ **وانذر عشيرتك الأقربين** ﴾[١٢] .

قام الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يدعو أقرباءه ، وفيهم عمه أبو لهب فقال ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : « يابني عبد المطلب ، إنّي والله ما اعلم شاباً في العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به ، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرني الله عزوجل ان أدعوكم إليه فأيكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على ان يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » ؟ .

فسكت القوم ولم يجيبوا إلا علي (ع) قال : « انا يارسول الله اكون وزيرك على ما بعثك الله به » وبعد ان كرّر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم ) دعوته لقومه ثلاث مرّات ، التفت إليهم ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وقال : « ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ( أو عليكم ) فاسمعوا له ، واطيعوا » . فقام القوم

---

(١١) ـ تاريخ الطبري ( ٢ / ٣١٩ ) . ومسند أحمد بن حنبل ( ١ / ١١١ ) . وشرح النهج ( ١٣ / ٢١٠ ) ، والكامل ( ٢ / ٦٢ ) .

(١٢) ـ سورة الشعراء ( آية : ٢١٤ ) .

يضحكون ، ويقولون لأبي طالب « قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيع وجعله عليك أميرا » .

**اولاً** : ـ وفي رؤيتنا للحديث ، لابد أن نعلم بأنه بلغ قدراً من التواتر واعتبر صحيحاً ، لدى جميع المفسرين[١٣] الى درجة جعلت الطبري وهو أحد رواته ، يتصرف في صيغة الحديث . فيرويه بهذا الشكل :

« فايكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر ، على ان يكون كذا كذا » وبعدها قال للإمام علي (ع) إن هذا أخي وكذا وكذا »[١٤] .

إن هذه الـ « كذا وكذا » هي قمة التمويه والتلبيس « المبتذل » لأنها دليل في حد ذاتها على أهمية ما تخفيه عبارة الـ « كذا كذا » .

وكيف ان الطبري الذي لم ينس صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها في تاريخه . كيف ينسى كلمتين فقط ـ ظهرتا في نصوص الراوين الآخرين ـ .

هناك بلا شك ، منطق يحكم فكر المؤرخ . هو منطق التضليل والتعتيم اللذين يقلبان التاريخ على وجهه .

ومثل ذلك اضطرب ابنُ كثير في تفسيره للآية الواردة في سورة « الشعراء » اذ أتى مرة برواية ، صيغتها : « فأيكم يبايعني على ان يكون أخي وصاحبي » وأورد رواية اخرى بصيغة : « ايكم يقضي عني ديني ويكون خليفتي في اهلي »[١٥] .

وفي الرواية الثانية يبدو الخلط والتشويه معاً . اذ ان موضوع انذار العشيرة ، لاينسجم مع « من يقضي عني ديني ويكون خليفتي في أهلي » والتي في الظاهر ـ إن صحت ـ تبقى منسجمة مع ظروف الهجرة .

ولولا هذا التلبيس ، لما اضطر « الطبري » الى إخفائه بـ« كذا وكذا » .

وقبل الشروع في تشريح الحديث ، يجب أن نقضي على هذه « الشطحة »

---

(١٣) ـ إلا واحداً اراد أن يخالف الجمهور ، لينقص من فضائل الإمام علي (ع) كما هي عادته القبيحة في النصب وهو أبن تيمية .

(١٤) ـ تفسير الطبري ( ١٩ / ٧٤ ) .

(١٥) ـ تفسير ابن كثير ( ٣ / ٣٠١ ) .

الروائية التي أحاطت بحديث « الدار » فالطبري في تفسيره تعمد اسلوب التمويه والتضليل . والدليل على ذلك ان الحديث وجدت صيغته « الواضحة » والصريحة في اماكن أخرى .

**ثانياً** : ـ لأنه أورده في تاريخه بصيغته الحقيقية بعبارة « حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة حدثنا محمد بن أسحق عن عبد الغفار بن القاسم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب قال : الحديث والغريب انه اورده في « تفسيره » بنفس الصيغة والمتن غير ذلك التحوير في كلمة « أخي ووصيي وخليفتي »[16] حيث أستبدلها بما هو أبلغ وابين « كذا وكذا » اذ تبين لنا مدى حقيقة التزوير التاريخي الذي احتكرته نخبة من رجال التحريف ، والذين انقلب عليهم « سحرهم » ليكون تضليلهم وثيقة ضدهم لا لهم .

لقد اورد الطبري في تفسيره الحديث بهذا السند وهذا المتن ، « حدّثنا سلمة قال : حدّثنا محمد بن اسحاق ، عن عبد الغفار بن القاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب » لما نزلت هذه الآية ( الى ان قال ) فايكم يؤازرني على هذا الأمر ، على ان يكون أخي وكذا وكذا ؟ قال فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت : واني لاحدثهم سنا ، وأرمصهم عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمشهم ساقا ، انا يانبي الله ، اكون وزيرك ، فأخذ برقبتي ثم قال . . الحديث »[17] .

وبنفس الطريقة رواه في تاريخه حيث قال : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثني محمد بن إسحاق عن عبد الغفار بن القاسم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عن عبد الله بن عباس عن علي بن أبي طالب لما نزلت هذه الآية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾( الى ان قال ) فايكم يوازرني على هذا الأمر على ان يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ،

---

(١٦) ـ إن نفس الحديث رواه مشاهير السنة انفسهم ، بمتنه الواضح ، ومنهم النسائي في الخصائص ( ٣٠ ) ، والثعلبي في تفسيره ، والحلبي في سيرته ( ١ / ٣١١ ) .

(١٧) ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن ( ١٩ / ١٢١ ) .

قال فاحجم القوم عنها جميعاً وقلت وإني لأحدثهم سنا وارمصهم عينا . . الحديث » .

اذا تبين مدى التلبيس والتدليس ، آن لنا اذ ذاك شرح الحديث ، لنقف على الحقيقة التي يفيض بها متنه .

هناك أربع كلمات يمكن الوقوف عندها بتدبر وإمعان عميقين : .

١ ـ أخي . ٢ ـ وصيي . ٣ ـ خليفتي . ٤ ـ المؤازرة ! .

وكل هذه الخصال ، تحققت في حياة علي (ع) إلا واحدة لم تتحقق وهي عبارة « وصيي » ذلك لأن الوصية ، تشير الى حالة الأستخلاف بعد الموت . وكلمة « وصية » تفيد هذا المعنى[١٨] . ولو كان يريد بها خلافته في الحياة لما قرنها بعبارة « وخليفتي » لأننا لو سلمنا بانها تفيد الخلافة في الحياة اثناء غياب الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كما ذهب البعض اذاً لكانت عبارة « خليفة » لغوا وهذا لايجوز على من اوتي جوامع الكلم ! .

ووجود عبارة « وصي » الى جانب « خليفة » تعني ان المعنيين مختلفان . ونعود الى أغوار السيرة ، لنرى ان كل الخصال تحققت ـ باستثناء ـ « الوصية » في نظر البعض وبعدم تحققها كان ما كان في تاريخ ما بعد السقيفة ، وكان المنعطف الكبير في حياة الأمة .

**١ ـ المؤاخـاة : ـ**

كان « التآخي » في الإسلام منهجاً لرصّ صفوف المسلمين . وقد نظَّم الرسولُ بنفسه عملية « التآخي » فيما بين المهاجرين والأنصار . وكان ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يراعي كل متطلبات التآخي . فأن التقريب بين شخصين لم يكن يجري أعتباطا ، بقدر ما كانت تراعى فيه شروط الإنسجام النفسي والروحي . وفي الوقت الذي آخى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بين المسلمين ، اختار له الإمام علياً (ع) أخاً . وفي ذلك أورد أهل السيرة أخبارا كثيرة ، كما جاء في السيرة

---

(١٨) ـ ومن رأى أنها تعني الخلافة في حياته أثناء غيبته بمعنى « الوكالة » فانه يحتاج الى عودة لقراءة اللغة العربية ! .

الحلبية ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) آخى بعد الهجرة بين أبي بكر وخارجة بن زيد وبين عمر وعتبان بن ماللك وبين ابي رويم الخشعي وبلال ، وبين أُسيد بن حضير وزيد بن حارثة ( . . ) قال ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال هذا أخي . فكان رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وعلي أخوين » .

ولم يكن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أعتباطياً في هذا الإختيار ـ حاشاه ـ وانما هي عصمة الوحي السديد ، الذي كان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يتحرك في خطه لايحيد ! ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى** ﴾[١٩] .

**٢ ـ الخلافة : ـ**

والمراد بها هنا ، الاستخلاف . وهي جامعة لمعنيين . الأستخلاف في الغيبة ، والأستخلاف بعد الموت . ووجودها في نفس المقام مع « الوصاية » يجعلها تأخذ « المعنى الأول » : وهو القيام بأعمال بالوكالة عن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهذا النوع من الأستخلاف كان واضحاً في سيرة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لّما كان يختار الإمام علياً (ع) لخلافته في أمور جسام . ويتجسد ذلك في :

١ ـ استخلاف الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) إياه في مكة لقضاء ديونه عند الهجرة . حيث أدى عنه الديون ، ورعى آل البيت (ع) بعده ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

٢ ـ وفي تبوك حيث لم يكن من عادة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ان يستخلف علياً (ع) وراءه لّما تقوم الغزوات . وهو انفع للإسلام في المعركة يومها ، منه في حراسة المدينة . وهو بهذا الجهاد اقام اركان الدين ، وقد قال فيه الرسول (ص) « لولا سيف علي ومال خديجة ، لما قام للإسلام قائمة » . غير غزوة « تبوك » على إثر اتساع الرقعة الإسلامية المجتمعية . فقد دخل في الإسلام

---

(١٩) ـ سورة النجم ( آية : ٤ ) .

« الغث والسمين » . واندس المنافقون وكثروا . . وأغلبهم كان من المؤلفة قلوبهم الذين أسلموا مقابل جُعلٍ مالي مخصص لتأليف قلوبهم .

وخروج الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في هكذا ظروف ، حيث تحيط بالمدينة جموع من المنافقين الذين يُخشى انقلابهم على أهله ، استغلالاً للظروف . فكان يومها علي (ع) أصلح للبقاء في المدينة . والأجواء المحيطة بها تتطلب خلافة محكمة ، فكان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يخلف وراءه الإمام علياً (ع) لأنه الأكفأ لخلافته .

ولست ادري كيف يظن البعض ، ان هذا مجرد اختيار اعتباطي . كيف يمكن للرسول أن يزهد في حضور الإمام علي (ع) المعركة ، وهو مفتاح النصر ، في كل معارك الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) اللهم إلا إذا كان ثمة سرّ موضوعي ، يقتضي ان تكون الخلافة لعلي (ع) على أهله في المدينة ايّام تبوك . وفي ذلك يروي الطبري عن ابن اسحاق : خلف رسول الله : عليَ بن ابي طالب على أهله وأَمره بالإقامة فيهم .

وذكر ابن هشام ( ٤ / ١٢٨ ) : استعمل ( صلى الله عليه وآله وسلم ) على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري وخلف علي بن أبي طالب على أهله وامره بالأقامة فيهم ، فارجف به المنافقون وقالوا ما خلفه إلا استثقالاً له ، وتخففاً منه ، فلما قالوا ذلك أخذ علي سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : وهو نازل بالجُرْف فقال : « يانبي الله زعم المنافقون أنك انما خَفَّفْتني أنك استثقلتني وتخففت مني ، فقال : كذبوا ، ولكني لما تركت ورائي ، فارجع فأخلُفْني في اهلي واهلك ، افلا ترضى ياعلي ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنه لا نبي بعدي » ؟ فرجع علي (ع) الى المدينة ، وهذا ماسمي بحديث « المنزلة » فيما بعد ، والذي تواتر وذكرته اغلب مصادر الحديث عند الفريقين(*) .

---

(*) ـ صحيح البخاري ( ٥ / ١٢٩ ) ط الفكر ، وط صبيح ( ٦ / ٣ ) ، ومسلم في صحيحه ( ٢ / ٣٦٠ ) ط الحلبي ، وط صبيح ( ٧ / ١٢٠ ) ، والترمذي ( ٥/ ٣٠١ ح ٣٨٠٨ ) ، ومسند احمد بن حنبل ( ٣ / ٥٠ ح ١٤٩٠ ) ، ومستدرك الحاكم ( ٣ / ١٠٩ ) ، والطبري ( ٣ / ١٠٤ ) ، وتاريخ =

٣ ـ وبخصوص « سورة براءة » يروي النسائي في خصائصه ، عن سعد قال : بعث رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أبا بكر ببراءة حتى اذا كان ببعض الطريق أرسل علياً فاخذها منه ثم سار بها فوجد أبو بكر في نفسه فقال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لا يؤدي عني إلا انا او رجل مني[٢٠] .

وهذه الرواية التي أجمع على صحتها نقلة الأخبار من كلا المذهبين ، تشير الى واقع تحقق « الخلافة » للإمام علي (ع) في زمن الوحي . وهذه لفتة تاريخية كافية ، كدليل على الخصوصية التي تميز بها الإمام علي (ع) واذا كان الإمام علي (ع) بالتبليغ الإلهي ـ أهلا ان يبلغ عن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فكيف لا يكون أهلاً لخلافة الأمّة من بعده ؟ وهناك اكثر من مثال في السيرة على هذه الميزات التي اختص بها الإمام علي (ع) دون غيره فيما يرتبط بخاصية الخلافة .

٣ ـ المؤازرة : ـ

وثبتت مؤازرته للنبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولم يألُ جهداً إلا وأنفقه في سبيل مؤازرة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ونصرته . والإمام علي (ع) هو من وقف مع الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يوم لم يقف معه الناس . ونصره يوم خذلوه ، والأمثلة على ذلك في السيرة لا تكاد تحصى ، ويمكن إيراد بعض منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ ـ ليلة المبيت أول ليلة فداء :

لولا ما تم ليلة المبيت لما ترتبت هجرة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم )

---

= دمشق ( ١ / ح : ٣٠ ـ ١٢٥ ـ ١٤٨ ـ ١٥٠ ـ ٣٧٠ ـ ٤٠٤ ـ . . . . . ) ، وابن حجر في الاصابة ( ٢ / ٥٠٧ ـ ٥٠٩ ) ، والاستيعاب ( ٣ / ٣٤ ـ ٣٥ ) ، ومجمع الزوائد ( ٩ / ١٠٩ ـ ١١٠ ) ، وغيرها كثير من المصادر .

(٢٠) ـ روى الحديث باسانيد مختلفة عند النسائي في الخصائص (ص ٣٣ ) ط بيروت ، و ( ص ٩٠ ) ط الحيدرية ، وكذلك روى الحديث الامام احمد بن حنبل في مسنده ( ٤ / ١٦٤ ) عن طريق حبشي بن جنادة بطرق متعددة كلها صحيحة وأورد قصة سورة براءة ، كما اخرجه ابن ماجة في سننه ( ١ / ٤٤ ح ١٩٩ ) ط دار احياء الكتب ، والترمذي في صحيحه ( ٥ / ٣٠٠ ح ٣٨٠٣ ) ، ومناقب الخوارزمي ( ص ١٧٩ ) ، ومنتخب كنز العمال بهامش مسند احمد ( ٥ / ٣٠ ) ، وفرائد السمطين ( ١ / ٥٨ ـ ٥٩ ) .

على تلك الشاكلة . لقد عزم المشركون على قتل النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) واعدوا لذلك خطة . وتوجب ساعتئذ عليه ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أن يهاجر علانية ، اذ ان القوم وزعوا عيونهم ، وهم يتربصون به . ولكي يموه عليهم الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) رتب أمر مبيت علي (ع) في فراشه . وذلك المبيت يعكس خطورة الموقف . فلو كان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في خيار ، لما ضحّى بالإمام علي (ع) . وليس إلا علي يقدر على هذه التضحية .

نام الإمام علي (ع) في فراش الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهو ينتظر الحراب كي تتوالى عليه ليستقبلها بروح استشهادية ايمانية . غير أن الخالق لم يرد بذلك سوى الاختبار ، وتغذية التاريخ بالمثل العليا في التضحية والفداء فنجا الإمام علي (ع) يومها ونزل قوله تعالى :[٢١] ، ﴿ **ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد** ﴾[٢٢] .

**٢ - في أحد : -**

واجه الإسلام مصيراً مأساوياً يوم احد . وزاد من تلك الخطورة ، ان فرّ المسلمون ، وشردوا من سيوف الكفار . ولم يبق في المعركة سوى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وعلي (ع) وبقية قليلة من الصحابة الذين قرّ الإيمان في صدورهم . وكان ابو بكر وعمر من اولئك الفارّين في المعركة . وتمسك عمر ، بمقتل الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كورقة لتبرير فراره من الزحف . في هذه الأثناء كان سيف علي (ع) يمخر الأعناق ببسالة اسطورية .

ذكر الطبري : « لما قتل علي بن أبي طالب أصحاب الألوية ، أبصر رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) جماعة من المشركين فقال لعلي : احمل عليهم فحمل عليهم ، ففرّق جمعهم وقتل عمر بن عبد الله الجمحي (..) فقال جبريل : يارسول الله ان هذه المواساة ، فقال رسول الله : ( إنه مني وانا منه ) ،

---

(٢١) - أجمع على ذلك المفسرون : شواهد التنزيل ( ١ /٩٦ح ١٣٣ ) ، وتفسير الرازي ( ٥ / ٢٢٣ ) ، وتذكرة الخواص ( ٣٥ / ٢٠٠ ) ، وشرح النهج ( ١٣ / ٢٦٢ ) .

(٢٢) - سورة البقرة ( آية : ٢٠٧ ) .

فقال جبرائيل : وأنا منكما فسمعوا صوتا :

لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار[٢٣] .

٣ ـ في وقعة الخندق : ـ

كانت هذه المعركة التي لم يشترك فيها المسلمون وجهاً لوجه مع الكفار ، احدى المعارك الأستراتيجية في تاريخ الإسلام . وخفف عن ذلك ما اقترحه سلمان الفارسي (رض) من حفر الخندق لغاية الدفاع . غير أن تجرؤ عمرو بن ود العامري ، واقتحامه الخندق طلباً للمبارزة ، قد أوقع الإسلام كله أمام تهديد مصيري ، وفيها كان عمرو بن ود يطلب المبارزة ويقول :

ولقد بححتُ من النداء بجمعكم هل من مبارز

ووقفت إذ جبن المقارع موقف العز المناجز .

ولم يستجب أحدٌ لهذا الصوت ، وفي الصحابة ابو بكر ، وعمر . . . لم يستجب إلا عليٌّ بن أبي طالب ، فلقد كان يقف ويطلب من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الخروج إليه ، حتى أذن ودعا له . ويعد ان نصر الله المسلمين في الأحزاب بعلي (ع) قال الرسولُ ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كلمته الشهيرة : « لمبارزة عليّ بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود افضل من عمل أمتي الى يوم القيامة »[٢٤] .

٤ ـ يوم خيبر : ـ

كانت هذه المعركة ضد يهود خيبر . وكانت حصونهم مانعتهم من المحاربين .

---

(٢٣) ـ تاريخ الطبري ( ٢ / ٥١٤ ) .

(٢٤) ـ لقد كبر هذا الحديث على بعض النواصب من أمثال ابن تيمية . محاولا النيل منه لأن فيه فضيلة لعلي (ع) لا يشاركه فيها غيره . وابن تيمية يجهل المأزق الذي أنوجد فيه الإسلام يوم الخندق . وكان على ابن تيمية ان يبحث في تبرير لأبي بكر وعمر . . وعدم استجابتهما لدعوى المبارزة ودعوى الرسول (ص) . . أنه اللهو بالحقائق وسوف يلقون غياً ! ، ولقد جاء هذا الحديث في مصادر عديدة منها : فرائد السمطين ( ١ / ٢٥٦ ح ١٩٨ ) ، وشواهد التنزيل ( ٢ / ٨ ) ، مستدرك الحاكم ( ٣ / ٣٢ ) ، وبالفاظ مختلفة في تاريخ دمشق ( ١ / ١٦٩ ) ، وتفسير الرازي ( ٣٢ / ٣١ ) .

وكان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد اعطى الراية لرجلين . الأول أبو بكر والثاني عمر . . فالأول أنهزم وولىّ منكسراً الى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وبلا نتيجة . والثاني : انهزم ايضاً ، ورجع يجبن الذين معه ، ويجبنونه ، وساعتئذ قال ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . فاشرأبت اعناق الناس إليها . وفي الغد دعا علياً (ع) وكان به رمد . فمسح على عينيه فبرىء ، وحمل الراية ، وفتح حصن خيبر وسجّل فيها اروع نماذج البطولة وقتل بطل الابطال « مرحب » .

٥ ـ الوصية : ـ

أن يوصي الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بمن يخلفه في امته فذلك هو الأقرب الى منطق العقل والشريعة . اذ كيف يعقل ان يترك الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أمر الأمة للشورى في الوقت الذي لا يزال المجتمع فيه ، غارقاً في البداوة والجهل ؟ فاذا لم يكن من الضروري ـ افتراضا ـ أن يوصي بالخلافة في الحكم الدنيوي ، فهل يعني هذا أنه ليس من الضروري أن يوصي بمن يخلفه في مسؤولية « الدعوة والتوجية » ؟ علماً أن شعوباً أخرى مات الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهي لم تفتح حصونها بعد ، ولها مشاكل تختلف عن تلك التي واجهها عرب الجزيرة العربية في تعقدها وعمقها . وكانوا يحتاجون لفتوىً من الشريعة ، وهذا الفراغ الذي ظهر فيما بعد ، كان سببه تغييب دور الأئمة عليهم السلام ، ولذلك اضطرّ المناوئون الى خلق نمط من التفكير ، لفهم الأحكام وتأصيلها ، أستلهموا روحه من الفكر الإغريقي ، كما هو شأن « القياس » والمفهوم بالمخالفة ، وما أشبه . وفي زمن الخلفاء ، تبين هذا الفراغ وكان الإمام علي (ع) هو الوحيد بعد رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الذي قال : « سلوني قبل ان تفقدوني » ، والوحيد الذي لم يستفت الآخرين في القضايا التي تواجهه . ورجوع الخلفاء إليه في الأحكام دليلٌ على انهم هم ايضاً في حاجة الى توجيهه وإرشاده . وكل ما تتطلبه مسؤولية الخلافة ، كان متوفرا في شخص الإمام علي (ع) . فالفقه والقضاء اللذان شكّلا روحَ الدولةِ الإسلامية . كانتا ميزتين للإمام علي (ع) وبعد ذلك لم يكن هناك قطاع أهمُّ في مجتمع الإسلام من القطاع العسكري ، والإمام علي (ع) لاشك ، كان اكبر ، وأعلى رجل عسكري في دولة

الإسلام .

ولم يثبت التاريخ أن أحداً من الصحابة أو غيرهم كان أشجع منه وأقوى . ولا يمكن قياس ابي بكر او عمر او عثمان او أي كان بالقدرة العسكرية للإمام علي (ع) .

لقد اكتملت كل مؤهلات الخلافة لدى الإمام علي (ع) ، والذين يحرصون على نجاح مشروع الإمامة ، هم اولئك الذين اختاروا لها علياً (ع) لأنه الوحيد الذي يستطيع تطوير هذا المشروع والذهاب به بعيداً في خط التقدم . ولكن ، لابد أن نتذكر العوامل الأخرى ، التي يمكنها أن تعرقل مشروع الإمامة . وهي ذاتها التي كانت عقبة في وجه مشروع النبوة . انه العامل « القبلي » الذي بقي راسخاً في نفوس الأغلبية الساحقة . فرفضت على علي (ع) « الإمامة » مثلما رفضت على محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) النبوة ، لا لشيء إلا لأنهما من « بني هاشم » وكل ذلك رؤية قبلية ـ محضة ـ لقضايا إسلامية مجردة .

وبذلك يكون الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد اثبت للإمام علي (ع) الوصية . فمن كان راضياً بولاية الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وجب عليه القبول بولاية الإمام علي (ع) .

واكمل الله دينه يوم تمت الرسالة واكتملت بالولاية ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً** ﴾[٢٥] ، وهي آخر ما نزل من القرآن .

وظل النفاق يختمر في النفوس ، ينتظر الفرصة كي تسنح ، ليقلب للرسالة ظهر المجن . فتولي نفوس أدبارها باتجاه الضلالة من جديد . ويفتح الملف المثقل بكل الحسابات القديمة ، فاليوم يوم الحساب وآن لبني هاشم ان يدفعوا ثمن الإنتصار المحمدي ، ولترفع ثياب المشركين المقتولين بسيف علي (ع) في نفوس المنافقين ، فيتربصون الدوائر بعترة محمد الطاهرة (ع) .

ستأتي الرزية ، ويبدأ المنعطف ، ويبدأ أول مؤتمر في تاريخ « البدو » حيث

---

(٢٥) ـ سورة المائدة ( آية : ٣ ) .

يزاح الإسلام ، وتطرح قشوره ، بحثاً عن المنافع الشخصية . وسيبدأ التاريخ المفضوح من جدول أعمال السقيفة ، ليكون ما بعدها أتراماً وأتراماً على آل البيت النبوي (ع) .

ولذلك تتبلور الصفة المتميزة للإمام علي (ع) أيام النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ويدل هذا أيضاً على أن الإمام علياً (ع) اختير لمؤازرة الوحي ، بينما غيره كان موضوعاً للرسالة والوحي . اي ان الوحي كان ينقل بواسطة محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وبمؤازرة علي (ع) لينتهي الى العامة من الناس الذين من بينهم عناصر معينة أختصت بصحبة النبي[٢٦] .

وصحبتهم ليست سوى حالة من التمحور حول الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وتلقي الوحي عنه من دون ان تكون ملزمة لعصمتهم بمعنى عدم تبدلهم وتراجعهم عنه ، ولم تكن الصحبة تعني بالضرورة « الخلافة » او فيها ما يؤشر الى ذلك ، بعكس ما يبعث به مفهوما « الوصية » و « الوزارة » اللذان اختص بهما الإمام علي (ع) . وبذلك تكون كل الخصال متحققة في شخص علي (ع) سوى « الوصية » ، وفعلاً لقد أوصى ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بالإمامة لعلي من بعده بحيث بلغ حدّ التواتر ، وحضره جمع غفير من الصحابة ، وسمعوه ووعوه ، وعلقوا عليه بـ « بخ بخ لك » او ما شابهها من العبارات . وكان هذا الحديث هو ورقة المعارضة منذ أن أحيلت الخلافة الى « الرأي » .

لم يغادر الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الحياة ، حتى وقف تلك الوقفة التاريخية الكبرى بحجة الوداع ، ليعلن بصريح النص « ان علياً ولي للمؤمنين » بعده وقصة الخبر كالتالي[٢٧] :

---

(٢٦) ـ ولهذا يجب أن نميز علياً (ع) عن الصحبة . فهو ليس صحابياً فحسب . اذ له الف والف رابطة ووظيفة في هذا الدين ، وكلها كانت تجري بعين الوحي ! .

(٢٧) ـ أستطاع عبد الحسين الأميني في كتابه العملاق : الغدير . إحصاء رواة الحديث من الصحابة والتابعين والعلماء ، فكان أن أثبت بالأسانيد الموثقة أن :

ـ عدد رواة الحديث من الصحابة ( ١١٠ ) .

ـ عدد رواته من التابعين (٨٤) .

ـ عدد رواته من العلماء (٣٥٩) .

كان يوم الثامن عشر من ذي الحجة في سنة عشرة من الهجرة ، حيث وصل الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الى غدير خم عائداً من حجة الوداع . وغدير خم مكان يقع على مقربة من الجحفة بناحية رابغ ـ بين مكة والمدينة ـ وذكر اليعقوبي في تاريخه ، انه ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قام خطيباً « بغدير خم » وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا : بلى يارسول الله ! قال : فمن كنت مولاه ، فعلي مولاه . اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاداه .

ثم قال : أيها الناس إنّي فرطكم وأنتم واردِيّ على الحوض ، وإني سائلكم حين تردون عليّ ، عن الثقلين فآنظروا كيف تخلفوني فيهما . وقالوا : وما الثقلان يارسول الله ؟ قال : الثقل الأكبر كتاب الله ، سببٌ طرفه بيد الله ، وطرف بأيديكم ، فاستمسكوا به ولا تضلّوا ، ولا تبدّلوا ، وعترتي أهل بيتي[٢٨] .

وذكر ابن كثير في تاريخه : « قال الحافظ ابو يعلى الموصلي والحسن بن سفيان بن هدبة بن حماد بن سلمة عن علي بن زيد وابي هارون عن عدي بن ثابت عن البراء قال : كنا مع رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في حجة الوداع فلما اتينا على غدير خم فُسح لرسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) تحت شجرتين ونودي في الناس الصلاة جامعة ودعا رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) علياً وأخذ بيده فأقامه عن يمينه فقال الست أولى بكل امرىء من نفسه قالوا بلى قال هذا مولى من انا مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاده . فلقيه عمر بن الخطاب فقال هنيئاً لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة » .

وذكره النسائي في خصائصه[٢٩] حيث قال : أخبرنا محمد بن المثنى قال : حدّثنا يحيى بن حماد . قال : أخبرنا أبو عوانة عن سليمان ( الأعشر ) قال : حدثنا حبيب

---

(٢٨) ـ تاريخ اليعقوبي ( ٢ / ١٠٩ ) ، وجاء بالفاظ مختلفة في صحيح مسلم ( ٢ / ٣٦٢ ) ، ومسند احمد ( ٣ / ١٧ ) ، ومصابيح السنة ( ٢ / ٢٧٨ ) .

(٢٩) ـ النسائي ( ص ١٥٠ ) ، وورد بطرق مختلفة في مسند احمد ( ٤ / ٢٨١ ) ، وتاريخ بغداد ( ١٣ / ١٣٤ ح ٣٦٤٢٠ ) ، وذخائر العقبى ( ٦٨ ) ، والمصنف ( ٧ / ٥٠٣ ) ، وتذكرة الخواص ( ٣٦ ـ ٦٤ ) ، والبداية والنهاية ( ٣ / ٢١٠ ) ، وفرائد السمطين ( ١ / ٦٥ ـ ٧١ ـ ـ ٧٧ ) ، وشواهد التنزيل ( ١ / ١٥٧ ) .

بن أبي ثابت ، عن أبي الطفيل ( عامر بن وائلة ) عن زيد بن أرقم قال : لما رجع النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من حجة الوداع ونزل « غدير خم » أمر بدوحات نقمن ثمّ قال : كأنّي دعيت فأجبت وإنّي تارك فيكم الثقلين أحدهما اكبر من الآخر : كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض .

ثم قال : إنّ الله مولاي وأنا وليّ كلّ مؤمن . ثم إنه أخذ بيد عليّ (رض) فقال : « من كنت وليّه فهذا وليّه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »[٣٠] . ولم يجد خصوم « الولاية » دليلاً قوي العود ، ليسندوا به خصومتهم ، وبعضهم ممن عرف بنقص الحياء لجأ الى التحايل على النص ، و« الشطح » في تأويله بما يُعرقب أطرافه . ظانينّ أنهم أمام أميين لا يعلمون الكتاب . فذكر ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة : « لانسلم أن معنى الولي ما ذكروه ، بل معناه الناصر ، لأنه مشترك بين معان كالمعتق والعتيق ، والمتصرف في الأمر ، والناصر والمحبوب ، وهو حقيقة في كل منها ، وتعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لا يعتد به ، وتعميمه في مفاهيمه كلها لا يسوغ »[٣١] .

وقد تلقف هذه « الشطحة » بعض المهرجين « ورددوها من دون استحياء » ولم اكن لأتصور كيف ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يوقف المسلمين بغدير خم ، ويقول لهم « الست اولى بكم من انفسكم » ثم يقول ما قال ، فتنزل

---

(٣٠) ـ نفس الحديث رواه النسائي بأسانيد وطرق مختلفة ، وكذلك رواه جمع غفيرٌ من المحدثين كابن حنبل في المسند ، والحاكم في المستدرك ، والحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب . والطبراني في المعجم الأوسط والسيوطي في الدر المنثور وغيرها من كتب الحديث . ورجاله رجال الصحاح على شرط البخاري ومسلم على حدّ قول « الحاكم » وغيرها من الموثقات التي يضيق بها المقام . وقد ورد هذا الحديث بالفاظ مختلفة في كتب القوم مثل : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والي من والاه وعاد من عاداه » في المصادر التالية : شرح النهج ( ٤ ٣٨٨ ) ، تاريخ دمشق ( ١ / ٢١١ ح ٢٧٥ ) ، تفسير الرازي ( ٣ ٦٣٦ ) ، وبلفظ « من كنت مولاه فعليّ مولاه » ، في سنن ابن ماجة ( ١ / ٤٥ ح ١٢١ ) ، وأسد الغابة ( ١ / ٣٦٩ ) ، وحلية الاولياء ( ٥ / ٢٦ ) .

(٣١) ـ مثل هذه « الجهالات » أستنسخها صاحب الرد على أباطيل المراجعات بجهل أوسع ونصب اكثر .

الآية : ﴿ اليوم اكملت لكم دينكم ﴾[32] كل هذا فقط ، ليقول للمسلمين ، إن عليا قريبكم ، او غيرها من المعاني التي نعتوها .

(٣٢) ـ سورة المائدة ( آية : ٣ ) .

# السقيفة

كنا قد عرفنا ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لم يكن ـ حاشاه ـ غافلاً عن قيمة الخلافة والاستخلاف . وكانت خطبة الوداع ، برنامجاً لهم ، يقيهم عثرات المستقبل . واكّد فيها على آل بيته (ع) وولّى فيها الإمام علياً (ع) بقوله « الا من كنت مولاه ، فهذا علي مولاه » كرّرها ثلاث مرّات[٣٣] . وحذّرهم من مغبّة التجاوز للنص ، ابتغاء الرأي والباطل ، كما حذّرهم من مغبّة التضليل والافتتان والرّدة والإفتان . ذكر اليعقوبي في تاريخه : « لاترجعوا بعدي كفّاراً مضللين يملك بعضكم رقاب بعض إنّي خلّفت فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي » ثم أمر الناس بالإلتزام بما أعلنه وأودعه فيهم قائلاً : « إنكم مسؤولون فليبلغ الشاهد الغائب »[٣٤] . وكان الإمام علي (ع) هو المرشح ، لولاية المسلمين بعد وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وبعد ان تبين أمر الولاية . نزلت الآية الكريمة ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾[٣٥] ، وحيث ان الوضع يؤمئذٍ لا يسمح بالمعارضة . فان المجموعة المنافقة لم تعلق ـ بأستثناء بعض الحالات ـ

(٣٣) ـ وفي لفظ أحمد بن حنبل « كررها أربع مرات » .

(٣٤) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١١١ ) .

(٣٥) ـ سورة المائدة ( آية : ٣ ) وذكر السيوطي في الدر المنثور ( ٢ ٢٥٩ ) ، والخطيب البغدادي في تاريخ دمشق ( ٢ / ٧٥ ح ٥٧٥ ) ، نزولها في الغدير .

واستمرت في صمتها تترقب الفرصة . وبوفاة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بدأت المؤامرة تتبلور ، وتنعكس على أرض الواقع الإسلامي .

# الوفاة وملابساتها

هناك أمران اساسيان في تناولنا لوفاة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) والأجواء التي أحاطت بهذا النبأ التاريخي العظيم .

الأول : ـ ان محمداً ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الذات ، البشري ، الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . . . ( شيء ) .

الثاني : ـ ان محمداً ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بما هو همزة الوصل بين السماء والأرض وبما هو الرسول المرسل . . . ( شيء آخر ) .

والنبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كذات ، كبشر . . . ترك أثراً بالغاً في نفوس الكثير من الناس . إثر موت قريب بشري . وهؤلاء هم الذين ارتبطوا بشخصية الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كبطل ، وكعبقري . . فتشكل وجدانهم على غرار هذا الإعجاب بالرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وعليه ، فانهم لا يرون الأهمية الجوهرية التي كانت تميز شخصية الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكان ( صلى الله عليه وآله وسلم ) هو لها وليست هي له ، لذلك تراهم ، سرعان ما فكروا في مستقبل حياتهم وطرق التكيف مع الأوضاع الجديدة . حيث غاب الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وبالتالي غاب معه الوحي .

وفي نفس الأثناء ، كانت هناك فئة تؤمن بمحمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) النبي ، بما هو رسول الوحي . وبما هو الرسالة ، فهل ذهاب محمد ( صلى الله

عليه وآله وسلم ) الذات يعني بالضرورة ذهاب الرسالة ؟ فهؤلاء هم الذين والوا علياً (ع) كأمتدادٍ طبيعي في شخصية الإمام (ع) بما هو الشخص المرشح لمواصلة المسيرة بحكم ما يملكه من مؤهلات الإمامة ، وما أورثه إياه الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من علم ضروري للقيام بهذه المهمة الرسالية . وقد ردّ الله سبحانه في القرآن على اولئك الذين سوف يحيدون ، عن أوامر الرسالة ، فور اعتقادهم ، بوفاة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فقال : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين** ﴾[٣٦] .

وقد حدث ذلك في معركة « أحد » حيث فرّ جميع الصحابة باستثناء علي (ع) وافراد معدودين . ووضع الفارون سيوفهم في الأغماد لّما سمعوا ان محمداً ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد مات . حتى نزل عليهم التوبيخ الإلهي .

هذان التصوران كانا سائدين في زمن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وبعده ، وقد تجلت صورتها لما رفع عمر بن الخطاب سيفه ، يهدد من قال بموت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . ورأى انه حي ، وسوف « يرجع » كما رجع موسى (ع) وأعتقد به الكثير منهم . وذلك دليل على ان هذا التصور موجود عند البعض ، حتى ورد من قال : ان محمداً قد مات .

هذان التصوران هما أساس الأختلاف في زمن الوفاة ، ووقائعها كالتالي : بعد قدومه من حجة الوداع الى المدينة بايام قلائل ، جهز الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) جيشاً لفتح تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، على حد تعبير ابن الأثير . وعقد في ذلك لأسامة بن زيد على هذا الجيش الذي اجتمع فيه المهاجرين والأنصار . وكان فيهم ابو بكر وعمر . . كما ذكر اليعقوبي . وكان قد ابتدأ بالرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) المرض في أواخر صفر[٣٧] وكان أسامة يوم اشتكى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مرضه « بالجرف » فتأخر ، مما أغضب الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وجعله يحث على المسيرة[٣٨] لقد توفي

---

(٣٦) ـ سورة آل عمران ( آية : ١٤٤ ) .

(٣٧) ـ الكامل ( ٢ / ٣١٧ ) .

(٣٨) ـ لنا مع أسامة وجيشه جوله خاصة ! .

الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يوم الأثنين ( ١٢ من ربيع الأول )[٣٩] ، ودفن من الغد نصف النهار[٤٠] ، وذكر اليعقوبي « ان وفاته ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كان طالع سنتها الجدي ثماني عشر درجة »[٤١] .

وفي اثناء مرضه واحتضاره ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كما بعد وفاته ، جرت احداث خلّفت وراءها محناً سياسية واجتماعية رهيبة . ولكي نفهم مشكلة الخلافة وملابساتها ، لابد من استحضار هذه المشاهد . واستنطاق الفواصل الحساسة فيها ، من أجل الخروج بمخطط فكري وسياسي ، يمكننا من فهم الحالة الاسلامية بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

لقد ابتدأ على الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) المرض ، وهو قد جهزّ جيش أسامة بن زيد ، وكان من المنطقي ـ حسب النظرة التي نحملها الآن عن الصحابة الكبار وميزاتهم ـ كابي بكر وعمر وعثمان . ان يعقد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لأحد كبار الصحابة . لكنه عقد لأسامة ، وهو يومها فتى صغير . وكثر الطعن في ذلك ، وتكلم بعض الصحابة في إمارة اسامة ، وقالوا كلاماً يمجه منطق الصحبة والإيمان .

ذكر ابن سعد في الطبقات ( ٢ / ١٩٠ ) ، ان سرية أسامة بن زيد بن حارثة الى أهل « إبني » وهي ارض السرات ناحية البلقاء . وقال : « فلما كان يوم الاربعاء بدأ برسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) المرض ، فحمَّ وصدع فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده » ثم قال : اغزُ بسم الله في سبيل الله فقاتل من كفر بالله . فخرج وعسكر بالجرف فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة فيهم ابو بكر وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وغيرهم ، فتكلم قوم وقالوا يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ، فغضب رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) غضباً شديداً فخرج وقد عصب على رأسه عصابة فصعد المنبر فحمد

---

(٣٩ ـ ٤٠ ) ـ الكامل ( ٢ / ٣٢٣ ) وحسب التقويم الإسلامي الشيعي ، ( إن الرسول (ص) توفي في ٢٨ من صفر ) .

(٤١) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١١٣ ) .

الله واثنى عليه ، ثم قال « أما بعد ، ايها الناس ، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في امارة أسامة . ولئن طعنتم في إمارةٍ أسامة لقد طعنتم في أمارة أبيه من قبله وأيم الله انه كان للإمارة خليقاً وان ابنه من بعده لخليق للإمارة ثم نزل فدخل بيته وذلك يوم السبت لعشرة خلون من ربيع الأول ، وثقل رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فجعل يقول انفذوا بعث أسامة .

وفي الملل والنحل : « جهزوا جيش أسامة ، لعن الله من تخلّف عنه »[٤٢] . وعلى الرغم من ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) حرص على تجهيز الجيش . وتبين من خلال ذلك إصراره ( صلى الله عليه وآله وسلم ) على بعثه . فإن الصحابة لم يطيعوا ورجعوا بعد ان وصلوا الى الجرف . وهناك لفتة يجب الوقوف على أطلالها . نحن في البداية نختار لأنفسنا منهجاً برهانياً علمياً . لنجعله برهاناً غير مباشر . سنفترض أن الخلافة لعلي (ع) ونحلل على أساس هذا الفرض ، فاذا أوقفنا تناقض اوقفنا « الدور » وكان افتراضنا خاطئاً . واختيارنا لهذا البرهان لا يعني انه لا برهان له بطرق اخرى . وانما لأن هذا النمط من الإستدلال هو أقرب الى الوجدان ، واكثر انسجاماً مع العقل العلمي .

لقد سبق ان قلنا أن وجود الخلاف بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) حول « الخلافة » يقتضي ان يكون أحد الفريقين على خطأ . أو بتعبير أدق ، ان يكون أحد الفريقين « مدّعيا » حقا ليس له او ان الفريق الأخر « مغتصباً » لحق ليس له ايضاً . لنفترض ـ طبقاً ـ لأسلوبنا البرهاني المتقدم ، ان الإمامة ثبتت وان المسألة محض آغتصاب[٤٣] وعلى هذا الأساس نمطلق .

الأجواء التي أحاطت بالصحابة والمسلمين عند وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كانت تتخللها بعض نقاط الاستفهام . تشكل لُغزاً فيما لو ربطناها بما جرى بعد ذلك من أحداث .

فالرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد علم منذ حجة الوداع أنه سيستقبل

---

(٤٢) ـ الملل والنحل ( ١ / ٢٣ ) .

(٤٣) ـ أقترحت هذه الطريقة من البرهان ـ أ ـ وإلا فلو افترضت « الإدعاء » فليس بيني وبين النتيجة السلبية سوى نص أو نصان صريحان ينهيان المسألة من الأساس .

الآخرة . وهو يعلم بذلك كما تثبت الروايات الصحيحة . فكيف يجهز جيش أسامة ، وبتلك الطريقة التي استنكرها عليه بعض الصحابة ، في الوقت الذي احتفظ فيه بالإمام علي (ع) وهو رمز الجيش الإسلامي . ان للتاريخ ثغراتٍ يمكن ان تتسلل منها الفضائح وتنكشف ! .

لقد علم عمر بن الخطاب ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) سيموت لا محالة[٤٤] ، وبأنه كان مصراً على الحضور بعيد وفاته ، ليعرف كيف والى اين ستؤول الأوضاع . إنه سمع من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في حجة الوداع . وبغدير خم ان ولي المسلمين هو « علي بن أبي طالب » وكان قد تقدم إليه بالتهنئة قائلاً « بخ بخ لك يا أمير المؤمنين » ولكنه أصر ان لا تؤول الولاية إليه . وان ذلك رهين بحضوره المستمر ، ولهذا أبى أن يجهّز جيش أسامة . إنَّ تردد عمر بن الخطاب ، وتقنعه بالروح . وكان لإمارة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وعقده لأسامة درسٌ للصحابة ، كي يعلموا ان الإمارة بالنص لا بالرأي . وبأن تشدّدهم برأيهم لم ولن يقنع الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بتغيير وجهة نظره . وفي ذلك ردع لكل من يتطلع لخلافة رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وإحباط معنوي كي لا تطمع نفوس بها . ومع ذلك حرصت هذه النفوس على الحفاظ على معنوياتها وافشلت مسيرة جيش أسامة وتقّولت فيه .

وهنالك رأي كسير ، يحتاج الى جواب يجبره . هو ان بعض « مبررة » الخيانات التاريخية ، رأوا في ذلك دليلاً على تعلق عمر بن الخطاب وابي بكر ، بالنبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وانهما فضلا البقاء الى جوار الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وعلى مقربة منه ليطمئنوا عليه .

وكسر هذا التبرير ، يمكن جبره بثلاث مسائل :

اولا : لقد سبق ان ذكرنا الطريقتين اللتين كان يتعامل بهما الصحابة مع الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولعل هؤلاء من الصنف الأول ، الذين اهتموا بشخص الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولم يهتموا برسالته . ولولا

---

(٤٤) ـ الروايات السنية تثبت ان عمراً وغيره من الصحابة بكوا في حجة الوداع وعياً منهم بقرب وفاته ! وحادثة البخخة ذكرها الكثير : تاريخ دمشق ( ٢ / ٥٧٥ ) ، وشواهد التنزيل ( ١ / ١٥٨ ح ٢١٣ ) ، والغدير ( ١ / ١٣٢ ) .

ذلك لكان عليهم الاستجابة لداعي الجهاد ، خصوصاً وان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لعن من تخلف عن جيش أسامة . ثم ان هؤلاء كانوا قد طعنوا ابتداء في امارة اسامة وليس حبا في الرسول ( ص ) .

ثانياً : ان عمر بن الخطاب رفض تجهيز جيش أسامة على وجه الأطلاق وانه رفض ان يكون أسامة على رأس الجيش ، ليس ذلك في عهد النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فقط بل وحتى بعده . وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه[٤٥] ، ان عمر بن الخطاب طلب من أبي بكر عزل أسامة بن زيد في خلافته ، فوثب أبو بكر بلحية عمر قائلاً : « ثكلتك امك وعدمتك يابن الخطاب ، أستعمله رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وتأمرني أن أنزعه » .

فعمر بن الخطاب ، كان له موقف ثابت من إمارة أسامة وبقي ثابتاً على هذا الموقف حتى بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

ثالثاً : إن تعامل الرجلين مع الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في مرضه ، لايدل على تعلقهما الشديد به ، بل الواضح انهما كانا مصدر إزعاج له في مرضه ، ولقد نهى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عمراً اكثر من مرة . ففي تخلفه وتقوله في جيش أسامة ، خرج الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) معصب الرأس غاضباً فقال : « لعن الله من تخلف عن جيش اسامة » .

ثم إن ابابكر لم يكن حاضراً عند وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ذكر ابن الأثير في تاريخه : « ولمّا توفي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كان ابو بكر بمنزله بالسُّنح »[٤٦] .

اما عمر بن الخطاب ، فقد وقف موقفاً قمعياً ، اذ حال بين الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في مرضه والكتابه . وهي اكبر لغز في تاريخ الإسلام ، ما تزال « المبررة » تغض الطرف عنه ، ولا تمعن فيه النظر . وهو ما سمي « برزية يوم الخميس » حيث أخرج مسلم في كتاب الوصية من الصحيح قال : عن سعيد

---

(٤٥) ـ الطبري ( ٣ / ٢٢٦ ) ، وكذلك الدحلاني في السيرة ( ٢ / ٣٤٠ ) ، والحلبي ( ٣ / ٢٠٩ ) ، وغيرهما .

(٤٦) ـ الكامل ( ٢ / ٣٢٢ ) ، والطبري ( ٢ / ٤٤٤ ـ ٤٤١ ) ، وتاريخ ابن خلدون ( ٢ / ٤٦٦ ) .

بن جبير من طريق آخر عن ابن عباس ، قال : يوم الخميس وما يوم الخميس ، ثم جعل تسيل دموعه حتى رؤيت على خديه كأنها نظام اللؤلؤ . قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) إئتوني بالكتف والدواة او اللوح والدواة ، اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً ، فقالوا : ان رسول الله يهجر »[٤٧] .

وأخرجه الطبراني في الأوسط بهذا اللفظ لما مرض النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وقال : « إئتوني بصحيفة ودواة اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبدا . فقال النسوة من وراء الستر : ألا تسمعون ما يقول رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال ، قال عمر : فقلت إنكن صويحبات يوسف[٤٨] » اذا مرض رسول الله عصرتنّ اعينكنّ ، واذا صحّ ركبتن عنقه ! قال : فقال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : « دعوهنّ فإنهنّ خير منكم »[٤٩] .

---

(٤٧) ـ ذكره أحمد بهذا اللفظ ومسلم ( ٣ / ٧٥ ) . وورد بلفظ مختلف هذا الحديث في صحيح البخاري ( ٤ / ٣١ ) ، وتاريخ الطبري ( ٣ / ١٩٣ ) ، والكامل ( ٢ / ٣٢٠ ) .

(٤٨) ـ ترى من هن صويحبات يوسف . هل هي « زليخة » التي عشقت فتى غير زوجها وراودته عن نفسه . أم زائراتها اللائي قطعن أيديهن وسلّمن « لزليخة » في رغبتها في « يوسف » أهكذا « عمر » يشبه نساء النبي (ص) فهل سلمان رشدي أتى بجديد ؟ .

(٤٩) ـ لا أريد الاطالة في عرض الحديث واسانيده وطرقه المختلفة التي اكتظت بها كتب الصحاح الستة وتواريخهم ومن بين اولئك البخاري في صحيحه في باب مرض الرسول وفي كتاب العلم . كما أخرجه مسلم في باب الوصية ، واحمد والطبراني في الأوسط وكنز العمال الجزء الثالث ، ومن المؤرخين ذكره الطبري في التاريخ ، وسعد في الطبقات ( ٢ / ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ) ، بسنده عن سعيد بن جبير عن بن عباس ، وذكر البخاري في باب جواز الوفد من كتاب الجهاد والسيرة من صحيحه : حدثنا بن عينية عن سلمان الأحول عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال يوم الخميس وما يوم الخميس الى ان قال . فقالوا : هجر رسول الله . قال (ص) : دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه ، وأوصى عند موته بثلاث : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم قال ونسيت الثالثة .

قلت : وليس هذه « نسيت الثالثة » سوى الرديف الطبيعي لـ « كذا وكذا » التي سبق ان رايناها عند الطبري في تفسيره اثناء بحث حديث « الدار » ، برغم اعترافه بالحديث في تاريخه ، وكأن المؤرخين والمحدثين فطروا على نسيان « الرزايا » التي تعتبر بؤرة لفهم ما حصل ولماذا ! وحديث « الدواة » أشهر من نار على علم لدى كل المحدثين وهو بحق ، أعظم رزية على حد قول ابن عباس .

و « يهجر » هذه التي أستخدمها عمر ، ليست ادباً يليق بمقام النبوة ، وعمر يعلم أن من راحة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ان يقدم له ما يطلب . ولم يؤذن لعمر بن الخطاب ان يفتي في حضرة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وبأنه « حسبنا كتاب الله » والأحاديث تؤكد بأن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) غضب لذلك غضباً شديداً وهو ما يفيد قولنا ، بأن حضور عمر بن الخطاب ، كان له هدف مرسوم وغاية محددة . ولو كان اطاع النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في السير مع جيش أسامة لكان خيراً له ، واقرب للتقوى كما يجب ان يتحلى بها صحابة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وحماة العقيدة وافضل له من قذف الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بالهجران[٥٠] .

أولاً : ـ لأنه تخلف عن جيش أسامة ولم يجب أمر الرسول .

وثانياً :ـ لأن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لمّا رآه حاضراً ، طلب فوراً . الدواة والقرطاس ، لأنه يعلم أن وجود عمر في المقام يهدف كسب الخلافة لصالح مخططه . والدليل على ذلك ، أنه هو نفسه الذي عارض طلب الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بحجة ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يهجر « بمعنى يهذي » أي ان النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فقد صلاحية النبوة في تلك اللحظة ، وهو لا يزال بين أظهرهم . وأعطى عمر بن الخطاب نفسه منذ ذلك الوقت ، صلاحية الإجتهاد والتقرير ! .

وعمر هذا كان يدرك ماذا يمكن ان يكتب الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في ذلك القرطاس ، ولم يكن ابن عباس ولا الآخرون يجهلون حقيقة الموقف لما قال : الرزية كل الرزية لمّا حيل بين الرسول والكتابة . فهي رزية ، لأن دليلها تجلّ في أحداث السقيفة وما بعدها . ويورد ابن ابي الحديد في شرح النهج عن ابن عباس قال : خرجت مع عمر الى الشام في احدى خرجاته . فأنفرد يوما يسير على بعيره فقال لي : ياابن عباس أشكو إليك ابن عمك ـ أي الإمام

---

(٥٠) ـ « الهجر » في اللغة ، هو القول السيء وفي لسان العرب لأبن منظور ، الهجر برفع الهاء ـ القبيح من الكلام . والهجر أيضاً بمعنى الهذيان . والهُجر ، بالضم الأسم من الإهجاء وهو الإفحاش . وكذلك اذا كثر الكلام فيها لا ينبغي . وهجر في مرضه ، بمعنى هذى . . وكان هذا ما أراده عمر بن الخطاب من كلمته مما زاد الرسول (ص) الما ووجعا . . وأمرنا لله ! .

علي (ع) ـ سألته ان يخرج معي فلم يفعل ولا أزال أراه واجدا ، فما تظن موجدته ؟ قلت : ياأمير المؤمنين انك لتعلم ، قال : اظنه لايزال كئيباً لفوت الخلافة . قلت : هو ذلك ، انه يزعم ان رسول الله أراد الأمر له . قال : ياابن عباس واراد رسول الله الأمر له فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك ؟ ان رسول الله اراد أمراً واراد الله غيره فنفذ أمر الله ولم ينفذ مراد رسول الله ، او كلما أراد رسول الله أمراً أراده الله » ؟ وهذه الكلمة التي هي أقل « قسوة » من « يهجر » تدل على مدى معرفة عمر بن الخطاب بمجريات الأمور ، وادراكه لكل الأبعاد . ولذلك أبي إلا ان يوقف الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عند حدّه . ويقوم بقمع آل البيت حتى لا يحضروا له الدواة .

ان الحؤول دون « نص » جديد في تأكيد المسالة ، هو ما دفع عمر بن الخطاب لمنع الأتيان بالدواة والقلم . ولقد الف عمر ابن الخطاب مخالفة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في حياته وخلف له متاعب كثيرة ، كتلك التي في صلح الحديبية ، وكرفضه إمارة اسامة . ولقد مات الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) غاضباً وهو يعلم ان القوم حريصون على « إمارة » المسلمين ، لقد علم بكل ما سيقع . فكان همه ، أن يسرّ الى علي (ع) بما ينبغي ان يقوم به في الأحوال التي سيواجهها في المستقبل . ويقي معه ، حتى فاضت روحه الطاهرة وهو يتوسد صدر الإمام علي (ع)[٥١] .

(٥١) ـ من المفارقات العجيبة التي تروى لدى العامة ، ان الرسول (ص) مات مستنداً الى عائشة . وهذا تلفيق تاريخي . أصطنعوه . التاريخ يحدثنا أن الذي أهتم بمرضه ودفنه . . هو الإمام علي (ع) وأورد ابن سعد في الطبقات أكثر من رواية تقول بأنه توفي في حجر علي بن أبي طالب ( ٢ / ٢٣٢ ـ ٦٣٢ ) . وروى الحاكم في المستدرك عن احمد بن حنبل بسنده عن أم سلمة قالت : والذي أحلف به ان كان عليّ لأقرب الناس عهداً برسول الله (ص) الى أن قالت : فأكب عليه رسول الله (ص) وجعل يساره ويناجيه ، ثم قبض رسول الله (ص) من يومه ذلك فكان علي أقرب الناس عهداً به . . وذكر صاحب الكنز ( ٧ / ١٧٩ ) ، أنه قيل لابن عباس : ارأيت رسول الله (ص) توفي ورأسه في حجر أحد ؟ قال : نعم توفي وإنه لمستند الى صدر علي ، فقيل له : أن عروة يحدث عن عائشة أنها قالت : توفي بين سحري ونحري ، فانكر ابن عباس ذلك ، قائلا للسائل : أتعقل ؟ والله لتوفي رسول الله (ص) وإنه لمستند الى صدر عليّ وهو الذي غسله . . وذكر ذلك الحاكم في مستدركه ( ٣ / ١٣٨ ) ط حيدر اباد : وعلق على سنده قائلا : هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ( أي البخاري ومسلم ) ، وصححه الذهبي في تلخيص المستدرك ( ٣ / ١٣٨ ) .

وما ان فاضت روحه الطاهرة . حتى تفرقت الصفوف من حول الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولم يبق حوله الاّ علي (ع) وآل بيته .

لم يرو التاريخ ان عمر بن الخطاب هذا الذي أبي السير مع أسامة وبقي حبّا وتعلقا بالرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، لم يرو التاريخ انه أهتم بجنازة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، وكل ما في الأمر أنه بدأ يقول كلاماً غريباً عن منطق العقل ، لا سند له من الكتاب ، مفاده ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لم يمت ! .

وبقي الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مسجّى بين يدي آل البيت ، يغسلونه ، في الوقت الذي راح الآخرون يتطاحنون على حقّ محسوم بالنص واستغلالا للظرف . وركوباً لفرصة « غياب الإمام علي (ع) وآل البيت .

وانني مازلت الى اليوم أتساءل ـ لا عن زهد عمر وأبي بكر وغيرهم في جنازة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بسبب التسابق الى السقيفة ـ بل أتساءل عن أولئك الذين لايزالون يبررون التاريخ المفضوح ، كيف لا يفهمون « اللعبة » التاريخية ؟ لقد حال بين هؤلاء والحقيقة ، أن الصحابة أعيد تركيبهم تاريخياً ، ليصبحوا اكثر أهمية من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) والأمة . ذكر ابن سعد في الطبقات ، أنه غسل الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) علي بن أبي طالب ، والفضل بن العباس ، وأسامة بن زيد .

وفي رواية ابن الأثير في التاريخ الكامل « ولمّا توفيّ ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كان أبو بكر بمنزله بالسُّنح ، وعمر حاضر ، فلما توفي قام عمر فقال : إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) توفي وإنّه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربّه كما ذهب موسى ابن عمران ، والله ليرجعنّ رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فليقطعنّ أيدي رجال وارجلهم زعموا انّه مات . واقبل ابو بكر وعمر يكلّم الناس . . الى ان قال فاقبل ابو بكر على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر . . الحديث » وهذا الحديث وثيقة قابلة للنقد ، والسؤال الذي يجب توجيهه لهذه الوثيقة : لماذا وبأي دليل ، يكون الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ليس ميتاً في ذهن عمر ؟ وما

هو الإنسجام في قياس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بموسى ان عمران (ع) . اذ ان الثاني ذهب بروحه وجسده . بينما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بقيت جثته أمامهم ! ؟ .

ثم كيف تتحول وجهة النظر هذه الى قمع وارهاب واتهام بالنفاق وتهديد بالقتل الذي حرمه الله إلا بالحق ؟ .

ولماذا نجد عمر الذي فقد وعيه وبدأ يقول الغرائب . ولم يستطع أحد الأقتراب منه ، كيف يهدأ ويسلس ويحضر له الضمير والعقل لمّا جاء ابو بكر وقال ما قال ؟ ! .

هذا لغز تاريخي يجب إخضاعه للحفر المنهجي ، وإزالة الملابسات التبريرية عنه ، لإظهار وجه الحقيقة من خلاله ، فلم عمر بن الخطاب يكن يجهل « وفاة » الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف ذلك وهو من أتهمه « بالهجران » واعترف بأنه افتقد الوعي ، وحسبنا كتاب الله ! ولم يكن عمر يجهل الآية التي تلاها عليه ابو بكر : **﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ★ أفإن مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾** فلقد كان يعرفها وهو الذي سمع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ينعى نفسه إليهم . وإنما أمر آخر كان يشغل بال عمر . هو أن يصرف الناس عن التفكير فيها بعد « الوفاة » . حتى يربح الوقت لكي يأتي ابو بكر ، وتتم العملية . وما أن جاء ابو بكر حتى سمعوا بأمر الأنصار واجتماعهم في السقيفة ، فالتحقوا بهم مسرعين ، وانتهى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يبق إلا أمر السقيفة . حيث يدخلها عمر بن الخطاب بكل قوة وتحضير من دون أن تتخللّه رقّة ، من أَثر وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

دخل عمر السقيفة ليطرح رايه ، ويلغي رأي الجميع . متذرعاً بأن ابابكر هو الوحيد الذي يصلح للأمة . وكأن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يتمكن خلال هذه السنين الطوال . ان يصنع من هو أصلح للأمة ، سوى أبي بكر . وبدا ابو بكر مضطرباً ، يريد الخلافة ولا يريدها ! .

وكان عمر بن الخطاب ، يتشدّد في تشجيع ابي بكر . لقد تركوا

الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) طريح فراشه . وانشغلوا بأمر الخلافة . يقول ابن كثير : « توفي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يوم الأثنين وذلك ضحى فأشتغل الناس ببيعة أبي بكر الصديق في سقيفة بني ساعدة ثم في المسجد البيعة العامة في بقية يوم الأثنين وصبيحة الثلاثاء كما تقدم ذلك بطوله ثم أخذوا في غسل رسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وتكفينه والصلاة عليه ( صلى الله عليه وآله وسلم ) « تسليما » بقية يوم الثلاثاء ودفنوه ليلة الأربعاء »(٥٢) .

وكان عمر وابوبكر قد سمعا باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة . فلحقا بهم حتى لا يفوتا عليهما الفرصة ، ومال جماعة من الأنصار الى سعد بن عبادة زعيم الخزرج ، وكان مريضاً وفي تاريخ اليعقوبي : وبلغ ابا بكر وعمر وأبا عبيدة ابن الجراح الخبر فقالوا : يامعشر الأنصار ، منّا رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم )(٥٣) ، وفي « الإمامة والسياسة »(٥٤) فاجابوه جميعاً ( أي اجاب الأنصار سعد بن عبادة ) أن قد وفقت في الرأي ، وأصبت في القول ، ولن نعدو ما رأيت من توليك هذا الأمر . فأنت مقنع ولصالح المؤمنين رضا . قال فأتى الخبر الى أبي بكر ففزع اشدّ الفزع . فقام معه عمر فخرجا مسرعين الى سقيفة بني ساعدة » .

لقد فزعَ ابو بكر لما رأى الأنصار مجتمعين في السقيفة . وما فزع لوفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولم يحزن كما حزن آل البيت (ع) المنشغلون بتجهيز الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لقد توفي الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وابو بكر ، في منزله بالسنح مع أهله . لقد ذكر ابن هشام في السيرة عن ابن اسحاق : لمّا كان يوم الأثنين خرج رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عاصباً رأسه ( الى ان قال ) قال : فلما فرغ رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من كلامه . قال ابو بكر ، يانبي الله إني أراك قد اصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب ، واليوم يوم بنت خارجة ، أفآتيها ؟ قال : نعم : ثم دخل

---

(٥٢) ـ البداية والنهاية ( ٥ / ٣٠٥ ) .
(٥٣) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٢٣ ) .
(٥٤) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٥ ) .

رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وخرج ابو بكر الى أهله بالسنح »(٥٥) .

ولم يفزعه أمر « الوفاة » مثل ما افزعه امر « السقيفة » . وما ان رأى الأنصار ابابكر وعمراً ، وعلموا مدى حرصهما على الفوز بالخلافة حتى قالوا : منا أمير ومنكم أمير ! ولم يستطع ابو بكر إقناعهم . فتقدم عمر بن الخطاب وقال : « خشيت أن يقصّر ابو بكر عن بعض الكلام . فلما تيسر عمر للكلام ، تجهز ابو بكر وقال له : على رسلك . فستكفى الكلام ، فتشهد ابو بكر ، وانتصب له الناس ، ( الى أن قال ) والله ما زلتم مؤثرين إخوانكم من المهاجرين ، وانتم أحق الناس الّا يكون هذا الأمر واختلافه على ايديكم ، وابعد ان لا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى اليهم وإنما أدعوكم الى أبي عبيدة أو عمر . وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر ، وكلاهما له أهل . فقال عمر وابو عبيدة : ما ينبغي لأحد من الناس ان يكون فوقك ياابابكر »(٥٦) .

كان المخطط الذي رسمه ابو بكر وعمر وابو عبيدة ، وهم في طريقهم الى السقيفة ، متكاملاً . ولم يُفصّل لنا التاريخ فيما قيل بين الثلاثة وهم في طريقهم الى الأنصار وليس من المنطق ، ان يسيروا كل هذه المسافة ، دون ان يتحدثوا في موضوع السقيفة . المخطط هو ان تكون الخلافة لهؤلاء الثلاثة . على أن يؤازر بعضهم بعضاً ، ويثني بعضهم على الآخر . وما دام ابوبكر هو المقرب في الحلف . قدّموه على ان تكون الخلافة دولة بينهم ، فاقبل ابو بكر وعمر وابو عبيدة . فقالوا : « يامعشر الأنصار ! منّا رسول الله ، فنحن أحق بمقامه . وقالت الأنصار : منّا أمير ومنكم أمير ! فقال ابوبكر : منّا الأمراء وانتم الوزراء . فقام ثابت ابن قيس ابن شمّاس ، وهو خطيب الأنصار . فتكلّم وذكر فضلهم . فقال ابو بكر ، ما ندفعهم عن الفضل ، وما ذكرتم من الفضل فانتم له أهل . ولكن قريشاً أولى بمحمد منكم « وهذا عمر بن الخطاب الذي قال رسول الله : « اللهم اعزّ الدين به . وهذا ابو عبيدة الذي قال رسول الله فيه : أمين هذه الأمة ، فبايعوا أيهما شئتم ، فابياعا وقالا : والله ما كنّا لنتقدّمك ، وانت صاحب رسول

---

(٥٥) ـ سيرة ابن هشام ( ٤ / ٣٠٥ ) أقول : وأولى له أن يسير مع جيش أسامة بدل الذهاب الى « بنت خارجة » حيث اخرجه الكثير منهم الطبري ( ٢ / ٤٤٤ ـ ٤٤١ ) ، .

(٥٦) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٥ ) .

الله وثاني اثنين . فضرب ابو عبيدة على يد ابي بكر ، وثنّى عمر ، ثم بايع من كان معه من قريش »[57] .

ولم يقتنع أغلبية الحاضرين بهذه « اللعبة » المكشوفة . فقد قام الحباب بن المنذر وقال : « يامعشر الأنصار املكوا على ايديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر »[58] .

والذين بايعوا ابا بكر جرياً على راي عمر بن الخطاب من الأوس ، إنّما فعلوا ذلك لأن حدّة الصراع التاريخي بين الأوس والخزرج لا تزال حية في كثير من النفوس . وانهم بايعوا ابا بكر ، فقط ليمنعوا الخزرج من هذا الأمتياز . ذكر ابن الأثير : « ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد . قال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير ، وكان نقيباً ، والله لئن وليتها الخزرج مرّة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم فيها نصيباً ابداً . فقوموا فبايعوا ابابكر . فبايعوه . فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه ، وأقبل الناس يبايعون ابابكر من كل جانب » .

غير أن سعد بن عبادة ، لم ينكسر أمام هيمنة ابي بكر وعمر انها بداية وأبى أن يبايع . وادرك بعض الإنصار طبيعة اللعبة وأحاطوا بأطرافها وعلموا لمسيرة طويلة ، وانها ستحول الى « دولة » بين أبي بكر وعمر . وفي تلك اللحظة قال ابو بكر للحباب : « أمنّا تخاف ياحباب ؟ قال : ليس منك أخاف ، ولكن ممن يجيء بعدك . قال ابو بكر فاذا كان ذلك كذلك ، فالأمر إليك وإلى أصحابك . ليس لنا عليكم طاعة ، قال الحباب : هيهات ياأبابكر ، اذا ذهبت انا وانت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم »[59] .

ان معارضة سعد بن عبادة (رض) لبيعة أبي بكر ، تركت تحدّياً كبيراً لتيار « الرأي » وان تشدده في الرفض لم يكن حبّاً في الإمارة ، بقدر ما هو رفض لأبي بكر وعمر بن الخطاب . وللطريقة التي ركباها في إلغاء راي الأخرين ، وتثبيت

---

(٥٧) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٢٣ ) .

(٥٨) ـ الكامل ( ٢ / ٣٣٠ ) .

(٥٩) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٩ ) .

انفسهم . فقال يومها سعد ابن عبادة : أما والله لو أنّ لي ما أقدر به على النهوض ، لسمعتم مني في أقطارها زئيراً يخرجك انت وأصحابك ، ولألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع . خاملاً غير عزيز . فبايعه الناس جميعاً ، حتى كادوا يطأون سعدا . فقال سعد : قتلتموني . فقيل ( وفي رواية أخرى قال عمر[٦٠] : اقتلوه قتله الله . فقال سعد : احملوني من هذا المكان فحملوه إلى داره وترك اياماً ، ثم بعث إليه ابو بكر : ان أقبل فبايع ، فقد بايع الناس وقومك ، فقال : « لا والله حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي . وأخضب منكم سناني ورمحي ، وأضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، واقاتلكم بمن معي من أهلي وعشيرتي ، ولا والله لو ان الجن اجتمعت مع الأنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي واعلم حسابي »[٦١] . وكان من المفترض ان يقتل سعد بن عبادة لتوها ، لولا أن عوامل كثيرة حالت دونه وعمر . والثابت في التاريخ ، والظاهر من الأحداث ، ان عمر بن الخطاب هو الذي دبّر عملية اغتيال سعد . وبتنفيذ هذه العملية يكون عمر بن الخطاب ، أول مشرّع للإغتيال السياسي ، واسلوب تصفية المعارضة جسدياً في الإسلام . لقد كان رأي عمر بن الخطاب يرمي الى إجبار سعد بن عبادة بالقوة على مبايعة ابي بكر . غير ان الأمر قد يسبب له خطورة . قال عمر لأبي بكر : لا تدعه حتى يبايعك ، فقال لهم بشير بن سعد . . إنه قد أبى ولجّ وليس يبايعك حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده معه ، وأهل بيته وعشيرته ، ولن تقتلوهم حتى تقتل الخزرج ، ولن تقتل الخزرج حتى تقتل الأوس ، فلا تفسدوا على أنفسكم أمراً قد استقام لكم ، فاتركوه فليس تركه بضاركم ، وانما هو رجل واحد . فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد : وكان سعد لا يصلي بصلاتهم ، ولا يجتمع بجمعتهم ولا يفيض بافاضتهم ولو يبايعه أحد على قتالهم لقاتلهم . فلم يزل كذلك حتى توفي ابو بكر وولي عمر ، فخرج الى الشام ، فمات بها ، ولم يبايع لأحد »[٦٢] .

ويذكر التاريخ ان سعد بن عبادة ، مات مقتولاً . واثناء ذهابه الى « حوران

---

(٦٠) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ١٠ ) .

(٦١) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ١٠ ) .

(٦٢) ـ المصدر السابق .

وبينما هو خارج ليلاً ، اذا بسهم يطلق على ظهره فقتله . وثبت لدى المؤرخين ان المغيرة بن شعبة هو الذي قتله . ونحن نتساءل ، لماذا يقتل سعد بن عبادة ، وما الفائدة ان يقتله إنسان مجهول ؟ لقد جاء غسّالو صحون « البلاطات » ليثبتوا حقيقة « فكاهية مفادها ان سعد بن عبادة قتله الجن »[٦٣] ، ذلك لأنه بال في الماء الراكد . وقد اوردوا أبياتاً كان قد قالها الجنّي الذي رماه بالسهم :

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
ورميناه بسهمين فلم تخط فؤاده

ويبدو لي ان الذي قتل سعدا ، كان من الجن السياسي . لأنه يفتخر بقتل « سعد بن عبادة » سيد الخزرج . ولأول مرة تفيض « عبقرة » بالجان السياسي في أرض العرب . والظاهر ان الجني ، هو عميل عمر بن الخطاب وهو جني بلا شك مادام أنه كان متلبساً ومختفياً في جنح الظلام .

ولست ادري لماذا يقتل « سعد بن عبادة » لأنه رفض البيعة ؟ ! ، اذا كان أمر البيعة في منطق السقيفة شورى ! .

ولم تكن هذهِ هي الثغرة الوحيدة في احداث السقيفة وما بعدها فلقد عارض لعبة السقيفة ، جمع غفير من رموز الصحابة الكبار . الذين أشغلهم الخطب بوفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وعلى قمة المعارضين الإمام علي (ع) .

لقد ذكر المؤرخون ان علياً (ع) وبني هاشم وجماعة من الصحابة ، امتنعوا عن البيعة ، وأعتصموا في بيت فاطمة .

« وتخلف قومٌ غفير عن بيعة ابي بكر قوم من المهاجرين والأنصار . ومالوا مع علي بن أبي طالب . منهم : العباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، والزبير بن العوّام بن العاص ، وخالد بن سعد ، والمقداد بن عمرو ، وسلمان الفارسي ، وابوذّر الغفاري ، وعمّار بن ياسر ، والبراء بن عازب ، وأبي بن

---

(٦٣) ـ ولقد ذكر معارضته وكلامه في يوم السقيفة وحادثة قتله الجن مصادر عديدة : الطبري ( ٣ / ٢١٨ ـ ٢٢٢ ) ، والكامل ( ٢ / ٣٢٨ ـ ٣٣١ ) ، والعقد الفريد ( ٤ / ٢٩٠ ـ ٢٦٠ ) .

كعب ، فارسل ابو بكر الى عمر بن الخطاب وابي عبيدة والمغيرة بن شعبة فقال . . الخ » وذكر ابن الأثير : قال الزهري : بقي عليّ وبنو هاشم والزبير ستّة أشهر لم يبايعوا ابابكر حتى ماتت فاطمة (رض) فبايعوه .

لم يكن عمر ليستريح وهو يرى علياً (ع) وبني هاشم وجماعة من الصحابة معتصمين ببيت فاطمة (ع) فانطلق عمر وجماعة معه . وحثهم على الخروج . فأبوا ان يذعنوا . ويذكر ابن قتيبة : « فجاء فناداهم وهم في دار علي ، فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب وقال : والذي نفس عمر بيده : لتخرجنّ أو لأحرقنّها على من فيها . فقيل له ياابا حفص : إن فيها فاطمة ؟ فقال وإن ، فخرجوا فبايعوا إلا علياً ، فانه زعم انه قال : حلفت ان لا أخرج ولا أضع ثوبي على عاتقي حتى أجمع القرآن فوقفت فاطمة (رض) على بابها ، فقالت : لاعهد لي بقوم حضروا أسوأ محضراً منكم ، تركتم رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) جنازة بين ايدينا ، وقطعتم أمركم بينكم لم تستأمرونا ، ولم تروا لنا حقّاً . . الخ »[٦٤] .

وكان لهذا الموقف الذي وقفه عمر بن الخطاب ، أثر على بني هاشم وعلى أتباعهم . وخصوصاً ذلك الموقف الذي وقفه عمر بن الخطاب يوم اراد ان يحرق على فاطمة الزهراء (ع) دارها ، حيث يتمثله شاعر النيل حافظ إبراهيم في قصيدته الشهيرة :

| | |
|---|---|
| وقولة لعلي قالها عمر | اكرم بسامعها اعظم بملقيها |
| حرقت دارك لا ابقي عليك بها | ان لم تبايع وبنت المصطفى فيها |
| ما كان غير أبي حفص بقائلها | أمام فارس عدنان وحاميها |

وبقي علي (ع) رافضاً لمبايعتهم . رغم كل المحاولات . وفي رواية للطبري :

---

(٦٤) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ١٢ ) وحديث حرق دار فاطمة ، مجمع على وقوعه ومن رواته ابن عبد ربه في العقد الفريد ( ٤ / ٢٥٩ ) ط لجنة التأليف والنشر بمصر ، وشرح النهج ( ٢ / ٥٦ ) و ( ٦ / ٤٨ ) ، وتاريخ الطبري ( ٣ / ٢٠٢ ) ، والملل والنحل ( ١ / ٥٧ ) ، وبهامش الفصل لابن حزم ( ١ / ٧٣ ) ، ونقلت تلك الرواية مصادر شيعية مثل : بحار الانوار ( ٢٨ / ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ) ، والغدير ( ٧ / ٧٧ ) ، كما أكد ذلك السيد مرتضى العسكري في كتابه بن سبأ ( ١ / ١٠٨ ) ، عن كثير من المصادر السنية .

تزلف علي والزبير واخترط الزبير سيفه وقال لا أغمده حتى يبايع علي فقال عمر خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر فانطلق عليهما عمر فجاء بهما غصباً وقال لتبايعان وانتما طائعان او لتبايعان وانتما كارهان . فبايعا .

وذكر ابن الأثير في تاريخه : « الصحيح ان أمير المؤمنين لم يبايع إلا بعد ستة أشهر . وقيل للزهري حسب رواية الطبري - افلم يبايع علي ستة أشهر قال لا ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي » .

اننا نريد ان نخرج من هذا الضباب الكثيف من المرويات . لنمسك بنتيجة شافية . فمأساة الإمام علي (ع) في المبايعة كانت من أشهر المآسي في تاريخ الإسلام . ولم يستضعف الإمام علي (ع) في جزيرة العرب يوما ، مثلما استضعف بعد السقيفة على يد من زعموا لأنفسهم مقامات كبيرة . وكان بإمكان الإمام ان يحوّلها الى فتنة ضاربة . ولكنه خاف على العقول الصغيرة والقلوب المشوهة ، ان يشدها الكفر إليه مرة أخرى ، وتستكين الى الرّدة بعد أن اسلمت تحت وقع الحراب . إنه بقي صامتاً . وترك التاريخ يتحدث عنه بالوكالة ، وهو (ع) لم يكن الى هذه الدرجة من الضعف حتى يستطيع رجل مثل عمر بن الخطاب فرّار أُحد ، وجبان خيبر ان يقف أمام ابي الحسن (ع) أسد الحروب وعملاقها . ولكن عمر اختبأ في مجموعة من ضعاف الإيمان ، والطلقاء من امثال « قنفذ » الذي اخترق الباب على حريم البيت الهاشمي ، ليرهب بضعة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فاطمة الزهراء (ع) فيفوز برضى برابرة السقيفة .

نحن هنا نتساءل عن هذا المفهوم الشوروي الذي كان شعاراً لفريق الراي . ان الشورى كما فهمها الإجتماع البشري منذ النشوء الأول للإجتماع ، انها استخلاص حر للآراء والقرارات من قبل المجتمع . وان هذه الشورى جاءت لتحل معضلة الاستبداد الذي أرهق الإجتماع البشري ، ان مفهوم الشورى يعني معرفة راي الآخر واحترامه . وليست الشورى إلا تعبيراً آخر عن احترام الآخر ورأيه في إطار الحرية . ليست الشورى طريقةً إرهابية لاستطلاع الرأي ثم الحكم على صاحبه بالإعدام - كما الحال بالنسبة الى سعد بن عبادة الخزرجي (رض) فهذه صورة أخرى للاستبداد . كما ان الشورى لا تعني ارهاب الآخر واكراهه على

الأعتراف بالرأي المقابل بالقوة والعنف . فحتى « الديمقراطيون » الذين مارسوا لفظاً من الشورى في بعدها الوضعي ، كانوا يحترمون الرأي الأخر . وحتى لو كان ذلك الرأي ضدهم ، فهم يحاولون منع هذا عن تطبيق رأيه فقط ! إن عمراً لّما جاء الى بيت فاطمة (ع) وشرع في التحضير لحرقها ، لم ينسجم مع روح الشورى لا في مفهومها الديني ولا الوضعي . بقدر ما هي همجية قبلية ، بدوية ، من أجل اكراه من في بيت فاطمة على المبايعة ، لأمر لم يناقشوه ، ولا أُتيحت لهم الفرصة لمناقشته . وقف عمر بن الخطّاب كصاحب قرار يجب على الإمام علي (ع) الإذعان له . من دون ان يعطي دليلاً عمن خوّله صلاحية إصدار القرارات . وأراد من الإمام علي (ع) ان يكون منفّذاً ، لا مسائلا على الأقل . . فعمر بن الخطاب فرض رأيا في السقيفة ، ومارس استبداده على الآخرين وطلب من الإمام علي الخضوع لهذا القرار الاستبدادي . ومن ياترى الإمام (ع) ؟ :

اولاً : ـ هو الأقوى الذي قامت الأمة الإسلامية بمؤازرته وبلائه و . . . .

ثانياً : ـ هو الأعلم ، والأحكم والأقضى .

ثالثاً : ـ هو الأتقى ، والأحرص على وحدة الصف .

والروايات المستفيضة بل المتواترة عن رسول الإنسانية الخالد دلت على ذلك بصريح العبارات وتكفي قولة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ( علي مع الحق والحق مع علي ) . لابد من الأعتراف ان عمر بن الخطاب قد اخطأ ، وان خطأه كان أساساً لكل المفاسد التي قامت فيها بعد . والحلقة الأساسية في سلسلة الأنحراف الذي شهدته الأمة . والذي يتحدث هنا عن الخطأ ، هو ـ عمر ـ نفسه لّما قال : « ان بيعة ابي بكر يوم السقيفة ، فلتة وقانا الله شرها ، فمن عاد إليها فاقتلوه »[٦٥] .

إن الذي يجعل عمر بن الخطاب يرى عقوبة « القتل » لمن سلك طريقة السقيفة . هو نفس التعليل الذي يمكن ان ينطبق عليه . وهو حكم على نفسه انه

---

(٦٥) ـ ذكره الطبري عن ابن عباس في أكثر من موضع من المجلد الثالث في معرض مناقشاته ورواياته عن ذات الشأن .

اخطأ خطأ يوجب القتل . ولكنه عاد إليه في نهاية عمره . ليقتدي بأبي بكر في الوصية مع ان ابا بكر في حد ذاته هو صنيعة الوضع ـ المنفلت ـ في السقيفة .

كان ابوبكر وعمر بن الخطاب ، مخطئين ، ومتجاوزين للنص ، والملابسات التي رافقت أحداث السقيفة ومرض النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) تدل على ذلك . وكان عمر بن الخطاب اكثر صلافة وقسوة . وموقفه سيء من أهل البيت وتاريخه خير شاهد على هذا ، ويعترف « مسلم » في صحيحه ان علياً (ع) بعد وفاة فاطمة الزهراء ، وبعد أن فكر في تحصين نفسه ومن معه من جبروت طلاب الخلافة دعا ابابكر الى بيته ، على ان يكون منفرداً ، وأشار « مسلم » الى ان ذلك إشارة لعدم حضور عمر بن الخطاب للكراهية التي كانت تفصله عن البيت المحمدي . كان ابو بكر رجلاً ضعيفاً لم يغلب نفسه أمام طمع الخلافة والوجاهة إنها نفس الأطماع التي دفعته الى عصيان الإئتمار بأسامة بن زيد في حياة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . اما عمر بن الخطاب ، وللنفسية الحادة التي كان يتحلى بها ، كان ينزع الى التطرف والأنحراف عن النص وقد بين ذلك المؤرخون . وبصلافته هذه كاد يفتن المسلمين عن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في صلح الحديبية . ابوبكر بهذا الضعف ، وعمر بتلك الحدّة ، ارتكبا الخطيئة التي تسلل من ورائها الجهاز الأموي . انهما اعطيا الأمويين مبرر السطو على الخلافة ، ومحاربة آل البيت (ع) في شأنها ، متعللين بمثال ابي بكر وعمر .

ومعاوية كان داهية لّما ردّ على محمد بن أبي بكر وهو من شيعة علي (ع) حين كتب الى معاوية يذكّره بفضل الإمام علي (ع) فقال معاوية رادّا عليه : « قد كنا وأبوك فينا ، نعرف فضل ابن أبي طالب وحقه لازما لنا مبرورا علينا ، ثم كان أبوك وعمر ، اول من ابتزّه حقه وخالفه على أمره . . فإن يك ما نحن عليه صواباً ، فابوك استبد به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ولسلّمنا إليه . ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله . فعِبْ اباك بما بدا لك أو دع ذلك ، والسلام على من أناب »[٦٦] .

---

(٦٦) ـ مروج الذهب الجزء الثاني باب ( خلافة أمير المؤمنين ) وبنات النبي .

كان هذا مستمسكاً ، لبني أمية كي يعبثوا بمصير أمة مسؤولة بين الأمم ولست هنا أقول ان أبا بكر وعمر بن الخطاب ، كانا على علاقة بالخط الأموي . فإنّ ذلك ما كان وما كان ينبغي ان يكون . فالمشروع الثلاثي في السقيفة كان ذا أهداف شخصية[٦٧] ، لقد ارادوا فقط الخلافة ، وهم أستصغروا عليا وادعوا خوفهم عليه من حداثة سنّه . ولا يزال مع ذلك أبو بكر يشيد بمقام علي (ع) ولا يزال عمر بن الخطاب يرى « لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها ابو الحسن » ولكنّ خطأهما ، لم تشفع لهما فيه فاطمة الزهراء (ع) لمّا أغضباها وأخذا منها حقها في « فدك » فماتت وهي غاضبة عليهما .

إن خطأ ابي بكر وعمر . كان خطأ ذا بعد شخصي ، وهو الطمع بالخلافة . اذ عزّ عليهما أن يسلكها غيرهما ، كما ثقل عليهما ان يكونا ضمن الرعية بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، بيد أن التيار الأموي . كانت له أهداف بعيدة يطمح إليها ، ويجهد ليل نهار من أجل تحقيقها .

فلو لم يعارض آلُ البيت (ع) ولم ينقدوا خلافة ابي بكر وعمر ، اذن لكان لهم عندهما شأن عظيم . ولكنّ الآخرين (بني أمية ) ، كانوا يطمحون لمحو البيت الهاشمي ، انتقاماً للماضي ، وكفراً صريحاً بوحي السماء . وهو ما اكدته أشعارهم المشهورة :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

قلت إن الإمامة ، ليست « كفراً » حتى ولو لم تثبت في التاريخ والنصوص . لأنها ليست سوى الحل المنسجم مع مصلحة الرسالة . إن الغريب ، يغيب الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولا يحدثهم عن أمر الخلافة .

نعود مرة اخرى لنؤكد ، على ان السقيفة ـ مشروع فاشل في الأمة . وحدثٌ وقع خارج النص . ذلك لأنه لو اطاع المسلمون السير في جيش أسامة . لما حدث شيء اسمه السقيفة ، في ذلك الزمان ، وفي ذلك المكان . والمبني على الخطيئة . ثم ان عمر بن الخطاب نفسه يعترف على أن تلك البيعة كانت فلتة ، وانه من عاد إليها فاقتلوه .

(٦٧) ـ هذا وان حصلت مساومات غير مباشرة بينهما والأمويين ، مما أسفر عن تولية معاوية ويزيد بن ابي سفيان لإسكات أبي سفيان .

# عصر ما بعد السقيفة

كعادتنا ، وانسجاماً مع طبيعة البحث ومقاصد الكتاب ، لا ننزع الى التاريخ السردي لهذه المرحلة في ترتبها ، وتطوراتها التفصيلية . فهذا متوفر في مكتباتنا التراثية . ولكن ما نطمح إليه هنا . هو التركيز على المحّطات المهمة ، ومحاولة إستنطاقها بوسائل السبر التاريخي .

وبعد السقيفة ولّما استتب الأمر لأبي بكر ، أعترضت أبابكر متاعبُ كثيرةٌ ، ومشاكلُ معقدةٌ . افرزها واقع السقيفة .

الأولى : ـ لما منع فاطمة (ع) من ميراث ابيها بفدك ممّا أثار غضبها وبقيت حزينة الى ان توفيت (ع) وبحرمان آل البيت (ع) ميراثهم[٦٨] خسر كل أوراقه .

ثانياً : ـ دخوله في معركة مع المسلمين ، واتهامهم بالردّة . ذلك لأنهم منعوه الزكاة . والتاريخ لا يحدثنا عن كل الملابسات التي أحاطت بحادث ما سمي بالرّدة .

كيف بدأ الحدث ، وكيف انتهى ؟ .

ذكر المؤرخون ، أنّ قبائل كثيرةً من العرب ارتدت بعد وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وبعضها لم يكفر وانما امتنع عن الزكاة لشبهة ما . فبعث لهم

---

(٦٨) ـ كان أبو بكر وخوفاً من أن ينقلب عليه الهاشميون ، حاول أن يجرّدهم من عناصر القوة ، فأخذ حقهم في الميراث بحجج « طوباوية » لا تنسجم مع منطق القرآن كما سنبين .

ابو بكر جيشاً بإمارة خالد بن الوليد ، ليقاتلهم على الزكاة . وكانت قبائل ، كأسد وغطفان ، ممن قد « ارتدّ » أهلها ، فبعث لهم ابو بكر سرايا للقتال فقضوا عليهم . ولكن التاريخ الرسمي ، لم يرو لنا إلا ما يريده مؤرخو البلاط . اذ كيف نتصور ذلك ؟ كيف ان هؤلاء الذين أسلموا في عهد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لم يتمكن منهم الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في الهداية ؟ ثم ارتدوا جميعاً من دون ان يبقى واحد منهم على إسلامه ، لقد امتنع هؤلاء عن تقديم الزكاة لشبهة معينة ، ولم يمتنعوا عن الإسلام ، وامتناعهم عن تقديم الزكاة لأبي بكر نابع عن عدم الإعتراف به كخليفة بعد رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، ولقد اعترض عمر بن الخطاب نفسه على قتالهم ، لكنه فشل في كسر ابي بكر عن رأيه .

وتلك سياسة عرفت في حكومة ابي بكر وعمر . فهما دائماً يشكّلان سياسةً مزدوجة ، تتفق والأهداف التي يتوخيان تحقيقها . والصورة التي رسمها ـ العقاد ـ لهما في عبقرياته ، لم تكن بتلك البراءة التي يريدها لهما أديب همه خلع الخيال على الشخصيات التي يترجم لها ، ذلك لما ذكر ، ان ابا بكر لّما يغضب ، فان عمر يكون ليّنا ، ولما يلين الأول ، يتصلب الثاني . هذا التوازن له مقاصده السياسية . ليتركوا فجوة في سياستيهما ضد اي موقف محتمل ، وحتى اذا قيل : ان ابا بكر يقاتل المسلمين ، يقال لهم : إن عمر بن الخطاب ممن عارضه ، ومع ذلك لم يتخلّ عن خلافته وكشفت تلك الحرب عن حقائق في رجالات ابي بكر وعمر . كفضيحة « خالد بن الوليد » الذي قتل « مالك بن نويرة »[٦٩] وهو مسلم ، واستأثر بزوجته ، لقد ثبت ان مالك بن نويرة ، لم يكن عازماً على قتال جيش خالد بن الوليد ، فقد ذكر ابن الأثير في الكامل : « وكانت سجاح تريد غزو أبي بكر ، فارسلت الى مالك بن نويرة ، تطلب الموادعة ، فأجابها وردّها عن غزوها وحملها على أحياء من بني تميم ، فأجابته وقالت : أنا أمرأة من بني يربوع ، فان كان ملك فهو لكم . وهرب منها عطارد بن حاجب وسادةُ بني مالك وحنظلة الى

---

(٦٩) ـ هو مالك بن نويرة بن حمزة بن شداد بن عبد بن ثعلبة بن يربوع التميمي ، من أشراف بني تميم .

بني العنبر» .

هناك نقطة لم يشر إليها المؤرخون ، او بالأحرى المحققون في الأخبار «فسجاح» لم تكن كما يصورها التاريخ «المقلوب» على انها خارجة أو مرتدّة . ورأيي انها لم تكن كذلك إلا أن «السياسة» اقتضت حبكها على تلك الصورة ، لا لشيء سوى أنها لا تملك ان تكتب التاريخ ، بينما اعداؤها يملكون كتابته .

بعض المؤرخين ، يريدون تزييف الحقائق وإعادة ترميمها . فيفسدونها ، ويوقعون انفسهم في مآزق . لقد فشل الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في أن يربي أصحابه فقط على الإيمان والإسلام . ثم ان ابا بكر ورجالاته لم يستطيعوا إقناع «سجاح» بالعودة الى الإسلام . حتى يأتي معاوية بن أبي سفيان ، فيقنعها بذلك ، عندما وقعت المعاهدة بين الحسن (ع) ومعاوية بن أبي سفيان . فلم تزل سجاح في تغلب حتى نقلهم معاوية عام الجماعة وجاءت معهم وحسن إسلامهم واسلامها ، وانتقلت الى البصرة وماتت بها وصلّى عليها سمرة بن جندب ، وهو على البصرة لمعاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولاية البصرة»[٧٠] .

«وكان مالك بن نويرة ، قد أذعن واقر بقبوله لتقديم الزكاة . غير ان خالد بن الوليد الذي انتهى من قتال فزارة وغطفان واسد وطيء يريد البُطاح ، وبها مالك بن نويره قد تردّد عليه امره»[٧١] فتمرّد الأنصار عن خالد بن الوليد ، وقالوا : ان هذا ليس بعهد الخليفة إلينا ، إلا ان خالداً أصرّ على المسير .

ووصل خالد بن الوليد الى البطاح واهلها متفرقون ليسوا عازمين على التمرّد ، كان مالك بن نويرة قد اقنعهم بذلك فأجابوا . وجاء مالك بن نويرة يناظرهم[٧٢] ، غير أن خالد بن الوليد لم يأبه بالرجل ولا إسلامه . قال اليعقوبي : فأتاه مالك بن نويرة يناظره ، وتبعته أمرأته . فلّما رآها خالد أعجبته فقال : والله لانلت ما في مثابتك حتى اقتلك ، فنظر مالكاً ، فضرب عنقه ، وتزوّج امرأته . فلحق ابو قتادة بأبي بكر ، فأخبره الخبر ، وحلف الاّ يسير تحت لواء خالد لأنّه قتل مالكاً مسلماً ،

---

(٧٠) ـ الكامل ( ٢ / ٣٥٧ ) .

(٧١) ـ نفس المصدر .

(٧٢) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٣١ ) .

فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر : ياخليفة رسول الله إن خالداً قتل رجلاً مسلماً ، وتزوّج امرأته من يومها . فكتب ابو بكر الى خالد . فاشخصه . فقال : ياخليفة رسول الله أني تأوّلت ، وأصبت ، أو أخطأت » ! . وفي الكامل لابن الأثير ، قال عمر لأبي بكر : « إنّ سيف خالد فيه رهق وأكثر عليه في ذلك . فقال : ياعمر : تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ، فإنّي لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين » .

لقد قُتِلَ مالك بن نويرة رحمة الله عليه بعد أن أمّنوه . ولم يسمع خالد بن الوليد لكلامه . وأبى إلا ان يقتله ليسطو على زوجه ، تلك التي كانت فارهة الجمال وهي « ليلى بنت المنهال أم تميم » وكانت على حد تعبير العقاد : « من أشهر نساء العرب بالجمال ، ولا سيما جمال العينين والساقين قال : يقال أنه لم ير اجمل من عينيها ولا ساقيها »[٧٣] هذا مما افقد خالد بن الوليد توازنه . فقتل مالك بن نويرة ، صبراً ، وجعل راسه أثفية لقدر . حسب « وفيات الأعيان » لابن خلكان . وبنى بزوجته في تلك الليلة . على أن « المرأة » لم تكن « سبية » وبناؤه بها حتى مع افتراض « سبيتها » يبقى أمراً حراماً اذا لم يتم استبراؤها . وهذا ما جعل كثيراً من الصحابة ، وحتى عمر بن الخطاب يقدمون على « اتهامه » . فاين انتم يافقهاء ؟ ويامن نادوا بالأحتياط في الدماء والفروج .. ها هو خالد العبقري ، جمع بين الأثنين !!! .

ومالك هذا لم يكن رجلاً عادياً . فلقد كان من المسلمين الذين ولّاهم الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في حياته على صدقات أقوامهم . لقد كان مالك بن نويرة ممن أسلم طواعية في عهد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وأسلم معه قومه بنو يربوع . وما كان ـ رحمه الله ـ يريد سوى التريث بالزكاة الشرعية حتى ينجلي أمر الخلافة . وذلك شكّاً منه في مصداقية خلافة ابي بكر . لذلك ما كان ينوي محاربة خالد بن الوليد . ولقد قتله هذا الأخير ، وهو لم يرفع في وجهه سيفاً . ورثاه أخوه متمّم بن نويرة ، لما قال على مرآى ومسمع من أبي بكر بعد ان فرغ من الصلاة :

---

(٧٣) ـ عبقرية خالد .

نعم القتيل اذا الرياح تناوحت    خلف البيوت قتلت ياابن الأزور
ادعـوتـه بـالله ثم غـدرتـه    لو هو دعاك بنفسه لم يغدر[٧٤]

ان قتل « مالك بن نويرة » ـ غبن ـ ! وصمة عار وخطيئة على خلافة ابي بكر ، وإن كان الخطأ قد ارتكبه ( سيف الإسلام المسموم ) الاّ إن امضاء ابي بكر وقوله لعمر دفاعاً عن خالد ( تأول فاخطأ فارفع لسانك عن خالد فأني لا اشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين ) انما يدل هذا على صحة ما قاله عمر في خلافة ابي بكر ( فلتة وقى الله منها المسلمين ) .

ثالثاً : ـ إن اعظم رزية ، هي لمّا ، خلّف وراءه عمر بن الخطاب رغما عن المسلمين . وتحدّياً لحرياتهم ، وتسفيهاً لمقاماتهم الكبرى . لقد بقي ابو بكر ، سنتين وبضع اشهر في الخلافة ، فمرض بعدها مرضاً شديداً ، أدّى به الى الموت . وحسب العقاد في » العبقرية » انه مات بمرض الملاريا[٧٥] . وفي تلك الأثناء دعا عثمان بن عفان وقال له : « اكتب عهدي ، فكتب عثمان وأملى عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به ابو بكر بن أبي قحافة آخر عهده في الدنيا نازحا عنها وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها : إني استخلفت عليكم عمر ابن الخطاب ، فان تروه عدل فيكم ، فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن بدّل وغيّر فالخير اردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا ايّ منقلب ينقلبون »[٧٦] .

ان هذه ليست سوى تتمة المشهد « السقيفي » وهي في نفس الوقت ثاني خطيئة كبرى في التعاطي مع « النص » و « الإمامة » . وبينما كان « الحس » الشوروي هو الغطاء المهلهل لصفقة « السقيفة » فإن الإثبات ، والتنصيب ، كان هو لغة الخطاب ، وسياسة المرحلة في أيام ابي بكر . وفي الوقت الذي استهجنوا الرأي الذي يقول ان الإمامة تثبت بالنص لعلي (ع) ها نحن نجدهم يقبلونها برحابة صدر ، على امتداد التاريخ ، بنفوس صُنِعت على الإيمان الطيب البسيط ، تقبل بالأمر الواقع ! وحري بالرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهو أعلم بمصلحة

(٧٤) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٣٢ ) .
(٧٥) ـ وقيل « حس المستنقعات » وهناك شكوك في ذلك . هل هي الملاريا أم هل هي سم زعاف ؟ ! .
(٧٦) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ١٩ ) .

الأمة ، ان يعين بعده من يصلح للأمة . وهل ابو بكر ، وهو يبرر استخلاف عمر بن الخطاب ، هل كان احرص من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) على مصلحة الأمة ؟ وهل هذا المنطق الذي سلكه ابو بكر ، وسوغه اتباع الرأي ، إلا ما تعتقده الشيعة في الإمامة والتنصيب ؟ وكيف يكون استخلاف الرسول . . لعلي (ع) غلّواً ، والذي فعله ابو بكر ، حصافةً ورأياً سديداً !! .

كان على ابي بكر ان يقول في وصيته ، فان بدّل وغّير ( فاعزلوه ) غير انه قال « فالخير اردت ولا اعلم الغيب » ! وكنت انتظر من ابي بكر او عمر نفسه ان يقول لا وصية وكتاب الله معنا او ان يقول عمر ، ان ابا بكر « يهجر » فلا يقبل وصيته ؟ ؟ ! .

لقد اعترض الصحابة على خلافة عمر بن الخطاب . وخافوه على انفسهم وتوسلوا لأبي بكر ، بأن يبعده عن إمارتهم . وفي ذلك كبار الصحابة . ولكن ابا بكر أبى إلا أن يكمّل الصفقة مع عمر . على سبيل الوفاء بالعهود ، المشهورة في سنن العرب . يقول صاحب الأمامة والسياسة : « فدخل عليه المهاجرون والأنصار حين بلغهم أنه استخلف عمراً ، فقالوا : نراك استخلفت علينا عمراً ، وقد عرفته ، وعلمت بوائقه فينا وأنت بين أظهرنا ، فكيف اذ وليت عنا وانت لاق الله عزوجل فسالئك ، فما انت قائل ؟ » .

فقال ابو بكر ، لئن سألني الله لأقولّن : « استخلفت عليهم خيرهم في نفسي » . وهكذا تغيّب المشورة في رأيٍ شخصي . هو نفسه لم يتم له الأمر إلا بعد ان خاضها عمياء لا تبقي ولاتذر . وهو يملك ان يحاجج الله سبحانه ، ولا يبالي . وكأن الله عزوجل يرضى لّما يرضى ابو بكر . لأن هذا الأخير ، هو منشيء السماوات والأرض .

يقول ابو بكر « لأقولنّ : استخلفت عليهم خيرهم في نفسي « وافصاحه عن الواقع بعبارة في نفسي » هو مفتاح السر ، لادراك اللعبة . فهو يراه خيراً في نفسه ، لا حسب نفوس المسلمين اصحاب السابقية والمجد . وكيف لا يكون خيراً في نفسه ، وهو لولاه لما تمت له خلافة المسلمين . لقد عرف « ابو بكر » أن وجدان المجتمع قد تشكّل على ايديولوجيا « الشورى » التي لم تكن إلا غطاء

لصرف الإمامة عن « النص » وعليه ، فإن ابابكر وهو عازم على تثبيت عمر بن الخطاب ، يحتاج الى تعديل في التشكيلة الوجدانية للمسلمين . التعديل الذي لا يسرف فيه حتى يحفز الناس الى الخلافة الكبرى ، التي ارستها شريعة الإسلام لعلي (ع) ولا يفتر فيه حتى يرفضوا مشروع خلافة عمر بن الخطّاب . حاول ابو بكر أن يزرع في هذا الوجدان مفهوماً جديداً للخلافة ، وهو الخلافة بالتنصيب . وأعاد المنطق الذي كان مطروحاً على صعيد الحل الإسلامي ، إبّان وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، وهو « النص » على الخلافة .

قال ابو بكر[77] : وأما اللاتي كنت أودّ أني سالت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عنهنّ ، فليتني سالته لمن هذا الأمر من بعده ؟ فلا ينازعه فيه أحد ، وليتني كنت سالته . هل للأنصار فيها من حقّ ؟ وليتني كنت سالته عن ميراث بنت الأخ والعمة ، فان في نفسي من ذاك شيئاً » أجل لقد بقي في نفس أبي بكر شيء من كل ذلك ، حتى من « ظلامة » علي (ع) وأهل بيته . وهو القائل : « فأما اللاتي فعلتهن وليتني لم افعلهن ، فليتني تركت بيت علي وان كان أعلن علي الحرب »[78] .

إنه يشهد ان خلافته ليست مؤكّدة ، أولاً ، ليس متأكدا من شرعيتها ، ويشهد انه ارتكب خطيئة يوم أعلن الحرب على علي (ع) ولكنه بعد ذلك كلّه يأبى إلا ان يدفع ثمن الصفقة السقيفية ، استجابة للعهد المعهود .

والناظر في سيرة عمر بن الخطاب ، وشخصيته . بعين المتفحص والمقلّب والسابر . . سيجد عمر بن الخطاب ، رجلاً لا يصلح لإمارة رعاع الأمة فضلاً عن الصحابة ، وهو لا يقربهم علماً ولا شجاعة ، ولا سابقية .

إنهما يريدان لعلي (ع) الخلافة ، ولو كانت له وحده إذن لصبرا عليها . ولكنهما يعلمان انها لن تصلهما إذا استقرت في البيت النبوي ، ما دامت هي « نصاً » لذلك اراوها لأنفسهما . اننا نعتقد انهما كانا يستهدفان « الخلافة » وزهدا في كل شيء

---

(٧٧) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ١٩ ) .

(٧٨) ـ نفس المصدر .

دونها ، واعتراف أبي بكر باللآئي ودّ لو لم يفعلهنّ ، ليس مجاملة ، كما يحاول البعض تلفيقها ، وانما هو الواقع المرّ الذي خلّفه وراءه ، والشرخة الكبرى التي تأسست على سيرة ابي بكر ، وكأن كل من أراد أن يركب سنام الخلافة ، لابد له ان يدرس مقام آل البيت (ع) وإلحاق الضربة بهم . وإن تاريخ ابي بكر ،وعمر حتى لو فرُض بأنه تاريخ زهد فأنهما لم يزهدا في الخلافة ، وفي سبيل ذلك « شرعاً » بالنيل من آل البيت (ع) وقدّما أوّل نموذج لذلك ، مما شجع الباقين على اقتفاء آثارهم في السطو على تركة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بحجة التمسك بسنة الشيخين ، التي لم تكن الاّ تغييباً ايديولوجيا لسنة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . وهكذا بايع الناس عمر بن الخطاب ، خوفاً ورهبة ، ولو وجدوا ما يقوي شوكتهم اذاً ، لقاتلوه ، ولكن هيهات ، فالأمر ثابت مستقر ، و « سيف ديموقليس » فوق راس كل معارض ، وإنه على غرار صاحبه لم يكن متأكداً من صلاحيته ، وما زال عمر بن الخطاب يسأل « حذيفة بن اليمان » أمين سر الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فيما لو كان « عمر » أحد الذين ورد اسمهم في صحيفة « حذيفة » . وهي ما كان يعلمه من المنافقين . ولست أدري كيف يخاف عمر بن الخطاب على نفسه من « النفاق » ؟ وأخرى أن يكون « كذاب الآخرة » ؟ اللهم إلا لشيء فعله في حياته لا ينسجم مع حكم الشريعة . واجزم هنا ان من تلك الأفعال ، اغتصابه الخلافة الشرعية من أهلها الموكلين بها . وقد يخاف المرء من عذاب الله يوم القيامة ، ولكنه لا يشك أبداً فيما اذا كان منافقاً أو ورد فيه كلام من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) !! .

كان منهج عمر بن الخطاب في الرعية ، منهجاً قمعياً وسطحياً ، فهو يقمع الغث والسمين ، وينال من الأخضر واليابس على حد سواء ، ويضرب المصلي اذا صلّى خاشعاً بتهمة النفاق ، ويضرب المخطىء ضرباً مبرحاً ، لا أن يحل مشكلة الخطأ من الاساس . واشتُهِرَ عمر بن الخطاب ، بالدرّة ، وهي آلته في ضرب الناس ، والإنزال من معنوياتهم ، ولم يسلم من درّته كبار الصحابة . حتى وصل به الأمر ان يقول : « أصبحت أضرب ـ بالدرة ـ كل الناس ليس فوقي إلا الله »[٧٩]

---

(٧٩) ـ الغدير في الكتاب والسنة والأدب .

وعدّها « العقاد » من عبقرياته . وتمثل هذا القمع منذ البداية ، وقد هاب أمره الناس لحدّة طبعه ، وتشنّج مزاجه . ولكن ابا بكر كما سبق ذكره ، كان يريد دفع الثمن لعمر ، على الرغم من أنه تظاهر بالزهد فيها ، وودّ لو كان في أمر المسلمين خلواً وهو صاحب « أقيلوني فلست بخيركم » . ونتساءل من خلال التاريخ ، كيف يعترف ابو بكر بأنه ليس بخير من الناس ثم ينازع فيها علياً (ع) ويقول لطلحة بن عبيد الله : اباالله تخوفني ! اذا لقيت ربي فسألني ، قلت : استخلفت عليهم خير أهلك ، فقال طلحة : أَعمر خير الناس ياخليفة رسول الله ! فاشتدّ غضبه ، وقال : اي والله ، هو خيرهم وأنت شرّهم[٨٠] .

لقد كان تنصيباً بالإستبداد ، الذي لا يسمح ان يقال أو يسأل ، هل « عمر هو خير الناس » فعلاً ! ؟ وهذا التناقض في التظاهر بالزهد في الخلافة ، والأستبداد بها في النهاية ، وتوريثها لعمر بن الخطاب هو ما أشار إليه الإمام علي (ع) في خطبته الشهيرة في النهج : « فياعجبا ! بينما هو يستقبلها في حياته ، اذ عقدها لآخر بعد وفاته ! لشدّ ما تشطّرا ضرعيها ! فصيّرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ، ويخشن مسها ، ويكثر العثار فيها ، والإعتذار منها ، فصاحبها كراكب الصعبة ، إن أشنق لها خرم ، وإن أسلس لها تقحّم ، فمُني الناس لعمر الله بخبطٍ وشماس ، وتلوُّن واعتراض فصبرت على طول المدّة ، وشدّة المحنة » .

والواقع هو ما اعترف به ابن ابي الحديد المعتزلي في شرحه ، مع شيء من التزييف : « إنما قال : أقيلوني ، ليثور ( أي ليبحث ) ما في نفوس ( قلوب ) الناس من بيعته ، ويخبر ما عندهم من ولايته ، فيعلم مريدهم وكارههم ، ومحبّهم ومبغضهم ، فلما رأى النفوس اليه ساكنة ، والقلوب لبيعته مذعنة استمرّ على إمارته ، وحكم حكم الخلفاء في رعيته ، ولم يكن منكراً منه أن يعهد الى من استصلحه لخلافته »[٨١] . والواقع ان ثمة ثغرة لم يكشف عنها أبن ابي الحديد ، هو ان سكوت الناس لا يعني « سكونهم » ورُبّ حكومات ، تحركت جنودها ، للجم الكلمة في الناس ، تمهيداً لخطبة يلقيها الحاكم ، فيظهرون على حال « السكينة »

(٨٠) ـ شرح النهج .

(٨١) ـ شرح النهج ( ١ / ١٦٩ ) .

بينما هم مسلوبو « الكلام » ! .

لقد حاول البعض أن يقيس على منهج « ابليس » في القياس بين موقف ابي بكر ( حين قال اقيلوني فلست بخيركم ) وعلي بن أبي طالب (ع) يوم قال للناس بعد أن بايعوه : « دعوني والتمسوا غيري ، فأنا لكم وزيراً خير مني لكم أميراً » ، والإمام علي (ع) لم يقل أنه ليس بخير من الناس ، ولم يقل أنه واجد في نفسه ، لإصراره على حقّ قال إنه حقّه ، وما تلزمه كلمة حقّ من معنى « الشرعية » وهو رفض الخلافة بعد ان أتت إليه « فاسدة » وقد وصل الخراب الى آخر مواقع المجتمع الإسلامي . قالها بعد ان لعب بالخلافة من ليس لها أهلاً ، ولكنه لما وليها عهد بها الى ابنه الحسن (ع) لأنه جدير بها ، ولأنه فعلها استجابة للنص لا للرأي . ولو لم تكن المسألة نصّاً . لكان علي (ع) أجدر أدباً ، ان يُبعد عنها إبنه ، ولو كانت المسألة مسالة تظاهر بالعدل والزهد ، لكان علي (ع) احقّ بهذا الزهد .

لقد أمسك ابو بكر وعمر الخلافة ، ومارساها بارتياب وتعثر بسبب عدم جدارتهما . وفي ذلك يقول الإمام علي (ع) : « ويكْثُرُ العثارُ فيها والإعتذار منها » وذلك بسبب الإعتذارات التي رافقت سياسة الخليفتين ، وبسبب أخطائهما القتالة ، وعثارهما في سياستهما . وكان عمر بن الخطاب متحمساً للخلافة بعد أبي بكر ، فلّما كتب العهد أمر به ان يُقرأ على الناس ، فجمعهم وارسل الكتاب مع مولى له ومعه عمر ، فكان عمر يقول للناس : انصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فانه لم يسألكم نصحاً . فسكن النّاس ، فلّما قرىء عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا ، وكان ابو بكر أشرف على الناس وقال : أترضون بمن استخلفت عليكم ؟ فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإنّي قد استخلفت عليكم عمراً فاسمعوا وأطيعوا ، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي »[٨٢] .

لقد هيأ عمر الطريق لأبي بكر ، حتى ينصّبه على الناس ، قال لهم « اسمعوا وأطيعوا » لخليفتكم الذي لم يسألكم نصحاً ، ليقول ابو بكر للناس . اني استخلفت عليكم عمراً « فاسمعوا له وأطيعوا » . إن الرؤية التي كان يحملها عمر

(٨٢) ـ الكامل ( ٢ / ٤٢٦ ) .

بن الخطاب ، للخلافة وادارتها ، ليست في مستوى الإسلام وإنسانيته . لقد كانت تتأسس على موروث فطري عربي ممزوج ببعض ما فهمه عمر من الإسلام ، كان يرى الخلافة بمعنى التابع والمتبوع ، وان الخليفة هو القائد الذي تسير خلفه قطعان من الخرفان ، لاحق لها في المشاركة . وقف عمر بن الخطاب بعد وفاة ابي بكر ، فقال إنّما مثل العرب مثل جمل آنف أتبع قائده فلينتظر قائده حيث يقوده . وامّا أنا فوربِّ الكعبة لأحملّنكم على الطريق ![83] إنه يقسم برب الكعبة أنه سيحملهم على الطريق . تلك التي كما يراها هو . وكثيراً ما رأى الحق ، فكان باطلاً . وما وسعه إلا ان يقول كلمات نظير : « كل الناس افقه منك ياعمر » . أو « لولا علي لهلك عمر » ! وما أشبه ذلك من أمثلة . وفي تاريخ الخلفاء ، ذكر ابن قتيبة : « فخرج عمر بالكتاب واعلمهم ، فقالوا : سمعاً وطاعة . فقال له رجل : ما في الكتاب ياأبا حفص ؟ قال : لا أدري ، ولكني أوّل من سمع واطاع قال : لكني والله أدري ما فيه : أمّرته عام أوّل . وأمرك العام »[84] .

وهكذا كانت الوقائع التي اكّدها التاريخ . تثبت بالبراهين المحرقة ، ان عمر بن الخطّاب . فرض على المسلمين بالأستبداد . ولو خيرّوا يومها لاجتمعت كلمتهم على عزله ، ولكنَّ عهد ابي بكر ، ودرّة عمر لم يسمحا للكلمة الناقدة والمعارضة ان تستمر . غير أن المسلمين رأوا ان يصبروا عليه ، وينافقوه خوفاً من عنجهيته .

---

(٨٣) ـ الكامل ( ٢ / ٤٢٧ ) .

(٨٤) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٢٠ ) .

# عمر بن الخطاب مع الرعية

الكل يحاول ان يرسم عمر بن الخطاب في صورة اسطورية كما شاءها له مناوئو بني هاشم . حتى يغطّوا ، بدخانها الكثيف فضائل البيت العلوي ! بينما الواقع ان عمر بن الخطاب لم تكن له مؤهلات الخلافة النفسية والإجتماعية . . وان أدنى تمحيص لسلوكه وشخصيته يثبت ذلك . يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج :

« وكان عمر بن الخطاب صعباً . عظيم الهيبة شديد السياسة ، لا يحابي أحداً ، ولا يراقب شريفاً ولا مشروفاً . وكان أكابر الصحابة يتحامون درّته ، ويتفادون من لقائه » ولولا هذه « النرفزة » لما استطاع ابو بكر ان يحصل على شيء في السقيفة ، وعمر هو الذي شدّ بيعة ابي بكر وقمع المخالفين فيها فكسر سيف الزبير لما جرّده ، ودفع في صدر المقداد . ووطىء في السقيفة سعد بن عبادة . وقال : اقتلوا سعداً ، قتل الله سعدا ! وحطّم انف الحباب بن المنذر الذي قال يوم السقيفة : انا جُذيلها المحكّك ، وعذيقها المرجّب ، وتوعّد « عمر » من لجأ الى دار فاطمة (ع) من الهاشميين ، وأخرجهم منها ، ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر ولا قامت له قائمة »[85] . وبلغ حقد الناس وكرههم به مبلغاً كبيراً ، « فقد ذكروا انه وبينما هو جالس بالمسجد . بعيد وفاة ابي بكر ، اذا برجل أتاه فقال ، ياأمير المؤمنين ، أدنو منك فإن لي حاجة ؟ قال عمر : لا ، قال الرجل ، اذاً أذهب فيغنيني الله عنك ، فولى ذاهباً ، فأتبعه عمر ببصره ، ثم قام فأخذه بثوبه ، فقال

---

(٨٥) ـ شرح النهج ( ١ / ١٧٤ ) .

له ، ما حاجتك ؟ فقال الرجل : بغضك الناسُ ، وكرهك الناس ، قال عمر : ولِمَ ويحك ؟ فقال الرجل : للسانك وعصاك »[٨٦] .

وحيث بلغ القمع ، وحرّ الدرة ، بأن أتته امرأة حامل يوماً بعد ان استدعاها لأمرٍ ما ، فاسقطت ما في بطنها من شدّة الهيبة[٨٧] .

واذا علمنا ، ان الناس لم يكونوا يجثون على ركبهم ، ولا كانت النساء تسقط أجنتها ، لمّا تلقى علياً (ع) وهو من هو في التنمر ، والشجاعة و . . لعلمنا اذن ، ان ذلك كله كان بسبب خشونة زائدة لا تميز ظالماً ولا مظلوماً . . تلك الخشونة التي سمّاها التاريخ البدوي « عدالة » !! انها درّته التي لا توقر أمرأة ، ولا شريفاً ، ولا حتى فاطمة اذ ازمع على حرق دارها ! .

والذي لا يُنكر لعمر بن الخطاب انه لم يحاب الأهل إذ لم يكن له أهل يذكرون . وكان يهتمُّ في أن يظهر للناس عظيماً ومتقشفاً . ولكن السؤال القرآني هو : لماذا أخذ حق غيره ؟ ومن خوله حق ممارسة السلطة حتى وان كان عدلاً ؟ ! .

ان الخلافة لا تُعطى للناس لبساطتهم . . إنها قرار إلهي ! وخلافة عمر كانت فيها ميزات خفيفات ، أتلفتها هنات جسيمة . فمن ميزاتها تلك ، أنه خلع خالد بن الوليد ، وهو بذلك أعطى للتاريخ دليلاً ، على ان صاحبه أبابكر كان مخطئاً لمّا تجاوز عن خالد وغفر له كما تقدم .

ثانياً انه اعاد « فدك » لآل البيت (ع) تزلّفاً إليهم . مع أنه كان محرضاً لأبي بكر ، ان يسلبهم ذلك الحق . والظاهر ، ان ابا بكر وعمر منعا آل البيت ذلك الحق . حتى لايقّووا به نفوذَهم . ولكن ما ان استتب الأمر حتى جادت بها نفسه على أهلها . ولو كان مقتنعاً أنها لله ، لما حابى بها آل البيت . . . اذاً ، لما كان شديداً في الحق كما تصفه الروايات المزيفة .

بيد أن سلبيات عمر التاريخية ، ونوادره في السلوك السياسي والإجتماعي

---

(٨٦) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٢٠ ) .

(٨٧) ـ شرح النهج ( ١ / ١٧٤ ) .

والفقهي ، لم ينسها التاريخ ، ومن تلك النوادر :

١ ـ سطحية سياسية ، العنف معتمدها .

٢ ـ القمع الإجتماعي .

٣ ـ الشذوذ الفقهي .

١ ـ سطحية سياسية .

كان عمر بن الخطاب كما تقدم ، يرهب الشريف والمنافق معاً . فكان يحاسب الأمويين حساباً عسيراً ، لكنه في نفس الوقت يؤمرهم على أصقاع وسيعة . وفي ذلك تكمن سطحيته السياسية . لأن بني أمية لم يكونوا مكتفي الأيادي ، بعد ان كانوا طويليها في زمن البعثة . وليس بنو أميّة عناصر ساذجة . وإنما هم جهاز ، وحالة قابلة للنشوء في كل لحظة . فتأميرهم لا يعني سوى صب مزيد من النفوذ في جعبتهم . ولقد قووا في زمن عمر بن الخطاب . وهو لم يكن يريد تقويتهم . انما رأي رآه . ولكن الأمة دفعت ثمنه . ولم يكن مثل الإمام علي (ع) حيث اول ما قام به هو عزل « معاوية » من دون رجعة في الموقف . لأنه يدرك ان الإمارة تقوّي . وبأن بني أمية ، ليسوا فئة عادية . فهو لا يزال يفوت عليهم هذه الفرص ، حتى وهم يعرضون عليه البيعة . لقد جاء أبو سفيان بعد وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الى علي والعباس فنادى من وراء الباب :

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ... ولاسيما تيم بن مرّة او عدي
فما الأمر الا فيكم وإليكم ... وليس لها إلا ابو حسن علي
ابا حسن فاشدد بها كفّ حازم ... فانك بالأمر الذي تبّغي ملي

بصوت عال : يابني هاشم ، يابني عبد مناف أرضيتم ان يلي ابو بكر ؟ . أما والله لو شئتم لأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً . فناداه أمير المؤمنين علي (ع) : « أرجع ياأبا سفيان فوالله ما تريد الله بما تقول ولا زلت تكيد للإسلام وأهله ونحن مشاغيل برسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) » . وورد أيضاً في تاريخ « الطبري » بسنده انه لمّا استخلف ابو بكر قال ابو سفيان مالنا ولأبي فيصل ، انما هي بنو عبد مناف ، فقيل له انه قد ولى ابنك قال وصلته رحم . وكذلك فعل

عمر بن الخطاب ، بعد ان ولىّ على الشام يزيد بن ابي سفيان ، ومعاوية بن أبي سفيان بعده ، ثم عثمان بن عفان . إعراباً عن هذه المودّة بينه وبين بني امية .

هذا الوعي السياسي العميق ، كان يملكه الإمام علي (ع) وقد تجلى في رفضه لشخص أبي سفيان الطليق في حين افتقد هذا الوعي الخليفتان . وبرز في عهد عمر لأنه الأطول عهداً بالخلافة . إن علياً (ع) ادرك ان لا مرونة مع تيار قوي . يبني نفسه في الخفاء ، ليعيد مكانته في الجزيرة العربية . ويسعى الى تدمير بني هاشم ، والأنتقام للأجداد .

ولكن عمراً قد دفع ثمن سطحيته السياسية . لقد إستفاد الأمويون من مودّته لهم . وصبروا على لذعه وتشدّده السطحي . فقووا شوكتهم . وحققوا قدراً من التراكم والنفوذ . مكنّهم من السيطرة على اسباب القوة في الجزيرة العربية . وبعد ذلك وجدوا ان المرحلة قد نضجت لإزاحة عمر بن الخطاب عن الخلافة . ذلك لأن عمراً هذا طالت خلافته كثيراً . ثم لأنه بدأ يتجه في غير مجرى مصالحهم . ولأن مصلحتهم المرحلية في طور متقدّم لا يصلح لها عمر . فعمر بن الخطاب ، ليس جديراً بالخلافة بالمقياس القبلي للأمويين ، وهو ليس في شرف بني عبد الدار . ثم لأنه بدا لهم ان عثمان قريبهم بدأ يشيخ ولم ينلها ، وهو المرشح بعد عمر ، لقربه منه كيف لا ، وعثمان هو الذي كتب الكتاب لأبي بكر بخلافة عمر وهو الوحيد الذي لم يقف ضد عمر ، بل تحمس لذلك حتى قال له ابو بكر : « جزاك الله عن الإسلام خيراً » .

فهم ادركوا وبترتيباتهم الخاصة ، ان الأمر لعثمان لا مناص . وحيث أن الشام تحوّلت الى منطقة نفوذ للأمويين . وقد كانوا يكرهون عمر بن الخطاب نفسه ، يقول ابن قتيبة : « وكان أهل الشام قد بلغهم مرض أبي بكر ، واستبطاوا الخبر ، فقالوا : إنا لنخاف ان يكون خليفة رسول الله قد مات وولّى بعده عمر ، فان كان عمر هو الوالي فليس لنا بصاحب ، وإنا نرى خلعه »[٨٨] وهكذا ، لم يكن عمر لُيرضي أهل الشام ، الذين شربوا في قلوبهم حب بني أمية منذ ان تولوّهم . ولذلك لابد من التفكير في مخطط « تصفية » لعمر حتى ينزاح عن الطريق . وكان

---

(٨٨) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٢٠ ) .

عمر بن الخطاب يواجه معارضتين :

الأولى : بنو هاشم الذين فضلوا السكوت ، حفاظاً على وحدة الأمة واستقرارها .

الثاني : بنو أمية الذين كانوا يتحركوَن ضمن مشاريعهم ، واهدافهم الخاصة .

« ولّما قُتل عمر ، وظُنّ ان الذي قتله قد يكون من طريق آل البيت (ع) او من جهة أخرى مسلمة من الذين رأوا فيه خطراً على مصالحهم . وكان عمر رجلاً شديداً قد ضيّق على قريش أنفاسها »[89] ولّما طُعن ، قال لابن عباس ، اخرج فناد في الناس أعن ملأٍ ورضى منهم كان هذا ؟ فخرج فنادى ، فقالوا : معاذ الله ، ما علمنا ولا اطلعنا » ودخل علي بن أبي طالب فقال : ياعليّ ، أعن ملأ منكم ورضى كان هذا ؟ فقال علي (ع) : ما كان عن ملأ منا ولا رضى . . حتى قال « الحمد لله الذي لم يقتلني رجل يحاجني بلا إله إلا الله يوم القيامة »[90] .

كان الذي قتله هو أبو لؤلؤة ، قيل فارسي . إلا أنّه لم يكن قتله لعمر بن الخطاب ، انتقاماً من « القادسية » كما يزعم بعض البهلوانيين . إنما شاع عند العرب ان يتهموا الفرس بالمجوسية والحقد على العرب ، حتى في عصرنا هذا . وكان الأمويون يعتمدون على العنصر « الموالي » في دعم نفوذهم . عن طريق العطايا ، والشراء . لماذا قُتل عمر ؟ .

هناك من رأى ان « ابا لؤلؤة » قاتل عمر ، كان قد حملته روح الإنتقام الى تنفيذ هذه العملية . وكان ابو لؤلؤة عبداً للمغيرة بن شعبة ، وهو نصراني حسب بعض الروايات ومجوسي حسب أخرى . وجاء في « أسد الغابة » ان المغيرة كان يستغله ( اي أبا لؤلؤة ) كل يوم اربعة دراهم ، فلقي ابو لؤلؤة عمراً فقال : ياأمير المؤمنين إنّ المغيرة قد أثقل على غلتي ، فكلّمه يخفف عنّي فقال له عمر : اتق الله ، وأحسن الى مولاك ، ـ الى ان قال ـ ، فاصطنع له خنجراً له راسان[91] . وهذه

(٨٩) ـ نفس المصدر السابق ( ١ / ٢٧ ) .

(٩٠) ـ نفس المصدر السابق ( ١ / ٢٢ ) .

(٩١) ـ أسد الغابة ( ٣ / ٦٧٤ ) .

الرواية فإنها تظهر مدى الإنسحاق الذي عانت منه الفئات الضعيفة ، وهذا واحد من الذين امتلكوا الشجاعة لقتله . لكنني ارى عكس ذلك . فابو لؤلؤة قد يكون منفّذاً لهذه المؤامرة التي خطّطتها ، وهندستها عقول كثيرة . ولا أدل على ذلك من مقتل « الهرمزان » وسكوت عثمان على ذلك ، وعدم إقامة الحد على عبيد الله بن عمر ، الذي راح ينتقم لأبيه من مجموعة أشخاص .

مما اضطّر عثمان الى غلق هذا الملف وعدم إشاعة الأمر . لقد سبق ان اكّدنا على النفوذ الذي بقي في حوزة الأمويين والدليل على ذلك ان أبا سفيان لما عرض الخلافة على علي (ع) قال : له « لو شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً » فهذا دليل على النفوذ والقوة التي كانت لاتزال تحتفظ بها الكتلة الأموية . وبقي ابو سفيان حاقداً على عمر وأبي بكر ، لولا أنهما رتّبا امر إمارة إبنيه في الشام[٩٢] .

كانت علاقة المغيرة بن شعبة مع الأمويين متينة والمغيرة هذا هو سيد ابي لؤلؤة وكان عمر قد عزله بعد ان ولّاه على البصرة وذلك بعد ان شهد عليه بالزنا[٩٣] .

بيد ان عمراً ، كما سبق ان قلنا ، وللسطحية السياسية التي كان يتحلى بها ولّاه مرة اخرى على الكوفة مع ان في الصحابة من هو اكثر انضباطاً منه واستقامة . ويعرف عنه الدهاء[٩٤] .

قال الشعبي ( نقلاً عن ابن الأثير الجزري ) دهاة العرب اربعة : « معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة وزياد » وذكروا انه تزوج ثلاثمائة امرأة في الإسلام ، وقيل ألفاً . واذا ما جمعنا بين الدهاء الذي يعني عند الأربعة تجاوز المسطرة التشريعية الى حدّ الدهاء في قتل الأبرياء وبين الأزمة السياسية التي كانت بين المغيرة بن شعبة وعمر بن الخطاب . لّما كان عزله عن البصرة ، وما يمكن ان يؤدي إليه ذلك ، بالنسبة الى داهية عربي كبير . ثم بنو أمية الذين كانوا يشترون العملاء بالمال والوعود . اننا نتمكن من الوصول الى نتيجة ، وهي ان قتل عمر لم يكن بتلك البساطة والتلقائية ، وانما كان عملاً منظماً . كيف

---

(٩٢) ـ يزيد ومعاوية أبنا أبي سفيان .

(٩٣) ـ أسد الغابة ( ٤ / ٤٧٢ ) .

(٩٤) ـ نفس المصدر .

نهتدي لذلك ؟ .

لقد سبق أن تحدّثنا عن واقع الجزيرة العربية قبل وبعد البعثة والروح القبلية التي كانت أساس الإجتماع العربي ، ثم العنصر اليهودي الذي كان لا يرى مانعاً من التحالف مع القبائل الوثنية لمحاصرة الرسالة في بدايتها ، ولمّا طُرد اليهود من الجزيرة العربية بقي بعض المندسين ، الذين قبلوا الإسلام كتكتيك ضروري للبقاء ، وكتكتيك توارثي لهدم معالم الاسلام . وكان من اولئك « كعب الأحبار » الذي كان مصدراً لكثير من الإسرائيليات في الأحاديث النبوية(٩٥) . وكان هذا الأخير من المقربين الى عمر بن الخطاب . كان كعب يعلم ان عمر بن الخطاب ، معرّض للموت . وانه اكّد له غير مرة ، انّه سيموت « شهيداً » وبهذه الكلمة ، سوف يغطي عن اشياء كثيرة تدار خلف النور .

فهي إشعاع غيبي ، يُغيِّب السؤال والأستفسار في تعجب عمر واندهاشه . نحن نسال ثانية من اين له هذا ؟ وهل يعلم الغيب ؟ ومتى علمه رجال الصحابة الكبار حتى يعلمه يهودي تأسلم ؟ .

الواقع ان عمر بن الخطاب كان يطوف يوماً في السوق ، واذا به يلقى ابا لؤلؤة فقال : ياأمير المؤمنين ، أعدني على المغيرة بن شعبة ، فإن عليَّ خراجا كثيراً . قال : وكم خراجك ؟ قال : درهمان كلّ يوم . قال : وأي شيء صناعتك ؟ قال : نجار ، نقّاش حدّاد . قال : فما أرى خراجك كثيراً على ما تصنع من الإعمال ، قد بلغني انّك تقول : لو أردت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت ! قال : نعم . قال ، فاعمل لي رحى قال : لئن سلمت لأعملنّ لك رحىً يتحدثّ بها من بالمشرق والمغرب ! .

ثم انصرف عنه ، فقال عمر : لقد أوعدني العبْد الآن(٩٦) هذا الوجه الأول للمشهد التآمري . امّا الوجه الثاني ، قال ابن الأثير : « ثم انصرف عمر الى منزله ، فلما كان الغد جاءه كعب الأحبار فقال له : ياأمير المؤمنين ، أعهد فإنّك

---

(٩٥) ـ ذكروا أن كعب هو الذي توسط مع عمر بن الخطاب لإدخال أبي لؤلؤة الى المدينة بحجة أنها خلت من الصناع والحدادين .

(٩٦) ـ الكامل ( ٢ / ٤٩ ) .

ميت في ثلاث ليال . قال : وما يدريك ؟ قال : أجده في كتاب التوراة ، قال عمر ( آللّه إنّك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ! ؟ ) قال : اللهم لا ، ولكني أجد حليتك وصفتك وأنّك قد فني أجلك . قال ، وعمر لا يحس وجعا ! فلّما كان الغد جاءه كعب فقال : بقي يومان ، فلما كان الغد جاء كعب فقال : مضى يومان وبقي يوم . فلّما أصبح خرج عمر الى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالاً فاذا استوى كبّر ، ودخل ابو لؤلؤة في الناس .. الخ »[٩٧] .

انّ الذي ورث غباء الأولين والآخرين ، لايمكن ان تجتاز عليه هذه الحيلة فهل هذا يجري بالأتفاق ! كيف يقول أبو لؤلؤة ذلك ، فيجد كعب الأحبار ينتظر عمر ليقول له ما قال !! لماذا لم يأته قبل ذلك بأشهر أو عشرة أيام أو خمس حتى يقول له قد بقي لك كذا كذا ، اذا كانت اوصاف عمر كما رآها في التوراة ثابتة وقديمة ، كما قرأها قبل البعثة وبعدها . الظاهر أن كعباً هذا كان يرقص على الحبال ، لذلك اراد ان يثبت نفسه في المجتمع ، بأنه من أهل الأسرار ، وصاحب الكشوف . ليلتف حوله المسلمون ، وإلا فأين يوجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ وفي اي سفر من أسفاره ، تقرأه الآن ؟ وكيف يتسنى للتوراة التي انزلها الله ان تحوي اخباراً عن عمر . والقرآن المهيمن على الكتب والناس والدهور ، لم يفهم منه كبار الصحابة ان عمر سيُقتل بعد ثلاث أيام ؟ انها اللعبة ! ولّما طُعِنَ عمر بن الخطاب ، دخل عليه كعب الأحبار فلّما رآه عمر قال :

| | |
|---|---|
| تـوعّدني كعب ثـلاثا اعـدّهـا | ولاشك ان القول ما قال لي كعب |
| وما بي حذار الموت إني لميت | ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب[٩٨] |

كان ذلك بمحض الإتفاق والصدفة كما فهم عمر بن الخطاب . لأنه تولّى منصباً لا تسنده فيه حنكة ولا عصمة . ولم يكن مثل علي (ع) الذي كان يعلم بموته كما ورد في ابن الأثير من دون ان يحتاج الى راهب من أهل الكتاب يعلمه بذلك[٩٩] . وكذلك اقتضت سنة التاريخ ان يكون عمر بن الخطاب ، ضحية

(٩٧) ـ الكامل ( ٢ / ٥٠ ) .

(٩٨) ـ الكامل .

(٩٩) ـ ولست أدري لماذا لم يخبر كعب الإمام علي (ع) عن موته ويكشف له عن الغيب اللهم الا أنه يعلم ان علياً (ع) أعلم بالمستورات منه ! .

خفّته ، وتسنّمه حقاً ليس له . اذ لم يعرف من يصلح للأمة ومن لم يصلح لها . ثم مات بالقوة التي مهّد لها بجهله لخفايا الأمور . . إنه لا يعلم حتى ، ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد مات ؟ ! فكيف يعرف عن مسائل السماء ، كما ادرك ذلك يعسوب المؤمنين ! ولو راجعنا الملفّات التاريخية طرّاً ، لاستطعنا ادراك مدى الحرص الذي أبداه زعماء الأنتهازية الذين مهّدوا لحكم عثمان . وكانوا معروفين لدى الملأ .

لقد كان عمرو بن العاص احد دواهي العرب من المساهمين في المؤامرة وكذلك المغيرة بن شعبة كما سبق ذكره . وتورطهم في العملية كانت له أسبابه الخفية ، والتي اكتشفت فيما بعد ، وهو التخطيط الأموي ، لقلب معادلة الخلافة ، واستمالتها إليهم . ذكر ابو علي مسكويه[١٠٠] : وقد كان جاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والقوم في البيت يتشاورون ( اي بخصوص الخلافة بعد مقتل عمر ) فجلسا بالباب ، فحصبهما[١٠١] سعد وأقامهما .

فتحصبهما ، لم يكن اعتباطيا ، وفلتة تلقائية . فالرجلان من أدهى العرب كما تقدّم ، ومن عملاء الأمويين . ثم أن رمي « سعد » لهما بالحصباء دليل على ان أمرهما ليس عاديا .

وهكذا كانت قصة التبييت لمقتل عمر بن الخطاب ، الذي بالغ في مودّته للفئات الأموية وضعاف الإيمان[١٠٢] رغم ما كانوا يلقونه منه من قسوة عابرة . حيث كان عمّاله من امثال ، سمرة بن جندب ، وعاصم بن قيس ، والحجاج بن عتيك ونافع بن الحرث ، وأبي هريرة ، ومعاوية ، وابن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، ويزيد بن أبي سفيان . وكان قد توّصل الى انهم نهبوا الأموال ، وكدّسوها بعد ان كانوا فقراء ، مثل ابي هريرة ، لمّا قال له عمر علمت أني استعملتك على البحرين ، وانت بلا نعلين ، ثم بلغني انك إبتعت أفراسا بألف وستمائة دينار[١٠٣]

(١٠٠) ـ تجارب الأمم ( ١ / ٢٦٤ ) .

(١٠١) ـ حَصَبهَما : رماهما بالحصباء .

(١٠٢) ـ رأيي أن الأمويين كانوا أذكياء ومخططين بارعين . لقد أدركوا مدى ضعف عمر بن الخطاب ، لما لجأ الى مودتهم وتأليفهم من دون الأخرين ! .

(١٠٣) ـ أقول ، لعله ربح في « اليانصيب » ما يكفيه غناء في حياته بعد الفقر والحاجة !! .

ومع ذلك لم يقم عليه الحكم الشرعي ، بل اكتفى بمقاسمتهم الأموال . وكان من الواجب ان يحاكمهم على هذا الإختلاس ، ويعزلهم ، ولكنه لم يفعل ذلك ، والتاريخ يروي عكس هذا . ظل أمثال أبي هريرة ومعاوية وابن العاص وغيرهم من الطلقاء ، أمراء الى آخر أعمارهم .

ولعل هذا هو السّر . فعمر بن الخطاب سواء أكان سطحياً في اختياراته أو ذكياً فيها . فانه كان قاصداً في الإبقاء عليهم في هذه الإمارات . وذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج ، انه قيل لعمر : إنك استعملت يزيد بن أبي سفيان ، وسعد بن العاص ، وفلاناً وفلاناً من المؤلفة قلوبهم من الطلقاء وابناء الطلقاء . وتركت ان تستعمل عليّاً والعباس والزبير وطلحة ؟ ! فقال : أما علي فانبه من ذلك ، واما هؤلاء النفر من قريش فإني اخاف ان ينتشروا في البلاد فيكثروا فيها الفساد . . والواقع هو ان عمر بن الخطاب كان حريصاً على ان يراهم على مقربة منه ، وحتى لا يذيع أمرهم في الاصقاع الأخرى ، وإلا كيف يجعلهم ضمن الستة المرشحين للخلافة بعده اليس ممكناً ان يؤدي ذلك الى فساد عريض ؟ ! .

لقد وُفق التيار الأموي في تحقيق جزء من مخططه الهدام . ونجح في توقعاته ، لّما أثبت عثمان خليفة . وكان « المغيرة بن شعبة » قد قام خطيباً لّما انصرف عثمان الى بيت فاطمة بنت قيس . فقال : « ياابامحمد ، الحمد لله الذي وفقك ، ما كان لنا غير عثمان . وعليّ جالس »[١٠٤] .

فملخص القضية ان عمراً راح ضحية قشريته السياسية ، اذ ركّز على علي (ع) وشيعته ، وأرخى اللجام للزمرة الأموية . ومكّن لها فكان ان تطور نفوذهم بحيث اقتضى أن يُعزَل عمر عن الخلافة ، لصالح مرشحهم « عثمان » . وتدبير العملية ، كان بواسطة مجموعة عناصر مشبوهة ، منهم « المغيرة بن شعبة » قاتل سعد بن عبادة ، وهو بذلك اكتسب خبرة في التصفية الجسدية للسياسيين المعارضين ، اذ يعتبر اوّل منفذ لعملية الأغتيال السياسي تلك . وعمر بن الخطاب قُتل بخنجر « ابي لؤلؤة » « مولى » « المغيرة بن شعبة » .

---

(١٠٤) ـ تجارب الأمم ( ١ / ٢٨٨ ) .

وملف « المغيرة » هذا فيه بعض الفواصل المشبوهة . بدأت وانتهت كالتالي :

١ ـ عزله عمر عن البصرة بعد ان شهد عليه بالزنا .

٢ ـ كان على علاقة وثيقة بالأمويين .

٣ ـ ابو لؤلؤة ، مولاه ! .

٤ ـ هو قاتل « سعد بن عبادة » حسب بعض الروايات .

٥ ـ هو الذي أتى يتلصص على المرشحين بعد مقتل عمر كما تقدم .

٦ ـ هو صاحب الخطبة أعلاها .

٧ ـ تولى الإمارة في زمن معاوية وكان عميلاله على الكوفة .

٨ ـ رجل زانٍ بشهادة عمر ، ومسرف يحب المال فقد كان اوّل من رشى في الإسلام ، ومن اسرافه ان تزوج اكثر من ألف أمرأة ـ مع التطليق ـ حسب صاحب ( اسد الغابة ) .

٩ ـ انه احد دهاة العرب الأربعة ! .

ثم ماذا بعد ؟ .

إن عبيد الله بن عمر ، راح ينتقم لأبيه . وقتل أبا لؤلؤة وقتل معه أناساً بُرآء ، مثل جفينة ـ رجل نصراني ـ كان من أهل الحيرة وظهيراً لسعد بن مالك . ثم قتل الهرمزان ، فضربه بالسيف . وقال الهرمزان : لا إله إلا الله . ثم أخذه سعد بن ابي وقاص ، وحبسه في بيته وأخذ سيفه ، ثم أحضره عند عثمان[١٠٥] فاستشار عثمان من كان حوله وقال : « أشيروا علي في هذا الرجل الذي فتق في الإسلام ما فتق ! فقال عليّ : أرى ان تقتله . وقال عمرو بن العاص إنّ الله قد أعفاك ، ان يكون هذا الحدث ، ولك على المسلمين سلطان . فقال عثمان : أنا وليّه وقد جعلتها دية وأحتملها في مالي »[١٠٦] .

---

(١٠٥) ـ الكامل ( ٢ / ٧٥ ) .

(١٠٦) ـ ذكر اليعقوبي ان عبيد الله قتل أبا لؤلؤة وأبنته وأمرته . وروى بعضهم عنه أنّه قال : يغفر الله لحفصة ، فانها شجّعت عبيد الله على قتلهم . وذكر ان عثمان قال له : ياعدو الله قتلت رجلاً مسلماً ، وصبية طفلة ، وأمرأة لا ذنب لها ! قتلني الله إن لن أقتلك ، فلّما ولي ردّه الى عمرو بن العاص .

والملاحظ ان عثمان كان في اجواء الحدث . ورأى ان يطوي هذا الملف ، لاغيا كل الأحكام الإسلامية . وهو يعلم ان أقضي الناس واعلمهم بشرع الله علي (ع) قد قضى بقتله . ولقد أراد الإمام علي (ع) ان يقيم عليه الحد اثناء خلافته . ففر عبيد الله بن عمر الى معاوية بالشام . وذلك دليل على ان عثمان كان متجاوزاً لحكم شرعي خطر ، تجاه عبيدالله .

وبذلك تتوضح الرؤية اكثر ، من خلال حضور عمرو بن العاص ، كشفيع لعبيد الله ، وإقناع عثمان بالعفو عنه . بعد ان تبين الحكم الحقيقي فيه في قضاء الإمام علي (ع) .

فالتدبير لقتل عمر بن الخطاب ، لم يكن بتلك البساطة التي رواها التاريخ المطرز . وانما هي نتيجة لمخطط مدروس ، يمكن رمقه من خلال التحولات التي جرت فيما بعد ذلك .

## ٢ ـ القمع الإجتماعي : ـ

من العوامل التي سهلت على التيار الأموي القيام بعملية الإغتيال هذه ، هو العزلة الشعورية التي كانت تفصله عن عامة المجتمع الذي كان يبحث عن المواقع التي تبعده عن عمر بن الخطاب ، ذلك أن ما قام بن عمر كان يختلف كثيراً ، كثيراً عمّا كان يقوم به النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . والطبع العمري كان مرفوضاً من كل فئات المجتمع . لقد كان المجتمع العربي ذا خصوصيات في الطبع والمزاج وان الطبيعة القاسية والغاضبة التي صنعتها فيه بيئة الصحراء جعلت منه مجتمعاً عصبياً متمرداً . ولهذا قال الله سبحانه ، لنبيه محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في القرآن ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب * لانفضوا من حولك** ﴾[١٠٧] وبهذا المنهاج ، سار النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في خط الدعوة والارشاد بيد ان عمر بن الخطاب ، لم يسر كذلك ولعل مرجع هذا ، لفراغه من الاستحقاق الذي يشدّ إليه الرعية ، ولخلّوه من الخصائص التي تحمدها عليه العرب ، فلجأ الى القمع ، كتعويض عن ذلك الاستحقاق المفقود ! ولعل مردّه ايضاً ، الى

---

(١٠٧) ـ سورة آل عمران ( آية ١٥٩ ) .

طبيعته التي جبل عليها . اذ ان صورته الجسدية ، تحتوي على كل سمات الغلظة والفظاظة .

في شخصية عمر ، علامات يمكن ارجاعها الى عاملين أساسيين يمكننا من خلالهما رسم الحالة النفسية لعمر بن الخطاب بالشكل الذي قد لا يتفق مع ما ذهب إليه العقاد في عبقرية ؟ .

أ ـ العامل الجسدي .

ب ـ عامل « العقدة » النفسية .

**أ ـ المظهر الجسدي .**

للصفات الجسدية دور في معرفة السلوك النفسي للأشخاص . وعمر بن الخطاب ، له ميزاته الجسدية التي تنسجم مع سلوكه الإجتماعي لقد كان عمر طويلاً جسيماً ، أصلع ، أشعر شديد الحمرة كثير السبلة في اطرافها صهوبة وفي عارضيه خفة . وكان رجلاً أعسر ، أصلع آدم قد فرع الناس كأنه دابة حسب يعقوب بن سفيان في تاريخه[١٠٨] .

وكان اذا مشى تدانت عقباه . نضيف الى ذلك انه كان جهوري الصوت ومدمناً على الخمرة في الجاهلية وحتى قبيل التحريم . ويروى انه آخر من بقي متعلقاً بها ويقول « اللهم بيّن لنا بياناً شافياً في الخمر » ، وكان يقول ايضاً : « أني رجل معجاز البطن او مسعار البطن وأشرب هذا النبيذ الشديد فيسهل بطني »[١٠٩] ، ان عمر بن الخطاب قد دخل الإسلام بعاطفة تلقائية كما ورد في السيرة . وهو وان كان أصله كذلك ، فإن الإسلام لا يؤاخذ من حسن إسلامه على ظروفه السابقة ﴿ **ولا تزر وازرة وزر اخرى** ﴾[١١٠] غير ان رواسب التربية ، وعوالق الطفولة تستمر مع الانسان حتى الشخوخة ، ويبقى محتفظاً بقسط كبير منها .

---

(١٠٨) ـ الأصابة ( ٢ / ٥١٨ ) .

(١٠٩) ـ ابن ابي شيبه وكنز العمال ( ٣ / ١٠٩ ) ، ونقل عنه في سنن البهيقي ( ٨ / ٢٩٩ ) « إنّا نشرب هذا الشراب الشديد لنقطع به لحوم الابل في بطوننا أن تؤذينا فمن رابه من شرابه شيء فليمزجه بالماء » .

(١١٠) ـ سورة الإسراء ( آية : ١٥ ) .

إن المظهر الجسدي الذي كان يتميز به عمر لم يكن يعكس النفسية المتوازنة . وخصوصاً ، فإن الإنسان الأعسر ، هو في حد ذاته إنسان مضطرب ، وعصبي ، ولكم حاول العقاد ان يتحايل لصنع صورة خيالية عن عمر في العبقرية ولكنه ـ رحمه الله ـ لم يكن سوى مغالط ، اذ ان الشكل الفيزيائي لعمر لم يكن شكل العباقرة ، في كل مدارس السلوك والأشخاص من سر « الأسرار » لأرسطو طاليس الى آخر مدارس السلوك في أوروبا . ورغم ان الخمر كان من عادة العرب ، إلا ان التواريخ والسير ، تثبت ان من بين العرب من كان يتورع عنها . ويؤكّد التاريخ ايضاً ان عمر بن الخطاب كان من المدمنين الكبار ، وانه لم ينقطع عن الخمر إلا بعد ان حُرّمت تحريماً شديداً ، وبعد ان اعيى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بالسؤال الشافي ! .

ويعرف المدمن على المسكرات عادة بعدم القدرة على السيطرة على نزواته وأعصابه . فهو معروف بفجاجة الشخصية ، خصوصاً اذا انقطع عن تناول الخمر الذي أمسى من ضرورياته الجسدية . وعادة ما كان العربي يندفع الى الإدمان بأحد السببين إما ان يلتمس من خلاله النشوة والطرب . . وذلك كان من دأب سادات العرب وكبرائها ، وإما بدافع الأنسحاق طلباً للهروب والتعويض بالخيال .

هذه العوامل اجتمعت كاملة ، لتصنع من عمر بن الخطاب ، الرجل المهاب الذي يخشى من قسوته وخشونته .

**ب ـ عامل العقدة ! .**

لكي نتمكن من الحفر النفسي في شخصية عمر بن الخطاب يجب ان ندرك بعض المسائل الضرورية . وهي ان عمر إنسان . وهو بذلك يكسب الطبيعة المشتركة مع باقي البشر ، ضمن النماذج الطبيعية التي يتقاسمها البشر .

وكونه إنساناً معناه أنه خاضع للمؤثرات البيئية والتربوية ، وبالتالي تجري عليه سنن الحياة ومحدداتها النفسية والإجتماعية . وعمر بن الخطاب الذي قضى أغلبية عمره في أحط بيئة جاهلية ، لا يمكننا تصور تحرره الكامل من رواسبها ، خصوصاً . أنه حافظ على مجموعة من هذه السمات في ظل إسلامه ، ، والتي منها ، حدّة الطبع والفظاظة وعدم احترام كرام القوم ! ما يقوم به عمر في فترة

خلافته من ضرب الناس دون مبررات ، وقمعهم دون هوادة ، ليس إلا حالة من التعويض النفسي ، يحاول من خلالها الدفاع عن حالة نفسية كامنة ، تعتريه ، وهي دون شك جعلته ، يتطلع بذلك الشكل العنيف الى « الخلافة » حتى وهو يعلم انها ليست حقاً له .

وحالة من التعويض النفسي لصغار يجده في نفسه منذ زمان ، هذا الصغار الذي كوّن عنده مركباً للنقص ، يوجه سلوكه باستمرار ، وهو لايجد توازنه النفسي إلا بالأنتقام من الآخرين او زجرهم بالعنف حتى لا يظهروا عليه . ولذلك نجده يبدأ دائماً بقمع الناس ، واذلالهم ، حتى اذا ذلّوا نجده يرجع ويقوم بعملية معاكسة ـ بعد تحقيق رغبة الإنتقام ، وبروز عقدة الأثمية يبرز من خلالها تواضعه . وما كان عمر بن الخطاب يبدأ في معاملاته بالتواضع . وذلك لأنه وقع بين مجموعة قوى نفسية تتجاذب طبعه باستمرار .

عمر بن الخطاب ، لم يكن رجلاً مذكوراً ، عند العرب . ولم يكن له وزن قبلي يثبته ولاسند من الأنساب يسنده .

لذلك كان يحاول الانتقام من خلال الخلافة . ليس من أجل كسب ماضاع منه ، وانما من اجل الانتقام من الأمراء ، وأصحاب الرفعة والشرف .

وكان هذا من بين الأسباب التي جعلت المجموعة الأموية تنقم عليه . فلمّا علم ان عمرو بن العاص ـ احد عماله على مصر ـ قد جمع في حوزته مالا كثيراً ، بعث إليه بمحمد بن مسلمة ، ليأخذ قسماً من امواله . فلمّا رأى عمرو بن العاص ، ذلك منه قال : « لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر ، والله لقد رأيت عمر وأباه على كلّ واحد منهما عباءة قطوانية لا تجاوز مأبض [١١١]ركبتيه وعلى عنقه حزمة حطب . والعاص بن وائل في مزرّرات الديباج »[١١٢] .

« كما ان سعد بن عبادة لمّا حدثت له المناوشة مع عمر بن الخطاب في السقيفة ، نال منه ، واستحضر ماضيه وذّكره ، بأصله ، قال : لألحقنك بقوم كنت فيهم

---

(١١١) ـ القطوانية : منسوبة الى قطوان موضع بالكوفة تنسب اليه الاكسية ، والمأبض : باطن الركبة .

(١١٢) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ١٠ ) . وشرح النهج ( ١ / ١٧٥ ) .

تابعاً غير متبوع » .

وإذا ما استنطقنا « الانساب » الذي يعتبر أرقى وأدق فنّ اهتم به العرب ، سنجد عمر بن الخطاب محدود النسب وضيعاً . مما ترك في نفسه عقدة ، لا يدركها إلا من ادرك مقدار وقيمة النسب في جزيرة العرب . يروي « محمد بن السائب الكلبي النسابة وابو مخنف لوط بن يحيى الازدي النسابة في كتاب « الصلابة في معرفة الصحابة » وكتاب « التنقيح في النسب الصريح » باسنادهما الى ابن سيابة عبد الله في نسب عمر بن الخطاب قال[113] .

« كان عمر بن الخطاب متولداً من نجيبين متضادين نفيل وهو من نجباء الحبشة . ثم قال ذاكرا نسبه إليهما بعد ان قال : ان نكاح الشبهة من أبواب الحلال وان المتولد منه ومن الزنا يكون انجب من الولد للفراش ( الى ان قال ) ثم قال : واما تفصيل نسبه وبيانه وهو ان نفيل كان عبداً لكلب بن لؤي بن غالب القرشي فمات عنه ثم وليه عبد المطلب ، وكانت صهاك قد بعثت لعبد المطلب من الحبشة ، فكان نفيل يرعى جمال عبد المطلب وصهاك ترعى غنمه وكان يفرق بينهما في المرعى فاتفق يوماً اجتماعهما في مراح واحد فهواها وعشقها نفيل ، وكان قد ألبسها عبد المطلب سروالاً من الاديم وجعل عليه قفلاً وجعل مفتاحه معه لمنزلتها منه ، فلما راودها قالت : مالي الى ما تقول سبيل وقد ألبست هذا الأديم ووضع عليه قفل فقال : أنا أحتال عليه ، فأخذ سمناً من مخيض الغنم ودهن به الأديم وما حوله من بدنها حتى استله الى فخذيها وواقعها فحملت منه بالخطاب ، فلما ولدته القته على بعض المزابل بالليل خيفة من عبد المطلب فالتقطت الخطاب امرأة يهودية جنازة وربته ، فلما كبر كان يقطع الحطب فسمي الحطاب لذلك بالحاء فصحف بالمعجمة ، وكانت صهاك ترتاده في الخفية فرآها ذات يوم وقد تطأطأت عجيزتها ، ولم يدر من هي فوقع عليها فحملت منه بحنتمة ، فلما وضعتها القتها على مزابل مكة خارجها فالتقطها هشام بن مغيرة بن وليد ورباها فنسبت إليه ، فلما كبرت وكان الخطاب يتردد على هشام فرأى حنتمة فأعجبته فخطبها الى هشام فزوجه إياها فولدت عمر ، وكان الخطاب والد عمر لأنه اولد حنتمة اياه حيث

(١١٣) ـ الكشكول ( ٣ / ٢١٢ ) .

تزوجها وحده . لأنه سافح صهاك قبل فأولدها حنتمة والخطاب من أم واحدة وهي صهاك . هذا ملخص كلام الكلبي .

وبقيت « حنتمة » مجهولة النسب ، اذ اختلف في أمرها نسابة العرب . فمنهم من حاول ان ينسبها الى هشام بن مغيرة على أساس انها ابنته . بينما هي متُبنّاته ، واختلفوا فيها اذا كانت هي بنت هاشم بن مغيرة أم هشام بن مغيرة . ولو كان كما قالوا ، لما امتعض العرب من خلافته ، ولا حترم مقاماتهم كما هو منهج النبوّة[114] . كان وضع عمر في طفولته ينوء بالبؤس والمعاناة . فهو الصغير الذي وجد نفسه مقطوع النسب ، لايجد ما يفاخر به ابناء جيله ، و« النسب » عند العرب يشكل عقدة للكبار ، فكيف بالصغار ! والواقع هو ان الحالة النفسية عند عمر تشكلت ضمن هذه العوامل الإجتماعية ، مما كوّن عنده عقدة النقص ، وما تولد عنها من روح عدوانية ، ونزعة تعويضية هازلة .

هكذا ، وخلافا لما وصفه به العقاد وغيره ، يمكننا اكتشاف الأسباب التي جعلت عمر بن الخطاب يكون على ذلك الطبع من الفظاظة والحدة . فلم ينجُ أحد من درّته اصلا . وأوّل ما ضرب عمر بدرّته ام فروة بنت ابي قحافة لما توفي ابو بكر ، وبكت على أخيها ومعها مجموعة نساء ، فأخرج عمر الدّرة ، وعلا بها ام فروة ، فهربت الأخريات ، وقيل : درّة عمر أهيب من سيف الحجّاج[115] .

يقول ابن ابي الحديد المعتزلي : « وكان في اخلاق عمر وألفاظه جفاء وعُنجهية ظاهرة » ويروى ان عمراً هو الذي اغلظ على جبلة بن الأيهم حتى اضطره الى مفارقة دار الهجرة ، وارتد الى نصرانيته ، وذلك بسبب لطمة لطمها » ، ويروى انه قال بعد ان ندم على ارتداده :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة     وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
فياليت أمي لم تلدني وليتني     رجعت الى القول الذي قاله عمر

هذه الفظاظة والعنجهية ، والقمع الإجتماعي الذي ميز خلافة عمر ، أثار

---

(١١٤) ـ أسد الغابة : أقول والكلبي هو واحد من النّسابين الكبار ، حيث لا يرقى إليه من انتحلها من المؤرخين والمحدثين . . وهو من أقواهم فيما لو راجعنا ابن خلكان في وفيات الأعيان .
(١١٥) ـ شرح النهج (ج ١٢ ) والمخصص بسيرة عمر بن الخطاب .

عليه جبهتين :

الأولى : ـ قوم شرفاء ساءهم ان يكون عمر أميراً عليهم مسفّهاً لهم . لا يوقّر كبيراً ولا صغيراً[١١٦] .

الثانية : ـ قوم ارادوا تجميع الأموال كابن العاص ، وابي هريرة والمغيرة بن شعبة ومعاوية و . . فساءهم استفزاز عمر لهم . وان كان محتفظاً بإمارتهم .

**٣ ـ الشذوذ الفقهي .**

يؤخذ على عمر بن الخطاب ، أنه خلافاً لما يدعي مؤرخو البلاط ، رجلُ عديم الملكة الفقهية . وليس هذا فحسب بل متجرىءً على الفتوى فكان يأتي بالنوادر ، متجاوزاً كل النصوص . يقول ابن ابي الحديد : وكان عمر يفتي كثيراً بالحكم ثم ينقضه ، ويفتي بضدّه وخلافه ، قضى في الجدّ مع الأخوة قضايا كثيرة مختلفة ، ثم خاف من الحكم في هذه المسألة فقال : من اراد ان يتقحم جراثيم جهنم فليقل في الجدّ رأيه[١١٧] .

واعترف غير مرة بقصوره الفقهي امام جمهور المسلمين ، وشاع عنه قوله : « كل الناس افقه من عمر » .

وفي إحدى المناسبات قال : لايبلغني ان امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبي إلا ارتجعت ذلك منها ، فقالت له امرأة : « ما جعل الله ذلك إنه تعالى قال : **﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً اتاخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾**[١١٨] ، فقال عمر : كل الناس أفقه من عمر حتى ربّات الحجال » .

ويمكننا تلخيص بعض ماورد عن شذوذه الفقهي الذي رفضه الصحابة ، ورأوه مخالفاً للقرآن وسنة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مايلي :

---

(١١٦) ـ « يروى أنه رأى شيخاً يسير الهوينا فقال من هذا قالوا رجل متنسك ، فضربه بالدرة قائلا : ( لا تمت علينا ديننا أماتك الله ) . هل ضرب هكذا رجلً ظلماً حقاً في نظر منهج النبوة ؟ ! .

(١١٧) ـ شرح النهج ( ٣ / ١٨١ ) .

(١١٨) ـ سورة النساء ( آية ٢٠ ) .

١ ـ حكم عمر بالحد على مجنونة قد زنت ( الحاكم ، والبيهقي ، وابوداوود ) .

٢ ـ حكم عمر على المضطّرة بالحدّ ( البيهقي ، ابن الجوزية ) .

٣ ـ حكم عمر بحرمة المتعتين ( الحج والزواج ) ، ( الصحاح ) .

٤ ـ حكم عمر بإلغاء « حي على خير العمل » في الأذان بعد ان كانت مشروعة في عهد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

٥ ـ عمر يزيد في الأذان « الصلاة خير من النوم » .

لقد كان عمر مندفعاً الى العمل بالرأي ، حتى في زمن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكثيراً ما أثار متاعب للنبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولقد خالف الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في كثير من المواطن فكيف به اذا استتب له الأمر ، ولم يجد له سلطاناً رادعاً ؟ .

وهكذا كانت سيرة عمر ، وتلك هي بعض ما أُخذ عليه . اما قمّة الرزية فهي عندما قُتل ، ولعب مّرة اخرى بالخلافة ومنعها عن الإمام علي (ع) .



# الخلافة بعد وفاة عمر

دخلت « الخلافة » في المشهد الثالث من لعبتها ، لتفضي ، ويفضي معها الأختيار الأرعن الى اسوأ وضع عرفته الأمة والى أول اهتزاز سياسي شهده المجتمع الإسلامي .

لقد طعن عمر في يوم الأربعاء ، ومات يوم الخميس حسب صاحب أسد الغابة . وبعد ذلك ترك الخلافة في ستة اشخاص . إنني ما زلت ارى ان عمر بن الخطاب ابداً لايزهد في الخلافة . وعديم الدهاء إلا في استخلافه « الستة » واذا ما أمعنا النظر في ملابسات الخلافة بعد مقتل عمر ، سوف يتبين لنا امرها كالشمس في رائعة النهار ، والحكاية كالتالي : .

لما قتل ابن الخطاب ، قيل له على إثر طعنه[119] . « استخلف » فقال : « عليكم هؤلاء الرهط الذين توفّى رسول الله ، وهو عنهم راضٍ وهم ( علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف . فليختاروا رجلاً منهم ويشاوروا ثلاثة ايّام وليصلّ بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الثالث إلاّ وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ، ولا شيء له من الأمر . وطلحة شريككم في الأمر . فان قدم في الأيام الثلاثة فاحضروه أمركم ، وان مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه

---

(١١٩) ـ الطبري وابن قتيبة ، وبن ابي الحديد في الشرح واليعقوبي وآخرون بألفاظ مختلفة تعطي نفس المعنى .

فاقضوا أمركم . ثم قال لأبي طلحة الأنصاري ، « إن الله تعالى طالما أعزّ الإسلام بكم ، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار ، فاستحث هؤلاء الرهط حتّى يختاروا رجلا » .

وقال لصهيب « صل بالناس ثلاثة ايّام ، وأدخل عليّاً ، وعثمان والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف وطلحة واحضر عبد الله بن عمر ، ولا شيء له من الأمر ، وقم على رؤوسهم . فان اجتمع خمسة ورضوا واحدا منهم وأبى واحد فأشرخ رأسه واضرب رأسه بالسيف ، وان اتفق اربعة فرضوا واحدا وأبى اثنان فاضرب رأسيهما ، وان رضي ثلاثة منهم رجلاً واحدا منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر ، فأيّ الفريقين حكم فليختاروا رجلاً منهم ، فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس » .

لقد جرى الجمهور على تقبل هذا الحدث دون إعمال العقل والنظر فيه . وكأن عمراً ينطق بالوحي ، ولذلك سوف نتبين ونحن نتأمل بثاقب النظر ، ونافذ الرأي ، ان العملية محسوبة سلفاً ، ودقّة الترتيب تفيد ان الأمر كان مخططا في ذهن عمر منذ زمان ، والمسألة تبدو حسابية ، ولم نعهد على العرب هذه البديهة في الحساب ، غير ان بديهة الإمام علي (ع) كانت أسرع ، ففهم مقاصد اللعبة . فقال للعباس فور انتهاء عمر من كلامه : « عدلت عنا » قال له العباس : وما علمك ؟ قال الإمام علي (ع) : « قرن بي عثمان وقال : كونوا مع الأكثر ، فان رضي رجلان رجلاً ورجلان رجلاً ، فكونوا مع اللذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون : فيوليّها عثمان أو يوليّها عثمان عبد الرحمن ، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني ، بله اني لأرجو إلا احدهما » .

فخلع عبد الرحمن نفسه ، ورضوا ان يكون هو الذي يختار للمسلمين . وفي اليوم الرابع ، صعد عبدالرحمن المنبر في الموضع الذي كان يجلس فيه رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ثم قال : « ايها الناس ، إني قد سألتكم سرّا وجهرا عن إمامكم ، فلم اجدكم تعدلون بأحد الرجلين : إمّا عليّ وإمّا عثمان .

فقم اليّ ياعليّ ![120] فوقف تحت المنبر ، وأخذ عبد الرحمن بيده ، فقال : « هل انت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر ؟ »[121] .

قال : « اللهم لا ، ولكن على كتاب الله وسنة نبيه ، وعلى جهدي وطاقتي » .
قال : فارسل يده ، ثم نادى « قم ياعثمان » .

فأخذ بيده وهو في موقف عليّ الذي كان فيه فقال : « هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيّه وفعل أبي بكر ؟ » قال « اللهم نعم » فرفع رأسه الى سقف المسجد ويده في يد عثمان ، ثم قال : « اللهم اسمع واشهد ، اللهم اسمع واشهد ، اني جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان » .

فجعل الناس يبايعون ، وتلكّأ علي (ع) فقال : عبد الرحمن : ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد الله عليه فسنؤتيه أجراً عظيما ﴾[122] ، فرجع علي يشق الناس حتى بايع عثمان وهو يقول : « خدعة وأيّما خدعة »[123] .

وروى القطب الراوندي ، ان عمراً لمّا قال : كونوا مع الثلاثة التي عبد الرحمن فيها ، قال ابن عباس لعلي (ع) : ذهب الأمر منا .

ماذا سنستفيد ياترى ، من هذه اللعبة التاريخية المتقنة ، وكيف نقف على حقيقتها ؟ ولكن قبل ان نشق خضمها ، يجب أن نوجه اليها في البدء ، مجموعة من الأسئلة : .

١ ـ أولاً ، من أين ، ولم ، وكيف ، جاءت هذه النظرية السياسية ، ذات التركيب السداسي ؟ .

٢ ـ لماذا الستة بالضبط ؟ .

٣ ـ وكيف يكون ابن عمر شاهداً ومبشراً في اللحظة الحرجة ، ولماذا صهيب يصلي بالناس ، وابو طلحة يتولّ قطع الرقاب ؟؟ .

---

(١٢٠) ـ الكامل ( ٣ / ٧١ ) .
(١٢١) ـ وعند ابن الأثير وغيره : وسيرة الشيخين .
(١٢٢) ـ سورة الفتح ( آية ١٠ ) .
(١٢٣) ـ تجارب الأمم ( ١ / ٢٦٥ ) .

إن هذه الأسئلة ، وعشرات اخرى مثلها ، جدير بنا طرحها على هذا النص ، لنقف على علاته ، وهناته .

يبدأ عمر بفرض رؤيته للخلافة من بعده ، وطرحها على أساس أن تقبل ولا تحور ، فهي نص منصوص لارأي بعده . وكيف بالتاريخ بغفل هذا الموقف ، ولا يعيد طرح السؤال ؟ فعمر بن الخطّاب ، هو الذي حال دون الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكتابة الكتاب الذي لا يضل الناس بعده ، وهو الذي رأى ان الأمر متروك للمسلمين ينظرون فيه ، كيف يقول في وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) « ان الرسول يهجر ، حسبنا كتاب الله » ؟ ! . ولم يترك للناس حرية النظر في شؤون الأمة ، وحسبهم كتاب الله ايضاً ؟ ثم لماذا يلزم المرشحين الستة . بمخططه ، ويقضي بقتل من خالف ؟ .

ثم لماذا لا يكون القتل بالسوية ؟ حتى في الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ؟ ولماذا يقضي بالقتل على ستة ، توفي الرسول ، وهو عنهم راضٍ ، كما شهد بذلك ؟ ثم من أعطاه الحق في ذلك ؟ وما مبرر ذلك من النص ؟ .

ولست ادري ، هل استلهم عمر فكرته هذه من شريعة حمورابي أو من حلم رآه ؟ . أي نص قرآني ، واي سنة نبوية ، اعتمدها في هذا المخطط الذي جعل فيه الدم ، وإزهاق الأرواح وارداً ؟ كان عمر يهدف من خلال مخططه الى مجموعة اغراض :

اولاً : كان يهدف الى اذلال كبراء المسلمين من جهة ، والإمام علي (ع) من جهة خاصة .

فمن جهة الآخرين ، جعل عليهم عبداً يصلي بهم خلال الفترة الإنتقالية . وهو صهيب . ثم جعل السلطة التنفيذية في يده ويد أبي طلحة : كي ينفذا عقوبة القتل بكل متمرّد من المرشحين الستة ، مع احتمال وقوع القتل على الإمام علي (ع) . وكذلك إذلالهم ، من خلال سلبهم حق المشاركة في الإختيار السياسي .

اما من جهة الإمام علي (ع) فإنه وضعه في مصاف من هم دونه بلا شك ، حتى يُجرّده عن امتيازه . ويربي العامة على عدم تعظيم قدره (ع) . والملاحظ في

ذلك ، ان طلحة والزبير ، ظلّا يريان الخلافة لعلي (ع) منذ وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وواجها ابا بكر وعمراً ، وتمردا على البيعة . وكانا ضمن المعتصمين في بيت فاطمة (ع) وحدثت لهما مناوشة ، وصدام مع عمر بن الخطاب ، إلّا ان سياسة عمر بن الخطاب في إنزالهما منزل علي (ع) في الخلافة ، جعلهما يطمعان ولا يريان في علي ميزة عنهما بعد هذا الإنحطاط الذي منيت به العصبة الهاشمية ، ولذلك راحا ينازعان الإمام علياً (ع) يوم الجمل .

ان عمر بن الخطاب ، لم يكن وحده صاحب المخطط ، واذا كان هو صاحبه فلأنه فكر فيه ملياً . ولم يكن مخططا تلقائيا كما سطرته كتب التاريخ ، لأن عنصري الدقة والترتيب الحاضرين فيه يستبعدان صدوره عن تلقائية ، فمنذ البداية كان عمر بن الخطاب يمهد ، لخلافة عثمان ، ولكن الحرص على إحضار الستة له أسبابه التكتيكية . لقد حاول عمر من خلال هذا الترتيب أن يظهر للناس من بعده ، ان علياً (ع) على الرغم من حضوره ، فانه لم يستطع الفوز بها لعدم جدارته ، ورفض الناس له ، وبهذا سيسلب منه ورقة الخلافة ، ويسقطه سياسياً ، كما أنه أراد أن يسقط معه ، مناوئيه القديمين وهما طلحة ، والزبير ، وما وجود سعد بن ابي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف سوى لتحقيق التوازن في المخطط ، ليفضي الأمر في نهاية الجولة الى عثمان بن عفان .

يجب أوّلاً ان نمحص هذه الشخصيات الست ، لنرى خلفية اختيارهم ، ليس هؤلاء الستة كما زعم ، هم الوحيدين الذين توفي الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهو راضٍ عنهم ، فهناك عمار ، وأبو ذر ، وسلمان ، والمقداد . . وهم من أهل الإيمان والعلم والقضاء ، ولهم سابقية لا يرقى إليها الكثير ممن اختارهم عمر ، ولهم من العلم مالا يوازيه علمهم ، بل وأنه اختار من بينهم من ليس فيه ما ادّعاه عمر ، لقد أقبل على طلحة ، وهو له من المبغضين منذ رفض استخلاف ابي بكر إياه . فقال له : اقول أم اسكت ؟ قال : قل ، فإنك لا تقول من الخير شيئاً ، قال : أما إني اعرفك منذ أصيبت إصبعك يوم أحد والبأو الذي حدث لك ، ولقد مات رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ساخطا عليك بالكلمة

التي قلتها يوم أنزلت آية الحجاب[١٢٤] .

رتّب عمر الأمر على هذه المعطيات التالية :

- عبد الرحمن بن عوف « صهر » عثمان ، زوج أخته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط .

- سعد ابن عم عبد الرحمن وكلاهما من زهرة .

- طلحة تيمي ، ابن عم ابي بكر ، صاحب ضغن تجاه بني هاشم .

الزبير بن عمة علي (ع) « صفية » بنت عبد المطلب .

- عثمان من بني ابي معيط .

- علي (ع) من بني عاشم .

ان التركيز على الإنتماء القبلي ضرورة لفهم ديناميكية الخلافة والإستخلاف ، بعد وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) واستضعاف النص ! .

هناك أربعة من هؤلاء ، يعلم عمر ، ويعلمون هم أيضاً ، انهم غير مرغوب فيهم من قبل المسلمين ، وأن الأمر سيبقى بين اثنين لا ثالث لهما : علي (ع) وعثمان .

أمّا الباقون ، فإنهم سيسلمونها تلقائياً لعثمان ، باستثناء الزبير ، وطلحة مع بعض الشكوك . وان الإمام علياً (ع) قد فطن لتلك اللعبة لما قال للعباس كما سبق : « فلو كان الآخران معي - يقصد طلحة والزبير - لم ينفعاني ، بله أني لا ارجو إلا أحدهما » .

وفعلاً ، فان طلحة لم يسلمها للإمام علي (ع) وما بقي معه (ع) سوى الزبير . فعبد الرحمن بن عوف سيسلمها لصهره عثمان ، فإذا فعل فان سعداً ابن عمه لن

---

(١٢٤) - قال أبو عثمان الجاحظ في « السفيانية » ان الكلمة المذكورة هي ان طلحة لما انزلت آية الحجاب : قال بمحضر ممّن نقل عنه الى الرسول الله ( ص ) ما الذي يغنيه حجابهنّ اليوم ! وسيموت غداً فننكحهن . فقال أبو عثمان : لو قال لعمر قائل : أنت قلت : أن رسول الله (ص) مات وهو راض عن الستة ، فكيف تقول الأن لطلحة إنه مات عليه السلام ساخطاً عليك للكلمة التي قلتها ! لكان قد رحاه بمشاقصه ، ولكن من الذي كان يجسر على عمر أن يقول له ما دون هذا ، فكيف هذا .

يخالفه ، وطلحة من المفترض ان يمنعها عن علي (ع) لتلك الضغينة التي ذكرها المؤرخون بين تيم وبني هاشم . وهو ابن عم ابي بكر ، ولكن كان من المحتمل ان يخالف بها رأي عمر وعثمان ، لكراهيته لهما ، وأما الزبير فلقد رأى ان يسلمها لأبن عمته علي (ع) بعد أن رآها لن تتم له ، وبعد ان تحركت فيه الحمية تجاه قريبه ، لّما رأى الآخرين مالوا الى ابناء عشيرتهم كما لأن الزبير كان وقتئذ من شيعة علي (ع) .

ثم كان عمر بن الخطاب قد ضيق الأنفاس على الستة ، ورسم لهم مخططا ، يعكس مدى حرصه على تفويت الخلافة على علي (ع) . فقال آمراً أبا طلحة ، انه اذا أبى واحد ، ورضي خمسة ، فاشلخ رأس الواحد ، ومن البديهي ان الواحد ، المفترض معارضته للجميع ، هو علي بن أبي طالب (ع) ثم بقتل الإثنين ، واللذين لا يمكن ان يكونا سوى علي والزبير في أسوأ الإحتمالات ، وإذا ما انضاف طلحة ، وكان هذا الاحتمال وارداً ، بسبب الكراهية التي لا يزال يحملها طلحة لعمر فإن عمر قضى برفض هذا الثلاثي من خلال قوله « فكونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف » علما ان عبد الرحمن لا يمكن ان يكون إلا مع عثمان ، وسعد لا يمكن أن يخالف الإثنين :

أولاً : للعمومة التي تربطه بعبد الرحمن ولأنه من زهرة .

ثانياً : لأنه لايزال في نفسه من علي وهو الذي قتل الكثير من عشيرته ، وقتل اباه ببدر .

فالثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن ، لن يكونوا ـ منذ البداية ـ سوى : عبد الرحمن وبالتالي سعد ، وعثمان .

ولهذا قال الإمام علي (ع) « قرن بي عثمان وقال : كونوا مع الأكثر ، فان رضي رجلان رجلا ورجلان رجلا ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف . فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون : فيولّيها عثمان او يوليّها عثمان عبد الرحمن ، فلو كان الآخران معي لم ينفعاني بله أنّى لا ارجو إلا أحدهما » .

وذكر الراوندي ان عمراً لما قال : كونوا مع الثلاثة التي عبد الرحمن فيها قال ابن عباس لعلي (ع) : « ذهب الأمر منّا ، الرجل يريد ان يكون الأمر في

عثمان » .

ونحن نتساءل ، ما هي الحكمة التي تجعل عمراً ، يقضي بالقتل في الثلاثة التي ليس فيها عبد الرحمن بن عوف . ولماذا لا يقول بالعكس ما دام انه قال : ان هؤلاء توفي الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهو عنهم راضٍ » ، ثم لنفرض ان الأمر كما أراد اذاً ، لكان من المفترض لو عصت مجموعة علي (ع) ان يقتل هو والزبير ، وعلى الرغم من ان عمراً ، رفض ان يكون إبنه خليفة بعده ، فقد عجبتُ كيف خوله حق الأختيار لو تساوت المعادلة ؟ ان عمر رأى ابنه لا يستحق الخلافة ، وهو القائل « ويحك ! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق أمرأته » ، مع ذلك جعله حكماً بين الستة فيما لو اختلفوا ثلاثاً ، ثلاثاً . حتى اذا رفضوا مشورته ـ والتي ـ في الغالب يفسرها الإجراء الإستثنائي ـ قتل ابو طلحة[125] والخمسون الذين معه ، الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمن بن عوف .

ذكروا ان عمراً قال : لو كان ابو عبيدة حياً لاستخلفته[126] ، وهو بذلك يكون قد وفّى بالعهد ، ولو باثباته بالكلام ، ضمن الصفقة الثلاثية التي جرت في سقيفة بني ساعدة ، غير ان موته أفسد المخطط ، فأعد عمر بن الخطاب هذه « الهندسة » السياسية الحاقدة .

اما مجريات الأمور بين المستخلفين الستة ، فإنها تتحفنا بحقائق اخرى . فعبد الرحمن بن عوف ، كان عراب المشروع العمري ، وهو الذي طرح نفسه كشاهد بعد ان تنازل عنها ، وفجأة أصبح وكأنه هو المنصب للرئيس فلمّا تسلم مجلس الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، ولمّا بقي الأمر كله بيده ، دعا علياً (ع) قبل عثمان . وكانت هذه عملية تمويهية ، فهو يدرك ان علياً سوف يرفض سلفاً

---

(١٢٥) ـ بعد أن أستتب الأمر لعثمان ، قال علي (ع) : أما لئن بقي عثمان لأذكرته ما اتى ، ولئن مات لتداولنها بينهم ، ولئن فعلوا لتجدنّي حيث يكرهون ، ثم قال :

حلفت بربّ الراقصات عشية ... غدون خفافاً فابتدرن المحصبا
ليختلين رهط ابن يعمر قارنا ... نجيعاً بنو الشدّاخ ورداً مصلّبا

والتفت فرأى أبا طلحة فكره مكانه ، فقال أبو طلحة : لن تراع أبا الحسن . ( الكامل ٣ / ٦٨ ) .

(١٢٦) ـ الطبري والكامل ( ٣ / ٦٥ ) .

اقتراحه ، وشرطه وحتى انه كان سبب عزل علي (ع) وتنصيب عثمان ، اتباع سيرة الشيخين ، وكان علي (ع) ذا موقف حاد من هذا الشرط . ذلك انه شرط ، لامغزى له بعد شرطي « كتاب الله ، وسنة رسوله » .

وهذا كان يعني وأحداً من أمرين :

ـ فإما ان سيرة الشيخين تمثل الكتاب والسنة ، وبالتالي ، فإيرادها هنا سيكون لغوا زائدا .

ـ او انها شيٌ جديد ، فلا يلزم عليٌ (ع) باتباعها ، والدليل على انه شيء جديد ، ان علياً (ع) تمسك بالكتاب والسنة . فُعِزلَ بسبب عدم قبوله بسيرة الشيخين .

ولفتة اخرى وهي الأهم . ان الإمام علياً (ع) كان ينظر الى الخلافة كحق مقدس ، ومسؤولية ربّانية . وهو لهذا تمسك برأيه ، ولم يكن بينه وبينها ـ لو كان فعلاً همه الخلافة ـ سوى الإعتراف ، ولو علناً ، بسيرة الشيخين . دعنا نرى سيرة الشيخين في سياسة عثمان ، وإلى أي وضع أدى المخطط السداسي العمري ! .

# عثمان أو الفتنة الكبرى

الخليفة الثالث عثمان صنيعة وضع هو في حد ذاته مسلسل لواقع التآمر التاريخي على عصبة بني هاشم ، وهنا يمكننا القول ان منطق القبيلة وارد في هذا الإختيار ، وأيّاً كانت خلفيات هذا الإختيار ، فإن عثمان لم يكن حلا للمجتمع العربي في تلك الفترة ، بقدر ما كان نتيجة حتمية لسنوات طويلة من التقوية للجناح الأموي الذي كان عثمان يشكل واجهته الإسلامية ، فشخصية عثمان ، كما عرف عنها ـ على أقل التقادير المجمع عليها ـ ضعيف الإرادة كسيرها ، لا يقوى على اتخاذ القرار ، ولا على الصمود في العدل بين العامة والأقرباء .

لقد استفز عثمان بسياسته المسلمين جميعاً ، وبعضهم حاول ان يجد المبررات لعثمان ، فراح يلفق ويركّب ، لخلق واقع تاريخي مزيف لا يعكس حقيقة ، وواقع العهد « العثماني » ، لقد أدرك هذا المأزق بعض المفكرين المتأخرين ، ورأوا ان عثمان لم يكن يمثل أتجاهاً اسلامياً في سياساته ، يقول سيد قطب :

« وإنه لمن الصعب أن نفهم روح الإسلام في نفس عثمان ، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ ، الذي نلتمس اسبابه في ولاية مروان الوزارة في كبرة عثمان »[١٢٧] .

ان المسألة ، ليست بهذه البساطة ، فعثمان منذ البداية سلك نمطا من الخلافة

---

(١٢٧) ـ العدالة الإجتماعية في الإسلام (ص ١٦٠ ) .

العشائرية ، حيث حمل بني أمية على رقاب الناس ، وهو إنذار سبق ان قاله عمر بن الخطاب عند مقتله ، وقد مني عثمان بمعارضة قوية أكثر من أي خليفة آخر ، والسبب في ذلك ، هو أن عثمان بلغ مستوى أكثر تعسفاً في تقريب عشيرته ، وإعطائها المناصب الحساسة في الدولة الإسلامية .

ولو أخذنا بعين الإعتبار ، عامل العشيرة في تشكيل الكيان المعارض لعثمان سوف ندرك ان عثمان لم يتعرض للقتل لأنه ، خالف الإلتزام الديني فحسب ، وإنما لأنه ، رفع من عشيرته ، ومكّن لها ، وسلّمها مقاليد الخلافة . كيف ـ اذاً ـ بدأت خلافة عثمان ، وكيف إنتهت ؟ .

لقد تعهد عثمان منذ تسلمه مقاليد الخلافة ، بأنه سيتمسك بسيرة الشيخين ابي بكر وعمر ، وعثمان بن عفان رجل يعي كلامه ، وهو أحد المقربين الى الشيخين ، ومدرك لكل مسالكهما في الداخل والخارج . وهو الذي عاش مع الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وشهد غدير خم ، فهو يدرك ان الشيخين هما أوّل مغامرين في الإسلام ، وعرف ايضاً ، انه اذا سلك مسيرة الشيخين فإنه سينطلق من نفس منطلقاتها ، وهي التعاطي السلبي مع آل البيت (ع) والصحابة الكبار ، لقد بدأ ـ بدعم الطلقاء وابنائهم حين خلافته ـ بتعطيل حكم الإسلام في قضية عبيد الله بن عمر قاتل الهرمزان ، وجفينة وبنت ابي لؤلؤة ، انتقاماً لأبيه كما تقدّم . وقد استفتى الصحابة ، وقضى علي (ع) بقتله وعثمان أقسم انه سيقيم عليه الحد ، إلا انه تجاوز عنه بعد ان تدخل عمرو بن العاص ، وكان ذلك بمثابة أول شرخ في جهاز القضاء في عهد عثمان ، كان منذ البداية قد أسفر عن الوجه الحقيقي لتوجهه السياسي ، وهو العمل على بناء عشيرته وتقويتها ، بعد ان كانت حركة الإسلام قد أضعفتها وكسرت شوكتها ، كما كان جهازه الاستشاري مؤلفاً من الذين أدخلهم الخوف الى الإسلام . واستبعد كبار الصحابة ، فلما وصله الخبر بما يروج حوله من نعي وانتقاد ، أرسل الى معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وإلى سعيد بن العاص ، والى عمرو بن العاص ، وآخرين مثلهم ، فجمعهم يشاورهم ويخبرهم بما بلغ منه ، فلّما اجتمعوا عنده قال : « إن لكل امرىء وزراء نصحاء ، وانكم وزرائي ونصحائي واهل عمّالي وأنا أرجع عن جميع ما تكرهون الى ما تحبون ، فاجتهدوا لي رأيكم ثم أشيروا عليّ » .

كانت هذه هي التشكيلة الإستشارية ، التي اعتمدها عثمان في إدارة الدولة وقمع الجماهير المسلمة .

إن الواقع الإجتماعي ، الذي تشكل في عهد عثمان ، أدى الى انفجار ثوري ، لم يخفف منه النفوذ العشائري لعثمان . وأسفر الوضع عن وجود ثلاث فئات مهيأة للتمرّد :

**الفئة الأولى :**

وهي الفئة التي تمرّدت انطلاقاً من الخلفية الإقتصادية ، ففي الوقت الذي تراكمت فيه الثروة لدى الجانب الأموي ، وغيرهم من الذين ساروا في خطهم واعانوهم على تعميق نفوذهم نجد ان قطاعاً واسعاً من الجماهير المسلمة ، استمرت تعاني الفقر في أسوأ حالاته . الفقر الذي يجعل المجتمع مهيّاً ، للدخول في صراع طبقي ، طلباً للمساواة الإجتماعية .

كان خط الأغنياء ، وخط الفقراء يتجهان بشكل معاكس . الغنى ازداد اتساعا الى درجة الفحش ، وازداد تبعاً ـ لذلك ـ الفقر عمقاً ، الى درجة الانسحاق ، وبذلك اتسعت الهوة بين فئتين ، احداهما مسكت بأسباب الثراء فبلغت مستوى تكسير قطع الذهب بالفؤوس . وفئة أخرى ، قلب لها الواقع ظهر المجن ، فراحت تفكّر في قطع القدّ ، وغالباً ما باتت تغالب الطوى ! .

لقد كان عثمان يملك « خمسين ومائة الف دينار والف الف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة الف دينار ، وخلف إبلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الف فرس والف أمة ، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة اكثر من ذلك ، وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف الف فرس ، وله الف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ متروكه بعد وفاته اربعة وثمانين الفا ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع ، وبنى الزبير داره بالبصرة ، وبنى أيضاً بمصر والكوفة والاسكندرية وكذلك بنى طلحة داراً بالكوفة وشيّد داره بالمدينة ، وبناها بالجص والآجر والساج . وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ، ورفع سمكها واوسع

فضاءها وجعل على اعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . وخلف يعلى بن جنبه خمسين الف دينار وعقارا ، وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة الف درهم » .

وتحول بيت مال المسلمين في عهده الى بيت مال لبني أمية . ولم يراع عثمان مشاعر المسلمين ، ولا أحكام الشريعة في نهبه اموال المسلمين ، وصبّها مدرارة في خزائن أهل بيته . ويذكر اليعقوبي في تاريخه : حدّث أبو إسحاق عن عبد الرحمن بن يسار قال[١٢٨] .

رأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة أذا أمسى أتاها عثمان ، فقال له : أدفعها الى الحكم بن أبي العاص . وكان عثمان اذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرضاً من بيت المال ، فجعل يدافعه ويقول له : يكون فنعطيك إن شاء الله ، فألحّ عليه فقال : إنما أنت خازن لنا ، فإذا أعطيناك فخذ ، واذا سكتنا عنك فاسكت . فقال : كذبت والله ! ما أنا لك بخازن ، ولا لأهل بيتك ، إنّما أنا خازن المسلمين . وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال : أيها الناس ، زعم عثمان أنّي خازن له ولأهل بيته ، وإنّما كنت خازناً للمسلمين وهذه مفاتيح بيت مالكم . ورمى بها ، فأخذها عثمان ، ودفعها الى زيد بن ثابت . كان بذلك عثمان ، يرى ان الدولة الإسلامية ملك لعشيرته ، وكان مبرره في ذلك انّه تأوّل ـ حسب ما ذكر الواقدي ـ في مال المسلمين ، صلة رحمه .

كما ، ويذكر الواقدي أيضاً باسناده : قدمت أبل من ابل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن ابي العاص ، كما روى الكلبي عن أبيه ، مخنف أن مروان ابتاع خمس افريقية بمائتي درهم ومائتي ألف دينار . وكلّم عثمان فوهبها له . فأنكر الناس ذلك على عثمان » .

ويذكر ابن ابي الحديد ، انه قد أتاه ـ أي عثمان ـ أبو موسى الأشعري من العراق بأموال جليلة ، فقسمها كلها في بني أمية ، وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة الف من بيت المال ايضاً بعد صرفه زيد بن ارقم عن خزنه » .

---

(١٢٨) ـ مروج الذهب الجزء الثاني ( باب ذكر عثمان بن عفان ) .

وكذلك سار عثمان في رعيته ، يوسع لأقربائه في العطايا ، والإمارات ، ولا أدل على ذلك ، من معاوية بن أبي سفيان ، الذي منحه كامل الصلاحية في ادارة الشام ، فكان أطول الأمراء إمارة . وحيث كثر الغنى الفاحش ، وتسابق الغزاة على الامصار ، لكسب المزيد من الغنى . وأضطرت الطبقة الثرية أن تستورد الرقيق من الأمصار ، لاستغلالهم في استثماراتهم . واستولى بنو أمية على بعض مزارع الكوفة ، وهجّروا أهلها . وبقيت طبقة هنالك من الفقراء العرب ناقمين على الفئة الثرية ، وكذلك اولئك الذين فتحوا البلدان ، ولم تتح لهم الفرصة ، كما أتيحت لغيرهم من بني أمية ، للإقامة في الأمصار ، والاستحواذ على ممتلكاتها .

كان هذا الواقع الطبقي الذي تشكل بفعل السياسة المنفلتة لعثمان ، سببا في تشكل حالة من الرفض والتمرد ، تمثلها الفئات المحرومة في المجتمع ، وهم غالباً ، اولئك الذين ضاقوا من الاحتكار الأموي في عهد عثمان ، وتمردوا تلقائياً لمّا ثقل عليهم أمرهم ، وكانوا هم القاعدة التي استجابت لفكرة التحدي والثورة على عثمان . تلك الحالة التي يصورها ابو ذر (رض) قائلاً : « عجبت لمن لايجد قوت يومه ، كيف لا يخرج الى الناس شاهراً سيفه » .

فهذا دليل على وجود ، فئة مسحوقة ، ومغلوبة على أمرها ، لا تستطيع الإفصاح عن واقعها ، مقموعة بعمال عثمان ، وعناصر عشيرته ذات النفوذ الوسيع في كل الأصقاع .

**الفئة الثانية :**

فئة تحركت من الخلفية العشائرية ، حيث ضاقت بالنهج العشائري في سياسة عثمان ، وتعامله اللامتكافىء مع العشائر الأخرى . فهناك طائفة من المسلمين ثاروا على عثمان لّما رأوه متحيزاً الى أقربائه بشكل يفسد عليه سياسته . والحس القبلي لمّا ينته يومها في نفوس الغالبية الساحقة ممن دخل في الإسلام ، والجانب القبلي كما سبق أن ذكرنا ، يشكل احدى مكونات الإجتماع العربي حتى مع وجود الإسلام ، والبنية المجتمعية للعرب ، كانت ولا تزال تنتج ـ باستمرار ـ نزوعاً قبليا ضمن أنماط شتى في السلوك السياسي والاجتماعي . . ومن اولئك الذين ثاروا عليه ، رجال كانوا غير متضررين اقتصادياً . ويذكر التاريخ أن عبد الرحمن بن عوف رغم

أنه بلغ غناه مداه في عهد عثمان ، ورغم مصاهرته لعثمان ، ورغم تجاوزه للحق الشرعي ، في خلع علي (ع)[129] عن الخلافة وتثبيت عثمان . . . فانه يأبى أن ينهج عثمان ، نهجاً يقوّي فيه « عشيرته » . ومثل ذلك طلحة ، فلم يكن هو الآخر ، متضرراً من الحالة الإقتصادية ، بل لقد كانت غلته يومذاك من العراق تُعد بألف دينار كل يوم مثل عبد الرحمن بن عوف الذي كان على مربطه الف فرس والف بعير وعشرة آلاف من الغنم . . ولكن القضية لها خلفيات أخرى . فلا زهرة من عبد الرحمن ، ولا تيّم من طلحة براضية عن هذا الوضع الذي آل اليه الأمويون بمؤازرة عثمان ، حيث حملهم على رقاب الناس . لقد سلب عثمان إرث آل البيت (ع) وهو « فدك » وأقطعها واحداً من عشيرته وهو مروان ، وفي ذلك مهانة لبني هاشم لها أن تقرع الوجدان العربي . وكذلك لمّا رأوا عثمان يستقبل « الحكم » طريد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في المدينة ، ليقضي بطرد أحد سادة العرب والمسلمين ـ أبي ذر ـ الى الربذة . لقد رأى العرب من مختلف القبائل ، ان هذا هو عثمان ، وان عشيرة بني أمية راحت تطأ كل العشائر .

وحيث أن عثمان أظهر توجهه العشائري للمسلمين ، وأفصح عن وجهة نظره الخاصة تجاه أقربائه ، واعترف لهم انه يعمل بمقتضى الإجتهاد . لذلك أحيا فيهم النخوة العربية ، والنزعة القبلية مجدداً ، فراحوا يفكرون في الثورة والتغيير .

**الفئة الثالثة :**

انطلقت هذه الفئة من الخلفية الإصلاحية ، متجاوزة كل الخلفيات الأخرى . فهي الفئة الحضارية الوحيدة التي تميزت منطلقاتها في الرفض ، وهي الفئة المعارضة في زمن الخليفتين أيضاً . وتتشكل من آل البيت (ع) بقيادة الإمام علي (ع) وقوم لهم سابقة في الإسلام وممن أخلص الصحبة . منطلقهم هو الإصلاح عبر تحقيق الإمامة ! ويشهد التاريخ ، بأنهم ظلوا مخلصين لهذا التوجه ، ومات كثير منهم في هذا الخطر .

وكان عمّار بن ياسر منذ البداية مع الإمام علي (ع) ، ومن الذين رفضوا بيعة

---

(١٢٩) ـ اقول أن الإمام علي (ع) أنزله الدهر ، حتى أضحى يشرط عليه سُفالة العرب ، شروط خلافة الأمة !! .

ابي بكر . واستمر رافضاً بيعة عمر الا قهرا . ورفض بيعة عثمان ، وما زال ضدّه حتى قُتل ، واستمر كذلك حتى استشهد في « صفين » ، حيث يقاتل في جيش الإمام علي (ع)[130] ، هؤلاء كانوا هم روّاد الإصلاح في المجتمع الإسلامي . فكانوا ينطلقون من هذه الخلفية . بيد ان ذلك لا يمنعهم من توظيف الحالة الإجتماعية في خط التحريض على الإنقلاب .

وكان هؤلاء يتحركون على صعيدين :

الأول : توفير عوامل الهدم من خلال زرع قناعات سلبية تجاه حكومة عثمان .

الثاني : توفير عوامل البناء ، من خلال الطرح الإيجابي وهو الدعوة الى خط « آل البيت (ع) » .

ذكر ابن ابي الحديد ، أنه تكلّم بنو هاشم وبنو أمية ( أثناء مشاورات الستة بعد مقتل عمر ) وقام عمّار ، فقال : ايها الناس ، انّ الله اكرمكم بنبيّه وأعزكم بدينه ، فإلى متى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ! فقال رجل من بني مخزوم : لقد عدوت طورك ياابن سميّة ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها » . وذكر ان المقداد قال في نفس المقام : « تالله ما رأيت مثل ما أتى الى أهل هذا البيت بعد نبيهم ، واعجبا لقريش ! لقد تركت رجلاً ما أقولُ ولا أعلم أن أحداً أقضى بالعدل ولا أعلم ولا أتقى منه ! أما والله لو أجد أعوانا ! فقال عبد الرحمن : اتق الله يامقداد ، فإني خائف عليك الفتنة » .

لقد كان هؤلاء وأمثالهم يمارسون نمطاً من التحرك ، يجمع بين نقد الواقع وتحريض الناس ، وبين الدعوة الى خط آل البيت (ع) .

فآخذتْ هذه الفئة عثمان ، على قضايا كثيرة ، تتجاوز في أهميتها واقع التفاوت الطبقي والعشائري ، لتحاكمه على قضايا دينية وعقيدية محضة ! ومن جملة ما أحصته عليه :

(١) ـ عدم اقامته الحد ، على قاتل الهرمزان ، وابي لؤلؤة وامرأته وطفلة

---

(١٣٠) ـ ونحن نتساءل ، ما السر وراء هذا الألتزام بخط علي (ع) من قبل صحابي كبير وابن أول شهيدين في الإسلام . فهل هناك قرابة تشدّهما أو مصالح دنيئة تجمع بينهما .

صغيرة . ولم يستجب للقضاء الشرعي الذي صدر يومها عن الإمام علي (ع) ، وهو الحكم الوحيد الذي ينسجم مع الشريعة الإسلامية .

(٢) ـ استرجاع الحكم بن أبي العاص الى المدينة ، وقد كان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد نفاه ورفض عليه البقاء فيها كما اثبت المؤرخون . وقد ذكر الواقدي ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال له : لا تساكنني في بلد أبداً ، فجاء عثمان فكلّمه فابى ، ثم كان من أبي بكر مثل ذلك ثم كان من عمر مثل ذلك .

(٣) ـ ضربُهُ عمّار بن ياسر ، وكذلك ابن مسعود حتى كسر ضلعه ، بعد ان عزله وقطع عليه العطاء .

(٤) ـ نفيه اباذر الغفاري الى الربذة .

(٥) ـ مصادرته فدك من بني فاطمة الزهراء (ع) وإقطاعها مروان .

(٦) ـ جعله الإمارة دولة بين اقربائه وعزله الصحابة الكبار عنها .

(٧) ـ حرقه للمصاحف(١٣١) .

(٨) ـ تأميره الطلقاء على المسلمين واستشارتهم وإهمال مشورة الصحابة الكبار .

كانت هذه باختصار هي الفئات الرئيسية للتمرّد . والدليل على ذلك انها تفرقت وجهاتها بعد مقتل عثمان ، فمنهم من أكمل الدرب على نهج الإصلاح منضويا تحت رايه الإمام علي (ع) ومنهم من راح يلتمس له اسباب الغنى وآخرون اكتفوا بمقتل عثمان ، كانتقام للحالة العشائرية .

وكان الصنف الذي يبحث عن المال ، قد رجع وانخرط في جيش معاوية فيما بعد ، فنال بذلك ثمن الرّدة والنفاق ، من عطاء أهل الشام .

---

(١٣١) ـ الغريب في الأمر ان البعض أوّلها بأنها تجلبنا للفتن وتعدد القراءات وما أشبه . بيد أن التاريخ يؤكد أن عثمان ركز ـ مثلا ـ على مصحف « ابن مسعود » وهذا صحابي من حفاظ القرآن وقرّاءه ، فكيف يكون مصحفه فتنة . اللهم إلا أن عثمان يخشى ان يكون في مصحف ابن مسعود تأويلات من جنس مالا يتفق مع مصلحته .

كانت خلافة عثمان منذ البداية مهندسة على هذا الشكل ، وهو أن يستفيد القدر الممكن من الخلافة ، ثم يسلمها على غرار سابقيه الى صهره « عبد الرحمن بن عوف » ، لتبقى دولة بين عصابة من زهرة وابن ابي معيط وبني أمية . والإمام علي (ع) سرعان ما أدرك اللعبة وهو يقول بعد ان انزاحت الخلافة عنه : « ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ، والله ما وليّت عثمان إلاّ ليردّ الامر اليك »[١٣٢] .

بقي عثمان حريصاً على مخطّطه ، كيف لا وعبد الرحمن بن عوف هو الذي سلّمها إيّاه . ولم يكن ليسلمها له ، لولا أنه عرف نفسه غير مرغوب فيه . ويبدو ان عثمان أراد أن يستجيب للوعد لكنه خاف على نفسه ، ولم يستطع الوفاء بوعده لعبد الرحمن ، فربما تغيرت وجهة نظره ، فرأى ان يسلمها لواحد من أقربائه .

كتب له حُمران مولاه ، فأنكر عليه شيئاً ، فنفاه الى البصرة ، فلم يزل بها حتى قتل عثمان . ويذكر ابن مسكويه في تجاربه ، سبب سقوط هذا الكاتب من عين عثمان وسبب نفيه إياه فقال : ان عثمان اشتكى شكاة ، فقال له :

« اكتب العهد بعدي لعبد الرحمن بن عوف » .

فانطلق حُمران الى عبد الرحمن بن عوف فقال له :

« البشرى ! » .

فقال : « لك البشرى ، فماذا ؟ » .

فأخبره الخبر . فصار عبد الرحمن الى عثمان ، فأخبره بما قال حُمران ، فقلق عثمان ، وخاف ان يشيع ، فنفاه لذلك .

ربّما غيّر وعده ولذلك لابد لعبد الرحمن بن عوف ان ينتقم ، ولكن تحت غطاء آخر . يذكر التاريخ ان عبد الرحمن انقلب بعد ذلك على عثمان لما رآه أخلف الوعد وانحاز الى عشيرته .

وليس هذا الوعد بـ« سيرة الشيخين » فعبد الرحمن منذ البداية يعرف أن

---

(١٣٢) ـ الكامل ( ٣ / ٧١ ) .

تقريب عثمان لعشيرته أمر وارد وحقيقي . وعمر بن الخطاب نفسه قال ذلك أمامهم ، يروى عن ابن عباس انه قال : فقلت عثمان بن عفان ؟ قال : ( يعني عمر ) : « ان ولي حمل ابن ابي معيط وبني أميّة على رقاب الناس وأعطاهم مال الله ، ولئن ولي ليفعلنّ والله ، ولئن فعل لتسيرنّ العرب اليه حتى تقتله في بيته ثم سكت »[١٣٣] .

وحتى نستطيع فهم طبيعة الخلاف بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، لابد أن نفرض سؤالا : كيف تتحول المودّة بين عشية وضحاها الى عداوة قائمة ؟ ! لعلّ السبب هو هذا العهد . لقد روي ان عثمان اعتل علّة اشتدّت به فدعا حمران بن ابان ، وكتب عهداً لمن بعده ، وترك موضع الاسم ، ثم كتب بيده : عبد الرحمن بن عوف ، وربطه وبعث به الى امّ حبيبة بنت أبي سفيان ، فقرأه حمران في الطريق فأتى عبد الرحمن فأخبره ، فقال عبد الرحمن ، وغضب غضباً شديداً : أستعمله علانية ، ويستعملني سرّاً . ونما الخبر وانتشر بذلك في المدينة . وغضب بنو أمية ، فدعا عثمان بحمران مولاه . فضربه مائة سوط ، وسيّره الى البصرة . فكان سبب العداوة بينه وبين عبد الرحمن بن عوف[١٣٤] .

نعم ، لقد استعمله علانية ، وبذلك استطاع ان يثبته في الخلافة غير ان عثمان فعل ذلك سرّاً . وعلم عبد الرحمن ان العهد سراً بالخلافة لا يمكّنه من ركوبها . إنه يريد منه علانية على غرار عمر وأبي بكر . فلّما أحس بذلك علم ان عهده قد نكث ، فعاداه . هذه العداوة التي ستنتهي الى التفكير في الانتقام . كيف لا ، وعبد الرحمن بن عوف ، قد زهد في كل شيء وغامر بكل مكتسباته ليثبت عثمان . لقد أفسد علاقته مع علي (ع) وشيعته . وسقط من أعين الصحابة الكبار . لذلك سيحاول عبد الرحمن ، استدراك الخطيئة ، ليتقرب الى علي (ع) من جهة ، ويسقط عثمان من جهة أخرى . وقد تحين الفرص كلها من أجل اسقاط عثمان . حتى اذا كانت وفاة ابي ذر بالربذة ، تذاكر علي وعبد الرحمن فعل عثمان . يروي الواقدي : لما توفي أبو ذر بالربذة ، تذاكر علي وعبد الرحمن فعل عثمان . فقال

---

(١٣٣) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٥٨ ) .

(١٣٤) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٦٩ ) .

علي (ع) له : « هذا عملك ، فقال عبد الرحمن فاذا شئت فخذ سيفك وآخذ سيفي ، إذ خالف ما أعطاني » وهذه « أعطاني » تدل على ان عبد الرحمن صادقٌ وذكيٌ لّما قالها في صيغة المجهول . فأعطاني ، اي وعد الخلافة ! .

أمام هذا الواقع المتموج بالرفض والتمرّد . كان لابد لعثمان أن يسلك نهجاً سياسياً يقيه من ضربات المعارضة ، ويجنّبه خطر السقوط ، فما هي الإجراءات التكتيكية ، التي اتخذها عثمان ، لتطويق حالة الرفض الإجتماعي ؟ .

لسنا ـ طبعا ـ مثل طه حسين ، لّما حرص على ايجاد المبررات التاريخية للفتنة الكبرى حينما قال انهم معذورون ؟ لأنهم لم يعرفوا حتى ذلك الزمان ، معنى الدستور ! أقول : إن السيطرة على الظلم في مجتمع بسيط ، هو أسهل بكثير منه في مجتمع مدني معقّد . وممارسة العدالة ، كانت منذ غابر العصور فضيلة تذكر في الأمم ، بل ان العدل كان يمارس كفضيلة اخلاقية الى جانب كونه قيمة حقوقية . ومن جهة أخرى فإن السياسة حتى في زمن عثمان ، لم تكن تمارس بسليقة اجتماعية كما يتصور البعض . إنما كانت تمارس بتخطيط محكم . والمستشارون الذين اعتمدهم عثمان ، كانوا من دهاة العرب . و « السّترجة » العثمانية في تحجيم دائرة الرفض ، وتوفير التهدئة الضرورية ، كانت تتجسد في ثلاثة مسالك :

**المسلك الأول :**

تحقيق نوع من الافراط ، والتضخيم في النشاط الخارجي للمجتمع الإسلامي اذ ان سياسة تصدير الأزمات ، وبالتالي الاهتمامات الى الخارج ، ليس وليد السياسة المعاصرة . بل هي قديمة قدم الإجتماع البشري ، ومنذ نشوء السلطة في المجتمع الإنساني . وهي السياسة التي تفوّت الاهتمام بالداخل الى قضايا الخارج ، وتوجيه الهمّ المجتمعي الى أزمات الخارج ، ومن ذلك ، الحروب التي تخلقها بعض الدول ، لتصرف انظار المجتمع الى الجبهات . وبالتالي ، تتجنّب الاضطرابات في الداخل . وكان عثمان بن عفان حريصاً على خلق واقع من النشاطات الخارجية ، ليبعد الأنظار عن سياسته ، ومفاسده الداخلية . فشجّع الفتوحات ، وألهى بها المسلمين .

والتاريخ يثبت ان الفتوحات التي كانت تجري في هذا العصر وما بعده . لم

تكن ذات هدف ديني خاص ، بقدر ما كان العامل التجاري والإقتصادي حاضراً فيها . فكانت الفتوحات تفيض عليهم بالغنائم النفيسة ، ولم تكن الأمصار محط اهتمام ديني بقدر ما كانت مستوطنات لبني أمية ، يشيدون فيها قصورهم ، ويكرسون فيها مظاهر الفساد . إن عملية إلهاء الجماهير الإسلامية ، وإشغالها بالحروب ، يلغي الخلفية الإسلامية السليمة ، لحركة الفتح . لقد اشتدت حدة التمرّد ، وعمّ الاضطراب في الداخل والخارج ، وتداول المسلمون قضايا المفاسد وتناقلوها فيما بينهم ، وبدأت سلطة عثمان تدخل شيئاً فشيئاً نفق الإنهيار . في تلك الأثناء ، جمع هيأته الاستشارية ، من الطلقاء ، وضعاف الإيمان ، ليتباحث معهم شؤون الدولة ، وأوضاع المجتمع ، والكيفية التي يتخلص بها من المعارضة ، جمعت الهيأة كلاً من معاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص وغيرهم .

فقال عثمان : إن لكل أمرىء وزراء نصحاء ، وانكم وزرائي ونصحائي واهل ثقتي ، وقد صنع الناس ما رأيتم وطلبوا اليّ أن أعزل عمّالي وان أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبّون . فاجتهدوا لي رايكم ثم أشيروا عليّ » .

فقال عبد الله بن عامر :

« رأيي لك ياأمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمّرهم في المغازي حتى يذلوا لك ، فلا تكون همّة أحدهم إلاّ نفسه : وما هو فيه من دبر دابّته وقمل فروته »[١٣٥] .

وعليه ، فإن حركة الفتوح ، لم تعد هدفاً رسالياً ، مقدّساً . كما كانت على عهد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بل تحوّلت الى أسهم في بورصة الجهاد . اذ لمّا كان عثمان قد ولىّ عبدالله بن عامر البصرة ، وولّى سعيد بن العاص الكوفة ، كتب اليهما ، ايّكما سبق الى خراسان ، فهو أمير عليها . فخرج عبد الله بن عامر ، وسعيد بن العاص ، فأتى دهقان من دهاقنة خراسان الى عبدالله بن عامر فقال : « ما تجعل لي إن سبقت بك ؟ قال : لك خراجك وخراج أهل بيتك

---

(١٣٥) ـ تجارب الأمم ( ٢ / ٢٧٣ ) .

الى يوم القيامة . فأخذ به على طريق مختصر الى « قومس » ، وعبدالله بن حازم السلمي على مقدّمته . . الخ[١٣٦] . وقد كثرت الفتوح التي قادها ضعاف الإيمان ، فتحت خراسان على يد عبدالله بن عامر كما سبق ثم أبرشهر ، وفتح الأحنف بن قيس هراة ، ومرو ، والروذ ، ثم الطالقان والغارياب ، وطخارستان . وارمينية ، وجرزان . . وكان عثمان قد بعث بجيش ، وجعل معاوية أميراً لهم ، على الصائفة في سنة ٣٢ ، فبلغوا الى مضيق القسطنطينية ، وفتحوا فتوحاً كثيرة[١٣٧] .

لم تكن حكومة عثمان تهيء برنامجاً تثقيفياً للبلدان المفتوحة ، بل كانت جيوشه تكتفي بإخضاع البلدان الى الاستسلام ، ثم نهب ثرواتها ، ثم الإفساد فيها . والتواريخ تطفح بالأخبار عن عمّال عثمان ، ولهوهم وعبثهم في الإمارات[١٣٨] .

غير أن الخطة التي دبّرها عثمان لتحجيم المعارضة لم تنجح ، لأن فئات التمرّد لم تكن واحدة ، بل هي مختلفة تماماً ، ولكل واحدة خلفياتها في التحرك ، فهناك الى جانب تلك الفئات ، فئة تتحرك في ضوء هدف ثابت ، هو اسقاط عثمان والخلافة ، وإعادة الأمر الى أهله من آل البيت (ع) ، وهؤلاء لم تلههم الفتوحات ، لأنهم لم ينشغلوا بغنائمها . وعليه ، فإن عثمان ، كان هو نفسه مضطراً الى سلوك اكثر من خطّة في القمع السياسي . فكان حتماً أن يسلك مسلكاً آخر .

المسلك الثاني :

أسلوب القمع ، والتصفية المنهجية للمعارضة . وكان هذا ثاني أسلوب لجأ اليه عثمان ، بعد أن أفلس أسلوبه الأول ، ولم يحقق الا نتائج وقتية . وهذا المسلك يقضي بتتبع آثار المعارضة ، والقبض على رموزها ، واتخاذ الإجراءات العنيفة ضدّهم ، وبكسر شوكة قيادات التمرّد تنكسر عصا التمرد كلّه . وكانت هذه الخطّة في بداية المشاورات من وحي سعيد بن العاص . اذ لمّا جمعهم (عثمان) والتمس آراءهم ، حول مسألة التمرّد قال له سعيد :

---

(١٣٦) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٦٦ ) .

(١٣٧) ـ نفس المصدر .

(١٣٨) ـ حتى يذكر أن الوليد أصبح وهو سكران وصلى بالناس الفجر أربع ركعات .

« ياأمير المؤمنين ، ان كنت تريد رأينا فاحسم عنّا الداء ، واقطع ما تخاف من الأصل ، واعمل برأيي » .

قال : « وما هو » ؟ .

قال : « إن لكل قوم قادةً متى تهلك تفرّقوا ولا يجتمع لهم أمر » .

قال عثمان : « إن هذا الرأي لولا ما فيه »[١٣٩] .

كانت هذه الخطّة أقرب الى الحسم من الخطة الأولى ، غير أنها مكلّفة ، لأن فيها مواجهة مباشرة بين عثمان وعصابة بني أمية وكبار الصحابة المتمرّدين . وأدرك عثمان أنه من الصعب أن يتخذ اجراءات حاسمة ومباشرة ضد هؤلاء المهاجرين إلا أنه كان يفقد أحياناً توازنه ، فيسلك فيهم مسلكاً فمعياً ، فتزيد شقة التمرد اتساعا .

وكان من مصلحة عثمان أن يلجأ الى قتل علي ، وطلحة ، والزبير . . فيما لو أطاع معاوية[١٤٠] . لكنه رأى ان ذلك سيؤجج الوضع أكثر مما يخمده . فكان عثمان يبعث بالمعارضين وينفيهم الى الشام ، حيث معاوية ، يذلّهم ويربيهم على الإلتزام والصمت[١٤١] .

كانت المعارضة تشتمل كما سبق ان ذكرنا ، مجموعة فئات ، والفئة المركزية كانت تتألف من علي (ع) وكبار الصحابة ، وحيث ان عثمان لم يستطع تطبيق عقوباته على أولئك الكبار ، بمركزيتهم الدينية والعشائرية في المجتمع ، فانه لجأ الى تفريغ جامّ غضبه على فقرائهم وضعافهم .

لقد عجز عثمان عن معاقبة الإمام علي (ع) لأنه يدرك ان ذلك قد يثير عليه المشاكل ويدخله في المآزق . لأن الإمام علياً (ع) لم يسكت يومها لضعف فيه أو لعجز اعتراه ، وانما حفاظاً على تماسك المجتمع . أما وانهم ليعلمون أنه أسد في عرينه ، لذلك اكتفى عثمان بشكايته الى عمه العباس ـ حسب البلاذري باسناده

---

(١٣٩) ـ تجارب الأمم ( ١ / ٢٧٢ ) .

(١٤٠) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٣١ ) .

(١٤١) ـ كما فعلوا بمن تمرّد من أهل السواد على سعيد بن العاص الذي أراد أن يسلبهم أرضهم .

عن ابن عباس ـ ان عثمان شكا علياً الى العباس ، فقال له : « ياخال إن علياً قطع رحمي والبّ الناس عليّ » .

ومثل ذلك كان موقفه من محمد بن أبي بكر ، لمكانته من أبيه واخته وكذلك محمد بن ابي حذيفة لمكانته من قريش ، رغم ما أثاروه عليه في « مصر » ، ومضايقتهم عامله فيها « عبدالله بن سعد » .

إلا ان عثمان لم يسلك نفس الطريق مع ضعاف المعارضة ، الذين ليست لهم قرابة تؤويهم ، ولا عشيرة قوية تظلّلهم . وبعد ان ضاق بمعارضتهم المستمرّة بدأ عثمان ينهج أسلوبه القمعي ، فالظروف لم تعد تسمح له بتوقير الصحابة ، فبدأ اجراءاته بابن مسعود . كان هذا الأخير واليا على الكوفة منذ عمر[١٤٢] ، وتولى في عهد عثمان بيت المال في الكوفة في إمارة سعد بن أبي وقاص ، وبدأت الأزمة مع عثمان ، لّما ولىّ الوليد بن عقبة ، حيث استقرض من بيت المال ، فلّما جاء الأجل ، رجع اليه ابن مسعود ، فراح يتهرّب من الأداء ، فأصرّ عليه ابن مسعود ، فشكاه الوليد الى عثمان ، وكتب عثمان الى ابن مسعود :

« أنما انت خازن لنا ، فلا تعرض للوليد فيما أخذ من بيت المال » فغضب ابن مسعود ، واعتزل ، وكانت تلك بداية الخلاف بين الرجلين . وحيث ان ابن مسعود اعتزل الى التعليم والتدريس ، وكان له مصحفه الخاص ، فإن عثمان ، كان قد طلب منه مصحفه ليحرقه ، وقد رفض ابن مسعود بدعة عثمان في حرق المصاحف ككل ، واعتماد مصحفه الوحيد . وابن مسعود كان يرى نفسه احفظ لكتاب الله وأعلم به من عثمان وعصابته ، والسيرة تشهد له بذلك ، فابى أن يسلم مصحفه ، ونعى ذلك على عثمان ، ولّما كتب الوليد الى عثمان بخصوص ابن مسعود وطعنه فيه ، طلب منه إحضاره الى المدينة ، فلما رآه عثمان وكان يخطب من على المنبر ، قال : ألا إنه قد قدمت عليكم دويبة سوء من يمشي على طعامه يقيء ويسلح . فقال ابن مسعود : لست كذلك ، ولكني صاحب رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يوم بدر ويوم بيعة الرضوان . ونادت عائشة : أي عثمان أتقول هذا لصاحب رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، ثم أمر عثمان به فأخرج

---

(١٤٢) ـ وكان في البداية وليه على الشام ثم نقله الى الكوفة وأوصى الناس أن يتبعوه .

من المسجد إخراجاًعنيفا ، وضرب به الأرض فدقّت ضلعه . فلامه علي (ع) على ذلك ، وقال له : تفعل هذا بصاحب رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عن قول الوليد ؟ فقال عثمان : ما من قول الوليد فعلت هذا ، ولكني أرسلت زبير بن كثير فسمعه يحلّ دمي . قال عليّ : زبير غير ثقة .

بقي ابن مسعود غاضباً على عثمان حتى مات وأمر ان لا يصلي عليه ، فدفن سرّا ، وقام بجنازته عمّار بن ياسر كما سبق ان ذكرنا . وكان عثمان قد قطع العطاء عن ابن مسعود حتى لمّا مر بابن مسعود وأحس عثمان بالذنب ، أتاه يطلبه ، قال : ما تشتهي ، قال له ابن مسعود : رحمة ربي . قال له عثمان : هل أحضر لك طبيباً ، قال ابن مسعود : الطبيب أمرضني . فقال له عثمان : اردّ عليك عطاءك ، فقال : حبسته عني حين احتجت إليه ، وتردّه الي حين لا حاجة لي به ؟ فقال عثمان : يكون لأهلك . فقال ابن مسعود : رزقهم على الله . قال عثمان : فاستغفر لي ياأبا عبد الرحمن . قال ابن مسعود : أسأل الله ان يأخذ لي منك بحقي . ولم يكن ابن مسعود هو أول وآخر من سلك فيهم عثمان ، سياسة القمع . فهناك عمّار بن ياسر . الذي طالما تمرد وتمرّد على عثمان وزمرته ، وكان عمّار رغم ضعف عشيرته ، ذا مركز اجتماعي كبير ، منحته إياه سابقيته ، وبلاؤه مع الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكان كما سبق القول ، ميزاناً للحق والباطل[١٤٣] . ولذلك حرص عثمان ان لا يمارس عليه القمع مثل ما فعل بالآخرين ، غير أن التصعيد الثوري فرض عليه خيار القمع المضاد للتمرّد . ويذكر البلاذري في أنساب الأشراف ، أن عثمان أخذ جواهر من بيت المال فحلى بها بعضا من أهله ، فغضب الناس ، فخطب فقال : « لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف اقوام » .

فقال له علي : إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه . وقال عمّار : اشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك . فقال عثمان : أعليّ ياابن المتكأء تجترىء ! خذوه . فأُخِذَ ، ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه . وما زال عمّار في مناوأته لعثمان ، ومعارضته لسياسته حتى قتل . كما أستمر عثمان في ملاحقة المعارضة

---

(١٤٣) ـورد في الحديث ابن سمية ، تقتله الفئة الباغية .

ورموزها . وفي تلك الأثناء كان بالشام أحد كبار الصحابة وطلائع الرسالة ، وهو أبو ذر الغفاري (رض) وقد كان رجلاً ثورياً لم تثنه لومة ولا ثناء ، عن نصرة الرسالة . وقد قال عنه الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء رجلاً أصدق ذي لهجة من أبي ذرّ »[١٤٤] . ولذلك لمّا رأى عثمان بالمدينة يقرب ابناء عشيرته ويكثر لهم في العطاء من بيت مال المسلمين ، رفع صوته عاليا : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم** ﴾[١٤٥] . فضاق عمال عثمان واقرباؤه بهذا الشعار ، فشكاه مروان بن الحكم الى عثمان ، فأرسل أليه عثمان ، فردّ عليهم ابو ذرّ : « أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله ، لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب الي من أن أرضي عثمان بسخط الله » . وعندما احتد الصراع بين أبي ذّر وعثمان ، وحدّت لهجته امام كعب ، أمره عثمان بالإلتحاق بالشام . وتلك كانت جزءا من الخطة التي اعتمدها عثمان ، في نفي الصحابة الى الشام ليذلّهم بمعاوية بعيداً عن الأنظار .

غير أن ابا ذّر أصدق لهجة من أن تحتويه « ديماغوجية » معاوية بن أبي سفيان . لذلك أفشل مخطط عثمان ، فكاد يفجر الأوضاع على معاوية في الشام . حيث استمرّ على ذات الشعار . وانتقد معاوية انتقاداً جذرياً ، اذ قال له بعد استنكاره بناء « الخضراء » : ان كنت بنيتها بمال المسلمين ، فقد خنتهم ، وان كان ذلك من مالك فهو إسراف . وفي كلتا الحالتين ، يكون سلوك معاوية منحرفاً عن خط السياسة الإسلامية فكان يجتمع حوله الناس ويصغون . وعزّ على معاوية ان يفقد مكتسبات سنوات من التربية الأموية للشام فكتب الى عثمان ، يستنجده من ابي ذرّ . فطلب منه عثمان ان يشخصه اليه في اغلظ مركب وأوعره . فلما حضر المدينة ، لم ينته عن ان يصدع بالحق في وجوه الفئات الأرستقراطية الأموية . واستمر في مهمّة التحريض . وكان من مصلحة عثمان والأمويين أن لا يبقى أبو ذر في المدينة ولا في الشام ، ولا في أي أرض يكثر فيها الناس فنفاه الى الربذة ، حيث لبث فيها الى أن مات . وتذكر التواريخ ، أنه لم يجد إلا عابري سبيل دفنوه بعد أن

---

(١٤٤) ـ معاني الاخبار ( ص ١٧٨ ) ، وفي حديث آخر « يبعث أبو ذر أمة وحده » .

(١٤٥) ـ سورة التوبة ( آية : ٣٤ ) .

عجزت زوجته عن ذلك .

هذا هو النهج القمعي ، الذي مارسه عثمان مع أقرب رجالات الصحابة الى رسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولم يرعِ فيهم شهادة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولا مودته لهم ، بل جنّ جنوناً لم يعد يعترف ألا بمصلحته واقربائه . وفي نفس الوقت الذي فعل ذلك بالصحابة الكبار ، الذين تمسكوا بخط الرسول وآل بيته (ع) . كان يغدق في العطاء للطلقاء من اقربائه . فلقد طرد اباذرّ الى الربذة ، احد حواري الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وأعاد من المنفى خصم رسول الله الحكم بن العاص . وقطعِ العطاء عن ابن مسعود ، ووسع في الإمارة لمعاوية بن أبي سفيان . واغتصب فدكاً من ولد فاطمة الزهراء (ع) وأقطعها مروان . ورفض قضاء علي (ع) بخصوص عبيدالله بن عمر وقبل قضاء عمرو بن العاص فيه . وكان عمّار بن ياسر قد حزن لمّا سمع بموت ابي ذرّ ، وأفصح عن عواطفه تجاهه . فلّما رأى منه عثمان ذلك ، ظنّ أنه يوجه اليه اللوم . فغضب عليه عثمان ، وأمره بالذهاب الى الربذة . فغضب بنو مخزوم وكذا الإمام علي (ع) . . لاموا عثمان . فقال هذا الأخير لعلي (ع) .

« ما أنت بأفضل من عمّار ، وما أنت أقل استحقاقاً للنفي منه » .

غير أن عليّا (ع) لم يكن الى هذا المستوى من الضعف ، ولعلّ عثمان إغترَّ بنفوذ حكمه العشائري ، غير ان علياً (ع) ردّ عليه : رُم ذلك إن شئت .

وتوسط المهاجرون الى عثمان ، ولاموه جميعاً ، فلم يتخذ اجراءاته في حق عمار ولا علي (ع) . وهذا النهج الذي سلكه عثمان في كبت الرأي ، واستضعاف الكلمة الرسالية واسقاط مركزية الصحابة ورفع وتوسيع نفوذ بني أمية لم يكن ليقضي على شعلة الإسلام في نفوس الفئة الإصلاحية . ولم يكن القمع يخيف قوماً قام على اكتافهم الإسلام ، وخاضوا أشرس الحروب وأضراها ، وقدّموا مهجهم في سبيل نصرة الرسالة . لم تكن هذه الأساليب الطاغوتية ، لتردّ فئة بايعت الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في بيعة الرضوان على أن لا تفر اثناء الزحف ، وعلى بذل الغالي والنفيس في رفع راية الإسلام . ولذلك ازداد التمرّد . وازداد الناس بصيرة في عثمان وأهله . وكان عثمان يقاتلهم قتال من يحرص على

ملكه لا من يهدف خلافة الرسول في مسؤولية الأمة .

لكن عثمان رغم ذلك لم ييأس في محاولاته لمحاصرة المد الثوري . فراح يطبق خططه الأخرى مع خططه الأولى .

**المسلك الثالث :**

كان هذا المسلك هو التخفيض من الأتجاه الايديولوجي الاسلامي للمجتمع ، بحيث ، لا تبقى روح الاسلام تغزو كل قلب ، مما يجعل الناس يشعرون بالمسؤولية تجاه مفاسد السلطة . لأن تعاظم الايديولوجية الاسلامية في نفوس المجتمع ، هي التي تخلق حالة من اليقظة والرقابة فيه ، وحاول أن يسلك طريق التمييع للمجتمع عبر وسيلتي التفقير ، والإغناء . التفقير للعناصر المتمردة عشائريا . والإغناء للفئات المتمردة دينياً واقتصادياً ، الأولى بقتضى « جوّع كلبك يتبعك » والثانية بمقتضى « اشتر صمت عدوك بالمال » لذلك لجأ الى اغراق المجتمع في الحاجة والتطلب المادي ، وكان رأي عثمان ، أن يشرك الفئة المتمرّدة من كبار الصحابة في العطايا . كما استوحى فكرة الإنحراف بالمال ، على الفئة المتمرّدة اقتصاديا ، من عامله عبدالله بن سعد ، حيث لمّا استشاره من بين مستشاريه قال : « ياأمير المؤمنين ، الناس أهل طمع ، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم »[١٤٦] .

ويذكر ابن مسكويه في تجاربه انه تم فعلاً تطبيق هذه الخطة بأشملها : فردّ عثمان عمّاله على أعمالهم ، وأمرهم بالتضييق على من قبلهم ، وأمرهم بتجمير الناس في البعوث وعزم على تحريم اعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه . ورُدّ سعيد بن العاص أميراً على الكوفة[١٤٧] .

وكان أول ما منع عثمان ، عطاء ابن مسعود ـ كما تقدم ـ ومكّن للزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف . . فكانوا من أثرياء العرب يومها .

وحاول ذلك مع أناس كثير فرفضوا إغراءه . وكان محمد بن أبي حذيفة ممن

---

(١٤٦) ـ تجارب الأمم ( ١ / ٢٧٢ ) .

(١٤٧) ـ نفس المصدر وكذلك ذكره الطبري في تاريخه .

ألب عليه بمصر . وارسل عثمان اليه على اثر ذلك بمال وكسوة ، فرفض الفتى ذلك في المسجد وقال : انظروا يامعشر المسلمين الى عثمان ! يريد ان يخدعني عن ديني بالرشوة .

وقد سبق لعثمان ان عزل عبد الله بن الارقم ، او بالاحرى هو استقال لمّا أدعى عثمان انه خازن لبيت أهله . وأعطى المفاتيح بعده لزيد بن ثابت . ويروي الواقدي : ان عثمان أمر زيد بن ثابت أن يحمل من بيت مال المسلمين الى عبد الله بن الارقم في عقيب هذا الفعل ثلثمائة الف درهم . فلما دخل بها عليه ، قال له : ياأبا محمد إن الأمير أرسل اليك يقول : إنا قد شغلناك عن التجارة ، ولك رحم أهل حاجة ، ففرّق هذا المال فيهم ، واستعن به على عيالك .

فقال عبد الله بن الارقم : مالي إليه حاجة . وما عملت لان يثيبني عثمان ـ والله ان كان هذا المال من بيت مال المسلمين ما قدر عملي ان اعطى ثلثمائة ألف ، ولئن كان من مال عثمان ما أحب أن أرزأه من ماله شيئاً . وما في هذه الأمور أوضح من ان يشار اليه ويُنّبه عليه .

هذه باختصار هي السياسة المالية غير المتوازنة التي كان يسلكها عثمان . ففئة يرى تفقيرها بمنع العطاء عنها ، وفئة أخرى يرى إغراءها بالأموال . أما أقرباؤه فقد أثبت ملكهم ، بأن وسع عليهم توسيعا .

كانت هذه السياسة في مجملها كالسحر اذ ينقلب على الساحر . وكان على بني أمية ان ينقضوا على الحكم كلّه ، فعثمان رجل مهما كان فهو أضعف في رأي الأمويين من معاوية ، وسياسة معاوية تقضي بتقتيل المعارضة ، وهذا ما رفضه عثمان لأسباب معينة .

كان موقف معاوية ان يقتل المعارضين ، فأبى عثمان ذلك ، خوفاً من استفحال الأزمة ، وطلب منه معاوية أن يصحبه الى الشام ، حيث يدافع عنه برجاله فأبى عثمان .

قال معاوية لعثمان غداة ودّعه :

« ياأمير المؤمنين ، انطلق معي الى الشام قبل ان يهجم عليك من لا قبل لك

به ، فإنّ أهل الشام على الأمر ، لم يزولوا » .

فرفض عثمان .

فطلب منه ان يبعث اليه جنداً منهم يقيمون بين ظهراني أهل المدينة لنائبة ان نابت . فرفض عثمان .

قال له معاوية : « والله ياأمير المؤمنين لتقاتلنّ ، ولتُغزَينّ » .

واردف قائلاً : « ياأيسارَ الجزوْر ، واين أيسارُ الجزور ! ثم خرج »[148] .

عرف معاوية ان الأمر يسير هذه الوجهة . فعليه أن يقوي جيشه ليستعدّ للمستقبل القريب . لقد عزّ عليه ان يرى ابن قرابته تتوزعه سيوف القوم . غير ان الملك عقيم . وهو أغلى . وحيث ان الأمر لا محالة كذلك ، فإن معاوية سيجمع بين الأمرين . ان يترك الأمر الى ما بعد قتل عثمان ، ليضرب العصفورين بحجر . ليركب « الانتقام » لعثمان من أجل الاستيلاء على الحكم .

(١٤٨) ـ تجارب الأمم ، وكذا الطبري وفي لفظ هذا الأخير : لتُغتالنّ ، ولتُغزيَنّ .



# مقتل عثمان .. الاسباب والملابسات

ما يحاول ان يكرسه مورخو البلاط ، هو أن عثمان قُتل من قبل خوارج الأمة . وأن عصابة من السبئيّة ، كاتبت أهل الأمصار للمجيء الى المدينة حتى ينظروا في ما يريدون .

فماذا عسانا أن نقول ؟ أبعد كل ما جرى يكون عثمان مظلوماً ؟ واذا لم يكن التوزيع الطبقي والعشائري لمال المسلمين ، وحمل بني امية على رقاب المسلمين ، ظلماً ، فكيف ترى يكون الظلم ؟ كيف ؟ كيف ؟ ؟ .

الواقع ان « عثمان » قتل في ثورة شعبية عارمة . سببها الفساد الذي بدأ يتهدد المجتمع ووصل في فترة عثمان الى قمة هرمه . والذين شاركوا في قتل عثمان ، ليسوا على كل حال زنادقة .

ولم يكونوا مجهولين حتى يقال عنهم « مجوسيون » او « خارجيون » ، بل كانوا كثيرين الى درجة يستحيل فيها تجاهلهم . ومن بين اولئك الذين أقاموا الحد الثوري على عثمان.ابن ابي بكر ، الذي تحوّل فيما بعد الى أقرب الناس للإمام علي (ع) وفيهم طلحة والزبير وفيهم محمد بن ابي حذيفة وغيرهم من الصحابة . إنه ليس في وسع الباحث إلا أن يعترف بهذه الحقيقة من دون التواء . وقد اعترف بها جميعهم . يقول سيد قطب :

« وأخيراً ثارت الثائرة على عثمان ، واختلط فيها الحق بالباطل ، والخير بالشر ، ولكن لابّد لمن ينظر الى الأمور بعين الإسلام ، ويستشعر الأمور بروح

الإسلام ، أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها كانت فورة من روح الإسلام وذلك دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودي ابن سبأ عليه لعنة الله »[١٤٩] .

الله ! الله ! ياسيد ، ما عهدنا عليه هذه السذاجة . إنّه مع اعترافه بحقيقة الأوضاع لا يزال متشبثاً بأيديولوجية « عبد الله بن سبأ » ، وكيف لا يتشبث بها وهو يأخذ كل مسلّمات التاريخ الإسلامي المصطنع . إنه يعترف ان الثورة كانت فورة من روح الإسلام . انه اعترف ايضاً ـ رحمه الله ـ : « مضى عثمان الى رحمة ربه ، وقد خلف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكن لها في الأرض ، وبخاصة في الشام ، وبفضل ما مكن للمبادىء الأموية المجافية لروح الإسلام ، من إقامة الملك الوراثي والإستئثار بالمغانم والأموال والمنافع مما أحدث خلخلة في الروح الإسلامي العام » .

لابدّ اذاً من استحضار مجريات الثورة ، وملابسات المقتل ، ومن قتل وكيف ولماذا ؟ .

ان استحضارالمشهد بكليته حري بأن يعطينا فكرة واضحة عن حقيقة الحدث ، ذلك الحدث الذي ظل يعرض علينا مجرداً عن ملابساته ، وتحت غمام كثيف من التلفيق والبكاء الايديولوجي المصحوب بتزييفات ومبررات مشؤومة . ولكي نكون شجعاناً في قراءة التاريخ ، والإخلاص للحق والمعرفة لابد ان ندخل الحدث من باب التاريخ لامن باب الترجمات الإسطورية .

كان اصل الثورة وجوهرها ، تغييرياً إصلاحياً ، بيد أن ركوب الفئات المشبوهة موجة الغضب الجماهيري في الإنتقام لمشاريعها الخاصة كان موجوداً وسنبدأ بهذه الفئات المشبوهة .

كان عمرو بن العاص ، رائد الإتجاه الإنتهازي ، الذي يتحدّد ولاؤه بالمصلحة . عمرو بن العاص ، ليس من الذين أسلموا طوعاً . وقد كان حريصاً على محو أثر الإسلام ، غير أنه لم يوفق . وهو واحد من الذين ساروا الى النجاشي بالحبشة ، لتأليبه على المهاجرين بقيادة « جعفر بن أبي طالب (رض) » . ظل

---

(١٤٩) ـ العدالة الإجتماعية في الإسلام ( ص ١٦١ ) .

عمرو حليفاً لبني أمية ، بينهما مصالح قوّضوا في سبيلها روح الإسلام . وفي زمن عثمان ، كان عمرو يمارس دهاءه بشكل دقيق . كان في نهاية الأمر يدرك أن عثمان مهزوز السلطان وان الثورة ستنشب لا محالة . فكان في كلّ مرة ، يظهر للناس مواقفه « الخادعة » ، ليموه عليهم ، ثم يبرر ذلك لعثمان ليحافظ على مكانته عنده ، قال مرة لعثمان :

« اتق الله ياعثمان ! فانك قد ركبت نهابير وركبناها معك ، فتب الى الله نتب معك » فناداه عثمان : « وانّك هناك ياابن النابغة قَمِلَتْ جُبَّتك منذ عزلتك عن العمل » .

فنودي من ناحية اخرى : « أظهر التوبة ياعثمان يكفّ الناس عنك » .

ونودي من ناحية اخرى بمثل ذلك[١٥٠] .

غير أن عمرو بن العاص ، كان حريصاً على علاقته بعثمان . ولّما تفرّق القوم قال له : « لا والله ياأمير المؤمنين ، لأنت أعزُّ عليّ من ذلك ، ولكن قد علمت أن الناس قد علموا أنّك جمعتنا لتستشيرنا ، وسيبلغهم قول كلّ رجل منّا . فأردت ان يبلغهم قولي فيثقوا بي لأقود إليك خيراً ، وأدفع عنك شرّاً »[١٥١] .

وبهذه الازدواجية بقي حتى مقتل عثمان ، حين جاء يتوسط لعثمان مع الثوار ، فنهروه ، واتهموه ، فولّى خائباً . وعندما قُتِلَ عثمان ، ولم تعد المصلحة لعمرو بن العاص في أن يتمسك بشرعية عثمان . خرج الى منزله بفلسطين ، وكان يقول : والله إنّي كنت لألقي الراعي فأحرّضه على عثمان . . ولّما مرّ به راكب من المدينة وهو مع ابنيه محمد وعبد الله وسلامة بن روح الجذامي فسأله عمرو عن عثمان ، فقال : هو محصور . قال عمرو : انا أبو عبدالله ، قد يضرط العير والمكواة في النار[١٥٢] .

كذلك كان عمرو بن العاص ، تحركه المصلحة ، وتملي عليه الإختيارات

---

(١٥٠) ـ تجارب الأمم ( ٢ / ٣٨٤ ) .

(١٥١) ـ نفس المصدر .

(١٥٢) ـ الكامل ( ٣ / ١٦٣ ) .

الإنتهازية . تحرك ضد عثمان لمّا عزله ، ولم يوسّع عليه في الإمارة مثل ما فعل بمعاوية . وهو لا يهمّه ان تتقوى عشيرة بني عبد مناف . فهو أصلا لم يحص له التاريخ نسباً يفتخر به ، وقد عُرف بابن النابغة ، لأنه وليد نمط معين من الزنا كان معروفاً لدى الجاهليين[١٥٣] ، فهو ليس ابن الفراش ، لذا فإن ظروفه النفسية والإجتماعية مهيأة لسلوك هذا النوع من الإختيارات المزدوجة . فكان الدافع الإقتصادي والعشائري ، احدى محفّزاته ضد عثمان . وكان بإمكان معاوية ان يذود عن عثمان ويمنع عنه الثوار ولو بالقمع . وكانت أمامه مندوحة للتعجيل بالقدوم ، لنصرة عثمان بجيش الشام . غير ان معاوية ابى إلا أن يمارس دهاءه البطيء والهادىء . إنه لا يريد لعثمان ان يقتل ولكنه في سبيل الملك قد يفعل . وكان قد كتب إليه عثمان ان يعجل في المجيء إليه ، فتوجّه اليه في إثني عشر ألفا ، ثم قال : كونوا بمكانكم فيأوائل الشام ، حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحة أمره ، فأتى عثمان ، فسأله عن المدد ، فقال : قد قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئك بهم . قال : لا والله ، ولكنك أردت أن أُقتل فتقول : أنا وليّ الثأر . أرجع ، فجئني بالناس ! فرجع ، فلم يعد إليه حتى قُتل[١٥٤] .

كانت هناك شريحة في داخل جهاز السلطة العثمانية ، تريد ان تركب موجة التغيير ، لتغير مجراها الى قضيتها . ورموز هذا التيار ، هما « معاوية بن أبي سفيان » و « عمرو بن العاص » ، ذلك ان معاوية وبحكم النفوذ الواسع الذي اكتسبه في بلاد الشام ، حيث أصبح واسع الإمارة ، لمّا انضافت إليه إمارة فلسطين وحمص . اجل ، كان معاوية يطمع في الملك بعد عثمان ، وحريصاً على هذا الأمر . يذكر ابن الأثير في الكامل ، انه لمّا نفر عثمان وشخص معاوية والأمراء معه واستقلّ على الطريق رمز به الحادي فقال :

قد علمتْ ضوامرُ المطيّ ... وضُمّرات عوّجُ القسيّ
انّ الأميرَ بعده عليّ ... وفي الزبير خلفٌ رضيّ
وطلحة بعدهما وليُّ .

---

(١٥٣) ـ هو أن يدخل مجموعة من الرجال على امرأة يطؤونها ، فإذا حملت ، تختار واحداً منهم ، وتشير إليه ، فيلحق به الولد .

(١٥٤) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٧٥ ) .

وكان كعب على عادته في النبوءات السياسية ، يُكذّبه ويقول :

كذبت بل يلي بعده صاحب البغلة الشهباء ، يعني معاوية ، فطمع فيها من يومئذ . والحقيقة ، ان معاوية يطمع فيها منذ تولاها الخليفتان . وهو رمز الأمويين بعد أبيه ابي سفيان . وهو مخطط قديم يمد جذوره الى البعثة كما تقدّم . فالقوم لا ناقة لهم ولا جمل في قضية الإسلام الرسالية ، بقدر ما لهم مصلحة في ملك العالم الإسلامي . إنهم قد يملكون العرب لو أظهروا نعرتهم القومية ، ولكن كيف يتسنى لهم حكم الأمصار ؟ وما كان لأبناء أمية أن يحكموا عالماً بهذه السعة لولا شوكة الإسلام . فالمخطط أدقّ مما تصور القشريون .

استطاع الصحابة ان يتصلوا بأهل الأمصار ليخبروهم بما يجري من مفاسد الداخل ، واستفحل أمر عثمان ، وذاعت أخباره في البلدان . وفي مصر كان محمد بن أبي بكر وكذا محمد بن أبي حذيفة ، يقومان بتحريض الناس على عثمان ، ويذكر ابن الأثير ان عثمان بعث الى الأمصار برجال من عنده ليهدئوا الأوضاع ، فبعث الى الكوفة محمد بن مسلمة ، وإلى البصرة ، أسامة بن زيد ، وابن عمر الى الشام ، وعمّاراً الى مصر . فرجع الجميع إلا عمّار . فظنوا أنه قد قتل ، حتى وصل كتاب عبد الله بن أبي سرح يخبرهم ان عماراً قد استحاله قوم ، وانقطعوا إليه ، منهم : عبد الله بن السوداء ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنافة بن بشر . والواقع ان محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة هما اللذان أجّجا الأوضاع وانضمّ إليهما عمّار بن ياسر الذي كان من قبل احد المتمردين على خط الرأي . ثم اجتمعت كلمة المسلمين في الداخل والخارج ، واجتمع رأي الأمصار على إرسال الوفود تحت غطاء « الحج » . وكانت الوفود تتألف من ثلاث امصار :

١ ـ الوفد المصري يتألف من خمسائة الى ـ ألف ـ يتزعمهم محمد بن أبي بكر (رض) ، وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وكنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السّكوني وقتيره بن فلان السّكوني . وكان محمد بن أبي بكر قد خرج وبقي محمد بن أبي حذيفة في مصر وغلب عليها لمّا ذهب عنها عبدالله بن سعد(١٥٥) .

---

(١٥٥) ـ الكامل ( ٣ / ١٥٨ ) .

٢ ـ الوفد الكوفي ، يتألف من نفس عدد أهل مصر ، على رأسهم مالك الأشتر (رض) وفيهم زيد بن صوحان العبدي والأشتر النّخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصمّ العامري .

٣ ـ الوفد البصري ، ويتألف من نفس عدد أهل مصر عليهم حكيم بن جبله العبدي ، وذريع بن عبّاد وبشر بن شريح القيسي وابن المحترش ، ويذكر ابن الأثير ، ان أميرهم كان هو حرقوص بن زهير السعدي .

وكان خروجهم بشوال جميعا .

ورفع الوفد المصري « مذكرته » لعثمان حيث جاء فيها :

« أما بعد : فاعلم ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فالله ، الله ، ثم الله ، الله ، فانك على دنيا فاستقم معها آخرة ، ولا تنسى نصيبك من الآخرة ، فلا تسوغ لك الدنيا ، واعلم إنّا لله ولله نغضب ، وفي الله نرضى ، وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة ، أو ضلالة مجلحة مبلجة فهذه مقالتنا لك ، وقضيتنا إليك والله عذيرنا منك والسلام . . »[١٥٦] .

وكان عمرو بن العاص أراد أن يكلم القوم لمّا دعاه الى ذلك عثمان فصاح القوم في وجهه : « ارجع ياعدو الله » . « ارجع يابن النابغة ، لست عندنا بأمين ولا مأمون » .

ولما رأى عثمان أنه محاصر ، ومطلوب لا محالة ، عاهدهم على تنفيذ كتاب الله وسنة نبيه ، وان يعدل بين المسلمين ، ويغير عمّاله ويعزلهم ، وبأن يرد المنفي ولا يجمر في البعوث وان علي بن أبي طالب (ع) ضمين للمؤمنين والمسلمين . وحيث أن جماعة من المهاجرين والأنصار تبلغ ثلاثين رجلاً تحت قيادة علي (ع) راحوا الى المصريين يتوسطون ، ويطلبون من المصريين الرجوع . ويذكر ابن الأثير ، ان عثمان جاء قبل ذلك الى علي (ع) يطلب منه النصرة وبأن يردّ القوم عنه ، فقال له الإمام علي (ع) : على أي شيء أردّهم عنك ؟ قال على أن أصير الى ماشرت إليه ورأيته لي .

---

(١٥٦) ـ الطبري ( ٥ / ١١١ ـ ١١٢ ) .

فقال علي (ع) : إني قد كلمتك مرّة بعد أخرى فكلُّ ذلك نخرج ونقول ثم ترجع عنه ، وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد ، فانك اطعتهم وعصيتني . قال عثمان : فأنا أعصيهم وأطيعك . وفعلاً تم ردّ المصريين استجابة لطلب الإمام علي (ع) فرجعوا .

إن الإمامة أو الخلافة قانون يحكم مجتمع الإسلام . ومهما ضعف عثمان عن تحمل هذا العبء فانه لن يُعذر أمام القانون ، لأنه كم قد يفسد المجتمع لو أننا أعذرنا من يضعف أو يجهل القانون . وما كان عثمان سوى واجهةٍ ، ومطية للزمرة المشبوهة من بني أمية ، يركبونها ، وهو مرتاحٌ لذلك ، ويعزّ عليه ان يرضي الأمة بالعدل ، على إغضاب أقربائه على الباطل .

كان مما اتفق عليه بين عثمان والمصريين هو عزل والي مصر ، وجعل محمد بن ابي بكر مكانه . فاقرهم على ذلك ، فرجعوا . وما أن ساروا قليلاً ، اذا براكب جمل ، أرابهم أمره ، ففتشوه فاذا به يحمل صحيفة من عثمان الى واليه عبد الله بن سعد :

اذا قدمْ عليك النفر ، فاقطع أيديهم وارجلهم . . وبأن يقتل محمد بن أبي بكر . فرجع الوفد الى المدينة مجدّدا[١٥٧] .

وما أن رجع أهل مصر الى عثمان وحاصروه ، حتى تمخّض القوم مرة أخرى على عثمان ، واستنكف الجميع عن التوسط له عند الثوار لمّا رأوا ما رأوا . إلا أقرباؤه وحاشيته .

وذهب مروان الى عائشة ، فقال : ياأم المؤمنين لو قمتِ فأصلحتِ بين هذا الرجل وبين الناس ؟ قالت : قد فرغت من جهازي ، وأنا أريد الحجّ . قال : فيدفع إليك بكلّ درهم أنفقته درهمين ، قالت : لعلّك ترى أنّي في شكّ من صاحبك ؟ أما والله لوددت أنّه مقطّع بغرارة من غرائري ، وأني أطيق حمله ، فأطرحه في البحر[١٥٨] والمعروف عن عائشة انها كانت أكثر تحريضاً على عثمان وهي صاحبة كلمة : « اقتلوا نعثلا فقد كفر » ! .

---

(١٥٧) ـ الكامل واليعقوبي ( ٢ / ١٧٥ ) .

(١٥٨) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٧٦ ) .

وثقل على الإمام علي (ع) أن يستمر في التوسط إليه مع القوم . ذلك لأن الإمام علياً (ع) يدرك أن عثمان هو المسؤول عن مقتله بسبب عصيانه مشورة كبار الصحابة ، واقتصاره على الطلقاء .

كان (ع) يدرك ان الجماهير المسلمة غاضبة في الله ، وتطلب تحكيم شرعه في قضية الحكم . وأقبل علي (ع) على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فقال : أحضرت خطبة عثمان ؟ قال : نعم . قال : أفحضرت مقالة مروان للناس ؟ قال نعم . فقال علي (ع) : اي عباد الله ! ياللمسلمين ! إني انِ قعدت في بيتي قال لي : تركتني وقرابتي وحقي ، وإني إن تكلّمت فجاء ما يريد يلعب به مروان فصار سيفه له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . وقام مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له : أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلّا بتحرّفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الضعينة يقاد حيث يسار به ؟ والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه وأيم الله إني لأراه يوردك ولا يصدرك وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، أذهبت شرفك وغلبتَ على رأيك[159] ودخلت عليه زوجه نائلة بعد ذلك ، تحذّره من مروان ، وتحثه على طاعة الإمام علي (ع) وكانت قد أمرته بأن يرسل الى علي (ع) ليستصلحه لما له من قرابة وسمعة . فارسل عثمان الى علي (ع) فلم يأته وقال : قد أعلمته إنّي غير عائد . فلما سمع مروان ما قالته نائلة ، قال لها : ياابنة الغرافصة ! فقال عثمان : لا تذكرنّها بحرف فأسوّد وجهك ، فهي والله أنصح لي ! فكفَّ مروان[160] .

لم يرجع الإمام علي (ع) الى عثمان ولم يشأ أن يقف الى جانب رجل ، انما ثار عليه الناس طلباً للعدالة والإصلاح ، فأبى عليهم ذلك والتوى غليهم . وما بقي للإمام علي (ع) إلا أن يقوم بدوره الإنساني ، وهو أن يبعث بابنيه لحراسة الباب حتى لا يهجم عليه الناس ، فيقطعونه بالشكل الذي لا ينطبق مع حكم الشريعة ، وينافي حقوق الإنسان كما يدركها المعصوم . تماماً كما لم يشأ أن يمثل بقتيله ـ هو ـ عبد الرحمان بن ملجم ، وأوصى بالإحسان إليه ما لم يمت فإن مات

---

(١٥٩) ـ الكامل ( ٣ / ١٦٦ ) .

(١٦٠) ـ الكامل ( ٣ / ١٦٦ ) .

فليقم عليه الحد الشرعي بلا زيادة ولا نقصان . هذا الإنضباط الشرعي وإنسانية الإمام علي (ع) هي التي جعلته يرسل ابنيه الى باب عثمان من دون أن يدخلوا في صراع مع ثوار الغضب ، الذين اصروا على إسقاط عثمان أو تصفيته .

وحيث أن عثمان نقض الوثيقة وخان العهد مع الوفود ، ولم يرد أيضاً أن ينزل عن السلطة لصالح من هو أولى بها . قرّر الثوار أن يقتحموا عليه الدار . ولمّا كان الحسن (ع) عند الباب ، وحتى لا يصيبه أذى من الجماهير رأى الثوار بقيادة محمد بن أبي بكر ، ان يتسلقوا عليه الدار ، لينفذوا فيه الحدّ الثوري . فاقتحموا الدار من دار عمرو بن حزم . وسرعان ما تدفق عليه الناس ، واكتظت الدار بالثوار ، وانتدبوا من يقتله ، وجرت محاورات بين الثوار وعثمان قبل قتله كلهم يطلبه لترك الخلافة وهو يأبى ذلك . وأي شجاعة هذه التي يملكها عثمان في الإصرار على الخلافة . هلّا كان إصراره ايضاً في العدل بين اقربائه والمسلمين ! .

وكان محمد بن أبي بكر قد دخل على عثمان ، وأخذ بلحيته وقال : قد اخزاك الله يانعثل ! فقال : لست بنعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين . وقال له : ما ماأغنى عنك معاوية وفلان وفلان ! وقال له عثمان : ياابن أخي فما كان ابوك ليقبض عليها . قال محمد : والذي اريد بك أشدّ من قبضتي عليها ، فطعنه في جبينه بمشقص كان في يده . فضربه الغافقي بحديدة ، ثم جاء سودان ليضربه ، فأكبّت عليه زوجته تتقّي السيف بيدها . فنفح أصابعها فأطنّ أصابع يدها وولّت ، ووثب عليه كنانة بن بشر التُجيبي فقتله . وهكذا اشترك الثوار في قتله ومثّلوا به ، ومنعوا دفنه في قبور المسلمين وبقي ثلاثة أيام في مزبلة . وانطلق به جماعة من الناس خفية معهم عائشة بنت عثمان ومعها مصباح ، حتى وصلوا به حوش كوكب ، فحفروا له حفرة ، فلّما رأته إبنته صاحت ، فقال ابن الزبير : والله لئن لم تسكتي لأضربن الذي فيه عيناك ، فدفنوه ، ولم يلحدوه بلبن ، وحثوا عليه التراب حثوا[١٦١] .

لم يكن الثوار من الفئة الواحدة . فمنهم المؤمنون حقاً . ومنهم من تضرّر بالفقر ، والظلم ـ العثماني ـ ومنهم من جمع بين الإيمان والضرر الإجتماعي .

---

(١٦١) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٤٥ ) .

فكانت ثورة ! .

ويذكر ابن الأثير ان من بين القوم من ثار فأخذ ما وجد ، وتنادوا : أدركوا بيت المال ولاتسبقوا إليه ، واتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس ، وكان هؤلاء هم المتضررون اقتصادياً من سياسة عثمان المالية ، وقد وثب عليه عمرو بن الحمق وكان لا يزال به رمق ، فطعنه تسع طعنات ، قال : فأمّا ثلاث منها فإنّي طعنتهن إيّاه لله تعالى . وأمّا ستّ فلما كان في صدري عليه . وأقبل عليه عمير ابن صامي ووثب عليه وكسر ضلعاً من اضلاعه وقال : سجنتَ ابي حتى مات في السجن[١٦٢] . وكان قتله في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ( ٣٥ هـ ) في يوم الجمعة وكان عمره يومئذ ستاً وثمانين سنة ، وكتبت نائلة بنت الغرافصة الى معاوية ، تصور له المشهد الذي تم خلاله قتل عثمان ، وارسلت له قميص عثمان مضرجاً بالدم ، وممزقاً . وبالخصلة التي نتفها محمد ابن ابي بكر من لحيته ، فعقدت الشعر في زرّ القميص ، وبعثته الى معاوية مع النعمان بن بشير الأنصاري[١٦٣] . وكان الذين قاموا باقتحام داره ، وقتله :

محمد بن ابي بكر ،محمد بن أبي حذيفة ، كنانة بن بشر التجيبي ، عمرو بن الحمق الخزاعي ، عبد الرحمن ابن عديس البلويّ ، وسودان بن حمران[١٦٤] .

لقد كانت حقا ثورة من أجل تثبيت العدالة الإجتماعية من جديد ، ثورة شاركت فيها كل فصائل المعارضة في المجتمع ، بكل همومها وأهدافها ، فكل الناس قتل عثمان ، وما من صغير وكبير إلاّ ونقم عليه ، وفُرضت عليه عزلة اجتماعية ، ووقف منه الناس موقف الإعتراض والمداهنة والخوف ، وفي كل الأحوال ، كانوا يتربصون الفرصة التي سنحت لهم ليزيحوه عن الخلافة ، ليزيحوا معه طغمته الطليقة . لكن هل استطاعوا ارجاع الأمور الى نصابها ، هل قضوا فعلاً على النفوذ الأموي ؟ .

انهم لم يفعلوا سوى ان صنعوا المنعطف الآخر ، ليدخل التاريخ الإسلامي ،

---

(١٦٢) ـ الكامل ( ٣ / ١٧٨ ) .

(١٦٣) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٤٥ ) .

(١٦٤) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٧٦ ) .

الى حقبة الإضطرابات الكبرى . فنفوذ بني أمية أوسع وأعمق واقوى من أن تزيحه ثورة فقراء ، وسنين من الخلافة مضت كان فيها بنو أمية على يقظة في بناء قدراتهم . إن قتل عثمان قوّاهم بدلاً من أن يضعفهم . وما أن قتل عثمان ، حتى أكفهًر التاريخ عن وجوه ذميمة ، طالما بيتّت النفاق . مقتل عثمان كان مدخلاً لفهم حقيقة التاريخ الإسلامي ! .

# بيعة الامام علي (ع)

لقد اصطدمت المؤامرة ضد الإمام علي (ع) مع التاريخ ولم يبق أمام الناس سوى الرجوع إليه ، وكان لابد ان يكون للمؤامرة سقف تقف عنده . هذا السقف هو يقظة الجماهير المسلمة على اثر مقتل عثمان . لقد ثار هذا القطاع الواسع من الفقراء والمنبوذين والمؤمنين ، على كل أشكال القهر السياسي والإقتصادي والإجتماعي الأموي في عهد عثمان . آن لهم أن يوقفوا زحف المؤامرة . فهم يتطلعون الى من يسلك فيهم عدل محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ويسوي بينهم في التوزيع ويرشف قلوبهم عقيدة وتقوى ، ليس أمامهم إلا علي ، علي فقط .

ولكم حاول بعض الخنافيس من البدو والطلقاء ، أن يطرحوا بديلاً آخر للخلافة غير علي بن أبي طالب (ع) . لقد لجأ البعض جهلاً أو عمداً ، الى أمثال ابن عمر وغيره .

افابن عمر هو أيضاً ممن منح التقدم على رمز الأمة الإسلامية ؟ أيها المجرمون ، ما لكم كيف تحكمون ؟ ! هاهو ذا التاريخ يضع الأمة أمام الإختيار الصعب . أمام العدل كل العدل ، وأمام الجور . فكانت يومها بيعة علي بن أبي طالب (ع) ، أتته تحبو بعد أن عذرها التاريخ . وأتته رثّة ، خلقه ، عليلة ! ليتحمل الإمام علي (ع) مسؤولية سنوات من التخلف ، مضت ، وليعيد هندسة الإجتماع الإسلامي وفق المبدأ ، وبمقتضى الإسلام كانت مسؤوليته يومئذ ، مسؤولية تاريخية . كيف يعيد الى الخط المستقيم ، امبراطورية واسعة الأطراف

ـ تضم أكثر من ٤٠ دولة ـ كلها لم تر ولم تعلم من الإسلام سوى رتوش قشرية ، يقول الامام (ع): « ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوبا » . وكيف يقنع الأمصار بأن الإسلام قد جاء اليوم بعد أن اغتيل مع محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، ها هو قد جاء ليتمثل في من خوّله الشرع والتاريخ مسؤولية الجهاد في سبيل التأويل . مثلما خوَّل محمداً ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مسؤولية الجهاد من أجل التنزيل .

اتجه التاريخ بالأمة صوب علي (ع) لتركع امام الحق ، معترفة بخطيئتها ! ليتحمل الكل مسؤوليته ، فلا غموض بعد اليوم ، فأما حق بينٌ وأما باطل مبلج .

كان اليوم جمعة ، لخمس بقين من ذي الحجة يوم بويع الإمام علي (ع) من قبل المهاجرين والأنصار . وكان فيهم طلحة والزبير . ورفض الإمام علي (ع) البيعة ، وقال لهم : التمسوا غيري ! إمعاناً منه في تسجيل الموقف المسبق . فلقد أدرك ان القوم سيحاربونه لا محالة ، وبأن الكثير ممن بايعه سينقلبون ، وبأن المسؤولية جسيمة ، ورأيُ علي (ع) فيها حاسمٌ . ومتى قبلت الأمة الحسم بعد رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ؟ إنه يسجل عليهم موقفاً تاريخياً . وان الإمام علياً (ع) قد قال للزبير : ان شئت بايعني وان شئت أبايعك . فبايع الزبير . وقد علم الزبير ان علياً (ع) يروم اختباره من خلال هذا العرض ، واعترف بذلك لقد قالها الزبير وطلحة : انما فعلنا ذلك خشية على نفوسنا ، وعرفنا أنّه لا يبايعنا . وهرب الى مكّة . بعد قتل عثمان باربعة أشهر(١٦٥) .

كان طلحة يومها أول من بايع ، قال : « واين المذهب عن أبي حسن » ، ثم صعد المنبر فبايعه . فقال رجل من بني أسد :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، أوّل يد بايعت أمير المؤمنين يد شلاّء ، لا يتمُّ هذا الأمر أبداً »(١٦٦) وبايع الزبير ايضاً . كان الإمام علي (ع) يدرك ان الأمور آلت الى واقع مريض ، ولا يقوم به إلا رجل يطاع ، وهو يعلم ان الناس ليسوا على قلب واحد ، فقال (ع) « دعوني والتمسوا غيري ، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه لا تقوم

---

(١٦٥) ـ الكامل ( ٣ / ١٩١ ) .

(١٦٦) . اليعقوبي ( ٢ / ١٧٨ ) ، والكامل ( ٣ / ١٩١ ) .

له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول »[١٦٧] . وكان لابدّ أيضاً للزبير وطلحة ان يبايعا ، وقالوا : « ان دخل طلحة والزبير فقد استقامت » لذلك بعث المصريون ببصري الى الزبير ، في نفر ، وكان ذلك ، حكيم بن جبلة وكذا بعثوا الى طلحة كوفياً مع نفر ، وقالوا لكل واحد منهما « احذر لا تحابه » .

فراحوا إليهما يحدونهما بالسيف . والسبب هو ان الزبير وطلحة طمعا في الخلافة ، وقد كان هوى البصريين على الزبير وهوى الكوفيين على طلحة كما ذكر المؤرخون ، فيما كان هوى المصريين على علي (ع) ، واولئك هم مجموع الوفود التي جاءت للثورة على عثمان .

ويذكر ابن الأثير ان الأنصار بايعت إلا نفراً يسيرا منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، ومسلمة بن مخلّد ، وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن خديج ، وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة وكانوا عثمانية .

وكان سبب عدم بيعتهم ، هو الخوف من عدالة الإمام علي (ع) ، فهم الذين عاشوا كـ« الفيروس » الإجتماعي ، ينخر ثروة الأمة ، ويعيش على سبيل النهب . كان حسان بن ثابت ـ كما ذكر ابن الأثير ـ شاعراً لا يبالي ما يصنع . وأما زيد بن ثابت فولّاه عثمان الديوان وبيت المال ، فلّما حصر عثمان قال : يامعشر الأنصار كونوا أنصاراً لله ، مرّتين ، فقال له ابو ايوب : ما تنصره إلاّ لأنّه أكثر لك من العبدان ، فماذا ـ بالله ـ تنتظر من هكذا رجل . خصوصاً وان الإمام علياً (ع) قد باشر في خلع عمال عثمان المتملّقين .

وأمّا كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك له ما أخذ منها وكذلك فعل عبدالله بن سلام والمغيرة بن شعبة . فهذا الأخير ما فتىء يلعب على الحبال[١٦٨] .

تسلّم الإمام علي (ع) مقاليد الخلافة وألقى خطبته الشهيرة ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

---

(١٦٧) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٧٨ ) ، والكامل ( ٣ / ١٩١ ) .

(١٦٨) ـ الكامل ( ٣ / ٢٢٨ ) .

« إن الله انزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر ، الفرائض الفرائض ، أدّوها الى الله تعالى يؤدّكم الى الجنة ، إن الله حرّم حُرمات غير مجهولة وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلّها ، وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحق ، لا يحلّ دم امرىء مسلم إلاّ بما يجب ، بادروا أمر العامة ، وخاصّة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم وأن ما خلفكم الساعة تحدوكم ، تخفّفوا تلحقوا ، فأنّما ينتظر الناس أخراهم . اتقوا الله عبادالله في بلاده وعباده ، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله فلا تعصوه ، واذا رايتم الخير فخذوا به ، وإذا رايتم الشرّ فدعوه ، ﴿ واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الأرض ﴾[١٦٩] .

كانت تلك صرخةً روحية في مجتمع انشد الى طينة الأرض ونتانتها . كلمةً رسالية مسؤولة في قوم غدا اكثرهم متداعي العزيمة . صدمةً نفسيةً لمجتمع لانت عقيدته من فرط الغنى الفاحش بعد الفاقة المدقعة . وبعد سنوات من النهب والإرستقراطية يأتي الإمام علي (ع) ليقول : « أيها الناس ، إنما أنا رجل منكم لي مالكم ، وعلي ما عليكم ، واني حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما امرت به . . ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال ، فان الحق لا يبطله شيء . ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الإماء ، وفرق في البلدان لرددته . فان في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق .

أيها الناس . ألا لايقولن رجال منكم غداً ـ قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققه ، اذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم الى حقوقهم التي يعلمون : « حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا » . ألآ وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . ألا وايما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا . فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ، فانتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم

---

(١٦٩) ـ سورة الأنفال ( آية : ٢٦) .

بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء » .

هذا هو علي (ع) وتلك هي البيئة التي وجد فيها . بيئة الثراء والإستغلال والإمتيازات الطبقية .

أي الناس مستعدّ يومها ، لتسليم ما تراكم لديه خلال سني الغفلة والنهب وصراع الإمتيازات ؟ .

أي ايمان تركه الجشع الأموي في المجتمع ، والتفقير المقابل في صفوف الطبقات الصغرى ؟ .

واي حريّة تبقى بعد كل هذا القمع الذي اجراه الخلفاء على المجتمع ، فعلي (ع) جاء ليرفع صخوراً ثقالاً ، الى سماء الروح ، وليعطي للجميع حقه ، إنه شطب بالأحمر على ايديولوجية الجبر التي تقول : ﴿ **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** ﴾ [١٧٠] . جاء ليعلّمهم ان الفقير يعيش أعلى مستوى من الحاجة في مجتمع الاسلام . وان كثيراً من الفقراء أنما وُجدوا بسبب سوء التوزيع . . كيف وهو القائل : ( ما رأيت نعمة موفورة إلا وبجانبها حق مضيع ) .

هذه الروح السامية ، وهذه الإجتماعية الإسلامية هي منهج علي (ع) في مجتمع إقطاعي ! ، إنها النقلة البعيدة ، والطفرة العليا ، والمبادرة النقيضة ، ولذلك لم يرضوا عنه ، يقول سيد قطب : « ولقد كان من الطبيعي ألا يرضى المستنفعون عن علي ، وان يقنع بشرعة المساواة من اعتاد التفضيل ، ومن مردوا على الاستئثار ، فانحاز هؤلاء في النهاية الى المعسكر الآخر : معسكر بني أمية ، حيث يجدون فيه تحقيقاً لأطماعهم ، على حساب العدل والحق اللذين يصر عليهما علي ( رضي الله عنه ) هذا الإصرار »[١٧١] .

ولذلك دخل الإمام علي (ع) في معركة تاريخية مع فئتين ، احداهما إقطاعية ، والأخرى فقيرة انتهازية . وهو صراع بين الحق والباطل ، بين الاسلام

---

(١٧٠) ـ سورة يس ( آية : ٤٧ ) .

(١٧١) ـ العدالة الإجتماعية في الإسلام ( ص ١٦٣ ) .

والجاهلية ! .

كان هناك ثلاثة نفر من قريش لم يبايعوا بعد ، وهم مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص . فقال احدهم : ياهذا انّك قد وترتنا جميعاً ، أما أنا فقتلت أبي صبراً يوم بدر ، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر وكان أبوه من نور قريش ، وأمّا مروان فشتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمّه إليه[172] .

ثم اشترطوا عليه في البيعة ان يضع عنهم ما أصابوا ويعفو لهم عما في ايديهم ، ثم تقتل قتلة عثمان ، وردّ الإمام عند ذلك ( غاضباً ) : « امّا ما ذكرت من وتري إيّاكم فالحق وتركم ، وأما وضعي عنكم ما أصبتم ، فليس لي أن أضع حق الله تعالى ، وأمّا إعفائي عما في أيديكم فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم ، وأمّا قتلي قتلة عثمان ، فلو لزمني قتلهم اليوم لزمني قتالهم غداً ، ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيه ، فمن ضاق عليه الحق ، فالباطل عليه أضيق ، وان شئتم فالحقوا بملاحقكم » . فقال مروان : بل نبايعك ، ونقيم معك ، فترى ونرى .

كان القوم يدبرون عملية الهروب الى الشام ، ونقض البيعة . كانت كلمة الاشتر ، على مقتضى التصور الشيعي لأئمة أهل البيت (ع) ، حيث قال : أيها الناس ، هذا وصيّ الأوصياء ووارث علم الأنبياء ، العظيم البلاء ، الحسن الغناء ، الذي شهد له كتاب الله بالإيمان ، ورسوله بجنة الرضوان . من كملت فيه الفضائل ، ولم يشك في سابقته وعلمه وفضله الأواخر ، ولا الأوائل[173] .

ثم قام الإمام بعدها بعزل عمّال عثمان عن البلدان ، لقطع دابر الاستغلال . فهو لم يأتِ في سياقٍ خلفائيٍ رسميٍ ليبقي على أزلام العهد البائد . إنها ثورة وتغيير للوضع من الجذور ولهذا سيلجأ الى عزل الجميع سوى أبي موسى الأشعري لما أشار الاشتر على علي (ع) بالإبقاء عليه . واستبدلهم جميعاً برموز الثورة . فولّى قثم بن العبّاس مكة ، وعبد الله بن العباس اليمن ، وقيس بن سعد بن عبادة مصر ، وعثمان بن حنيف الأنصاري البصرة .

---

(١٧٢) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٧٨ ) .

(١٧٣) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٧٩ ) .

وتزلّف كل من طلحة والزبير وطلبا من الإمام علي (ع) إشراكهما في الأمر . فهما رجلان يلهثان وراء الدنيا . غير ان الإمام علياً (ع) لم يأتِ الى الخلافة ليعبث ، اراد ان يعطيهما نموذجاً للحق والالتزام . ليتركها صورة للأجيال حول سلوك الإمام ، ومدى اختلافها عن سلوك المغتصبين . وماذا ياترى ، سيجدون من جواب عند الإمام علي (ع) الذي اختلطت زينة الحياة عنده وتدنت حتى لم يعد يفرز بين نعمة وأخرى ويقول عن الذهب والفضة كلاهما عندي حجر ؟ ، كان جواب الإمام علي (ع) « أنتما شريكاي في القوة والإستقامة ، وعوناي على العجز والأود »[١٧٤] .

وما كان لطلحة ولا الزبير ، وقد فاضت عليهما الدنيا في زمن عثمان ، ما كان لهما أن يشركا علياً (ع) في الزهد والتقشف . وإنه ليندى الجبين لأنهما قد تمرغا في رغدهما ، وهو يكسر الكسر اليابسة بركبته ، ويقول للحسن ابنه (ع) : أمشويٌّ الكراكر عند علي بن أبي طالب ؟ . لا والله ، ولمن يتركون الذهب في مخازنهم يكسر بالفؤوس ؟ فأعلنا عند ذلك ، الرفض ، بيد انهما مشدودان الى الواقع الذي فرضته الوفود . فالتمسا من علي (ع) ان يأذن لهما في الذهاب الى الحج ، وهو يعلم أنهما لا يريدانه ، وانما يريدان اللحاق بعائشة ، لقد انفتح الإمام علي (ع) عليهما ، وتعامل معهما على اساس المسؤولية والإيمان . ولكن اين ابو الحسن من واقع الرجلين . لقد ولّى طلحة اليمن ، والزبير اليمامة والبحرين ، فلّما دفع إليهما عهديهما قالا له : وصلتك رحم ! .

وهذه هي الفلتة النفسية التي أظهرها الواقع وعلى ألسنتهما ، فالمسالة أصبحت تتحرك ضمن قوالب الارحام . لم تعد القوانين والشرائع تجري وفق موازين العدل والانضباط . انهما تعلما من الحقبة العثمانية ، ان المسؤولية صلة رحم يُشكر عليها ، فهي عطاء وليست ادارة مسؤولية ! ، ولم يكن الإمام علي (ع) ليضعف أمام نعرة انما ابتلى بها الله ضعاف العقول ، وضيقي الآفاق فأعطاهما درساً تاريخياً ، تنتصر فيه العقيدة على القرابة ، وتنتصر فيه المسؤولية على الرحم وتتكسر وشائج الدم والعرق على صخرة القانون قال (ع) :

---

(١٧٤) ـ نفس المصدر السابق .

« وإنما وصلتكما بولاية امور المسلمين ، واستردّ العهد منهما ، فعتبا من ذلك ، وقالا : آثرت علينا ! فقال لهما : لولا ما ظهر من حرصكما لقد كان لي فيكما رأي »[175] .

كان من المفروض وفق النظرية السياسية الداعية للتمسك بالممكن ، وانصاف الحلول ( والماكس ـ مين ) و . . . ، وان يسكت عنهم الإمام علي (ع) ، ان يترك للزبير اليمامة والبحرين ، ثم لطلحة اليمن ، ولمعاوية الشام . فالقوم اصحاب دنيا ، فليشغلهم بها .. لقد كان هذا هو الصواب ، هو السياسة ؟ .

غير ان الواقع يختلف ، والموضوع يتناقض مع مفهوم الممكن وانصاف الحلول ، فهذه غلطة وقع ضحيتها الكثير ، والسبب في ذلك ، انهم لم يعيشوا شخصية الإمام علي (ع) بفضائها الأوسع ، وانما اقتصروا على البعد الضيق منها . وكذلك حال العباقرة والعظماء ، ومتى استطاع الرعاع فهم العبقرية في كمالها ؟ إن الإمام علي (ع) لم يكن إماماً لزمانه ، لجيله ، لأرضه . . للمستوى الذي يهيمن على ذلك الجيل وتلك الأرض ، إن الإمام علي (ع) إمام للإنسان ، ويخاطب النضج البشري في مختلف مراحله . يخاطب من وراء جيل من الرعاع ، وزمن غابر بسيط ، أجيالاً متمدّنة ، وأزماناً معقدة . لذلك لم يفهموه ، كما يفهمه الشيعي الذي عرف علياً من خلال النص ومن خلال العقل .

هنا أتفقُ بكل قوة مع الجابري ، في ان منطق القبيلة والغنيمة والعقيدة ، كان هو المحدد الرئيسي للعقل السياسي العربي . ولكنني لا أتفق معه في كثير من القضايا التي ترتبط بتلك المحددات . فالإمام علي (ع) بقي مرفوضاً ، لأنه حكّم منطق العقيدة . ولكنه لم يراع المتطلب القبلي والغنيمي . لذلك رُفِضَ من قبل قطاع كبير من الناس كما تقدم ، اولئك الذين تربوا في ترف الحقبة العثمانية .

الا ان الشيء الذي غاب عن الكثير ممن أستحمرتهم وابهرت وعيهم ، لعبة « الشعرة » التي ارسى قواعدها معاوية بن أبي سفيان ، ليصبح بذلك الرجل القوي في المعارك السياسية ضد الإمام علي (ع) الذي بدا في عين الآخرين كأنه

---

(١٧٥) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٨٠ ) .

عديم الخبرة ، هو انهم لم يفهموا الواقع الذي جاءت فيه الخلافة لعلي (ع) وشخصية علي (ع) كذلك .

فالخلافة جاءت لعلي (ع) والأمة كلها تحت الهيمنة الأموية . ولئن كان عثمان قد قُتل ، فإن معاوية ومن حوله من الأمويين لا يزال مهيمناً على الشام . ثابت الاركان ذا نفوذ لا يُطال . وأهل الشام لا يعرفون عن علي (ع) ولا غيره شيئاً . وجاءت الخلافة لعلي (ع) والناس أشبه ما يكونون بالرجل المريض ، لا يسمعون ولا يطيعون . وضاقوا من شدّة علي (ع) وتنمّره . فراحوا الى السكون ، والتمسوا السلام ، على كل المفاسد التي لا تزال تهدّ صرح الأمة الاسلامية . إنه في قوم قال عنهم : « لقد أفسدتم علي رأيي بَالعصيان » . وهو الذي ودّ لو يبدل أصحابه يومها ويصرف العدد الكبير منهم بواحد من أصحاب معاوية[١٧٦] .

اولئك الذين كانوا يطيعون معاوية طاعة عمياء . هذا العامل الأول ، الذي اربك كفتي الصراع بين علي ومعاوية . ولهذا لم يكن دهاء معاوية بالذي يمتاز على الإمام علي (ع) . دهاءٌ يصدر عن نفس دنيئة ، خربة . . مقابل بصيرة تصدر عن ذات تنظر بعين الله . وهمزاتٌ شيطانيّةٌ لزنيم لفظته رمال الصحراء ، مقابل شفافية وليّ ، انتدبته السماء لهذه المهمة الإنسانية الكبرى . شتان ، شتان .

ولذلك يعلنها الإمام علي (ع) درساً للأجيال يقرع به منافذ الألباب : « والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس » . فالمسالة في جوهرها ليست مسالة سياسية تقتضي التواءً وتحايلاً ، للقبض على أسباب النفوذ . أنها مسألة أمة ، كتب لها أن تقوم على الحق وبالحق ليس إلا .

الإمام علي (ع) كان رجل عقيدة . يريد أن ( يؤدلج ) المجتمع بعقيدة الاسلام ، لذلك لم يهتمّ بالفتوحات التي كانت مصدراً للغنيمة ، ولا بالتقرب الى القبائل والأقرباء ، يتنصيب رموزها في الإمارات ، على هشاشتهم ، تزلّفا ، ومرونة ، وفي ذلك مكسب سياسي مصدره ـ عامل القبيلة ـ وهو يدرك نتائج هذه الاجراءات . تجاوز الإمام المكسب السياسي من أجل الأنجاز الحضاري الكبير .

---

(١٧٦) ـ لوددت لو أصرفكم ـ باصحاب معاوية ـ صرف الدينار بالدرهم .

كيف ؟ .

الإمام علي (ع) كان رجل ايديولوجيا ـ عقيدة ـ وليس سياسياً ، مخادعاً . له رسالة حضارية يؤديها ، ويمارس دوره بوعي خاص ونظرة معينة . له معاييره في « الحقيقة » وليس في « اللعبة السياسية » اي إنه تجاوز « السياسي » من أجل « الايديولوجي » من اجلل التوجه الحضاري ، خسران « دولة » بالنسبة للإمام علي (ع) شأنه كباقي العقائديين ، لا يعني شيئاً . لأن دولة سياسية غير قادرة وغير قابلة لممارسة المهمة العقيدية ، تساوي اللاشيء . لذلك أراد ان يوقف المسيرة . يوقف التاريخ التآمري معها . لتنضبط الامور . اولاً تنضبط ، لكي يسير التاريخ في الوجهة المفضوحة الفصيحة . لا في خط التضليل والتلبيس ! . الإمام علي (ع) بهذا المعنى كان استراتيجياً ولم يكن سياسياً تكتيكياً .

اننا عندما نريد العودة إلى الذات . نبحث في تجربة الإمام علي (ع) لأنها تجسد مظاهر ثقافتنا ، وحضارتنا . وعندما يريد ضعافنا الحداثيون البحث عن النفاق السياسي ، للتعامل مع الأطراف الدولية يبحثون في تجربة النفاق الاموي ، لمعاوية . يبحث الثائر ، الناهض ، الغاضب ، في تراث علي (ع) ويبحث البورجوازي ، النفعي ، التبعي ، في تراث معاوية . ان في تراث الإمام علي (ع) السياسي ، تجربة يجب التفتيش عنها في فضائه الوسيع . . . ومع كل ذلك ، فإن علياً شيء ومعاوية شيء أخر . ونحن ننعي الدهر كما نعاه الإمام نفسه لّما قال :

« أنزلني الدهر حتى قيل علي ومعاوية » ! .

أجل . لقد جاء من يفهم الحكم والسياسة على هذا الأساس . وكان المغيره بن شعبة ، هو من نصح علياً (ع) بهذا الامر . غير ان الإمام علياً (ع) أبى الا أن يمارس منهجه ، وموقفه الاستراتيجي . وطلب منه ابن عباس ، أن يهادن معاوية ويعطيه امارة الشام . فطلب الإمام من ابن عباس ، ان يطيعه ـ فقط ـ وان ليس لمعاويه إلا السيف ! .

خرج الزبير وطلحة إلى العمرة . لكن علياً (ع) أدرك أمرهما . وما همّه ذلك . لأنه يسلك مخططاً أبعد مما يتصوران . وقال لبعض أصحابه : « والله ما أرادا

العمرة ، ولكنهما أرادا الغدرة »[177] . لحقا بعائشة في مكة وحرّضاها على الخروج . وعائشة من ؟ ولماذا ؟ .

كانت عائشة من الناقمين الأُول على عثمان . ومرارا صاحت : « اقتلوا نعثلا فقد كفر » وهي أول من أطلق عليه ذلك الاسم[178] ، ولم تجب طلب مروان لها لنصرة عثمان والتوسط له مع القوم يوم الحصار ، وهي تتأهب للعمرة . وعندما وقف عثمان مرة فخطب ، دلّت عائشة قميص رسول الله (ص) ونادت :

« يامعشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنّته ، فقال عثمان : ربّ اصرف عنّي كيدهّن إن كيدهن عظيم »[179] .

وعندما سمعت بخبر مقتله ، قالت : بُعداً لنعثل وسحقاً[180] . ومن الجانب الاخر كان طلحة والزبير يتحينان الفرصة لمغادرة المدينة . فهما يهدفان إلى اكثر من إسقاط عثمان . يريدان الخلافة او على الأقل ان يفضّلهما علي (ع) على باقي المسلمين في العطايا . غير انهما لم يفلحا في استدراج علي (ع) للمساومة ، فقال طلحة ، معرباً عن حالة الفشل هذه « مالنا من هذا الأمر إلا كلحسة الكلب أنفه »[181] .

وخرج بعد ذلك كل من طلحة والزبير ، يبغيان الافلات من يد علي (ع) والتحق بهم كل من الامويين وولاة عثمان الذين عزلهم الإمام علي (ع) . لم تكن عائشة تظن ان الامر بعد عثمان سيؤول إلى علي (ع) . كانت تتصور أن جذوة الهاشميين قد انطفأت ، منذ أن أخذ منهم حقهم ، ابوها وفاروقه . ورغم ما قامت به من تحريض على عثمان . وهي ترى ان الأمر سيؤول لامحالة لابن عمّها طلحة . وعندما لم يتوفق في ذلك ـ غيرت عائشة وجهة نظرها ، وتبنت خطاً

---

(177) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٨٠ ) .

(178) ـ الكامل ( ٣ / ٢٠٦ ) ، والامامة والسياسة ( ١ / ٤٩ ) ، والطبري ( ٤ / ٤٥٩ ) ، وتذكرة الخواص ( ٦١ ـ ٦٤ ) .

(179) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٧٥ ) .

(180) ـ شرح النهج ( ٦ / ٢١٥ ) .

(181) ـ الطبري ( ٣ / ٤٦٦ ) .

نقيضاً ، وهو المطالبة بدم عثمان . فعندما بلغها خبر المقتل ، وكانت بمكة ، قالت : أبعده الله ، ذلك بما قدّمت يداه وما الله بظلّام للعبيد ، وكانت تقول : أبعده الله ، قتله ذنبه ، وأقاده الله بعمله ، يامعشر قريش لايسومنّكم قتل عثمان كما سام أحمر ثمود قومه ، إنّ أحقّ الناس بهذا الأمر ذو الاصبع ـ تقصد طلحة ـ ثم أقبلت مسرعة إلى المدينة وهي لاتشك في أنّ طلحة هو صاحب الأمر ، وكانت تقول : بُعداً لنعثل وسحقاً ، إيه ذا الإصبع ، ايه أبا شبل ، ايه ابن عمّ ، لله ابوك أما إنهم وجدوا طلحة لها كفوًاً ، لكأني انظر إلى إصبعه وهو يبايع ، حثوا الابل ودعدعوها . ولما انتهت إلى « سرف » قرب مكة في الطريق إلى المدينة ، لقيها عبيد بن ام كلاب[182] ، فأخبرها بمقتل عثمان وبإجماع الناس على بيعة علي (ع) ، فقالت بعد ذلك ، وهي تولول : ليت هذه انطبقت على هذه ان تمّ الامر لصاحبك ، ويحك انظر ماتقول ؟ ! .

ثم قال لها : ما شأنك يا أمّ المؤمنين والله لاأعرف بين لابتيها أحداً اولى بها منه ولاأحق ولاأرى له نظيراً في جميع حالاته فلماذا تكرهين ولايته ؟ .

فراحت تقول : ردّوني . ردّوني . فانصرفت الى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبنّ بدمه ! فقال لها ابن ام كلاب : فوالله إن أوّل من أَمال حرفه لأنت ، فلقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلاً فقد كفر ، قالت : انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول ، فقال لها ابن امّ كلاب :

فمنك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر
وانت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا : انّه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرءٍ يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أثوابها وما من وفي مثل من قدر غدر

---

(١٨٢) ـ الطبري ( ٣ / ٤٦٨ ) والطبقات ( ٥ / ٨٨ ) ، والكامل ( ٣ / ٢٠٦ ) .

ويذكر الطبري ( ٤ / ٤٥٩ ) انها راحت الى مكة ونزلت على باب المسجد ، فقصدت الحجر فتسترت واجتمع الناس اليها ، فقالت : « ياأيها الناس إنّ عثمان قتل مظلوماً والله لأطلبنّ بدمه » .

واكد صاحب الفتوح ( ٢ / ٢٤٨ ) انها كانت تقول :

« يامعشر قريش إنّ عثمان قد قتله عليّ بن أبي طالب ، والله لأنملة ـ أو قالت ـ لليلة (ليوم) من عثمان خير من عليّ الدهر كلّه » .

لحق طلحة والزبير ، بعد أنْ خسرا امتيازاتهما مع علي بن أبي طالب (ع) ، فانتهيا الى مكة حيث عائشة تقوم بالشغب . فكانت فرصة لهما ، ليجتمعا على مخطط يواجهون به علياً (ع) . والغريب ، انهما لم يكونا يفعلان هذا مع ابي بكر وعمر . إنهما يعلمان ان علياً (ع) رجل له اعداء في كل مكان ، وان بلاءه في الإسلام لم يترك له حليفا . وهو القائل : « ما ترك لي الحق من صديق » . استغلا الفرصة للتأليب على أمير المؤمنين (ع) ، وزرع الفتنة في الأمة . وكان الى جانب ذلك من العمال المعزولين من ليس له مصلحة في خلافة علي (ع) مثل ابن عامر ويعلى بن أمية وما أشبه ، وكانا لا يزالان يملكان الثروة الفاحشة ، فاستثمرا قسطاً كبيراً منها في المعركة ضد علي (ع) . ويذكر الطبري ، ان يعلى بن أمية ـ وكان علي (ع) قد عزله عن اليمن ـ ساهم بأربعمائة الف ، أعطاها الزبير ، وحمل عائشة على جمل ( عسكر ) ، اشتراه بثمانين ديناراً . كما ساهم ابن عامر بمال وفير واربعمائة بعير .

واجتمعوا في بيت عائشة ، يخططون للخروج . فكانت النتيجة ان يتجهوا باديء ذي بدء الى الكوفة حيث للزبير شيعة واتباع ، والى البصرة حيث يوجد شيعة لطلحة . وساروا الى المدينة بجيش يتألف من أهل المدينة والكوفة ، يتسع لثلاثة آلاف رجل .

ولمّا قدموا على البصرة منعهم عامل الإمام علي (ع) عليها ـ عثمان بن حنيف ـ فغدروا به ووثبوا عليه ، وهمّوا بقتله لولا ان خافوا غضب الأنصار ، فنتفوا شعر راسه ولحيته وحاجبيه وضربوه وحبسوه[١٨٣] . وبقي كذلك رهينة بين ايديهم ،

---

(١٨٣) ـ الكامل ( ٣ / ٣١٦ ) .

ينتظرون قدوم علي (ع) .

ولّما علم حكيم بن جبلة بما صنعوا بعثمان بن حنيف جاءهم في جماعة من عبد القيس وسار نحو دار الرزق . وقال : لست أخاف الله إن لم انصره . وحدث بينه و بين القوم قتال شديد وقتل هو وابنه شر قتلة ، فهموا بقتل عثمان بن حنيف : فقال لهم : أما إن سهلا بالمدينة فان قتلتموني انتصر ، فخلّوا سبيله ، فقصد عليّاً[١٨٤] . وكان علي (ع) في تلك الأثناء قد تجهزّ الى الشام . فلّما سمع الخبر ، دعا القوم الى الجهاد . فتثاقل البعض وتحمس جماعة من الأنصار ومن بينهم ابو قتادة الأنصاري ، حيث قال لعلي (ع) : ياأمير المؤمنين ان رسول الله قلّدني هذا السيف وقد أغمدته زماناً وقد حان تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لا يألون الأمة غشّاً ، وقد أحببت أن تقدّمني فقدمني . وقالت ام سلمة ـ زوجة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ـ : ياأمير المؤمنين لولا أن أعصي الله وانك لا تقبله مني لخرجت معك ، وهذا ابن عمّي ، وهو والله أعزّ علي من نفسي ، يخرج معك ويشهد مشاهدك . فخرج معه وهو لم يزل معه[١٨٥] .

كان ضمن معسكر الإمام علي (ع) إثنان من أقرب الناس من عائشة ، وهما « أم سلمة زوج النبي » التي ألتزمت شرع الله ، وناصرت علياً (ع) وأخو عائشة محمد بن أبي بكر الذي قاتل معسكر أخته ولم تأخذه في نصرة علي (ع) قرابته لأخته ، وجاء في الخبر ايضاً ، أن حفصة بنت عمر قد تهيأت للحاق بهم ـ أي بعائشة ـ لولا ان نهاها أخوها في الطريق ـ عبدالله بن عمر ـ . فخرج الإمام علي (ع) في جيشه حتى انتهى الى الربذة ، وكان الإمام علي (ع) يريد الإصلاح ، ويتجنب القتال ، حتى ارغموه عليه . وعندما سمع بخبر القوم بعث الى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وكتب اليهم : إنّي اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله اعواناً وانصاراً وانهضوا إلينا ، فالاصلاح نريد لتعود هذه الأمة إخوانا .

وعند وصوله الى ذي قار أتاه عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعرة فقال :

---

(١٨٤) ـ نفس المصدر السابق .

(١٨٥) ـ نفس المصدر السابق .

يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وقد جئتك أمرد ، فقال : أصبت اجراً وخيرا .

ورجع كل من محمد بن أبي بكر وابن جعفر بعد أن لم يوفّقا في اقناع القوم فبعث لهم الإمام علي (ع) اشخاصاً كثيرين ، كالأشتر وأبي موسى ، ثم الحسن وعمار . وبعد ما وقع من مشادّات كلامية . كان لابد للمعركة أن تشتعل .

وكان الإمام علي (ع) قد ذكّر الزبير بالله ، فحاول الرجوع لولا أن اعترضه ابنه . وخرج طلحة والزبير وخرج إليهما علي حتى اختلفت اعناق دوابهم ، فقال علي :

لعمري قد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورِجالاً ان كنتما أعددتما عند الله عذرا فاتقيا الله ولا تكونا « كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرّم دمكما ، فهل من حدث احلّ لكما دمي ؟ .

قال طلحة : ألّبت على عثمان . قال عليّ : « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » .

يا طلحة ، تطلب بدم عثمان فلعن الله قتلة عثمان ! يا طلحة ، أجئت بعرس رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت ! أما بايعتني ؟ قال : بايعتك والسيف على عنقي ، فقال عليّ للزبير : يا زبير ما أخرجك ؟ قال : أنت ، ولا أراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولى به منّا(١٨٦) ثم قال له : تذكر يوم مررتَ مع رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في بني غنم فنظر اليّ فضحك وضحكتَ إليه فقلتَ له لا يدع ابن أبي طالب زهوه ، فقال لك رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ليس به زهو ، لتقاتلنه وانت له ظالم . قال : اللهم نعم ، ولو ذكرتُ ما سرت مسيري هذا ، والله لا أقاتلك ابدا ، وكان ابنه عبد الله قد اعترضه وقال له : لكنك خشيت رايات ابن ابي طالب وعلمتَ انّها تحملها فتية انجاد وان تحتها الموت الأحمر فجبنت . قال : اني حلفت ان لا أقاتله ، قال : كفّر عن يمينك وقاتله . فأعتق غلامه مكحولاً وقيل سرجس ، وذكروا ان الزبير عاد عن القتال لما سمع ان عمّار بن ياسر في جيش علي (ع) فخاف ان يقتل عمار . وكانا قد تشابكا ولم يقتتلا ، فاعتزل الزبير القتال الى عسكر الأحنف بن قيس ، فلحقه عمرو بن جرموز وقتله .

---

(١٨٦) ـ نفس المصدر السابق .

أما طلحة فقد قتله واحد من الأمويين الذين جاؤوا في جيش عائشة ، وهو مروان بن الحكم .

كان الزبير رجلاً مفتونا ، سرعان ما ولى ، لولا ان إبنه عبد الله قد ورد عليه ، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين : « مازال الزبير منا حتى ورد ابنه عبدالله » ، هذا الأخير كان فتّاناً . لقد غرّت الدنيا الزبير وانتصرت عليه ، فركب الفتنة وهو لمّا يفقد كل إيمانه . وذلك ما دفع الإمام الى البكاء عليه حسرة . أما عائشة ، فإنها لم تذكر شيئاً من الذكر الحكيم ، لترجع عن هذه الغوغائية . ولم يرجعها إلاّ « الهزيمة » يوم انتصر جيش علي (ع) وقتل جملها ، وسقطت من الهودج .

تصدى محمد بن أبي بكر أخو عائشة ، هو وعمّار فاحتملا الهودج فنحياه . وأدخل محمد يده فيه ، فقالت : من هذا ؟ فقال : أخوك البّر ، قالت : عُقّق ! قال : ياأخية هل أصابك شيء ؟ قالت : ما أنت وذاك ؟ قال : فمن اذاً الضُّلّال ؟ قالت : بل الهداة . وقال لها عمّار :

كيف رأيت ضرب بنيك اليوم ياأمّاه ؟ قالت : لستُ لك بأم . فأبرزوا هودجها فوضعوها ليس قربها أحد[١٨٧] . ثم كان ان اختار الإمام علي (ع) أربعين امرأة من نساء البصرة ليخرجن معها ، بزي الرجال[١٨٨] .

مات طلحة ابن عمّها ، وأخوها محمد هو من خلّص شيعة علي (ع) ، وانصارها الآخرون كلهم قد مات ، وما تبقى كان من العثمانية ، وهم الى معاوية أميل . فبقيت عائشة معزولة ، وودّت لو تتاح لها الفرصة للخروج عليه . وعندما قتل امتلأت أساريرها بابتسامة ، تخفي سنوات من الحقد والضغينة[١٨٩] .

وعلى كل حال ، فإن معركة الجمل لم تكن سوى حدثٍ في الطريق ، ولا يزال الدهر يتحف أبا الحسن بصنوف الشدائد والنوائب .

---

(١٨٧) ـ نفس المصدر السابق .

(١٨٨) ـ ان تفاصيل معركة الجمل يضيق بها المقام ، وهي من التفاصيل الفاضحات .

(١٨٩) ـ لنا مع عائشة ـ لاحقا ـ وقفة !

# صفين : مأزق المآزق !

كانت حرب الجمل ، حرباً تلقائية ، تخطط لها عقول ارتجالية ، وتقودهم امرأة ضعيفة العقل . ولذلك سرعان ما افترق جيش عائشة الى قسمين بعد خطبتها ، فالبرنامج البديل كانت تكسوه ضبابية . وكثيراً ما وقع التصارع بين القوم ، حول من يخلف هل الزبير أم طلحة ؟ .

أما معاوية في الشام ، فانه أدهى من هؤلاء جميعاً ، وجمع الى دهائه ، دهاء عمرو بن العاص ، ليهندسا أخطر الخطط لتدمير الإسلام ، كان الأمويون منذ البداية يدركون أهدافهم . ومنذ أن قُرعت عليهم طبول الفتح ، كانوا يعرفون أنه لابّد من مخطط بعيد المدى ، يواجهون به نفوذ محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

كان موقف الإمام علي (ع) من معاوية واضحاً . هو ان يعزله مهما كانت مضاعفات هذا الإجراء . وحاول بعض « المتسيسة » ان يتوسطوا في الأمر ، ويقنعوا علياً (ع) بأن يعدل عن رأيه هذا ، وليزداد مرونة في سياسته . فابى علي (ع) فلسفتهم السياسية ، وشدّ بالخمسة على قبضة الحسام . وأعلن الحرب على العصابة الأموية .

ولم يكن معاوية ، عاملاً بسيطاً في الشام ، فهو قلبها وروحها . بحكم بقائه الطويل في امارتها .

فهو صاحب قرار مسموع ، وجيش عرمرم ، وعشيرة اكتسبت شوكة ومالاً في

عصر الخلفاء .

انحاز الى معسكر معاوية ، كل من أراد الأموال والضياع . وبقي مع علي (ع) عصبة ما زالت على دين محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وملّته . واعتزل الحرب ، قوم ، تضببت الرؤية في أعينهم ، واستعصى عليهم اتخاذ المواقف الحاسمة ، وفضّلوا الراحة ، ومثّل هذا الواقع أحدهم قائلاً : الأكل مع معاوية أدسم ، والصلاة مع علي أتم ، والوقوف على التل أسلم .

هذه الفئة كانت متذبذبة ، خاذلة للحق ! ولعل معاوية كان أوعى دينا من هؤلاء . اذ لّما جاء الى سعد بن أبي وقاص ، فقال له : ما منعك أن تقاتل معنا . حاول أن يلتوي عليه ، مبرراً ذلك بأنه يأبى الدخول في قتال بين المؤمنين ، فردّ عليه معاوية بأن ليس إلا فئة مؤمنة وأخرى جائرة ، وبأن الواجب الإسلامي يقتضي الوقوف مع احداهما(١٩٠) .

هذه العدمية ، كانت مرادفة للنفاق والخذلان ، في مجتمع عقائدي متمذهب بالإسلام .

باشر معاوية ، بإرسال الكتب الى عمال علي (ع) في الأمصار ، يروم استمالتهم . فكتب الى قيس بن سعد والي علي (ع) على مصر كتاباً يقول فيه :

سلام عليك ، أما بعد فإنكم نقمتم على عثمان ضربة بسوط أو شتيمة رجل أو تسيير آخر واستعمال فتى ، وقد علمتم ان دمه لا يحل لكم ، فقد ركبتم عظيماً وجئتم امراً إدّا ، فتب الى الله ياقيس ، فانك من المجلبين على عثمان ، فأمّا صاحبك فإنّا استيقنّا أنّه الذي أغرى الناس وحملهم حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك ، فإن استطعت ياقيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين اذا ظهرت ما بقيت ولمن احببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان ، وسلني ما شئت فأني اعطيك واكتب إلي برأيك(١٩١) .

---

(١٩٠) ـ انظر الخصائص للنسائي ، وقول عمر ابن الخطاب ،« لقد اعطي علي ابن ابي طالب ثلاث خصال لان تكون لي واحدة خير لي من حمر النعم ، زوجته فاطمة بن رسول الله وسكناه المسجد يحل له ما يحل فيه ، والراية يوم الخيبر» مستدرك الحاكم ( ٣ / ١٢٥ ) . والصواعق المحرقة ( ص ١٢٧ ) .

(١٩١) ـ الكامل ( ٣ / ٢٧ ) .

حاول معاوية التقرب من قيس ، واستدراجه الى صفه . غير ان قيس اعتصم ، ورفض اللعبة ، وفوّت الفرصة عليه . وكان قيس قد ردَّ عليه في كتاب ، لم يفصح فيه عن نيته ، في عملية تبادل للخطاب جرى بينهما حسب ما فصل فيه ابن الأثير وأمثاله . وكان معاوية ـ يريد موقفاً صريحاً من قيس ـ فهو من هو في الدهاء حتى يخضع للمخادع ، وهو من هو في النفوذ حتى يستسلم للخدعة ، وقد قال له : وليس مثلي يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وبيده أعنّة الخيل(١٩٢) . غير ان قيساً لم يجد مندوحة في الرّد عليه ، فأعرب عن مواقفه ، وأبى على معاوية مكيدته .

ومعاوية لم يكن رجل دين ، حتى يقاتل بلا خدعة . فهو من أخس الطلقاء ، ودينه الدهاء ، كانت له حيل سياسية ، فلذلك لجأ الى زرع البلبلة في صفوف الإمام علي (ع) وراح يصطنع أدواراً مسرحية لتضليل الرأي العام ، سواء في الشام أم في المدينة . ومن ذلك أنه على الرغم مما ظهر له من قيس ، كان حريصاً على كتمان ذلك ، وأدعى انه يتواصل معه في الظل ، وان قيساً ممن تاب ، وانكر قتل عثمان ، وأحياناً كان يفتعل كتاباً وهمياً ، يدعي أنه إليه من قيس ، يذكر فيه فيأه إليه . أو يظهر رسولاً مفتعلاً ، يزعم انه من قيس . للرفع من معنويات أهل الشام .

وكان لأمير المؤمنين (ع) كشأن كل قائد مسؤول ، جواسيسه وعيونه في البلدان . ونقلوا له الخبر عما يجري هنا وهناك . فسمع أصحاب علي (ع) الخبر ، فاقترحوا على الإمام (ع) ان يعزله ، ويولي مكانه محمد بن أبي بكر ، وكان هذا الأخير من شيعة علي (ع) ورجالاته الإستراتيجيين . فعزل قيساً وثبت مكانه محمد بن أبي بكر(١٩٣) .

كانت خطّة علي (ع) ان لا يهادن بني أمية وجنودهم . وهو يحتاج الى من يشاركه في تلك المواقف . يريد عمّالاً على قلبه ، في التنمر والشدّة . لقد ادرك من أمر قيس ما أدرك ، وعرف أنه كان يداري مكاره عظاماًومكايد عظام . غير أن

---

(١٩٢) ـ نفس المصدر السابق .

(١٩٣) ـ تجارب الأمم .

علياً (ع) لم يكن في حاجة الى مداراة ، والظرف ظرف مواجهة وتحدٍ ، وهو يحتاج الى من يجند جماهير الأمصار ، ويهيئم للمواجهة ، لا من يسلس للمكايد ، ويداري على الحق . لذلك اضطر علي (ع) ان يعزله ويضع مكانه رجلاً على نهجه في الكفاح .

ولم يقف معاوية عند هذا الحد ، بل استمر في الكتابة الى اهل الأمصار الأخرى ، وحتى الى المدينة ومكة نفسها .

كان يريد معاوية أن ينبه المغفلين ويشكك البسطاء ويحرّضهم على الميل إليه في مطلبه للإنتقام من قتلة عثمان . غير أن أهلها ردّوا عليه على لسان واحدهم[١٩٤] :

« أما بعد ، فانك أخطأت خطأً عظيماً ، وأخذت مواضع النصرة ، وتناولتها من مكان بعيد ، وما أنت والخلافة يامعاوية ، وأنت طليق ، وابوك من الأحزاب ، فكفّ عنا ، فليس لك قبلنا وليّ ولا نصير » .

وكاتب معاوية علياً (ع) وتبادلا الخطاب ، غير ان معاوية كان أكثر تشبثا ، برأي مستجيل .

احتاج معاوية الى عقل يضاربه في الدهاء . فكتب الى عمرو بن العاص ، يستميله إليه ، ويطلب منه المشاركة في القتال ضد علي (ع) .

ولم يكن عمرو بن العاص يعاني أزمة في الدهاء ، حتى تتمكن منه مكيدة معاوية . فهذا الذي لا ناقة له ولا جمل إلا في الدنيا ، مالها وبنينها ، لم يكن ليستجيب مجاناً لطلب معاوية . ولم يكن عمرو بن العاص يعاني جهلاً في معرفة مجريات الأمور ، وما يريده الدين ومالا يريده ، حتى ينقاد ساذجاً الى معاوية ، يقاتل الى جنبه يتوخى نصرة حق مزيف .

لقد كان عمرو بن العاص أحد دهاتها الكبار . كما كان على بينة من المتطلب الديني ، وحيث أن الدنيا هي من يتصدر قائمة الأولويات في اهتمام عمرو ، وحيث أنه لم يكن له ايمان يمنعه من الوقوف في وجه الحق والشرع ، فانه حوّل

---

(١٩٤) ـ ذكر ابن الأثير أنه هو : المسور بن مخرمة ، في حين ذكر ابن أبي الحديد في الشرح أنه هو عبدالله بن عمر .

المسالة منذ البداية الى صفقة تجارية .

ومعاوية ، يدرك بحكم الدهاء والمكيدة أن عَمْراً من تلك الطينة . ويدرك أنه ماهرب بنفسه عن عثمان وخذله إياه ، إلا اعتصاماً بمصلحة الذات ورغباتها . وما أشدّ معرفة الداهية بالداهية .

وكان وردان غلاماً لعمرو ولا يقل دهاء عنه قال له يوم عزم على اللحاق بمعاوية : اما وانك ان شئت نبأتك بما في نفسك . فقال عمرو : هات ياوردان فقال :

اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت مع عليّ الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية دنيا بغير آخرة ، فأنت واقف بينهما . فقال عمرو : ما أخطأت ما في نفسي(١٩٥) .

هناك كثير مما يمكن ان يستفيده عمرو من معاوية ، فهو أهل دنيا ، والتفاوض مع أهل الدنيا ، سهل ، بل وهو أمر مؤكد بالنسبة لرجل مثل عمرو لا يأبه برجالاتها . بخلاف ما يمكن أن يحصل لو أن الأمر في يد رجل مثل علي (ع) ، لا يرى بابا أمام أهل الأهواء إلاّ غلقه ولا بابا ينزوون خلفه إلاّ فتحه .

وهناك كذلك الكثير مما يمكن ان يستفيده معاوية من عمرو . فالرجل داهية اذا انضم إليه نفعه ، وإذا صار ضده ضرّه ، وهو ذو سابقية في محاربة الإسلام ، وما حك دبرة إلاّ أدماها ، وهو رجل لا نسب له يطمعه في الرفعة ، ولا دين يمنعه من المكيدة . ويذكر صاحب العقد الفريد(١٩٦) : عن سفيان بن عينة : أخبرني ابو موسى الأشعري قال : أخبرني الحسن ، قال علم معاوية والله أنه ان لم يبايعه عمرو لم يتم له أمر ، فقال لعمرو : أتبعني ، قال : ولماذا ؟ للآخرة ؟ فوالله ما معك آخرة ، أم للدنيا ؟ فوالله لاكان حتى أكون شريكك فيها ، قال : أنت شريكي فيها قال :

---

(١٩٥) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ٩٦ ) .

(١٩٦) ـ ارايت كيف تمت اقصاء الخلافة عن آل البيت باغراء دهاة العرب مثل ابن العاص وترهيب الصحابة وقتلهم .

فاكتب لي مصر وكورها فكتب له مصر وكورها .

وكان عمرو يقول :

معاوية لا أعطيك ديني ولم أنل .

وأنشد قائلاً :

وما الدين والدنيا سواء وانني لآخذ ما تعطي وراسي مقنع
فإن تعطني مصراً فاربح صفقة أخذت بها شيخاً يضرّ وينفع

كانت الفئة النفعية في هذا المجتمع ، قد ركبت متن الصراع ، وتاجرت فيه ، فكانوا تجار حرب ، ولكنها حرب عادلة ، بين حق يقف على الإيمان ، وباطل له سند في هوى الطلقاء .

وأعمت الدنيا قلوبهم ، فهم في غمرتها مستنكفون عن الإستجابة لداعي الحق . وافتقدوا كل مبرراتهم ، وعجبا اذ يحاربون الإمام ، وهم يعرفون أنه على حق ، وان معاوية رجل دنيا وطمع .

لكنهم كانوا يمسكون بورقة « الجبر » . فهم مسيرون لا مخيّرون . مسيّرون في كل شيء حتى في طلب الإمارة . قال أريب يوماً لعمرو ـ وهو عمه من بني سهم ـ : ألا تخبرني ياعمرو ، بأي رأي تعيش في قريش ! أعطيت دينك وتمنّيت دنيا غيرك ! أترى أهل مصر ـ وهم قتلة عثمان ـ يدفعونها الى معاوية ، وعلي حيّ ! وأتراها إن صارت لمعاوية لا يأخذها بالحرف الذي قدّمه في الكتاب ؟ فقال عمرو : ياابن أخي ، إن الأمر لله دون عليّ ومعاوية ، فقال الفتى :

الا ياهند أخت أبي زياد رُمي عَمْرٌو بداهية البلاد
رمي عَمْرٌ بأعور عبسميٍّ بعيد القعر مخشيٍّ الكياد
له خُدع يحار العقل منها مزخرفة صوائد للفؤاد
فوشط في الكتاب عليه حرفاً يناديه بخدعته المنادي[197]

لم يكن عمرو وهو يتذرع بالجبر ، يؤمن بان هذا الواقع منسوب ، لله فعلا ،

---

(١٩٧) ـ شرح النهج ( ٣ / ٦٨ ) .

انما هو الدهاء ، هو الأختباء وراء استار مهلهلة من الفكر الهزيل . حيث له من يصدُقه من رعاع العرب . وما كان لعمرو إلا ان يرحل من فلسطين الى معاوية ، ليرتب معه الصفقة .

كان علي (ع) محيطاً بملابسة الأمور . وعزّ عليه السخاء بأمة محمد لصالح الطلقاء . وفضل أن يموت وتموت معه الأمة الصالحة ، ليبقى معاوية على أمة غير هذه ، كيف يقبل أبو الحسن (ع) وهو الذي ما وقف سيفه في المعارك . وبه قام الإسلام . ولقد حرص اولو النظر المحدود ، واصحاب الحلول الوسط على اقناع علي (ع) بإثبات معاوية ـ في ولاية الشام ـ . غير أنه أبى . فالقضية ليست سياسية حتى تخضع لهذا المفهوم ، وما كان أبو الحسن (ع) غافلا عن هكذا مفاهيم صغيرة ، وهو من حلّ كل معضلة طرحت في حضرته . انها قضية اسلام أو جاهلية جديدة ، قضية موت أو حياة بالنسبة له ، ولم يكن يهتم ، ان كان ابو بكر وعمر وعثمان قد اثبتوا معاوية على الشام . ان علياً (ع) أزيح عن الخلافة بعد عمر ، لأنه رفض السير على سيرة الشيخين ، وما كان يحتاج الى سنة الشيخين فيكفيه سنة رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لقد أبى إلا أن يُحكم شرع الله فيهم ، مجرداً عن شوائب اللعبة والتوازنات . . . ولذلك قال (ع) : والله لا أعطيه ـ معاوية ـ إلاّ السيف ، وقال :

وما ميتة إن منُّها غير عاجز بعارٍ اذا ما غالت النفس غولها(١٩٨)

وكيف يخاف علي (ع) شوكتهم ؟ وكيف يرده عُجرهم وبُجرهم ؟ فما أحصى التاريخ عن علي (ع) هذه الهناة .

بعث (ع) الى معاوية جريراً ، يطلب منه البيعة ، وكان الأشتر قد اعترض على ذلك ، ورأى ان هوى الرجل من هواهم ، غير ان علياً (ع) لم يكن يحتاج الى من يقنعهم اكثر ، فهو يدرك ببصيرة الاسلام ، ان هؤلاء يدركون الحق والضلال معاً ، غير انهم اختاروا الضلال . ولابد فقط من اثبات الحجة ، للخروج اليهم ، وقطع دابرهم الى الأبد .

---

(١٩٨) ـ الكامل ( ٣ / ١٩٦ ) .

كان علي (ع) يملك ورقة « الحق » بينما غطّى معاوية وعمرو باطلهما بدهائهما ، فعزفا على وترين :

١ ـ الرشاوي المالية .

٢ ـ التضليل الاعلامي .

كانت الرشوة للذين تاجروا في هذه الحرب متجاوزين إيمانهم بالحق الذي مع علي (ع) حيث قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ( علي مع الحق والحق مع علي يدور معه أينما دار ) هؤلاء باعوا دينهم لمعاوية فلابد لهم من مقابل . ومثال على ذلك عمرو بن العاص ، وابو هريرة ومن لف لفهم من الخونة المندسين . والتضليل لأولئك القشريين ، الذين اكتفوا بمعرفة سطوح الدين ، ولبسوا الإسلام ، لبس الفرو مقلوباً ، فتضليلهم يمر بطريقين :

١ ـ تحريف الحقائق وتزييف الواقع في أذهانهم ، والضرب على وتر عواطفهم وأحاسيسهم البسيطة . وذلك كأن يرفع معاوية وعمرو بين الفينة والأخرى قميص عثمان ، ويستثيروا الروح العشائرية والأنتقامية من جهة ، ثم تصوير علي (ع) وجنوده كالمجرمين مثل ما فعل عمرو حين خطب في جمهور الشاميين :

« إن أهل العراق قد فرّقوا جمعهم ، وأوهنوا شوكتهم وقطعوا حدّهم . ثم إن أهل البصرة مخالفون لعليّ وقد قتلهم ، ووترهم ، وتفانت صناديدُهم يوم الجملِ ، وانما سار عليّ في شرذمة قليلة ، منهم من قتل خليفتكم ، فالله في حقكم ان تضّيعوه ، وفي دمكم ان تبطلوه »[199] .

ومثل ذلك ان اعطى معاوية من بيت المال اربع مئة الف درهم على ان يخطب سمرة بن جندب في أهل الشام بأن قوله تعالى **﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الدّ الخصام ★ واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾**[200] . انها نزلت في علي بن أبي طالب (ع) ، بعد ذلك قال سمرة : لعن الله معاوية والله لو أطعت

---

(١٩٩) ـ تجارب الأمم ـ ٣٣٥ .

(٢٠٠) ـ سورة البقرة ( آية : ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ) .

الله كما اطعت معاوية ما عذبني أبداً[٢٠١] .

٢ ـ تهيئة النفوس للقبول بالأمر الواقع ، من خلال نشر الفكر الجبري ، الذي يؤمن بالوقائع على اساس انها قدر مقدورٌ . وهو ما سبق ان قاله عمرو بن العاص جبراً قد انحاز الى معاوية ، وما أكثر النفوس التي آمنت بفكرة الجبر ، وخاضت حرباً باطلة بوعي جبري . « فقد روي عن الأسود ، قلت لعائشة : ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب محمد الخلافة ؟ قالت : وما يعجب ! هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر ! قد ملك فرعون مصر »[٢٠٢] .

وكذلك سار معاوية في انصاره يعطي عمراً مصر ، ويضخّ الذهب والضياع في جيوب المغيرة ، وسمرة ، وابي هريرة وما شابه .

هيّأ معاوية نفسه ومن معه للطوارىء ، فهذا علي (ع) لاينثني ولم ينثنِ يوماً في طلب الحق ، وهذا معاوية لا يرى البيعة لعلي (ع) في صالح بني أمية ، لأن في علي (ع) ( لوثة ) محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) هذه التي طالما تطيَّر منها ابن العاص ، وبنو أمية واشباههم ، كان حتما وضروريا ان تشتعل المعركة ، وقد اخبر الإمام علي (ع) ان معاوية لا يريد البيعة ، ويستنفر الناس للخروج ، فسار إليه الإمام علي (ع) في جيش من المسلمين فيهم سبعون رجلاً من البدريين ، وسبع مئة رجل بايعوا تحت شجرة الرضوان ، واربع مئة من بين سائر المهاجرين والأنصار[٢٠٣] في حين لم يشمل جيش معاوية سوى رعاع العرب واعربها والطلقاء[٢٠٤] .

وكان بود اتباع معاوية ان تردّهم الحرب ، وهم يرون الصحابة قد اجتمعوا جميعاً في جيش علي (ع) لكن لا حياة لمن تنادي ، والقوم كلهم من رعاع الشام ، لا يعرفون علياً ولا عمّارا ، بل لا يعرفون الناقة من الجمل .

بينما نخبة الجيش الأموي المدركون للحقيقة ، قد تمكنت الدنيا من انفسهم ،

---

(٢٠١) ـ ماذا في التاريخ ( ٤ / ٤٥٦ ) .

(٢٠٢) ـ سير أعلام النبلاء وشيخ المضيرة ، أبو هريرة ( ص ١٨٣ ) .

(٢٠٣) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٨٨ ) .

(٢٠٤) ـ النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد هما الرجلان الوحيدان من الأنصار الذان كانا مع معاوية .

فتجرّدوا لها .

وانتهت المناوشات ، لكي يقف الفريقان بصفين ، حيث يجهز جيش علي (ع) على أهل الشام ، اجهازاً فرّق فيه شملهم ، واذهب به ريحهم ، وكان من المفروض ان ينتهي امرهم ، غير أن الدّهاة لا ينتهون ، فقد اقترح عمرو على معاوية رفع المصاحف ، كخدعة ، كان معاوية قد دعا بفرسه لينجو عليه ، وكيف لا يهرب وهو أدرى ببلاء علي (ع) وبأسه ، وما دخل هؤلاء الطلقاء سوى خوف ورهبة من هذا الحسام المهند ، الذي أرغم أنوف العرب ، لتدخل راكعة ، منقادة - في الإسلام - لقد نادى علي (ع) معاوية : « يامعاوية ، لم تقتتل الناس بيننا ؟ هلمَّ أحاكمك الى الله ، فأيُّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور » .

فقال عمرو : « ما يجمل بك إلا مبارزته » .

قال معاوية : « طمعت فيها بعدي »[٢٠٥] .

وهذا لا يشك فيه أحد ، فلقد وتر علي (ع) العرب حين قتل اجدادها ، ولكنهم لم يروا في قتل علي (ع) ايّاهم عيبا ونقيصة ، حيث لا تزال النفوس تتردّد في اصدائها « لا فتى الا علي ، ولا سيف إلا ذو الفقار » وليس عيباً عند داهية عربي كعمرو بن العاص ، ان يكشف امام علي (ع) عورته ، لينجو من ضربة حسام انشقت تحتها بيضات فرسان العرب ، ليس هذا ولا ذاك ، عيباً ، إنما العيب أن يقاتلوا الحقيقة ؛ عند علي (ع) .

كان معاوية قد دعا بفرسه ، فاعترضه عمرو : الى أين ؟ قال : قد نزل ما ترى فما عندك ؟ قال : لم يبق الا حيلة واحدة ، أن ترفع المصاحف فتدعوهم الى ما فيها ، فتسكّنهم وتكسر من حدّهم ، وتفتَّ في أعضادهم . قال معاوية : فشأنك ! فرفعوا المصاحف ودعوا الى التحكيم بما فيها ، وقال : ندعوكم الى كتاب الله [٢٠٦] .

كانت تلك بحق اخطر مكيدة في تاريخ العرب والمسلمين ، وبها سار خبر

---

(٢٠٥) - تجارب الأمم وغيره .

(٢٠٦) - اليعقوبي ( ٢ / ١٨٨ ) . الكامل ( ٣ / ٣١٦ ) . وتجارب الأمم وتاريخ الطبري .

عمرو بن العاص ، وذاع أمره . انها المكيدة التي انتصرت لباطلهم ، وفرّقت شمل جيش علي (ع) غير ان عليّا (ع) لم يكن غبيّا ـ حاشاه ـ حتى تجتاز عليه حيل الطلقاء ومكايدهم ، لقد ادرك منذ البداية انها لعبة ، وبأن رفع المصاحف هو تكتيك حربي ، وليس ايماناً ، ولكن اللعبة تمكنت من الذهنية البسيطة ، السطحية في الأمة ، ثم أن معاوية وعمرو بن العاص ، معروفا التوجه ، ومتى دعيا الى الدين وحكما بالقرآن ؟ وهل هناك قرآن في تبلّجه ، وتشخّصه كالإمام علي (ع) ومئات الصحابة الكبار من خلفه يقاتلون ، وهل والقشريون الذين كانوا في جيش علي (ع) واستسلموا للخدعة ، ألا يدركون ان الإمام علياً (ع) هو أكثرهم تمسكاً وعلماً بالقرآن ، ومتى احتاج ان يعلموه التحاكم الى شرع الله ؟ هؤلاء في الواقع كانوا يحاربون مع الإمام وهم يجهلون قدره ، فلم يترك الواقع الفاسد ، فرصة لفضائله (ع) لتأخذ مكانها في عقول الناس ، وهذه هي نتيجة الإغتصاب ! .

لقد كان هنالك في صف الإمام (ع) رجل اسمه الأشعث بن قيس الكندي ، اعترض على مقاتلة القوم ، لأنهم رفعوا المصاحف ، أنه رجل هوائي لا يستقر على أمر ، وتحكي عنه التواريخ أنه قد اسلم وارتد ثم اسلم في عهد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولذلك كان مؤهلاً للإنحراف في هذه المكيدة .

وانتشرت الغوغاء في جيش الإمام (ع) بما يشبه حالة انشطار ، فما كان له (ع) إلا أن يصبر ، فلا رأي له ، اذ « لا رأي لمن لا يطاع » .

وكان لابد للفريقين ان ينتدبوا ممثلين عنهم ، ليديروا عملية التحكيم ، كان عمرو بن العاص ، هو الرجل المنتدب في جيش معاوية ، وكان المختار في جيش علي (ع) هو عبد الله بن عباس ، فرفضوه لقرابته منه وانحيازه إليه ، واختاروا مكانه ابا موسى الأشعري . ورفض الإمام (ع) هذا الإختيار . فابو موسى كان قد خذّل الناس عن علي (ع) بالكوفة ، وهو يدرك انه لا يوازن دهاء عمرو بن العاص . هل ان ابن عباس منحاز الى علي (ع) ، وكيف يقبل العقل ذلك ؟ .

وعمرو بن العاص هو الرجل الثاني في جيش معاوية ، هذه أكبر نكسة وقعت في جيش الإمام علي (ع) من قبل أناس بسطاء سذّج لا يفقهون في الدين ، انهم « متورّعون » لذلك طلبوا من الإمام علي (ع) ان يعزل ابن عباس ، وبهذا التورّع

الزائد وبهذه « الأخلاقوية » البائسة ، خسروا التحكيم ، وخسروا الحق الذي من أجله جاءوا الى صفين ، وانتهوا خوارج مارقين ! .

ثم انبرى للتحكيم ، كل من عمرو بن العاص ، وابو موسى الاشعري بعد أن تمردت طائفة من القشريين في جيش علي (ع) منهم مسعر بن فدكي وزيد بن حصن والسِّنبسي ومجموعة اخرى ، مطالبين علياً (ع) بالخضوع للتحكيم وطلب الأشتر بالتوقف ، وما كان من الإمام علي (ع) إلا أن يقول :

فاصنعوا ما بدا لكم .

فراحوا يكتبون : « هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين » فقال عمرو : اكتبوا إسمه واسم أبيه ، هو أميركم ، فأما أميرنا ، فلا .

كان الأحنف قد رفض ان يمحوا اسم أمارة أمير المؤمنين ، وقد تمثل نفس الدور الذي قام به علي (ع) وهو يكتب وثيقة صلح الحديبية ، وكأن التاريخ يعيد نفسه ، لكن الاشعث بن قيس قال :

« امح هذا الإسم ، محاه الله » .

فعصي فقال علي (ع) :

« الله أكبر ، سنَّة بسُنةٍ ، ومثلٌ بمثلٍ ، والله ، إني لكاتب رسول الله يوم الحديبية ، اذ قالوا :

لانشهد لك ، انك رسول الله ، فامح هذا ، واكتب اسمك واسم أبيك . فكتبه » فقال عمرو بن العاص :

« نُشبه بالكفار ونحن مؤمنون » .

فقال له علي (ع) : « ياابن النابغة ، ومتى لم تكن للفاسقين وليّا ، وللمسلمين عدوّاً ، وهل تُشبه إلاّ أمّاً دفعت بك » ؟ .

فقام وقال :

« لايجمع بيني وبينك مجلس أبداً بعد هذا اليوم » .

فقال علي (ع) :

« وإنّي لأرجو ان يُطهِّر الله مجلسي منك ومن أشباهك »[207] .

خرج الأشعث على الناس يقرأ عليهم الكتاب ، فرآه عروة بن أُديّه ، اخو ابي بلال ، فقال :

« تحكمون في أمر الله الرجال ؟ لاحكم إلا لله » . غير أن اصحاب قيس اتصلوا به ، فأقنعوه .

لم يعد الإمام يدرك الطريقة التي يتعامل بها مع جيش منشطر ، ومع أغلبية من الرعاع ، الذين عرفوا حقّه لكنهم ، لم يقدّروا شخصيته ، وكانت له خُطبة عند ذلك قالها لأصحابه :

« لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوةً ، واسقطت مِنَّةً ، واورثت وهناً وذلّةً ، ولّما كنتم الأعلَينَ ، وخاب عدوكم ، ورأى الاجتياح ، واستحّر بهم القتل ، ووجدوا ألم الجراح ، رفعوا المصاحف ، ودعوكم الى ما فيها ليفتؤوكم عنهم ، ويقطعوا الحرب في ما بينكم وبينهم ، ويتربّصوا ريب المنون ، خديعة ، ومكيدة ، فأعطيتموهم ما سألوكموه ، وأبيتم إلا أن توهنوا وتجوروا ، وأيْمُ الله ، ما أظنكم بعدها توافقون رشداً ، ولا تصيبون باب حزمٍ »[208] .

اجتمع الحكمان ببلدة تقع خارج الشام يقال لها « أذرُح » ـ في مدينة تبوك ، ودومة الجندل قديماً ـ ، وحضرت التحكيم جماعة من أصحاب علي وأخرى من أصحاب معاوية .

ولّما اجتمع عمرو وابو موسى ، قال عمرو :

« ياأباموسى : أرأيت أول ما تقضي به من الحق ان تقضي لأهل الوفاء بوفائهم ، وعلى أهل الغدر بغدرهم » .

قال أبو موسى :

« وما ذاك » ؟ .

---

(٢٠٧) ـ تاريخ الطبري ( ٤ / ٣٨ ) .

(٢٠٨) ـ الكامل ( ٣ / ٣٢٢ ) .

قال عمرو :

ألست تعلم انّ معاوية وفيٌ ، وقدم للموعد الذي واعدناه » ؟ .

قال : نعم .

قال : اكتبها .

فكتبها أبو موسى .

ثم قال له : ياباموسى ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً ؟ قال : أشهد قال : ألستَ تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟ قال : بلى ، قال : فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت ؟ فان خفت ان يقول الناس : ليست له سابقة ، فقل وجدته وليّ عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكاتبه ، وقد صحبه وعُوِّضَ له بسلطان .

فقال أبو موسى : ياعمرو اتّق الله ! فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإنّ هذا ليس على الشرف تولّاه أهله ، ولو كان على الشرف لكان لآل ابرهة ابن الصبّاح ، إنّما هو لأهل الدين والفضل ، مع انّي لو كنت معطيه افضل قريش شرفاً أعطيته علي بن أبي طالب . وأمّا قولك : ان معاوية وليّ دم عثمان فولّه هذا الأمر ، فلم أكن لأوليّه وأدع المهاجرين الأولين ، وأما تعريضك لي بالسلطان ، فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانه كلّه لما ولّيته ، وما كنت لأرتشي في حكم الله ! .

قال عمرو : فما يمنعك من ابني وانت تعلم فضله وصلاحه ؟ فقال : إن ابنك رجل صدق ولكّنك قد غمسته في هذه الفتنة . فقال عمرو : انّ هذا الأمر لا يصلح إلّا لرجل يأكل ويطعم ، وكانت في ابن عمر غفلة ، فقال له ابن الزبير : افطن ، فانتبه ! فقال : والله لاأرشو عليها شيئاً أبداً . وقال : ياابن العاص ، ان العرب قد أسندت إليك أمرها بعدما تقارعوا بالسيوف فلا تردّنهم في فتنة .

ويذكر المؤرخون ، أن عمْراً كان قد عوّد تقديم ابي موسى في الكلام ، بقوله : انت صاحب رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) واسنّ مني فتكلّم ، وتعوّد ذلك ابو موسى .

وكان ابو موسى يريد ايضاً خلع الاثنين ، واثبات ابن عمر ، فابى عليه ذلك عمرو . وقال له :

خبرّني ما رأيك ؟ قال : ارى ان نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم من احبّوا . وقال عمرو : الرأي ما رأيت . وقال له : ياأبا موسى أعلم ان رأينا قد اتفق .

فقال ابو موسى : ان رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة .

فقال عمرو : صدق وبّر ، تقدّم ياأبا موسى فتكلم .

تقدم ابو موسى وقال : أيها الناس انا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نرَ أصلح لأمرها ولا الّم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي وراي عمرو عليه ، وهو ان نخلع عليّاً ومعاوية ، ويوليّ الناس امرهم من أحبّوا ، وإني قد خلعت عليّا ومعاوية فاستقبلوا امركم وولّوا عليكم من رأيتموه أهلا ، ثم تنحّى[٢٠٩] .

فقام عمرو فقال : لكنيّ خلعت صاحبه عليّا كما خلع ، وأُثبت معاوية . يقول الطبري[٢١٠] ، انهما لم يبرحا مجلسهما حتى استبّا ، ثم خرجا الى الناس ، فقال أبو موسى :

« إنّي وجدت مثل عمرو مثل الذين قال الله عزوجل فيه : **﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾**[٢١١] .

فقال عمرو : أيها الناس اني وجدت مثل ابي موسى كمثل الذين قال الله عزوجل فيهم : **﴿ مثل الذين حملوا التوارة ثم لم يحملوها * كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾**[٢١٢] .

كانت القضية منذ بدايتها خاطئة ، لأنها قائمة على مكيدة التحكيم . والإمام

---

(٢٠٩) ـ الكامل ( ٣ / ٢٣١ ـ ٢٣٢ ) .
(٢١٠) ـ تاريخ الطبري ( ٤ / ٤٢ ) .
(٢١١) ـ سورة الأعراف ( آية ١٧٤ ) .
(٢١٢) ـ سورة الجمعة ( آية ٥ ) .

علي (ع) لم يكن فقط يملك ورعا وتقوىً يحول دونه والمكيدة . بل ايضاً كان يتوفر على قدر لا يوزن من البصيرة ، أدرك من خلاله طبيعة اللعبة ، فرفض التحكيم واستشرف مأزقه ، غير أن الكثير ممن كان معه ، كان يملك ايماناً مقلوباً ، ورتوشاً « أخلاقوية » زائدة على المبدأ والسلوك . لم يكن عمرو بن العاص يجهل قدر علي (ع) ولكنه سلك اختيارا ـ لعوامل شتى ـ يقتضي تفويت الخلافة الى معاوية ، أما أبو موسى الأشعري ، فقد كان رجلاً من اولئك « الأخلاقويين » ، الفاقدين للبصيرة ، ذلك أنه طرح عزل علي (ع) وهو يرى في عزل « الحق » حقّاً ، وليس ذلك إلا تنازلاً للباطل . ولذلك اقترح ابن عمر ، ولم يكن هذا الأخير ، بمن يستحق طرحه في سياق الإستخلاف ، غير أن السذاجة غلبت على مواقف الناس ، وما رأيت رجلاً خذل الحق في الإسلام ، مثل ابن عمر ، الذي كان يدرك كل شيء ، ولا يتكلم ، ويخشى أن يقول الحق ، خوفاً من الفتنة ، والفتنة ليست سوى تغييب الحق والسكوت عنه .

يذكر ابن الأثير ، ان معاوية حصر الحكمين وانه قام عشية في الناس فقال : امّا بعد من كان متكلّماً في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه ، قال ابن عمر : فاطلعت حُبوتي فأردت أن أقول : يتكلم فيه رجال قاتلوك واباك على الإسلام ، فخشيت أن اقول كلمة تفرق الجماعة ويُسفك فيها دم ، وكان ما وعد الله فيه الجنان أحبّ إليّ من ذلك ، فلّما انصرفتُ الى المنزل جاءني حبيب بن مسلم فقال : ما منعك أن تتكلّم حين سمعت هذا الرجل يتكلم ؟ قلت : أردت ذلك ثمّ خشيت ، فقال حبيب : وفّقتَ وعصمت ، وهذا أصحّ .

ترك هؤلاء للباطل فرصة للظهور ، ولم يقفوا مع الحق ، وهو في حاجة الى من يسنده . وقف الإمام علي (ع) وحيدا ، ليس معه سوى عصبة من المؤمنين الذين لا تهزهم الأطماع ، ولا الحطام ، الفئة التي نذرت حياتها للحق دون سواه ، والباقون كانوا إمّا قاسطين او مارقين أو ناكثين .

خرجت من جيش علي (ع) يومذاك فرقة من الخوارج زعموا أن الحكم لله ، شعار ساذج ، يخفي داخله الضباب والأميّة الإسلامية ، ولذلك كبّر الإمام علي (ع) قائلا : « الله اكبر ، كلمة حق يراد بها باطل » .

لم يشأ (ع) ان يقتلهم يوم النهروان إلا بعد أن اضطروه الى ذلك ، ولطالما حاورهم ، ورفع الراية البيضاء يستتيبهم ، خرج بعضهم وبقي شرارهم معتصمين لجهلهم ، فحاربهم وبقيت بعد ذلك حفنة من الخوارج ، تائهة في فلوات الجزيرة ، تبشر بجهلها ، وتبيّت لعلي (ع) وانتشرت في البلدان ، وانتشر معها الغباء .

لاأريد هنا ان افصل في الخوارج ، كنشأة ، وتطور ، فهذا ليس من وظيفة الكتاب ، لأن الخوارج ، ليسوا سوى فرقة غبية ، طلبت الحق بسذاجة فلم تجده ، فرجع منها المخلصون الى الحق ، وبقي الأشقياء يردون موارد الفتن ، ولكنني أريد الإشارة الى المنعطفات : ومن تلك المنعطفات ، ما تلى صفين من أحداث ، كان الصحابي الجليل عمّار قد قتل بصفين ، وبذلك قد ارسى ميزانه لتقييم الحدث . وقد فزع قوم من جيش معاوية لما رأوه ميتا ، لأنهم سمعوا ان « ابن سمية تقتله الفئة الباغية » غير أن الاعلام الايديولوجي حرّف القضية ، واستصغرها في ذهن القوم ، فقال عمرو : لقد قتله الذين جاؤوا به ! وكان كما أشار معاوية ، يعتبر - أي عمار - يمين الإمام علي (ع) فيما الأشتر يسراه .

لم تكن مصر حتى ذلك اليوم قد خلت لمعاوية وما كان هذا الأخير غافلاً عنها ، فهي سلّة جديدة تنضاف الى إمارته الواسعة ، وهي ثمن الأنتصار الذي جلبه له عمرو بن العاص .

وحيث ان في مصر من هم على هوى علي (ع) اراد معاوية ان يستخدم دهاءه في استمالتها قبل الإجهاز عليها ، كانت مصر قد فسدت على محمد بن أبي بكر ، فبعث علي الأشتر مكانه .

وبلغ الخبر الى معاوية ، فخشي على مصر من الاشتر وتشدّده . فعقد معاوية صفقة مع المقدّم على اهل الخراج بالقُلزم وقال له : إنّ الاشتر قد ولي مصر : فان كفيتنيه لن آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت . وعندما انتهى الأشتر الى القلزم وهو في طريقه من العراق الى مصر ، استقبله الرجل ، وأتاه بطعام دسّ فيه سمّا ، فسقاه إيّاه . فلّما شربه مات[٢١٣] .

---

(٢١٣) - الكامل ( ٣ / ٣٥٣ ) .

وحدث أيضاً ان قتل محمد بن أبي بكر ، في الدفاع عن مصر ضد جيش معاوية ، بقيادة عمرو بن العاص . الحرب التي تركت وراءها امواتاً كثيرين . وكان محمد بن أبي بكر قد طالته حربة ، واشتدّ عليه العطش ، فلحقوا به ، وقتلوه شرّ قتلة . ويذكر صاحب أسد الغابة ، انه قتل ، بعد أن احرق في جوف حمار ، كان الذي تولى قتله معاوية بن خديج ، طلب منه محمد بن أبي بكر ماء ، فأبى عليه ، وقال له : لأقتلنّك حتى يسقيك الله من الحميم والغسّاق ! .

فقال له محمد : ياابن اليهودية النسّاجة ليس ذلك إليك انّما الى الله ، يسقي أولياءه ويُظمىء أعداءه أنت وأمثالك ، أما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا ، ثمّ قال له :

أتدري ما أصنع بك ؟ أُدخلك جوف حمار ثمّ أحرقه عليك بالنار . قال محمد : ان فعلت بي ذلك فلطالما فعلتم ذلك بأولياء الله ، وإني لأرجو ان يجعلها عليك وعلى أوليائك ومعاوية وعمرو ناراً تلظى كلما خبت زادها الله سعيرا . فغضب منه وقتله ثم ألقاه في جيفة حمار ثمّ أحرقه بالنار(٢١٤) . وكانت عائشة قد جزعت عليه بشدّة ودعت في قنوتها على معاوية وعمرو وضمّت إليها عيال محمد ، ويقال أنها لم تأكل من بعد ذلك شواء حتى ماتت .

كان أخوه عبد الرحمن قد اعترض على عمرو بن العاص وكان في جنده .

في تلك الأثناء ، حزن الإمام علي (ع) على محمد بن أبي بكر حزناً شديداً ، وتمنى لو يفرق الله بينه وبين قومه الذين لا يطيعونه في رأي ، ولا يسمعون له كلمة ، ولم يكن أمامه (ع) سوى الكلمة التي يفجر فيها أحزانه ، ويوجّه فيها عتابه لأتباعه المتهالكين ، وودّ سلام الله عليه ، لو يجهز على معاوية بمصر ، فيردّه عنها ردّاً عزيزاً بل ولودّ ان لا يبقى في ارض الإسلام لوثة أموية على الإطلاق فيما لو أطاعه قومه . وكانت خطبته الشهيرة يومها :

« الا ان مصر قد افتتحها الفجرة أولو الجور والظلمة الذين صدوا عن سبيل الله وبغوا الإسلام عوجاً ، ألا وان محمد بن أبي بكر استشهد فعند الله نحتسبه !

---

(٢١٤) ـ الكامل ( ٣ / ٣٥٧ ) .

أما والله إن كان كما علمت لمّن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر ويحبُّ هدى المؤمن ، اني والله ما ألوم نفسي على تقصير ، وإني لمقاساة الحروب لجدير خبير ، واني لأتقدّم على الأمر وأعرف وجه الحزم وأقوم فيكم بالرأي المصيب واستصرخكم معلناً وأناديكم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولا ولا تطيعون لي أمراً حتى تصير بي الأمور الى عواقب المساءة ، فأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر ، ولا تنقض بكم الأوتار ، دعوتكم الى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة فتجرجرتم جرجرة الجمل الاشدق ، وتثاقلتم الى الأرض تثاقل من ليست له نية في جهاد العدوّ ولا اكتساب الأجر ، ثمّ خرج إليّ منكم جنيد متذانب كأنّما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، فأفٍ لكم » . ثمّ نزل[٢١٥] .

هذه الخطبة تلخّص ، الظرف الذي عاناه أمير المؤمنين ، إنه أسد الله الذي ابتلاه الله بأغلبية أجبن من بنات آوى ، ومدينة العلم التي سكنها الجهلة الرعاع ، وذلك هو السقوط ، وتلك هي معاناة أبي الحسن (ع) .

بقي الأمر كذلك ، علي بالعراق ومعاوية بالشام ، حكومة منشطرة ، وأمة تحكمها المتناقضات ، معاوية منعته شدّة علي (ع) وباسه في الحروب ، وعليّ (ع) منعه من الخروج تثاقل أصحابه ، وعصيانهم له .

في تلك الأجواء من التهدئة النسبية ، اجتمع فريق من الخوارج ، ينعون قتلاهم بالنهروان ، وتبادلوا وجهات النظر فيما بينهم . وأسفر الاجتماع عن مخطط للإغتيال ، بزعامة ثلاثة من الخوارج : عبد الرحمن بن ملجم ، والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي . وقضى المخطط أن يتولى ابن ملجم قتل علي (ع) والبرك بن عبدالله قتل معاوية فيما قال عمرو بن بكر « أنا اكفيكم عمرو بن العاص »[٢١٦] .

غير أن البرك وعمرو بن بكر لم يتوفقا في قتل معاوية وعمرو .

فأما ألاول ، فقد قعد لمعاوية ، فلّما خرج الى الصلاة ضربه بالسيف فلم

---

(٢١٥) ـ الكامل ( ٣ / ٣٥٨ ) .

(٢١٦) ـ تاريخ الطبري ( ٤ / ١١٠ ) .

يصب إلا أليته ، فأخذه معاوية فأمر فضرب عنقه . أما الثاني فقد قعد لعمرو غير أن هذا الأخير كان قد اشتكى بطنه فأمر خارجة بن أبي حبيبة ، ليصلي بالناس ، فخرج فوثب عليه ابن بكر ، ظاناً انه عمرو ، فضربه فقتله ، فأخذه الناس الى عمرو فأمر بقتله .

أمّا ابن ملجم ، فانه اتجه صوب الكوفة ، وكان قد التقى بامرأة اسمها « قُطام » وأحبّها ، وكان عليّ (ع) قتل اباها وأخاها يوم النهروان ، وافتقد بجمالها ابن ملجم توازنه ، فخطبها ، فرفضت ذلك إلاّ بشرط قتل علي (ع) وقيل اشترطت عليه « ثلاثة آلاف وعبداً وقينة وقتلَ علي » ! .

فقال لها هو لك ، ووالله ما وردتُ إلاّ لقتل علي .

فذهب وجلس مقابل الشُدَّة التي يخرج منها علي للصلاة ، وتّمت العملية وقتل ابن ملجم عليّاً .

وتصايح الناس ، فقبض عليه ، وجيىء به الى علي (ع) فقال له :

ـ أي عدوّ الله ، ألم أحسن إليك .

ـ قال : بلى .

ـ قال : فما حملك على هذا ؟

ـ قال : شحذته اربعين صباحاً ، فسألت الله ان يقتل به شرّ خلقه .

فقال علي (ع) لا أراك إلا مقتولا به ، ولا اراك إلا شر خلق الله .

ومات علي (ع) في جو دراماتيكي ، تعكسه تفاصيل المشهد ، مات سلام الله عليه بشهر رمضان سنة اربعين .

واقيم الحدّ على ابن ملجم ، طبقاً لوصية الإمام علي (ع) الذي منع ان يقتل إلاّ اذا مات ، خضوعاً لحكم الشريعة في القتل . مات (ع) فارتاحت القلوب الحاقدة ، ويومها وصل الخبر الى عائشة[٢١٧] فقالت :

فالقت عصاها واستقر بها النّوى    كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

---

(٢١٧) ـ تجارب الأمم (١ / ٣٨٣) .

وسالت عمن قتله ؟ فقيل : رجل من مرادٍ قالت :

فإن يكُ نائياً ، فلقد نعاه نُعاةٌ ليس في فيها التُراب

وشاء القدر ان يموت يعسوب المؤمنين ، وقائد الغر المحجلين ، بتلك الطريقة النكراء ، لينجو منها الأنذال ، وتمنح لهم الحياة .

شاء الله أن يبقى علي (ع) ـ علماً ـ بشهادته ، ويبقى مناوثاه خبراً في التاريخ غيّبته الأحداث . بقيت النجف الأشرف تستمد نورها من جثمانه الطاهر ، على مدى الأجيال ، وبقي قبر معاوية ، كوخاً ، وضيعاً ، أشبه بمزبلة ، في أحد أزقة دمشق ، والتاريخ يأبى الاحتفال بالأنذال ، ولا يبخس العظماء حقهم وإن كره المؤرخون ! .

وبموت علي (ع) سوف تنسل تلك اللبنة الاساس ، في بناء الأمة ، ستدفع هذه الأخيرة الثمن غالباً ، لأنها تهاونت في الحفاظ عليها .

كان علي (ع) قد اشتقاقت إليه السماء . فأهل الأرض ضاقوا به ، والملأ الأعلى ينظرون الى هذه المعارك التي قدّر لعلي (ع) ان يخوضها ، ولعلّ ذلك يعزّ عليهم ، لكنّ الله ، قضى ان يضحي علي (ع) بنفسه ، ليعلم الله المؤمنين من الكافرين ، وليمحص به أمر الامة .

**﴿ ومن الناس يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾**[٢١٨] .

وعلي هو أمير هذه الآية ، وموضوعها . ولكن علياً (ع) لم يشأ أن يبرح الدنيا ، حتى يطمئن على أمة محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، فارسى بعده ابنه الحسن (ع) وهذا لم يكن سنة بسنة الخلفاء ، ولا رأيا تلقائيا له مبرراته في هوى جامح وراي خداج . إنما الرأي الحصيف ، والنص المحكم البواح .

وبويع الحسن (ع) بالخلافة في سنة اربعين حسب الطبري وابن الأثير . وبايعه قيس بن سعد ، وهو مقدّمة أهل العراق في جمع مؤلف من اربعين الفاً ، كانوا قد

---

(٢١٨) ـ سورة البقرة ( آية : ٢٠٧ ) ذكر المفسرون أنها نزلت في علي (ع) يوم نام في فراش الرسول (ص) عندما عزم على الهجرة تمويها على المشركين .

بايعوا عليًا على الموت .

هذا هو المنعطف الآخر ، الذي ينفتح فيه التاريخ على أخطر المآسي . ليُكسب بذلك آل البيت النبوي (ع) دنيا العذابات الدامية الشنيعة .

# ما حدث في خلافة الحسن (ع)

ذكر المسعودي في اثبات الوصية ، ان الإمام علي (ع) لم يبرح حتى قال : اخلوني وأهل بيتي أعهد إليهم . فقام الناس إلاّ اليسير ، فجمع أهل بيته وهم اثنا عشر ذكرا وبقي قوم من شيعته .... حتى قال : وأوصى الى الحسن[٢١٩] .

وبذلك تسلم الإمام الحسن (ع) مسؤولية الخلافة ، في شوطها الأخطر . لقد كان عليه أن يضطلع بأمر ، كان سبباً في قتل أبيه . وأي إنسان يتصور ذلك ؟ فهذا ابن الأنبياء وورعه يحول دونه وتلذذ الملك ، كيف يلهث وراء خلافة أبيه والخطب خطر ، والمصاب جلل . لقد انشغل بدفن جده وهو صغير ، ورأى ان القوم قد تسابقوا الى السقيفة « يتناهشون » الخلافة . وشهد المؤامرة منذ نشأتها ، ورأى بيت أمه يهدد بالحرق ، واستُضعفوا حتى كادت الجبال تندك لهول المأساة ، ورأى أمّه وهي تموت بالآلام التي تركتها التحرشات ، وهي تبكي اباها ، وتتلقى التهديد من ابن الخطاب ، وتحرم ارث ابيها ، وتندك اضلاعها من خلف الباب ، يوم اقتحموا عليها البيت ، وهي حبلى بمحسن . لقد شاهد كل هذا .

شاهد اباه ، وهو يعاني الأمرّين من عصيان أصحابه . رأى كل ذلك ، فقبل رغم اليأس ، بخلافة أبيه لأنها المسؤولية ، فالإسلام يواجه خطر « الأموية » وهي ما تبّقى من تراث الشرك .

كان من الطبيعي للإمام الحسن (ع) فيما لو كان كباقي الرعية ، ان يستكين

---

(٢١٩) ـ اثبات الوصية ( ص ١٦٤ ) .

للراحة ، ويخلد لها ، فمثله يحتاج للإستقرار النفسي والسكينة والسكن . فيكفي بني هاشم ما تجرعوه من خطوب ومحن . ويكفي بني هاشم ما نالوه من الطغمة الأموية على مرّ السنين . ولكن الإمام الحسن (ع) هو إمام وليس رجلاً كباقي الرجال . انه روح الأمة التي ستتولى مسيرة التصحيح وسواء أزيح عن الخلافة الإدارية ام لا ، فإن إمامته لا تنفيها المصادرة والأغتصاب . فالحسن والحسين ، امامان بشهادة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قاما أو قعدا . مارسا الخلافة أو لم يمارساها ، فهما إماما هذه الأمة . لذلك استجاب للوصية نزولاً عند النص(٢٢٠) .

وكان من أوائل المبايعين قيس بن سعد .

كان المشكل الاول الذي واجهه الإمام الحسن (ع) هو « الطاعة » اذ علم ان لا رأي لمن لا يطاع وأي سماء كان سيرفعهم إليها الإمام علي (ع) من قبل ، لو أنهم اطاعوه . ولكن بعصيانهم ، عفروا وجوههم تحت جيوش الطلقاء ، فكانت بيعته واضحة ومشروطة بإشارة الى الطاعة :

« تبايعون لي على السمع والطاعة ، وتحاربون من حاربت وتسالمون من سالمت »(٢٢١) .

كان الإمام (ع) يدرك ان الواقع يعج بالمتناقضات ، وان جيشه ليس منسجماً . ففيه من المندسين ما قد يبرز في الربع الأخير ، ليمني القوم هزيمة ـ كما وقع ـ وأمامه تجربة ابيه وجده من قبله ، وله ما عهد به علي (ع) له سّراً .

كانت وظيفة الإمام الحسن (ع) أن ينتشل الأمة من مواتها ، ويردّها الى

---

(٢٢٠) ـ هناك من العامة من رفض أن يكون علي (ع) قد أوصى الى الحسن (ع) وما هي إلا بلبلات أموية والمعروف عن علي (ع) تاريخياً أنه أوصى . وأعتمد بعضهم حديث شعيب بن ميمون الواسطي ، أن علياً قيل له ألا تتخاوف فقال : إن يرد الله بالأمة خيرا يجمعهم على خيرهم . أقول ان هذه الرواية فضلا عن أنها من الموضوعات فهي تحتوي على نزعة « جبرية تخالف منطق الإسلام » ، وذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب ان من المناكير عن حصين عن الشعبي عن أبي وائل قال : قيل لعلي الا تستخلف الحديث ، وشعيب هذا قال عنه البخاري : فيه نظر . وذكر ابن حيان أنه يروي المناكير أما أبو حاتم فقال عنه : مجهول .

(٢٢١) ـ الإمامة والسياسة .

الطريق السليم الى الوجهة المباركة ، لكن الأمر اليوم ، يحتاج الى تحقيق القدر الضروري من مصالح الإسلام والمسلمين ، وتجنب الدمار الشامل لمكتسبات سنين من الكفاح الرسالي .

ولمّا سمع القوم منه ذلك ، أحجموا عن البيعة ، وراحوا الى أخيه الحسين (ع) قائلين له :

« ابسط يدك نبايعك على ما بايعنا عليه أباك ، وعلى حرب المحلين الضالين أهل الشام .

فردّهم الحسين (ع) قائلاً : معاذ الله ان ابايعكم ما كان الحسن حياً ولمّا ابى الحسين ، عادوا الى الحسن ، فبايعوه وهم مكرهون »[٢٢٢] .

وكانت وراء هذا الحدث أسباب جديرة باستلفات النظر . فالحسين لا يقبل الخلافة ، ما دام اخوه الحسن أمامه . ذلك ان الوصية الشرعية لأخيه من قبله . وكان من المفروض أن يستجيب الإمام الحسين (ع) للبيعة فيما لو لم يكن حائل شرعي .

ولمّا عادوا للإمام الحسن (ع) كان من الضروري ان يستجيب لأكتمال النصرة . بايعهم الإمام الحسن (ع) وقلبه زاهد فيهم ، لولا حرصه على مستقبل الأمة .

كان أصحابه مصرّين على قتال أهل الشام . فهم يريدون إماماً يسير على هواهم وهذا ما جعل الإمام الحسن (ع) لا يغامر بعيدا .

والجيش العراقي الذي كان يتكىء عليه الإمام الحسن (ع) لم يكن منسجماً كما قلنا ، ولا خالصاً من المندسين والانتهازيين . فهناك قسم من الخوارج لا يزال يتربص بمعاوية ، ليس له هدف غير ذلك ، بعد أن قتل الإمام علي (ع) ، وهنالك الرعاع الذين فهموا الإسلام بوعي الصحراء ، وهناك البقية القليلة من الصحابة الشيعة الذين عانوا مع الإمام الحسن (ع) نفس الأزمات .

وما ان شرع الإمام الحسن في ممارسة دوره كإمام ، حتى بدأت تحرشات الأمويين تتحرك ضده من كل الاطراف . وقام معاوية بتطويق الخلافة الحسنية ،

---

(٢٢٢) ـ الإمامة والسياسة .

بسلوك انماط من الاساليب الديماغوجية وكذا الدعائية . فبثوا عيونهم بالبصرة والكوفة وباقي البلدان التي انقادت لإمامة الحسن ونشروا عناصرهم وعمالهم الجواسيس لنشر البلبلة ، وخلط الأوراق ، وتجميع المعلومات . وكان الرجلان اللذان بعثهما معاوية هما : رجل من حمير بعثه الى الكوفة ، والآخر من بني القين بعثه الى البصرة ، وما ان وصلا الى البلدين ، حتى انتشر أمرهما والقي القبض عليهما . وقدّم الحميري الى الامام الحسن فقضى بقتله . وقدّم القيني الى عبد الله بن عباس ـ وكان عاملاً للإمام على البصرة ـ فقتله . كانت هنالك اذاً ، تحرشات بين الحسن ومعاوية . ومناوشات قد تسفر عن معركة حقيقية . ولذلك كتب الإمام الحسن الى معاوية كتاباً ، يحذره فيه من مغبة مغامراته وينذره من خطر المواجهة قائلاً : اما بعد : فانك دسست إلي الرجال ، كأنك تحب اللقاء ، لا شك في ذلك فتوقعه إن شاء الله ، وبلغني انك شَمِتَّ بما لم يشمت به ذوو الحجى وانما مثلك في ذلك كما قال الأول :

| | |
|---|---|
| فأنا ومن قد مات منا لكالذي | يروح فيمسي في المبيت ليغتدي |
| فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى | تجهز لأخرى مثلها فكأن قد |

وحاول معاوية ان يجيبه بنفس منضبطة تصنع فيها الهدوء وسعة الصدر ، يريد من خلالها استمالة الإمام الحسن (ع) ، فهو لا يزال يضرب له حساباً ، لأنه بقية أبيه ووارث بصيرته وشجاعته فقال له :

أما بعد : فقد وصل كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، ولقد علمت بما حدث ، فلم أفرح ، ولم أحزن ، ولم أشمت ، ولم آس وان علياً اباك لكما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة :

| | |
|---|---|
| فـانت الجـواد وانت الـذي | اذا ما القلوب ملأن الصدورا |
| جـديـر بـطعنة يـوم اللقـا | يضرج منهـا النسـاء النحـورا |
| وما مزبد من خليج البحـار | يعلو الأكـام ويعلو الجسـورا |
| بـأجـود منـه بمـا عنـده | فيعطي الألوف ويعطي البدورا |

ثم يذكر صاحب الأغاني وشرح النهج ، ان ابن عباس بعث بكتاب الى

معاوية ، يحذره من الأعمال التي يقوم بها وبث الجواسيس في البصرة :

أما بعد : فانك ودسك أخا بني القين الى البصرة تلتمس من غفلات قريش بمثل ما ظفرت به من يمانيّتك لكما قال أمية بن أبي الصلت :

لعمرك إني والخزاعي طارقاً كنعجة غادٍ حتفها تتحفر
اثارت عليها شفرة بكراعها فظلت بها من آخر الليل تنحر
شمتّ بقوم هم صديقك أهلكوا أصابهم يوم من الدهر أعسر

غير ان معاوية كان يروم الى بث الإنكسار والتهدئة في صفوف الإمام الحسن .. فراح يسبك أجوبته بشكل منسجم . قائلاً في رده على رسالة ابن عباس :

فوالله ما أدري (وإني لصادق) الى اي من يتظنني أتعذر
أعنف إن كانت زبينة أهلكت ونال بني لحيان شرٌّ فانفروا

ادرك ابن عباس ، أن معاوية ، صاحب خدعة ومكيدة . وان الحرب عليه ، ضرورة تقتضيها طبيعة المرحلة . وكان الإمام الحسن (ع) مصمماً على منازلته ، وموطناً عزيمته على إستكمال مسيرة التطهير . تطهير الأمة من الجرثومة الأموية . غير انه كان يضرب حسابات الواقع اذ ليس معه الجيش الحقيقي القادر على تنفيذ هذا الهدف الى آخر أشواط الكفاح . فالجيش متضارب العزائم ، ومتباين الأهواء ، ومنكسر من الداخل .

فبعث له ابن عباس رسالة جاء فيها : .

« أما بعد : فان المسلمين ولّوك أمرهم بعد علي (ع) فشمّر للحرب وجاهد عدوّك وقارب اصحابك ، واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم لك دنياه .. ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام »[٢٢٣] .

---

(٢٢٣) ـ شرح النهج ، ورسائل جمهرة العرب .

# الإمام الحسن والواقع الصعب

نحن نريد فهم الأحداث في مجملها ، لا القعود في سرد تفاصيلها الدقيقة ، بما ينافي فلسفة التاريخ . ولكي نفهم الأسباب التي فرضت الصلح على الإمام الحسن ، لابد من أجراء جرد وتحقيق في الشروط التاريخية التي توافرت للإمام الحسن (ع) ، هذا الإمام الذي اظهره التاريخ « الفولكلوري » كرجل مسالم ، يهوى الراحة ، ويتقي الشدائد . لقد راينا كيف ان الإمام الحسن (ع) كان توّافاً لردم الواقع على بني أمية ، لو توفرت له الشروط الضرورية . غير أن محترفي التاريخ السطحي ، يرون عكس ذلك . يقول « روايت م رونلدس » : « فان الأخبار تدل على ان الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية العقلية لقيادة شعبه بنجاح »[٢٢٤] .

ويذكر « فيليب حتي » في « تاريخ العرب » ان الحسن كان أميل الى البذخ والترف منه الى الحكم والأدارة . ولعل هذا التصور الساذج المبني على الوعي بالقشور ، ونقل الأخبار من دون الحفر فيها . هو الذي يترك كثيراً من المؤرخين عرباً ومستشرقين ، يقعون في مثل هذه المآزق . ولشدّ ما ظُلم هذا الإمام . فلا أبوه امتدحوه لّما قام بقتل رؤوس النفاق ولا هو عذروه لّما قبل الصلح وهو له كاره .

ولكي نبين « لروايت » وامثاله من المستشرقين بأنهم ليسوا سوى نقلةٍ

---

(٢٢٤) ـ عقيدة الشيعة .

ميكانيكين للمعلومات التاريخية الرسمية . وبأن « فيليب حتى » هو أقل منه « حتى » في تقدير الإمام الحسن (ع) ، لابد أن نقف على خلفيات الصلح وملابساته .

كيف يتوقع أهل الغباء التاريخي . ان يقوم الإمام الحسن (ع) ويغامر بالحرب بجيش منهار ، فالحرب مع معاوية ، هي حرب مع نفوذ أوسع من نفوذ الحسن (ع) ، وهي حرب مع الدنيا كل « الدنيا » بايديولوجيتها القبلية والأقتصادية . لقد دخل الذين المحض مع الدنيا المحضة في صراع الإستحقاق . الجيش العراقي كما سبق ذكره كان يعاني الأزمات الآتية :

١ ـ حدث اغتيال الإمام ، ترك آثاره السلبية في نفوس الأغلبية ، لأن ذلك الحدث قد تحول بفعل التشكيك الأموي ، الى هزيمة في جيش العراق . اي بمثابة انهيار نفسي . مقابل معنويات الشاميين . فكان الإمام الحسن حائراً بين قلّة معدودة من المتحمسين ، وهنالك من كان على غير يقين في اختياره . مثل عبيد الله بن عباس .

٢ ـ وجود اليأس في صفوف الجيش العراقي ، مضافاً إليه التكثيف المضاعف للإعلام المضلل الأموي ، أوجد حالة التدابر والانشطار في المواقف ، كما استطاع الاعلام أن يستميل بعض عناصر هذا الجيش الى الصف الأموي . كان الإمام الحسن (ع) قد جعل عبيد الله بن عباس على رأس الجيش الذي جهزه لقتال معاوية وأهل الشام . وعندما انطلق معاوية بجيش الى جسر « منبج » انتشر الذعر في العراقيين ، ووصلت قلوبهم الحناجر ، فكان لابد للإمام الحسن (ع) أن يزرع الأمل في نفوسهم ، ويعيد إليهم العزيمة في القتال فقال : « اما بعد : فان الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرها ، ثم قال لأهل الجهاد : اصبروا إن الله مع الصابرين ، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون ، انه بلغني أن معاوية بلغه أنّا كنا ازمعنا على المسير إليه فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله الى معسكركم في النخيل حتى ننظر وتنظرون ، ونرى وترون »[٢٢٥] ، ولم يجد الإمام الحسن (ع) بعد اتمامه خطبته ، استجابة جماهيرية في العراقيين . لقد ظهر

---

(٢٢٥) ـ شرح النهج ( ١٦ / ٨ ـ ٥٢ ) .

منهم الفزع واليأس . الحالة التي يصورها « عدي بن حاتم » « وكان من رموز الجيش الحسني قائلا :

« أنا عدي بن حاتم ، سبحان الله ما اقبح هذا المقام !!! ألا تجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ؟ أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة ، فاذا جد الجد راوغوا كالثعالب ، اما تخافون مقت الله ، ولاعيبها وعارها » ثم دعا القوم :

وهذا وجهي الى معسكرنا ، فمن أحب أن يوافي فليواف . « فركب دابته وانطلق وحيداً وعسكر في النخيل »[٢٢٦] .

ولّما رأى ذلك قيس بن سعد بن عبادة ، وزياد بن صعصعه التميمي ومعقل بن قيس الرياحي ـ وكان ممن ادرك النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ـ قاموا يلومون أصحابهم على عدم استجابتهم لأمر الجهاد ، وعلى تخاذلهم في نصرة الإمام الحسن (ع) فأثنى عليهم . فانطلق الإمام بجيشه يريد القتال ، وكان قد أعطى القيادة العامة . لعبيد الله بن العباس . ورشح للقيادة من بعد عبيد الله كلاً من قيس بن سعد . وسعيد بن قيس وكان عدد الجيش ، اربعين الفا حسب الطبري ، وذكر ابن ابي الحديد أنه « اثني عشر الفا »[٢٢٧] . وعلى أية حال ، فإن هذه الأحصائيات تدل على أن جيش الإمام كان جرّاراً عرمرماً . بيد انه ضعيف البنيان ، متهالك الروح ، متضارب الأهواء . ينصرك اليوم ويخذلك غداً ، ليس له قرار . وذكر ابن الأثير ، ان اربعين الفاً من جيش العراق كان قد بايع الإمام الحسن على الموت . وهذا ما دعا الإمام ان ينطلق من الكوفة لردّ العدوان الأموي . والملاحظ من خلال الاستعدادات التي أبداها الحسن (ع) للحرب ، والتدابير التي اتخذها ، لسحق الجيش الأموي ، والإصرار على تجهيز الجيش . . أنه لم يكن يختلف عن سيرة أبيه . فالقضية واحدة ، والروح العلوية واحدة ، ولكن الظروف تغيرت ، وبتغيرها تختلف المواقف . فقد كان الإمام الحسين (ع) الذي فجر اكبر ثورة في التاريخ ، سامعاً مطيعاً في عهد أخيه ، ولم ينبس ببنت

(٢٢٦) ـ نفس المصدر .

(٢٢٧) ـ أختلفوا في تحديد جيش الحسن (ع) ذكر أبن قتيبة : مائة الف ، واليعقوبي : تسعين الف ، أما في البداية والنهاية : فسبعون ألف .

شفة . لقد علم ان الظروف ليست ظروف قتال .

هذا الجيش بهذه المواصفات . لم يكن مؤهلاً للقيام بالدور الرسالي الحقيقي . بل هو مهيّأ للأنهيار في كل لحظة . وأدرك معاوية نقطة الضعف هذه في جيش الإمام الحسن (ع) واستغلها لصالح نفوذه فراح يبث الاشاعات في صفوف الجيش ويبعث لهم الرسائل الميئسة ويغري بعضهم بالبعض الأخر . ولم يستخدم طريقة واحدة في التعامل مع عناصر الجيش العراقي ، بل سلك كل تلكم السبل ، لأنه يعرف مدى التنوع في اهواء ذلك الجيش فطوراً بالترهيب وطوراً بالترغيب .

وبث داخل الجيش مجموعة دعايات ، مثل « ان الحسن يكاتب معاوية على الصلح فلم تقتلون انفسكم »[٢٢٨] وبعث الى عبيد الله بن عباس رسالة استطاع استمالته بها :

« ان الحسن قد راسلني في الصلح ، وهو مسلم الأمر إلي فان دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً ، وإلا دخلت وانت تابع ، ولك إن اجبتني الآن ان أعطيك الف الف درهم ، أعجل لك في هذا الوقت نصفها ، واذا دخلت الكوفة النصف الآخر »[٢٢٩] .

واستطاع معاوية أن يضم إليه عبيدالله بن عباس بهذه الكلمة . وخان هذا الأخير إمامه الحسن . وكان هو المحرض الأول لقتال معاوية . فهي حالة كان يدركها الإمام الحسن ، وأدركها معاوية ، لذلك عزف له على وتر الإغراء والرشا . ورأينا كيف ان الجيش العراقي لم يعزم على الخروج إلا للوم هؤلاء القوم . فهو مستعد للتراجع حينما يظهر له مبرر لذلك . وأي مبرر أعظم من انكسار القيادة العليا للجيش . فعبيد الله بن عباس الذي خان الإمام الحسن (ع) ، كان يملك قابلية الرشوة والاغراء . فحرب مع الحسن ، قد تطول ، وأفضل له من ذلك دنيا قريبة واستكانة مضمونة . فراح يدبر عملية خيانة داخل الجيش ، فاستجاب له قطيع من الرعاع فانطلقوا الى معاوية ، ويذكر اليعقوبي ، ان عبيد الله بن عباس تسلل في غلس الليل ومعه ثمانية آلاف من الجيش ، وكانوا

---

(٢٢٨) ـ شرح النهج ـ مصدر سابق .

(٢٢٩) ـ المصدر .

كلهم من أهل الأطماع ، فترك هذا الحدث اثراً سلبياً في باقي الجيش ، وكل عارف بقضايا الحروب ، وكل عالم بطبيعة الجيوش ، يدرك مدى ما يمكن أن تخلّفه عملية انشقاق مثل تلك ، أو خيانة قيادة عليا ، خصوصاً ان القيادة لم تكن اعتباطية ، فعبيد الله والٍ على اليمن ، وواحد من اتباع الإمام علي (ع) وقد قتل بسر بن ارطاة ولديه . فتراجع هكذا رجال جديرٌ ان يترك اثره على جيش منهار ومختلف الطباع والأهواء ، فانتشر الاضطراب في هذا الجيش وكادت عراه ان تنكسر ، لولا ان بادر الى احكامها ، واحد من خلص شيعة الإمام الحسن ، وهو قيس بن سعد ، ابن واحد من أكبر رموز المعارضة في « السقيفة » . فقد عرف ان سبب اضطراب الجيش ، كان بسبب ما تركته خيانة عبيد الله بن عباس ، فقام خطيباً فيهم ، يكشف لهم عن حقيقة الأوصاف التي يعرفونها عنه ، حيث تبين أمره وأميط اللثام عن حقيقته ، فقال :

« ان هذا واباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيراً قط ، إن أباه عمّ رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) خرج يقاتله ببدر فاسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري فآتى به رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فأخذ فداءه ، فقسمه بين المسلمين وإن أخاه ولّاه علي على البصرة فسرق ماله ومال المسلمين فاشترى به الجواري ، وزعم ان ذلك له حلال ، وان هذا ولّاه علي على اليمن فهرب من بسر بن ابي ارطاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن هذا الذي صنع »[٢٣٠] . وسرعان ما أعادت هذه الكلمة ، التوازن الى الجيش ، وادركوا ان الخيانة كانت طبيعية من عبيد الله بن العباس ، وما برحوا ان قالوا : « الحمد لله الذي أخرجه من بيننا »[٢٣١] .

وتولى بعد ذلك قيس مهمة القيادة في جيش الحسن (ع) وبعث برسالة إليه ، يخبره بما وقع من أمر عبيد الله بن عباس . وكان ذلك بمثابة دليل ملموس على مدى اهتزاز جيشه . فازداد يقينا ، وخفّ اعتماده على هذا الجيش . اما معاوية ، فدامت عملياته الدعائية داخل الجيش ، بحثاً عن العناصر الأخرى ، ذات

---

(٢٣٠) ـ مقاتل الطالبيين ( ص ٩٥ ) ، وتاريخ الطبري ( ٤ / ١٩٨ ) .

(٢٣١) ـ مقاتل الطالبيين ( ص ٦٥ ) .

الأطماع الرخيصة . فزاد في نشر العيون ، وإشاعة البلبلة . خصوصاً لمّا رأى مخططه قد نجح ، وكان مما اذاعه في « المدائن » ان قيس بن سعد قد صالح معاوية ، ودخل صفه ، كما اذاع ـ حسب اليعقوبي ـ خبر مقتل « قيس بن سعد » .

وسار على ذلك النهج ، ينشر الرعب والذعر في العراقيين ، ويغريهم بالمال والمناصب أحيانا .

وكانت كل إشاعة تنشر تجد لها من يصدقها ، فليس مستحيلا ان يغدر قيس بجيشه ويخونه ، ما دام عبيد الله قد فعلها وهو من هو في ولائه وقربه من الإمام الحسن (ع) بل وقد صدّق بعضهم اشاعة ان الحسن قد صالح معاوية ، فكل شيء وارد ، لقد اختلطت الأوراق ، والكل بات متهماً حتى تثبت له البراءة ! وقد عانى الإمام الحسن (ع) الأمرين من جيشه أكثر من معاوية ، فما يفعل الإمام الحسن (ع) بجيش مريض ؟ لقد أغدق معاوية أمواله ورشاويه ، ولم يغرهم الإمام الحسن (ع) إلا بالجهاد والجنة ، فكان ان هرب عبيد الله مع ثمانية آلاف الى معاوية ، وهرب الكندي آليه مع مائتي رجل بعد أنْ أغراه معاوية بخمسمائة ألف درهم ، وكان الإمام الحسن قد وجهه قائداً على أربعة آلاف ليعسكر بالأنبار[٢٣٢] .

وعمّت السرقة في صفوف الجيش ، فراح ينهب بعضهم بعضاً ، لمّا سمعوا أنّ قيساً قد قُتِلَ ، ولّما اذاع المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن الحكم ان الحسن (ع) قبل الصلح ، ويذكر الطبري أنهم نهبوا بعضهم بعضاً حتى انتهبوا سرادق الحسن ، واستلبوا منه رداءه[٢٣٣] ، وراح بعضهم يكفّره على غرار ما فعل الخوارج بأبيه ، فقال بعضهم ـ وأراه من الخوارج المندسين ـ « اشركت ياحسن كما اشرك ابوك من قبل » .

وتعرض الإمام الحسن (ع) الى عمليات اغتيال من قبل عناصر جيشه ، فجاءه مرة واحد من بني أسد ـ الجراح بن سنان ـ وأخذ بلجام بغلته ، وطعن الإمام في فخذه فاعتنقه الإمام وخرا الى الأرض . حتى انبرى له عبد الله بن حنظلة

---

(٢٣٢) ـ مقاتل الطالبيين ( ترجمة الحسن بن علي ) .

(٢٣٣) ـ تاريخ الطبري ( ٤ / ١٢٢ ) .

الطائي ، فأخذ منه « المغول » وطعنه به . وطعن مرة أخرى في اثناء الصلاة[٢٣٤] .

ماذا يفعل الإمام بعد كل هذا ، إنه رغم الإشاعات وما فعلته في جيش الإمام ، رأى ان ينّبه جيشه الى مضاعفات السلام مع معاوية ، لعلهم يفهمون .

إن معاوية يواجه الإمام الحسن (ع) بنفوذ قوي ، له عناصره داخل جيشه نفسه ، فلابدّ من قبول الصلح ، حفاظاً على الحد الأدنى من مصلحة الآمة ، التي كانت يومها في حقن الدماء . وما دام أن الإمام الحسن (ع) يرى ان معاوية بلغ من العمر ما يكفيه ، فإنه فضل الإنتظار ، بأن تكون الخلافة لبني هاشم من بعد معاوية .

فبدأ يهيء أصحابه للقبول بالصلح ، قائلاً : « اني خشيت ان يجتث المسلمون عن وجه الأرض فأردت ان يكون للدين ناعٍ . ثم قال : أيها الناس : « ان الأمر الذي اختلفت فيه انا ومعاوية إنما هو حقٌ أتركه لإصلاح أمر الأمة ، وحقن دمائها » ، وقال « لم ارد بما رايتم الا حقن دمائكم واصلاح ذات بينكم »[٢٣٥] .

عرف ان قتال معاوية قد يؤدي الى سفك الدماء ، ومحو الصلحاء ، واذلال المؤمنين : « والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلما ، والله لأن أساله وأنا عزيز ، أحب إليّ من أن يقتلني وأنا أسير أو يمن عليّ فتكون سبة على بني هاشم الى آخر الدهر ، ولمعاوية لا يزال يمن بها وعقبه على الحي منّا والميت »[٢٣٦] .

لقد تمثل الإمام ، مشهد الحديبية ، يوم قبل الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بالصلح مع المشركين ، فرأى ان ذلك أمر ضروروي أيضاً مع أبنائهم اليوم ، لأن ميزان القوى غير متكافىء ، وما كان للإمام الحسن أن يرضخ للصلح إلا بعد أن نادى به معاوية ونشر في الناس من يشيعه .

وكان معاوية قد بعث الى الحسن سراً ، ليصالحه فابى الحسن (ع) حتى أجابه

---

(٢٣٤) ـ ينابيع المودة .

(٢٣٥) ـ أعيان الشيعة . والامامة والسياسة ( ١ / ٧٧ )

(٢٣٦) ـ حياة الإمام الحسن بن علي ( ٢ / ١٣٣ ) .

بعد ذلك[٢٣٧] .

الفى الإمام نفسه لدى معضلة تستلزم شجاعة في الإختيار والقرار ، فإمّا ان ينازع معاوية في السلطان ، ليكون له ، أو يتركه على ان يكون له من بعده ، فالإمام الحسن ، لم يكن يعدو خلف الملك والحطام ، ولا أحد من أئمة أهل البيت (ع) كان كذلك ، ولو كان الأمر كذلك ، لنازع معاوية الملك وزجّ بالجيش في معركة شاملة ، أو طلب اللجوء الى معاوية ، ليّوليه على احدى البلدان أو ينظر في أمره .

ان الأمر كان يختلف تماماً ، تماماً . فهو (ع) نظر الى المستقبل . فليربح القدر القليل من مصلحة المسلمين ، ويعود الأمر الى أهله . فلو دخل في حرب مع معاوية ، فربما سيبقى الأمر كذلك ، وربما خلف معاوية من يسير أكثر منه في طلب الملك والفتنة في أمة الإسلام .

فما كان له (ع) إلاّ ان يستجيب للصلح وهو يدرك أهداف الأمويين ، مثلما استجاب جده للصلح مع المشركين وهو يعلم نفوسهم .

وذكر ابن عبد البر ، في الإستيعاب ، بأن وثيقة الإمام في الصلح كانت تتضمن شروطاً معينة ، قال :

« ان الإمام كتب الى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه على ان يشترط عليه ان لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز ولا أهل العراق بشيء كان في ايام أبيه ، فأجابه معاوية وكاد يطير فرحاً إلا أنه قال : أما عشرة أنفس فلا أؤمنهم ، فراجعه الحسن فيهم فكتب إليه يقول : إني قد آليت متى ظفرت بقيس بن سعد ان أقطع لسانه ويده ، فراجعه الحسن إني لا أبايعك ابداً وأنت تطلب قيسا أو غيره بتبعة ، قلّت أو كثرت ! فبعث إليه معاوية حينئذ رقّاً أبيض وقال : اكتب ما شئت فيه وأنا التزمه ، فاصطلحا على ذلك ، واشترط عليه الحسن ان يكون له الأمر من بعده ، فالتزم ذلك كله معاوية » .

ويذكر أبو الفداء في تأريخه ان الإمام الحسن اشترط على معاوية هذه الشروط :

---

(٢٣٧) ـ تذكرة الخواص .

« وكتب الحسن الى معاوية واشترط عليه شروطاً وقال : إن أجبت إليها فأنا سامع مطيع ، فأجاب معاوية إليها ، وكان الذي طلبه الحسن أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة ، وخراج دار أبجرد من فارس ، وأن لا يسب عليا ، فلم يجبه الى الكف عن سب علي فطلب الحسن أن لا يشتم علياً وهو يسمع فاجابه الى ذلك ، ثم لم يف له به » .

ويؤكد على ذلك ايضاً ، كل من ابن الأثير ، والطبري ، « اذ قال الحسن : وأنا قد اشترطت حين جاء كتابك وأعطيتني العهد على الوفاء بما فيه ، فاختلفا في ذلك ، فلم ينفذ للحسن من الشروط شيئا » .

ثم كان الشيء المركزي في شروط الصلح ، ان ترجع الخلافة بعده للحسن[٢٣٨] ، فاذا لم يكن الحسن ترجع الى الحسين (ع) .

هناك منطقان كانا يواجهان الإمام الحسن (ع) الأول : منطق الثورة والثاني منطق الإصلاح . وعندما يفشل في الثورة على الواقع الأموي . فانه لا يفّرط في منطق الإصلاح ، ووثيقة الصلح تضمنت ذلك ، فهناك من قتل أبوه مع علي (ع) في الجمل وصفين ، ويدرك الحسن ان معاوية آخذهم لا محالة بالإنتقام ، بأن يمنع عنهم العطاء ، لذلك طلب ضمن المعاهدة بأن يوزع عليهم ألف ألف درهم ، ويجعلها من خراج دار أبجرد . فلم يكن طلبه لخراج « دارابجرد » كما أورد ابو الفداء ، سابقاً ، طمعاً في الحطام من قبل الحسن (ع) وإنما من أجل ضمان مورد مادي ليتامى شهداء صفين والجمل ، الذين قد يواجهون حالة البؤس في حكومة معاوية .

كما ان الحسن يعرف أن أصحابه وشيعته المقربين قد تطالهم يد معاوية ، للإنتقام ، فكان لابدّ ان يشترط عدم إلحاق أي اذى بهم .

واشترط عدم سب الإمام علي (ع) لأن ذلك يحرّف فضائل الصالحين ورموز الأمة في عين الناس . ولأن ذلك مخالف للإسلام ، وكيف لا يخالفه والإمام علي (ع) أحد الأركان الذين قام الإسلام على أكتفاهم .

---

(٢٣٨) ـ تهذيب التهذيب ، الإمامة والسياسة ( ١ / ١٦٣ ) .

هذه باختصار ، هي خلفيات الصلح ، التي يمكن تلخيصها في الآتي :

١ ـ تماسك كامل في جيش معاوية ، يقابله انشطار في جيش الإمام الحسن (ع) .

٢ ـ دعم مالي قوي وهائل لعناصر الجيش الأموي ، مقابل الفقر والحاجة في صفوف الجيش العراقي .

٣ ـ جهل مطبق في جيش الشام ، يقابله وعي أعرج ومبتور في أغلبية الجيش العراقي ، الجهل الشامي الذي يؤدي الى التمحور المضاعف حول معاوية ، والوعي المبتور الذي يؤدي الى هروب الجيش العراقي وعدم استجابته للإمام الحسن (ع)[٢٣٩] .

٤ ـ طاعة مطلقة في جيش الشام ، تقابلها انشقاقات وتجزّؤات داخل جيش العراق .

كل هذا وأكثر منه ، جعل معنويات الجيش العراقي تنهار ، وتلتمس الإستقرار ، وحطام الدنيا .

أدرك معاوية أن الإمام الحسن بقي وحده في الميدان ، وان جيشه لا يعدو كونه نموراً من ورق ، يعشعش الرعب والتمزق في أعماقها . وادرك ان صلح الحسن انما كان لأن هذا الأخير لم يجد عليه عوناً[٢٤٠] ، فهو صلح من موقع ضعف ، ضعف في الأمة ! لذلك مزّق معاوية الوثيقة ، ونقض العهد ، وتلاعب بالأوراق . استمر معاوية في سب الإمام علي (ع) ولعنه على المنابر ، وصارت سنة لأهل الشام يرددونها بعد كل صلاة ، وكأن الصلاة لا تقبل إلا بسب علي (ع) . هذا الذي قام الإسلام به ، وبه كان الصحابة يميزون بين منافق مبغض له ومؤمن محب له ، حتى قال الشاعر :

أعلى المنابر تعلنون بسبه ... وبسيفه نصبت لكم أعوادها

(٢٣٩) ـ الإمامة والسياسة ( ١ / ١٦٣ ) .

(٢٤٠) ـ يذكر ابن مسكويه في تجاربه أن الإمام الحسن قال : ياأهل العراق ، إنّه سخَّى بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم آياي ، وانتهابكم متاعي .

وذكر صاحب العقد الفريد ـ ان أبا عبد الله الجدلي ، قال : دخلت على أم سلمة زوجة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فقالت لي : أيسب رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فيكم ؟ فقلت : معاذ الله ، أو سبحان الله ، او كلمة نحوها فقالت : سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول : من سبّ علياً فقد سبّني[٢٤١] .

وقال يومها مروان بن الحكم : لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك ـ أي بسب علي (ع)[٢٤٢] .

ثم رفض معاوية ان يسلم للحسن ، خراج دار ابجرد ، لدعم الفقراء من شيعته ، ونقض هذا الشرط ايضاً حسب ابن الأثير والطبري وأبي الفداء . وبدلاً من ذلك عمد معاوية الى محو آثار الشيعة ، وسحقهم عن آخرهم ، وجعل عليهم عمّالاً بطّاشين ، جبابرة ، عاثوا فيها فساداً ، وشرّدوهم وقتلوهم ، وخطب فيهم معاوية : « انظروا الى من قامت عليه البينة انه يحب علياً واهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » . وكان من الذين سقطوا ضحايا على مذبح العقيدة والولاء الهاشمي ، الصحابي الجليل « حجر بن عدي » ، ذلك الذي مازال سيفه ذابّا عن الإسلام وتحت راية الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وما قتلوه إلا لأنه رفض عليهم سب الإمام علي (ع) ولعنه من على المنابر وفي الصلوات ، وضاقت به الطغمة الأموية . ونظرت في أمره ، بعد أن أصبح له انصار يرومون التصحيح والنهي عن المنكر ، فما كان إلاّ أن عزموا على معاقبته ، فراح زياد ، يطلبه . وقد التف بحجر جماعة من أنصاره الكوفيين ، التي دُهش منها زياد فقال موجهًا خطابه لأهل الكوفة :

« ياأهل الكوفة ، أتشجون بيد ، وتأسون باخرى ، ابدانكم علي واهواؤكم مع حجر الهجهاجة ، الأحمق المذبوب ، انتم معي وإخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر ، هذا والله من دحسكم ( أي : افسادكم ) وغشكم والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم »[٢٤٣] .

---

(٢٤١) ـ كما في مستدرك الصحيحين : عن أبي عبد الله الجدلي .

(٢٤٢) ـ الصواعق المحرقة (ص ٣٣ ) .

(٢٤٣) ـ الكامل ( ٣ / ٤٧٦ ) . واليعقوبي ( ٢ / ٢٣٠ ) .

ثم ما فتىء ان سلّمه الكوفيون الى الشرطة الأموية ، لينفذّوا فيه جريمة الإعدام .

ولم يكن دافع حجر ، سوى ايمانه ، ومن هو حجر ؟ حتى لا يخونه أهل الكوفة ، ولا يقتله معاوية صبرا . لقد خان الكوفيون الإمام علياً (ع) وبنيه ، وقتل الأمويون خيرة آل البيت (ع) فدعا حجرٌ ربه :

« اللهم إنا نستعديك على امتنا فان أهل الكوفة شهدوا علينا وان اهل الشام يقتلوننا ، أما والله لئن قتلتموني بها فاني لأول فارس من المسلمين هلك في واديها وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها » .

ثم قال : « لا تطلقوا عني حديداً ، ولا تغسلوا عني دماً ، فاني ملاق معاوية على الجادة »(٢٤٤) .

وكان من المنكرين لذلك عائشة اذ قالت لمعاوية : أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه(٢٤٥) .

وقالت : سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول : « سيقتل بعذراء أناس يغضب الله لهم واهل السماء »(٢٤٦) .

---

(٢٤٤) ـ الإستيعاب ( ١ / ٢٥٦ ) .

(٢٤٥) ـ اليعقوبي ( ٢ / ٢٣١ ) . الكامل ( ٣ / ٤٨٧ ) .

(٢٤٦) ـ ان قتل حجر واصحابه بعذراء كان من الكبائر التي ارتكبها معاوية بن سفيان ، لمكانة حجر في الاسلام ، ويكفي انه قتل في عذراء التي افتتحها هو مع المسلمين ، لقد خلد التاريخ عذراء وهاهو ضريحه مأوى للمؤمنين بينما قتلته اصبحو في مزبلة التاريخ .

# قتل الحسن .. المؤامرة الكبرى

لقد قويت شوكة الأمويين ، وركعت الجزيرة تحت أقدامهم ، فأرهبوا أهلها ، وقتّلوا خيرتها ، فما قام لهم قائم يردهم ، ولا ممانع يزجرهم . ونظروا في وثيقة الصلح فوجدوها مثقلة بشروط لا تتفق ومشروعهم التخريبي . وأي دين ، وأي ضمير ، يمنعهم من مخالفة العهد ونقض الميثاق ، وقد قتلوا خيرة المسلمين وأفسدوا في الأرض فساداً عريضاً . إلا أن معاوية أدهى من أن يتسرع في اتخاذ القرار . وفضّل ان يتخلص من الحسن ، لأن في التخلص منه تخلص من الوثيقة .

ولكن يجب ان يتم القتل في ظروف غامضة ، فنظر الى أقرب الناس الى الإمام الحسن (ع) وأكثرهم عداء له ، فوقع نظره على « جعدة بنت الأشعث » احدى ازواج الحسن (ع) وكان لهذا الإختيار اسبابه التي ادركها معاوية بدهائه البشع ، وهي :

١ ـ ان اباها « الأشعث بن القيس » وهو الذي فرض على الإمام علي (ع) التحكيم ، ورفض عليه انتداب ابن عباس والأشتر .

٢ ـ كانت تعاني عقدة النقص ، لأنها لم تنجب من الحسن ابناء ، بخلاف نسائه الأخريات .

٣ ـ هي من عائلة مهيأة للتآمر على آل البيت ، فقد كان ابوها قد شرك في دم الإمام علي (ع) وابنه شرك في دم الحسين ـ فيما بعد ـ .

فأغراها معاوية بالمال وبمستقبل زاهر حيث بشّرها بالزواج من ابنه يزيد ، ومائة

الف درهم ، ولماذا لا تختار يزيد ، فابوها واخوها لم يصمدا أمام دنيا معاوية وبنيه ، وما ردّهم الضمير عن الحاق الأذى بالعترة الطاهرة . ولماذا لا تختاره والدنيا كلها معه . وليس لها من الحسن إلا الشرف والدين والورع ، فهي في حاجة الى زوج يلاعب القرود مثل يزيد ، ويشرب الخمر ، فيمرح ، ويدع الصلاة فيلهو ، فأولى لها ذلك من الحسن ، الذي يضيق على متعتها بالصلاة والقيام والزهد .

أنه يزيد القصور والدنيا . فهل المرأة من هذا النوع الذي يسمو على الدنيا .

راح الإمام الحسن ضحية زهده ، وورعه ، فليس له من الدنيا سوى التهجد والعبادة وإحقاق الحق . وهذا زاد لا يستهوي النساء ، فقبلت الصفقة ، وكان مروان بن الحكم ، هو عراب المخطط بينها ومعاوية .

وفيما كان الإمام الحسن (ع) صائماً ، اذا بها تقدم له افطاراً وقد دسّت فيه السم الذي ارسله إليها معاوية عبر مروان بن الحكم ، فتناوله (ع) فتقطعت امعاؤه ، واشتد عليه الألم ، واستبشر بالجنة ولقاء الأحبة ونظر إليها وقال :

« ياعدوة الله ، قتلتيني قتلك الله ، والله لا تصيبين مني خلفاً ، ولقد غرّك معاوية ، وسخر منك يخزيك الله ويخزيه »[٢٤٧] .

ونفذت الخطة ، وانتهى امر الحسن ، وكان على « مسممة الازواج »[٢٤٨] ان تلتمس الأجر .

وخسرت زوجها ، ورفض معاوية تزويجها بيزيد ، اذ كيف يزوّج من قد خانت اشرف زوج تمنته النساء . ومعاوية يدرك كل ذلك فهو يعرف ان الناس إنما انقادوا له لماله وسلطانه .

فقال لها : إنا نحب حياة يزيد ، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه[٢٤٩] .

وذكر بعض المؤرخين ـ مثل أبي الفداء ـ ان يزيد هو الذي سمه وليس أبوه ، بل وعارض بعض المؤرخين « الكاريكاتيريين » ان يكون معاوية قد سمّ الحسن ،

---

(٢٤٧) ـ تحف العقول ( ١٥٨ ـ ١٦٤ ) .
(٢٤٨) ـ هذا هو الأسم الذي كان يطلق عليها ـ أعيان الشيعة ـ .
(٢٤٩) ـ مروج الذهب الجزء الثالث ( ذكر معاوية بن أبي سفيان ) .

وعلى راسهم ابن خلدون ، ومن رجع إليه ، من أمثال د. فيليب حتى وعبد المنعم في ـ التاريخ السياسي ـ وحجّتهم في ذلك التي عارضوا بها المؤرخين الموثقين ، ان ذلك لا يمكن صدوره عن معاوية ، فهي وجهة نظر قائمة وصادرة عن موقف نفسي معين ، يقول ابن خلدون :

« وما ينقل من ان معاوية قد دس السم الى الإمام الحسن على يد زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة ، وحاشا لمعاوية ذلك »[٢٥٠] .

ابن خلدون كغيره ، كان يؤرخ لعصبيته ، وللبلاط ، وإلا كيف يرفض حدثاً وهو الذي أخذ « فكرة السبئية » على علّتها من تاريخ الطبري ؟ أما عن أن الشيعة هم الذين وضعوا الرواية ، فان الرواية ثبتت عند أهل السنة ، وذُكرت في تذكرة الخواص ، والإستيعاب وتأريخ ابي الفداء والنصائح الكافية ومروج الذهب وابن ابي الحديد .

وكيف يستبعد ابن خلدون ان يأتي معاوية بذلك ، وهذا التاريخ يعلن الأخبار مجلجلة ، حول جرائم معاوية . وماذا يمنع معاوية من الحسن ، وقد رام قتل أبيه ، وخيرة الصحابة . لقد دافع ابن خلدون عن طواغيت التاريخ ، وحرّف الكثير من الحقائق تزلفا للبلاط . ثم ما أن التحق الإمام الحسن (ع) بالرفيق الأعلى ، حتى جاء الخبر الى معاوية ، ففرح وسرّ ، ثم سجد وسجد من كان معه[٢٥١] .

ورفض بنو أمية ان يدفن الإمام الحسن بجوار النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، واتصل كل من مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص بعائشة وحرّضاها على ذلك ، فمنعت ان يدفن بجوار جده وقالت : لا تدخلوا بيتي من لا احب ، إن دفن الحسن في بيتي لتجز هذه ـ وأومأت الى ناصيتها ـ وذكر كل من ابن ابي الحديد ، والسبط الجوزي واليعقوبي وأبو الفداء ، منع عائشة لدفن الحسن (ع) بجوار جده . بل وذكر ابن عساكر ، انه حدث بين لواء مروان ولواء

---

(٢٥٠) ـ تاريخ ابن خلدون الجزء الثاني ( باب ذكر معاوية بن أبي سفيان ) .
(٢٥١) ـ أبن قتيبة ( ١ / ١٧٥ ) .

الحسين ، رمي بالسهام بخصوص مسألة « الدفن » ! وشاع خبر الفاجعة ، وبكت الحسن ، البلدان ، وكانت تلك بمثابة محطة ، أعاد فيها الناس نظرهم وصوبوه في قضية البيت الهاشمي ، فرقّت قلوبهم ، وارهفت مشاعرهم تجاه المأتم .

# واشرأبّ الملك بنفسه

كان موت وثيقة الصلح بالنسبة لمعاوية أمراً ضروريا ، لذلك كان قتل الحسن ! .

وأهم شرط ظل معاوية يدرس إمكانيات نقضه ، هو إرجاء الخلافة الى الحسن أو الى الحسين في حالة موت الحسن ، لقد انتهى الحسن ، وانتهت معه الوثيقة ، فدّبر معاوية أمر المستقبل فرأى ان يأخذ البيعة لابنه يزيد ، ليتحول أمر الخلافة الى ملك عضوض ، ولتبدأ رحلة المسخ في الأمة ، وسار معاوية يفرض على كل البلاد ، البيعة لابنه يزيد ، ويأمر عمّاله بممارسة القمع والبطش لإرغام المسلمين على قبول بيعة يزيد وكان أهل المدينة ممن رفض ، وكان عليها سعيد بن العاص[٢٥٢] وكان بنو هاشم في مقدّمة الرافضين للبيعة ! .

أبعد هذا كله ، كيف يأتي مورخو البلاط ، ليجدوا الأعذار لمعاوية بن أبي سفيان ؟ وأي عذر بقي بعد قتله للمسلمين ، وتحريفه لمسيرة الحكم في الاسلام ؟ لقد وجدوا الأعذار لمعاوية في اراقة دماء آل البيت ، وفي تخريب الأمة ، وتفريغ الاسلام من محتواه ، ولم يجدوا عذراً واحداً للمختار الثقفي إذ يخرج على بني أمية طلباً للتغيير ! .

وقف معاوية متحدياً جماهير الإسلام ، ووجه كلمته القارصة الى أهل الكوفة :

---

(٢٥٢) ـ مروج الذهب ( ٣ / ٢٧ ) .

« يأهل الكوفة ! والله ما قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت انكم تصلون ، وتزكون ، وتحجون ؟ ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم وقد آتاني الله ذلك ، وانتم كارهون ، ألا ان كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين »[٢٥٣] .

ثم بايع ليزيد بالشام ، عقب وفاة الحسن (ع) وبعث لعماله يطلب منهم تهيئة الناس لبيعة يزيد ، فتمرّدت الأغلبية ، غير أن قوة السلطان قد اجبرتهم على الإذعان فما بقي إلاّ مجموعة من المتمرّدين ، اعتصموا بالحسين (ع)[٢٥٤] .

فقام معاوية خطيباً في الناس بخطبته الشهيرة :

« فاني قد احببت أن أتقدم إليكم انه قد أعذر من أنذر ، إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك واصفح وإني قائم بمقالة فاقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه غيرها حتى يسبقها السيف الى راسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه »[٢٥٥] .

ودعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيفه فإن ذهب رجل منهم يردّ علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد الله واثنى عليه وقال :

ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله .

بايع الناس تحت ظروف القمع والبطش الشديدين ، وبقي الإمام الحسين (ع) وجماعة لم تبايع .

واتفق ان أخذت المنية معاوية بعد أن وغل في السبعين . وبعد ان ترك مقاليد السلطة لمجموعة من الغلمان على رأسهم ابنه الفاسق ، يزيد ، حيث أذلّت بيعته المؤمنين .

---

(٢٥٣) ـ العدالة الإجتماعية .

(٢٥٤) ـ الإمامة والسياسة ( ٢ / ٦ ) .

(٢٥٥) ـ الكامل ( ٣ / ٥١٠ ) .

# وملك يزيد

دخل يزيد معمعة السلطة في بداية رجب من سنة ٦٠ حسب اليعقوبي ، وكان لابد أن يرسي عرشه على كل الرؤوس ، لتذل له ، حتى لو كانت رؤوسا هاشمية ، فبادر بالكتابة الى عامله بالمدينة ، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وقال له : اذا أتاك كتابي هذا ، فأحضر الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، فخذهما بالبيعة لي ، فان امتنعا فاضرب أعناقهما ، وابعث لي برؤوسهما ، وخذ الناس بالبيعة ، فمن امتنع فانفذ فيه الحكم ، وفي الحسين وعبد الله بن الزبير ، والسلام[٢٥٦] .

لقد اختصر يزيد الطريق منذ البداية ، اذ رام قتل الحسين (ع) بمجرد الامتناع عن البيعة . كان القدر حليف القضية الحسينية ، لم يدعها تُغتال في جنح الظلام ، بل أراد ان يهيء لها اسباب الإنفجار الفاضح ، كان بودّ الوليد ان يقتله اذ جاءه وابن الزبير ، فقالا :

نصبح ونأتيك مع الناس ، وأشار مروان على الوليد بعدم السماح لهما بالخروج ، غير ان الأقدار أعمت بصيرة الوليد فتركهما يخرجان ، فخرج بذلك الحسين الى مكة ، فلبث فيها بضعة أيام وكاتب منها أهل العراق ، فكان ردّهم بزعامة ابن ابي هانيء وسعيد بن عبد الله :

---

(٢٥٦) ـ الكامل ( ٤ / ١٤ ) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للحسين بن علي من شيعته المؤمنين والمسلمين ، أما بعد فحيّ هلا فانّ الناس ينتظرونك ،لا إمام لهم غيرك ، فالعجل ثم العجل ، والسلام » .

وبعث إليهم بعد ذلك رسوله « مسلم بن عقيل » فأخذ منهم البيعة للإمام الحسين (ع) .

فكان ذلك الخيار الصعب والوحيد للحسين ، لينطلق الى العراق . إلا ان عيون يزيد قد اخبرته بمسير الحسين (ع) الى العراق ، فوكّل به عبيد الله بن زياد ، لقتاله .

كان عبيد الله بن زياد قد قتل مسلم بن عقيل ، رسول الإمام الحسين الى أهل الكوفة ، ووصل الخبر الى الحسين (ع) وقد بلغ الى « القطقطانة » ، فبعث عبيد الله بن زياد بالحر بن يزيد الرياحي في مجموعة لمنع الحسين (ع) من ان يعدل ، ثم بعث بعمر بن سعد في جيش جرار ، يهدفون الى قتل الإمام الحسين (ع) ، فكان ميدان القتال بكربلاء حيث كان الإمام الحسين (ع) في مقدمة اثنين وسبعين رجلاً من أهل بيته وشيعته الخلّص ، بينما جيش يزيد بلغ أربعة آلاف جندي .

حاول يزيد منذ البداية قتل الحسين (ع) اذا استعصى عن مبايعته ، وما كان الإمام الحسين يرى ان يبايع رجلاً من أكبر فساق بني أمية ، فكان الخيار الوحيد أمام الإمام الحسين ، أن يستقبل الموت مع آل بيته الذين ابوا إلا الخروج معه ، إنه التاريخ يعود من جديد ، ليشهد معركة الحق كله ضد الباطل كله اذ ليس الآن أمام جيش بني أمية سوى الحسين (ع) وآل البيت وشيعته القلائل ، وهم بقية الرسول (ص) .

# ملحمة كربلاء

إنني اتجنب أن أكون أديباً في قضايا التاريخ ، إلا في هذا الموقف ، إنها الجذبة التي لا أتمالك فيها أحاسيسي مهما كان الأمر ، لأن الحدث بلغ من الدراماتيكية ما يفقد الإنسان تقنياته المعرفية .

إنه إمام الأمة ، وإنه جدّي ، وإنه الإنسان . كل هذا لا يسمح لي أن اقوم بمجرد سرد وإحصاءات و « فبركات » في مثل هذا المشهد . فلا يلمني القارىء اذا أخذت بي هذه الجذبة التي لا أملك فيها نفسي أمام مذبحة ابي عبد الله الحسين (ع) .

لكُم التاريخ ، ولكم الوثائق ولكم كل شيء . ولي أن أبكي ، واحزن و « اشقشق » فمن هنا دخلت حرم آل البيت (ع) وفيه ولدت من جديد .

مازلت أذكر اليوم الذي عشت فيه ماساة كربلاء بتفاصيلها ، حيث ما تزال ظلالها الحزينة ترافق ظليّ الى اليوم . وتفاصيلها لا يتسع لها هذا الكتاب ، فهي تطلب في غيره ، والآثار النفسية التي تركتها في أعماقي ، ما زلت أجرعها كالسموم ، ولا أملك ان انقلها كما أحسّها واستشعرها في كياني ، لقد وجدت نفسي فجأة في هيئة أخرى ، وفي شرياني جرى دم ، هو مثل تلك الدماء التي اريقت على رمال الطفوف ، ولا عجب من ذلك ، فأنا الحسيني وجدي هو الحسين (ع) « وأن العرق دساس » ، ومنذ ذلك اليوم ، كان كل يوم عندي عاشوراء ، وكل أرض كربلاء .

كان الإمام الحسين (ع) يريد أن ينتشل الامة من جمودها ، يحركها للثورة ضد الكيان الأموي الجاثم على السلطة . ولابد له من تضحية ، ولابد من دم شريف يراق ، ليحدث الانقلاب في نفوس القوم الذين خذلوا قضيته وما زالوا يخذلون ! .

لقد سمع الرسول (ص) يقول لأم سلمة ، بعد ان أعطاها تربة في قارورة : اذا أصبح هذا التراب أحمر فاعلمي ان ابني الحسين قد مات[٢٥٧] . كان يعلم منذ البداية كما أبيه ، أنه سيموت لا محالة مقتولا ، لذلك لمّا وصل الى كربلاء وسأل عنها القوم ، قال :

هذا كرب وبلاء . لقد حاصره الجنود في هذه المنطقة النائية حتى ينفذوا فيه الجريمة .

فالقضية قبل كل شيء ، قضية انسانية ، اذ ان أهله معه وأبناءه ، ولابدّ أن يراعي الأعداء حقه في حماية هؤلاء ، نزلوا يلتمسون ماء ، فمنعهم القوم . منعوهم وهم لا يابهون . ولعمري أي ملة وأي دين كان يجيز لهم منع الماء عن الأطفال والنساء . وهب اننا عذرناهم في منع الحسين (ع) فما بال الأمهات ورضّعهن ، قال شهر بن حوشب وكان من عملاء يزيد : لا تشربون منه حتى تشربوا من الحميم .

طرح عليهم الإمام الحسين (ع) خيارات كثيرة ، فإما أن يدعوه يرجع وأما أن يدعوه يلتقي بيزيد . غير ان القوم المجرمين ، علموا ان وجود الحسين أمام يزيد قد يقلب المعادلة . وقد يثير عليهم لوم الناس وأحقادهم ، فابوا إلا أن يقتلوه في هذه الصحراء النائية ، وليمتص رمل الصحراء دمه ولا يعلم به أحد . فالناس ليس أمامهم رقابة تمنعهم . أجل ، ليس أمامهم إلا الله .

وكانوا به لا يأبهون ! .

لقد قدّر للإمام الحسين (ع) ان يدفع الثمن كلّه . ثمن أخيه وابيه وجدّه . طرح عليهم اختياراته فأبوا إلا أن ينزل على حكم ابن زياد . فقال لهم الحسين :

---

(٢٥٧) ـ الكامل ( ٤ / ٩٣ ) . وراجع عقيلة بني هاشم .

أنزلُ على حكم ابن زانية ؟ لا والله لا افعل ، الموت دون ذلك أحلى .

لقد خرج الحسين في مهمة رسالية ، فرضتها عليه ظروف المرحلة ، مرحلة السيطرة الكاملة والسافرة للمجرمين وأعداء الشعوب على أمة ، انما وُجدت لتخاطب البشرية بالفضيلة والسلام والحرية وكل المعاني التي اندكت في عهد بني أمية ، كان هذا منهج الإمام الحسين (ع) وهو خارج الى الكوفة . حيث قال : « إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالما ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في امة جدّي ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ، ومن ردّ عليّ هذا ، أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين »[٢٥٨] .

ثم راح (ع) يطوف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، وأنهى عمرته[٢٥٩] .

لقد حاولوا تجبين الإمام ، وهو في الطريق إلى الكوفة ، غير انه لم يلتفت إليهم .

مضى في طريقه إلى الموت وهو يهتف :

سامضي وما بالموت عار على الفتى     اذا ما نوى حقًّا وجاهد مسلماً

فهو لم ينهض من بعد أخيه ، إلا لّما نقض معاوية الوثيقة ، ونصب ابنه على الأمة . وكيف يسكت الإمام الحسين (ع) على هذا الأمر . فلابد لصوت أن ينطلق . ولابدّ لضمير ان يهتز :

« إنّا أهل بيت النبوة ، بنا فتح الله ، وبنا يختم ، ويزيد شارب الخمور وراكب الفجور ، وقاتل النفس المحترمة ، ومثلي لايبايع مثله » .

وربما قد نعذره (ع) لو انه استسلم ، وربما امتدحه القوم ، وأعلوا منصبه . غير ان الحسين (ع) هو أمين الله في الارض ، لايحيد عن مصلحة الامة ، ولو أدّى به الأمر إلى خسران حياته ، اذ لاقيمة للحياة في ظل ذلّ وفساد ، ولاقيمة لحياة ،

---

(٢٥٨) ـ الإمامة والسياسة ( ٢ / ٤ ـ ٧ ) .

(٢٥٩) ـ تاريخ الطبري ( ٤ / ٢٨٩ ) .

لاتستثمر في إقامة أركان الدين ونصرة الإسلام . لقد قالها للتاريخ ، واستلهمتها منه الأجيال في مسيرات كفاحها :

« إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي ، ياسيوف خذيني »

لقد صمم الإمام على مغادرة مكة ، ليتجه إلى الكوفة ، حيث الأنصار ، الذين يتأرجحون بين نصرته وخذلانه ، وقد اعترضه الفرزدق وقال له : « ان القوم قلوبهم معك وسيوفهم عليك » .

غير أن الإمام ، كان يرسم خريطة مرسومة سلفا في اللوح المحفوظ ، كان يعلم بما سيجري له ولآل بيته . وقام خطيباً :

« الحمد لله وما شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ، وصلى الله على رسوله . خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة ، وما اولهني الى اسلافي اشتياق يعقوب الى يوسف ، وخير لي مصرع انا لاقيه ، كأني باوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني اكراشا جوفا ، واجربة سغبا ، لا محيص عن يوم خط بالقلم ، رضا الله رضانا أهل البيت ، نصبر على بلائه ويوفينا اجور الصابرين ، لن تشذ عن رسول الله لحمته ، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس ، تقربهم عينه ، وينجز بهم وعده . الا ومن كان فينا باذلا مهجته ، موطنا على لقاء الله نفسه ، فليرحل معنا فاني راحل مصبحا انشاء الله تعالى » .

لقد تآمرت الأمة كلها على الحسين (ع) وآل البيت ، بعضهم بالتقتيل والآخرون بالخذلان . لم يكن الإمام يريد شق الصفوف وتفريق الشعث . لكن حركة الإجرام كانت تتجه صوب قمع كل صوت ، وهدم كل فضيلة ، فالأمة ابتليت بخليفة يشرب الخمور ، ولا يرتاح من اللهو ، ولا يفهم معاني الورع . كان لاهيا عابثاً في الصحراء لّما فرض أبوه بيعته على المسلمين . وجاء متأخراً يلهو بالقرد ، وكان يريد أن يأخذ البيعة غصبا من الحسين (ع) .

وليتهم تركوه ، اذن لما قاتلهم والظرف لا يسمح . لكنهم ارادوا ان يذلوه ببيعة يزيد ، فما كان إلا أن قال (ع) هيهات منا الذّلة ! .

حاول أن يقنع الجيش ، غير انهم منعوه من الماء وأبوا إلا قتله ، فدخل الى

الخيمة التي كانت بها أخته زينب (ع) ـ حيث كان علي بن الحسين مريضاً ـ وهو يقول :

| | |
|---|---|
| يادهر أفّ لـك من خليل | كم لك في الإشراق والأصيل |
| من طـالب وصـاحب قتيـل | والـدهـر لا يقنـع بـالبـديـل |
| وإنّمـا الأمـر الى الجـليـل | وكـل حيٍ سـالـك سبيـلي |

وفي يوم الغد ، حاول مع القوم ان يخلّوا سبيله للرجوع أو ملاقاة يزيد ، أو يفتحوا له الطريق الى أحدى ثغور الأمة ، ليقاتل كباقي المجاهدين ، فأبوا إلا قتله .

فرجع الى أصحابه يكلّمهم : « ان القوم ليسوا يقصدون غيري ، وقد قضيتم ما عليكم فانصرفوا ، فأنتم في حلّ ، فقالوا : لا والله ، ياابن رسول الله ، حتى تكون انفسنا قبل نفسك » .

ثم يذكر اليعقوبي ، ان زهير بن القين خرج على فرس له فنادى : ياأهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله ، نذار عباد الله ! ولد فاطمة أحقّ بالودّ والنصر من ولد سميَّة ، فان لم تنصروهم ، فلا تقاتلوهم ، أيّها الناس ! إنّه ما أصبح على ظهر الأرض ابن بنت نبي إلاّ الحسين ، فلا يعين أحد على قتله ولو بكلمة إلاّ نغّصه الله الدنيا ، وعذّبه اشدّ عذاب الآخرة .

وانطلق الرعاع ، يحرقون خيام الإمام الحسين ، وقتلوا كل من كان معه ، وتشرد حريم الحسين ، وتفرق الصبية هاربين من الهجمة البربرية .

لقد عرفوا أنهم يقتلون ابن رسول الله . فلقد عرّفهم بمنزلته من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وبفضله ، وبالآخرة ، إلا ان الدنيا كانت قد حجبت عنهم كل حقيقة قال لهم (ع) كلمة يسترجعهم فيها الى الإستقامة : « ايها الناس انسبوني من أنا ؟ ثم ارجعوا الى انفسكم وعاتبوها وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ .

الست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسواه بما جاء من عند ربه ؟ .

أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي .

أوليس جعفر الطيار عمي .

اولم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ فان صدقتموني بما أقوله ، وهو الحق والله ما تعمدت الكذب منذ علمت ان الله يمقت عليه اهله ويضرّ من اختلفه ، وان كذبتموني فان فيكم من أن سالتموه عن ذلك اخبركم ، سلوا جابر بن عبدالله الأنصاري وابا سعيد الخدري وسهل بن سعد الساعدي وزيد بن أرقم وانس بن مالك يخبروكم عن سفك دمي » ؟ .

فقال ، شمر بن ذي الجوشن : هو يعبد الله على حرف ان كان يدري ما يقول ! .

فقال ابن مظاهر : والله إني اراك تعبد الله على سبعين حرفا ، وانا أشهد انك صادق ما تدري ما يقول ، قد طبع الله على قلبك ! .

قال الحسين : فان كنتم في شك من هذا القول افتشكون أني ابن بنت نبيكم ؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم .

« ويحكم اتطلبوني بقتيل منكم قتلته ! أو مال لكم استهلكته أو بقصاص أوغرامة ، ثم نادى : ياشبث بن ربعي ، وياحجار بن ابجر وياقيس بن الأشعث ، ويايزيد بن الحارث ألم تكتبوا إلي أن أقدم ، قد اينعت الثمار واخضر الجناب وانما تقدم على جندٍ لك مجّندة ؟ .

فقالوا : لم نفعل .

قال : سبحان الله بلى والله لقد فعلتم .

فقال : ايها الناس اذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم الى مأمن من الأرض . فقال له قيس بن الأشعث : اولا تنزل على حكم بني عمك ؟ فانهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه ! فقال الحسين :

انت اخو اخيك ؟ اتريد ان يطلبك بنو هاشم باكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم بيدي اعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد .

كان الإمام الحسين (ع) يحرص على كرامة الأمة ومصلحتها . ويحول دون يزيد واذلالها : ألا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة . وهيهات منا الذلة ، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وانوف حمية ونفوس أبية من ان نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام .

لقد خُذل الحسين (ع) وهو في أمسّ الحاجة الى من ينصره . فما كان إلا ان يتوكل على الله . . ودعا على القوم : اللهم احبس عنهم قطر السماء وابعث عليهم سنين كسني يوسف وسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كاساً مُصَبَّره فانهم كذبونا وخذلونا وانت ربنا عليك توكلنا واليك المصير .

كان لكلمة الإمام الحسين (ع) صدى ، ادركت معناها قلوب القوم ، غير انها لم تَسْتَجِبْ . فدنيا يزيد أنفس لديهم من ظلم الحسين (ع) فهي الفرصة التي لا يضيعها لئيم . غير ان الكلمة كان لها وقع ثقيل ، ولطيف . . على رجل من كبار الفرسان ، وهو الذي دفع بالإمام الحسين (ع) الى كربلاء ومنعه عن دخول الكوفة . سمع الكلمة فوعاها . . وكان هنالك خلفٌ لكل إغراءات يزيد ، رقة ايمان تسكن قلب الحر . فاقبل الى عمر بن سعد وقال له : أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ . قال : اي والله قتالاً أيسره ان تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي .

قال : ما لكم فيما عرضه عليكم من الخصال ؟ .

فقال : لو كان الأمر إلي لقبلت ولكن أميرك أبى ذلك . فتركه ، وقال لقُرَّة بن قيس : هل سقيت فرسك اليوم ؟ قال : لا : قال : فهل تريد أن تسقيه ؟ .

فطن قرة من ذاك انه يريد الإعتزال . فأخذ الحر يدنو من الحسين . فقال له المهاجر بن أوس : اتريد ان تحمل ؟ فسكت ، فارتاب المهاجر من هذا الحال ، وقال له ، لو قيل لي من اشجع اهل الكوفة لما عدوتك ، فما هذا الذي اراه منك ؟ فقال الحر : اني اخير نفسي بين الجنة والنار ، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو أُحرِقت .

ثم اتجه نحو الحسين (ع) منكسراً معتذراً يلتمس الغفران . فقال للإمام : اللهم إليك أنيب فتب علي ، أرعبت قلوب أوليائك وأولاد نبيك ! ياأبا عبدالله ، أني تائب فهل لي من توبة ؟ .

قال له : ابو عبد الله : نعم يتوب الله عليك .

فاستأذن الحسين في ان يخاطب القوم ثم قال :

« ياأهل الكوفة لأمكم الهبل والعبر ، أدعوتم هذا العبد الصالح ، حتى اذا جاءكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه وأمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه وأحطتم به من كل جانب فمنعتموه التوجه الى بلاد الله العريضة حتى يأمن وأهل بيته ، وأصبح كالأسير في أيديكم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا ، وحلأتموه ونساءه وصبيته وصحبه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهود والنصارى والمجوس ، وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ! وهاهم قد صرعهم العطش بئسما خلفتم محمداً في ذريته لا سقاكم الله يوم الظمأ » .

انطلق الحر ، معرباً عن ورعه وإخلاصه لقضية الحسين ، وهو يقول :

| | |
|---|---|
| اني انا الحر ومأوى الضيف | أضربُ في اعناقكم بالسيف |
| عن خير من حلّ بأرض الخيف | اضربكم ولا أرى من حيف |

ثم راح يقاتل ببسالة يقل لها نظير ، حتى قتل . وكانت تلك شهادة على توبته وفيئه الى الحق ، ثم جاء إليه الحسين (ع) وهو ممدد فقال :

| | |
|---|---|
| لنعم الحر حر بني رياح | صبور عند مشتبك الرماح |
| ونعم الحر اذ نادى حسين | وجاد بنفسه عند الصباح |

وقال : والله ما اخطأت امك لمّا سمتك حرا ، فانت الحر في الدنيا والآخرة !

كان شعار الإمام الحسين (ع) بكربلاء « الحرية » ولذلك معنى عميق ، يدرك باستيعاب الحدث وفلسفته . انطلق الإمام وهو ينادي القوم « ان كنتم لا تؤمنون بالله ولا تخافون الميعاد ، فكونوا أحراراً في دنياكم ان كنتم عربا كما تزعمون » وقضية الحسين ، هي بالأضافة الى كونها قضية اسلام وجاهلية ، تبقى قضية حرية . اذ ان الذين طلبوه ثم خذلوه ، كانوا يفتقدون للحس التحرري . التحرر من كل ما يفقد الضمير يقظته ، ويعكر المعاني والقيم في النفوس . لقد فقدوا حريتهم امام « دنيا » يزيد . واستعبدهم بطشه . فافتقدوا الارادة ، وافتقدوا معها

« الحرية » . ولم تكن هذه المعركة تعبر حتى عن الذهنية العربية . فمعارك العرب أسمى من أن تجمع بين جيش جرار وفئة قليلة من الناس . وهي أسمى من ان تجمع بين لقطاء وبين عصبة تنتمي لبيت الشرف . وقد كان الحس القبلي طاغياً على الحس الغنيمي عند العرب ، والفضيلة غالبة على كل الإعتبارات الأخرى فهذا القدر من الحرية ، افتقده جيش يزيد ، وبالتالي كانوا يحتاجون الى أكثر من قفزة للوصول الى مستوى الخطاب الإسلامي . فهم في حاجة الى « حرية » ولو في صبغتها العربية ، كان الحر بن يزيد هو ذلك النموذج الذي أثرت عليه كلمات الحسين (ع) والإحساس بالتحرر كان لا يزال حيا في أعماقه . وكل من كان هناك كان يعرف انه مسلوب الحرية باختيار منه ليس إلا . فالحر بن يزيد ادرك انه اكثر تحرراً من أن يمنعه القوم المجرمون عن نصرة الحسين (ع) ومهما بطش يزيد وتجبر ، فانه لا يملك ان يسلب الحرية ممن وطّنَ نفسه على الكفاح واستقبل الموت بصدر وسيع . كان يزيد أقل قدراً وأخس من أن يجبر مسلماً على الخضوع لو أن المسلمين استجابوا للجهاد . فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا . وكان نموذج اهل الكوفة نموذج القوم الذين افتقدوا حس التحرر . وتلك هي أهم القضايا التي واجهها الحسين (ع) .

والقوم الذين ضاع حسهم التحرري في منعرجات النزوع الدنيوي ، لم يكونوا في حاجة الى ضمير ثوري ، يزعجهم ، ويضعهم أمام المسؤولية وفي مواجهة الخيار الصعب . فكان ضرورياً ان يهاجموا معسكر الأحرار ، ويدكوا بفرسانهم جسد الحسين (ع) انتقاماً ، من صلابته التي تعتبر ، انتصاراً على مستوياتهم النفسية . لقد ظهرت لهم نفوسهم أخس وأخس مئات المرات من « جون » ذلك العبد الذي تنفس حريته . ووجد في معسكر الحسين ، ميدانا واسعاً للتعبير عن تحرره المكبوت خلال سنين مديده . إنهم يرون في تحرر الحسين وشيعته ، قبح وجوههم ودمامتها ، وخسة نفوسهم وانحطاطها . . فلذلك ازداد انتقامهم وتضاعف . فراحوا يتنافسون على تدمير معسكر الإمام الحسين (ع) .

اشتد القتال ، وشيعة الحسين (ع) يتساقطون كأوراق الخريف الواحد تلو الآخر ، وكلهم يقدم أروع ادوار البطولة والفداء . حتى لم يبق إلا الحسين واهل بيته ليس معهم إلا الله .

كان علي بن الحسين (ع) مريضاً . وقد شاءت الأقدار ان يكون كذلك للدور التاريخي المنوط به بعد الحسين (ع) غير ان علياً الأكبر ، وهو أخوه ، كان في تمام الإستعداد ، لألتماس « الشهادة » ليكتب بها وثيقة عار في تاريخ الجريمة التي شهدها آل البيت المحمدي . انطلق يطلب القوم نصرة لأبيه ، وللحق الذي جاء من اجله ونشد في القوم :

أنا علي بن الحسين بن علي نحن ورب البيت أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي أضرب بالسيف احامي عن أبي
ضرب غلام هاشمي قرشي

كان المشهد يدور بعين الحسين (ع) يرى ببصيرة المعصوم ، انحطاط النفوس ، وتشوه القلوب . . يرى كيف صار الأمر في أمة ، طالما ربّى فيها جده وابوه النفوس التعبى .

ثم اطلقها صرخة ، والدموع تنساب من عينيه ، وقد أحس بالإستضعاف : مالكَ ؟ ( يقصد عمر بن سعد ) قطع الله رحمك كما قطعت رحمي ولم تحفظ قرابتي من رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، وسلط عليك من يذبحك على فراشك . ثم رفع يديه الكريمتين نحو السماء وتمثل قائلاً :

« اللهم اشهد على هؤلاء القوم فقد برز اليهم اشبه الناس برسولك محمد خلقاً وخُلُقاً ومنطقاً وكنا اذا اشتقنا الى رؤية نبيك نظرنا إليه ، اللهم فامنعهم بركات الأرض وفرقهم تفريقا ، ومزقهم تمزيقا واجعلهم طرائق قددا ولا تُرضي الولاة عنهم ابدا ، فانهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقاتلونا » .

قاتل علي الأكبر القوم ، وابوه يرى بلاءه فيهم . واشتد العطش عليه ، فعاد الى ابيه يستسقيه ، ليستجمع قواه ، ويكر من جديد على جيش الأعداء . غير ان الحسين (ع) أدرك انه ليس بينه وبين مفارقة الحياة إلا فترة قصيرة . ففضل ان يبقى على عطشه حتى يلقى الله تعالى فأعطى بذلك لأبنه روحاً جديدة ، فقال له : « ما أسرع الملتقى بجدك فيسقيك بكأسه شربة لا تظمأ بعدها ابداً » . ثم راح يقاتل الأعداء ، فحملوا عليه وطعنوه بالرماح ، وضربوه بالسيف على رأسه ، وقطعوه

بالسيوف قطعاً . وفارقت نفسه الحياة ، وجاء ابوه يودّعه ، فما وجده إلا جثة هامدة مضرجة بدماء العزة والإيمان . فقال : على الدنيا بعدك العفا ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول يعز على جدك وابيك ان تدعوهم فلا يجيبونك وتستغيث بهم فلا يغيثونك .

انهم يدركون ان نسل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مهدد بالأنقراض . وهم يمعنون في ذلك . فبنو أمية أنفع لهم من بني هاشم التي أخذتهم بالعزائم ونغصت عليهم حياتهم بالورع والفضيلة .

كان معسكر الحسين (ع) مكتظاً بالأطفال والنساء . اشتد عليهم العطش ، ولا يزال الحسين (ع) وآل بيته يستسقون القوم ، فلم يجيبوهم . وكان « العباس » حاضراً ذلك المشهد ، وضاق صدره وطلب من الحسين (ع) ان يخرج الى القوم الظالمين . فنادى في القوم .

ياعمر بن سعد : هذا الحسين ابن بنت رسول الله قد قتلتم أصحابه وأهل بيته وهؤلاء عياله وأولاده عطاشى ، فاسقوهم من الماء ، قد أحرق الظمأ قلوبهم .

فصاح شمر : ياابن ابي تراب ـ يقصد الإمام علياً (ع) ـ لو كان وجه الأرض كله ماء وهو تحت ايدينا لما سقيناكم منه قطرة ، إلا أن تدخلوا في بيعة يزيد .

لقد جعلوها شرطاً لحياتهم وحياة عيالهم . والحسين (ع) ليس مجنون حرب حتى يضحي بأهله وعياله في سبيل موت هو عنه في خيار . الا ان المسألة تخضع لمعايير الإسلام . الإسلام مهدد فيما لو بايع الحسين (ع) . رجع العباس ، والأطفال يبكون من شدة الظمأ . فَرَقَّ قلبُ العباس ، واستنفر عزيمته ، وانطلق في القوم ، يقاوم يميناً وشمالاً حتى أتى الفرات واغترف منه ماء ، ورجع يقاوم جيش النفاق ، فنصبوا له كميناً ، وضربه بعضهم فقطع يمينه . واستمر في مسيره قاصداً الحسين ، يريد إيصال قربة الماء ، لسقي عطاشى آل البيت وهو يقول :

والله ان قطعتم يميني    أني احامي ابداً عن ديني
وعن امام صادق اليقين    نجل النبي الطاهر الأمين

وانطلق بعيداً حتى باغته حكيم بن الطفيل من وراء نخلة فضربه على شماله ،

وقطع يده الأخرى .

وانهالت عليه السهام من كل جانب ، وأصابت صدره وضُرب راسه فانفلق ، وسقط صريعاً وهو يقول : عليك مني السلام ابا عبد الله .

رآه الإمام الحسين (ع) فأي عَبْرة تعكس حقيقة المأساة ، وأي كلمة تعكس حقيقة الحزن الذي اعترى سيد الشهداء . لقد رؤي وهو يكفكف الدمع ويقول :

أما من مغيث يغيثنا ؟ اما من مجير يجيرنا ؟ أما من طالب حق ينصرنا ؟ أما من خائف من النار فيذب عنا ؟ !! .

وعلا الصياح في الخيام ، واشتد النواح ، واختلطت اصوات النساء باصوات الأطفال في مشهد تراجيدي تخرس عن وصفه السن الشعراء .

لقد استنفذ معسكر الحسين (ع) كل عناصره . ولم يبق الى جانب الحسين ، سوى عياله . وكان ذلك الطفل الرضيع ولده فتح عينيه في معترك المأساة . فرفعه امام القوم يريد استعطافهم ، ليسمحوا باعطائه ماء . غير ان الروح الدموية التي ما رآها التاريخ ولا شهدتها ملاحم البشر ، كانت توجد في هذا المعسكر المشؤوم ، فرفع « حرملة بن كاهل الأسدي » سهمه ورمى به الطفل ، فسال دم البراءة على كف الحسين ، وأخذ يرمي به نحو السماء وهو يقول : اللهم تقبل منا قربان آل محمد . وقال : هوّن ما نزل بي انه بعين الله تعالى ، اللهم لا يكون أهون عليك من فصيل ناقة صالح ، إلهي ان كنت حبست عنا النصر فاجعله لما هو خير منه وانتقم لنا من الظالمين ، واجعل ما حل بنا في العاجل ذخيرة لنا في الآجل ، اللهم انت الشاهد على قوم قتلوا أشبه الناس برسولك . ثم نزل عليه السلام عن فرسه ودفن طفله الرضيع وصلى عليه .

فكان الإمام هو آخر من يتقدم للميدان ، انطلق الى القوم مصلتا سيفه ، فقاتلهم قتالاً شديداً وهو يقول :

الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار

هنالك صاح عمر بن سعد :

هذا ابن الأنزع البطين ، هذا ابن قتّال العرب ـ يقصد الإمام علياً (ع) ـ احملوا عليه من كل جانب .

فصاح فيهم الحسين (ع) يردّهم بكلامه النافذ في اعماق الضمير ، غير ان القوم لا ضمير لهم ، فقال شمر بن ذي الجوشن : ما تقول ياابن فاطمة ؟ .

قال : انا الذي اقاتلكم والنساء ليس عليهن جناح فامنعوا عتاتكم عن التعرض لحرمي ما دمت حيا .

واستمر القتال بين جيش عمر بن سعد ، والإمام الحسين (ع) ، وقد بدأت الدماء تغطي جسده وهو يقول : هكذا أكون حتى القى الله وجدي رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وأنا مخضب بدمي واقول : ياجدي قتلني فلان وفلان .

لقد أصابته السهام في جسده ورأسه فسقط ، ولم يبق قادراً على الحراك ، يقول صاحب اسد الغابة ، أمر عمر بن سعد نفراً فركبوا خيولهم وأوطأوها جسد الحسين .

لا تزال الحياة تدب في جسده الشريف ، ولايزال به رمق . فلابدّ ان يتقدم إليه القوم ليحتزوا راسه .

فبادر زرعة بن شريك بضرب كتفه الأيسر ، ثم رماه الحصين في حلقه وطعنه سنان بن انس في ترقوته ، ورماه بسهم في نحره وطعنه آخرون على عاتقه وجنبه . وارتفعت الأصوات ، ونادت ام كلثوم وأخته زينب :

وامحمداه وأأبتاه واعلياه واجعفراه واحمزتاه هذا حسين بالعراء صريع بكربلاء . ثم نادت زينب :

ليت السماء أطبقت على الأرض وليت الجبال تدكدكت على السهل ! . ولا يزال الصياح يهز الميدان ، والنوَّح تولول على الحسين (ع) والدنيا قد اظلمت ، فالحسين صريع ! ويقف عمر بن سعد : انزلوا إليه وأريحوه .

فانطلق شمر ، فضربه برجله وأمسكه من لحيته ومازال يضربه بالسيف ثم أحتز راسه .

يقول اليعقوبي : « وانتهبوا مضاربه ، وابتزوا حرمه ، وحملوهنّ الى الكوفة » .

لقد أطمعهم في الحسين (ع) سيفه وملابسه . فراح كل واحد يلتمس له قطعة من لباسه ينهبها ، فاخذ الاسود بن حنظلة سيفه ، والاسود بن خالد ، نعليه وإسحاق ابن حوية قميصه .

وقطعوا اصبعه الذي به الخاتم لمّا رأوا الدم قد تجمّد والتصق به .

يقول صاحب اسد الغابة : إن سنان بن انس لما قتله قال له الناس : قتلت الحسين بن علي ، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أعظم العرب خطراً ، اراد أن يزيل ملك هؤلاء ، فلو أعطوك بيوت اموالهم لكان قليلا ، فاقبل على فرسه ، وكان شجاعاً به لُوثة ، فوقف على باب فسطاط عمر بن سعد ، وأنشده الأبيات :

أوْقِـر ركـابي فضّـة وذهبـا فقـد قتلت السيـد المحجبـا
قتلت خـير الناس أماً وأبـا وخـيرهم اذ ينسبـون نسبـا

قال اليعقوبي : « وأُخرج عيال الحسين وولده الى الشام ، ونصب راسه على رمح ، وكان مقتله لعشر ليال خلون من المحرّم سنة ٦١ هـ » .

ثم جاءوا بالرأس ووضعوه بين يدي يزيد ( لعنة الله ) ، فأخذ ينكثه بقضيب وهو ينشد :

ليت أشياخي « ببدر » شهدوا جزع « الخزرج » من وقع الأسل
لأهـلوا ، واستـهـلوا فـرحـا ثم قالوا : يا« يزيد » لا تشل [٢٦٠]

(٢٦٠) ـ القصة مذكورة بصيغ مختلفة في كتب التاريخ الشهيرة : تاريخ الطبري ، ابن الأثير ، مروج الذهب ، الإمامة والسياسة ، مقاتل الطالبيين ، أسد الغابة ، البداية والنهاية ، الأغاني ، أنظر « عقيلة بني هاشم وعلي وبنوه » وغيرهم .

# لقد شيعني الحسين

هذه مجرد عموميات مختصرة حول المشهد الدراماتيكي لملحمة كربلاء كما اتفقت عليها تواريخ المسلمين . ولعمري ، انه المشهد الذي لايزال صداه يتحرك في اقدس قدُساتي ، يمنيني بالأحزان في كل حركة أتحركها .

ما إن خلصت من قراءة « مذبحة » كربلاء ، بتفاصيلها المأساوية ، حتى قامت كربلاء في نفسي وفكري ومن هنا بدأت نقطة الثورة ، الثورة على كل مفاهيمي ومسلماتي الموروثة ، ثورة الحسين تغلغلت داخل روحي وعقلي .

أجل ، ليس من وظيفة هذا الكتاب التعرض لتلك التفاصيل ، وإنما نريد أن نعطي مجرد إشعاعات متفرقة عن تلك المذبحة ، لفضح التاريخ الرسمي الملفق ! .

الأوراق ، كل الأوراق مع هذا التاريخ الجريح ، القابع خلف اللاشعور التاريخي المكتوب بريشة « أهل الزلفى » المقربين .

لقد جاء أهل الشام والكوفة بالسيف ، وجاء الحسين بالدم ، وانتصر الدم على السيف ، بل وانتصر على تاريخ البلاط فكان الحسين نوراً لم تغطه ظُلَم التحريف ! .

ونحن ننعى هذه المأساة ، ونعلم ان الإمام الحسين (ع) قد مضى على حق . وأن قطرة من نعيمه قد أنسته كلَّ معاناته . إلا اننا نبكي اولئك المغفلّين ، الذين

اتخذوا من قاتلي الحسين ، وانصارهم وخاذليه ، قدوة لهم واسوة . ونماذج من الورع يُقتدى بها . وما أكثر الطبول التي قرعت والمزامير التي عزفت ، مدحا لشخصيات تاريخية . كانت من بين اولئك الذين اشتركوا في احتزاز رأس الحسين ونهب متاعه بخسّة .

الذين قتلوا الحسين (ع) وهم يعلمون أنه خير من أميرهم ، وسيد العرب والمسلمين ، وما قتلوه إلا طمعاً في الحطام الذي منّاهم به يزيد ، أليسوا قادرين على تحريف الإسلام ، واختلاق الأحاديث ، بحثا عن نفس الحطام ؟ ! لقد شيعني الحسين (ع) من خلال المأساة التي شاهدها هو وأهل البيت (ع) ، شيعني بدمائه العبيطة وهي تنساب على الرمل الأصفر بارض الطفوف ، وبصراخ الأطفال ونواح النساء . يومها ناديت ، وقد انسكبت من عيني دمعة حزينة ، حزينة ورقيقة ، قلت والقلب تتمزقه الأحزان :

ويرثي ربابك دنيا الشجون ودمع النواح وفيض الدما
فرمس عداك كجحر الصقور وسرّ هداك ، محور الدجى
عظمت فانت عظيم المقام عظيم فابشر بنصر السما
ويرسي الزمان حراك النسور وسير الذئاب بخبء السُّرى
فدمعك سال بتلك الطفوف وسال وسال بكل الثرى
فصار رواءً بكل الدهور ورطبا جنياً لكل الدنى
فياأرض لا تقنطي بالقروح وياقوم لا تبطئوا في الخطى
فحتما يعود لهدم الشرور ويرسي المراح بردم القذى
فذاك الزكي بكل فخار ونجل قضمّ ، وليث الوغى
رجوت الصلاح بأرض العدا بسبط الأمين ، وطاب الثرى

وأي شيء صنع الأعداء بموته ، سوى ان حفروا قبورهم ، ودقوا نعوشهم بالمسامير ، ليدخلوا مقبرة التاريخ صاغرين ، وما زلت أراه ـ أبا عبدالله ـ كبيراً في عين التاريخ ، لقد نوّر الحياة بدمه الزكي العطر :

سطعت بريقاً كومض الشموس وشاع سناك كبرق السما

رفعت فكنت تعـالي النجوم وعمّ جبينـاك لمـع الـسنـا
سموت عزيـزاً تجوب السنـين تـدك جبال العـلى والـربى
فـدمعك كـان كقـطر النـدى كـطلّ الصبـاح يـرش المنى
علوت فصرت بـافق الجـلال عظمت فخافت جسور الوغى
هـديت فكنت كنجم السـما أنبـعَ الصفـاءِ ورؤيـا الكـرى

وما إن أقرأ عن تفاصيل كربلاء حتى تأخذني الجذبة بعيداً ، ثم تعود انفاسي الى انفاسي ، والحسين ألفاه لذنيها ، قد تربع بدمائه الطاهرة . فياليتني كنت معه ، فأفوز فوزاً عظيماً ، وفي تلك الجذبة هناك من يفهمني ، وقد لا يفهمني من لا يرى للجريمة التاريخية وقعاً في نفسه وفي مجريات الأحداث التي تلحقها .

فكربلاء مدخلي الى التاريخ ، الى الحقيقة ، الى الإسلام ، فكيف لا أجذب إليها ، جذبة صوفي رقيق القلب ، أو جذبة أديب مرهف الشعور ، وتلك هي المحطة التي أردت أن أنهي بها كلامي عن مجمل معاناة آل البيت (ع) وظروف الجريمة التاريخية ضد نسل النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) والسؤال الذي يفرض نفسه هنا ، هو من قتل الحسين ؟ أو بتعبير أدق ، من قتل من ؟ .

نحن لا نشك في أن مقتل الحسين (ع) ، هو نتيجة وضع يمتد بجذوره الى السقيفة ، الى أخطر قرار صدر بعد وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكان ضحيته الأولى : آل البيت (ع) . ونلاحظ من خلال حركة التاريخ الاسلامي ، ان محاولة تهميش آل البيت ، وقمع رموزهم بدأ منذ السقيفة ، ورأيي لو جازف الإمام علي (ع) وفاطمة الزهراء (ع) لكانوا فعلاً أحرقوا عليهم الدار ، ولكان شيء أشبه بعاشوراء وكربلاء الحسين . وأن بداية النشوء ـ أو بالأحرى إعادة النشوء ـ لحزب بني أمية ، كان منذ الخلافة الاولى ، ذلك ان معاوية وأخاه يزيد كانا عاملين على الشام ، وتقوى نفوذهما منذ ذلك العهد . وكل المسلمين في ذلك العصر كانوا يدركون مدى القوة التي يمكن ان تمنحها الإمارة ، لرجال مثل معاوية ويزيد .

المعادلة المقلوبة ، وميزان القوى اللامتكافىء بين الحزب الأموي وبني هاشم بدأ منذ وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وماضرب ولا قمع واستضعف

بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) رجل أو عشيرة مثل ما ظلم آل البيت (ع) .

لقد دخل بنو أمية الاسلام ، وهم صاغرين . وكان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد اراد قتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة ، غير أنه عفا عنهم ، وقال « اذهبوا فانتم الطلقاء » وطلقاء لا تعني الإسلام ، ثم ما برح ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يحذر من خطرهم ، الذي كان يدركه من خلال طبيعة الصراع الذي دار بين الإسلام وبني أمية .

ويدركه بمنظار النبوة مخترقاً بذلك حجبَ المستقبل ، ليحدثنا عن مصير الأمة على يد بني أمية .

روى الإمام أحمد عن عفان وعبد الصمد عن حماد بن سلمة عن علي بن يزيد : حدثني من سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول : لينعقن ـ وفي رواية ليزعقن ـ جبار من جبابرة بني أمية على منبري هذا ، زاد عبد الصمد حتى يسيل رعافه ، ثم قال : فحدثني من رأى عمرو بن سعيد بن العاص : يرعف على منبر النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) حتى سال رعافه .

وذكر ابن كثير قال ، قال يعقوب بن سفيان ، ثنا أحمد بن محمد ابو محمد الزرقي ، ثنا الزنجي ـ يعني مسلم بن خالد ـ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال رأيت في المنام بني الحكم أو بني أبي العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة ، قال : فما رأيت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مستجمعاً ضاحكاً حتى توفي . ثم قال ابن كثير ، قال الثوري : عن علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال : رأى رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بني أمية على منبره فساءه ذلك ، فأوحى إليه : انما هي دنيا أعطوها ، فقرت به عينه . وروى صاحب أسد الغابة عن عمر بن محمد بن المعمر البغدادي وغيره ( . . ) الى نافع بن جبير بن مطعم ، عن ابيه ، قال :

كنا مع النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فمّر الحكم بن أبي العاص ، فقال

النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : ويل لأمتي مما في صلب هذا ، وهو طريد رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) نفاه من المدينة الى الطائف .

وقال الحسن البصري : أربع خصال في معاوية لو لم يكن فيه إلّا واحدة منها لكانت موبقة :

انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف حتى أخذ الأمر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه بعده سكّيراً وخميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير . . الخ .

هؤلاء الذين لم يحص لهم التاريخ فضيلة ـ اللهم إلا في مصنفات البلاطيين فهم الذين وطأوا بأقدامهم آل البيت المحمدي ـ هؤلاء بهذه الصفة ، قتلوا أئمة أهل البيت (ع) وهم في غنى عن التعريف . لقد قتل يزيد الحسين (ع) وهذا الأخير لم يحص له التاريخ سوى الفضائل العظام .

ولقد علم الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ان ابنه هذا سوف يقتل مظلوماً ، وحديث « التربة » تواتر في التواريخ الإسلامية .

ذكر ابن الأثير في « أسد الغابة » : أخبرنا إبراهيم بن محمد الفقيه وغير واحد ، قالوا باسنادهم الى الترمذي ، قال : حدثنا أبو خالد الأحمر قال : حدثنا رزين ، حدثني سلمي قال : دخلت على أم سلمة ، وهي تبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟ قالت : رأيت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في المنام ، وعلى راسه ولحيته التراب ، فقلت مالك يارسول الله ؟ قال : شهدت قتل الحسين آنفا .

وذكر أيضاً عن حماد بن سلمة عن عمّار بن أبي عمار ، عن ابن عباس ، قال : رأيت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فيما يرى النائم نصف النهار ، وهو قائم أشعث أغبر ، بيده قارورة فيها دم ، فقلت : بأبي أنت وأمي يارسول الله ما هذا الدم ؟ قال : هذا دم الحسين ، لم أزل التقطه منذ اليوم .

فوجد أنه قد قتل في ذلك اليوم .

وفي البداية والنهاية لابن كثير قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد بن حسان ، ثنا عمارة عن ثابت عن أنس قال : استأذن ملك المطر أن يأتي

النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فأَذِنَ له ، فقال لأم سلمة .

احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحدٍ ، فجاء الحسين بن علي ، فوثب حتى دخل ، فجعل يصعد على منكب النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فقال له الملك : أتحبه ؟ فقال النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) نعم ، قال : فإن أمتك تقتله ، وان شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه ، قال : فضرب بيده فأراه ترابا أحمر ، فأخذت أم سلمة ذلك التراب فصرته في طرف ثوبها قال : فكنا نسمع يقتل بكربلاء .

وذكر البيهقي عن الحاكم الى ان قال عن عبد الله بن وهب بن زمعة ، أخبرتني أم سلمة ، ان رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) اضطجع ذات يوم فاستيقظ وهو حائر ، ثم اضطجع فرقد ، ثم استيقظ وهو حائر دون ما رأيت منه في المرة الاولى . ثم اضطجع فرقد واستيقظ وفي يده تربة حمراء وهو يقلبها ، فقلت : ما هذه التربة يارسول الله ؟ فقال : أخبرني جبريل أن هذا مقتل بأرض العراق للحسين ، قلت له : ياجبريل أرني تربة الأرض التي يقتل بها ، فهذه تربتها .

وقال ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الحسن والحسين ريحانَتَيْ . وغيرها مما أحصته الكتب الصحاح عن مناقبهم وفضائلهم بما لا يترك ريبا . ثم يأتي التاريخ . فيوقف الفضيلة كلها أمام الرذيلة كلها . بل ويجعلون الرذيلة تسطو وتبطش بالفضيلة ! .

مع كل ذلك يأتي المؤرخين، فيرون في كل ذلك اجتهاداً ، وفي نظر ابن خلدون ، يكون علي (ع) مثل معاوية . والحسين كيزيد . كلهم عدول مؤمنون ومرضيون . وانني لم أجد ما أعبر به عن ابن خلدون إلا ما قاله عنه « هاملتون جيب » بأنه لا يعدو ان يكون فقيهاً مالكياً ، يرمي الى تبرير واقع الخلافة كما فعل قبله الماوردي والباقلاني والغزالي .

انا هنا لا أريد أن أحط من قدر هؤلاء ، ولست اقول انهم ساذجون وأغبياء . بل أقول إن السياسة والبلاط ، قد أفقدهم الرؤية السليمة . والجو النفسي العام كان أقوى من اراداتهم .

كأن ميزان العدل الإلهي اختلّ ـ سبحانه وعلا ـ حتى يكون أغيلمة بني أمية على طرف المساواة مع أئمة أهل البيت (ع) .

وأذكر مرة كنت اتحدث لدى العلامة السيد هادي المدرسي ، فقلت له : من الطريف ان بعض العلماء من العامة يروون حديثاً ، هو رؤيا للإمام الحسن (ع) ـ مثل الغزالي في الأحياء ، وكذلك زاد المعاد ـ انه رأى وكأن علياً ومعاوية أُتي بهما ، ثم أدخلا في بيت . فما كان أسرع من علي ، اذ خرج يقول : قضي لي ورب الكعبة ، ثم ما برح أن تبعه معاوية يقول : غفر لي ورب الكعبة .

قال السيد المدرسي : هذه الرواية متناقضة من الأساس ، اذ كيف يكون من العدل ان يقضى لعلي ويغفر في نفس الوقت لمعاوية ، فمن أي جهة قضي لعلي (ع) اذاً ؟ .

اذا كان يزيد والأمويون جميعاً ، قتلوا الحسين وآل البيت . وشربوا الخمور ، وحكموا بالباطل ، وهم مؤمنون ، فلماذا تقوم قائمة المسلمين اليوم ، فيكفّرون المجتمعات ، وينتقدون السلطات ؟ ولست أقل ثورية من اولئك « المتشدّدَة » عندما أقول : ان يزيد بن معاوية واباه وبني أمية جميعاً انكى وأمر ، طغياناً من أي سلطة معاصرة ، إن القمع والديكتاتورية في عالمنا العربي والإسلامي لها أرضيتها في تاريخنا ، لماذا نحدث القطيعة ، فنبرىء طغاة الماضي ، والرجوع الى نموذج السلف ، هي دعوة متعسفة ، على هذا الأفتراض .

واذا كان الأمر كذلك ، يلزم أن نتهم كل من تعامل معهم ومكنّ لهم . فبنو أمية لم تكن لتعود إليهم القوة لولا ما قدّمه الخلفاء لهم من إمارات .

كنت أظن أن الإسلام قد أعطانا روحاً قوية لطلب العدالة ، ولم أكن اظن ان بعضنا سوف لا تدفعه كربلاء ، الى معرفة القضية من أساسها ، ومحاكمة أشخاصها على مستوى الفكر الذي لا يزال يؤسس وعينا بالماضي والحاضر . غير انني رأيتهم مكبّلين بألف قيد ، مثلما كنت مقيداً . وان كنت قد استطعت كسر الأغلال عني ، فان غيري ضعُفَ عن ذلك وبقي أسير الظلام . ثم أدركت أن الاسلام أعظم من أنْ يكبل أناساً عن طلب العدالة في التاريخ وفي كل المستويات . أدركت أن شيئاً جديداً على روح الاسلام لوّث صفاءه الروحي .

ادركت انه « المذهب » . وفي ذلك الوقت عرفت أنني لا يمكنني أن أتعامل بتحرر وموضوعية مباشرة مع القرآن والنبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، فكان ضروريا أن أرفع القيود عني وابدأ مسيرة جديدة في البحث عن الحقيقة ، جئت مرات ومرات عند أهل الخبرة من أهل السنة والجماعة ، وكلما حدثتهم عن ذلك ، امتعضوا وارتسم في وجوههم غضب ، يسمونه الغضب لله ! كانت وجهات نظرهم تنقسم الى قسمين :

١ ـ بعضهم ردّ علي : ليس الحسين هو أوّل أو آخر من مات شهيداً مقتولاً ، فأنبياء الله قتلوا وصلبوا ، فلماذا هذا التركيز والمبالغة في مقتل الحسين ؟ .

٢ ـ بعضهم قال : اننا اذا دخلنا في هذا الصراع ، سوف ندخل في الفتنة ، ونحن أمامنا مسؤوليات يجب ان نؤديها في واقعنا المعاصر ، فلماذا أنت ترجع بنا الى العهود القديمة ؟ .

وكنت أرى في كلا التبريرين روحاً سطحية ، وتخلفاً حقيقياً في التعامل مع الإسلام والتاريخ .

أما بالنسبة للأولين ، فكنت أردّهم ردّا عزيزاً ، ذلك أن مقتل الحسين (ع) له خصوصياته التي لا ينكرها أحد ، وهي مأساة لم يشهد لها تاريخ الأنبياء مثيلاً . لأن الذين قتلوا الحسين واهل بيته وقطعوا رأسه وسبوا نساءه كانوا ممن يدعي تمثيل الأمة ، ويمثل الجماعة .

ثم إننا عندما نتحدث عن مقتل هؤلاء الأنبياء نجزم ـ اوتوماتيكياً ـ بأن الذين قتلوهم ظالمون ، كفار ملعونون . بينما عندما نتحدث عن الإمام الحسين (ع) لا نرى بينه وقاتليه فرقاً يذكر ، فنقول : إنه اجتهد ، وقبح الله اجتهاداً يوجه لسفك دماء ابناء النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

أما الفئة الثانية ، وهي الفئة التي تحمل وعياً متهالكاً ، وثورية « الأرانب » ، تقول :

لماذا ترجعون بنا الى الخلف ؟ .

ومن دون ان نبرز أهمية التاريخ التي أصبحت ضرورة علمية وثورية ، دون أن

نحرجهم بسؤال عن أي ثورة في التاريخ لم تقم انطلاقاً من التاريخ ؟ دون كل ذلك ، نريد ان نقول لهم . ماذا فعلتم ، وأنتم تسيرون الى الأمام دون التفات الى الوراء ؟ .

أولاً : ليس لكم في ماضيكم سوى الفضائح والصور الملفقة . فأي تاريخ يمكن ان يساعدكم في تحقيق مشروع النهضة في الحاضر والمستقبل ، فأنتم تنطلقون من الفراغ أو من النصر « المشوّه بالأيديولوجية التضليلية » من دون تجربة تاريخية .

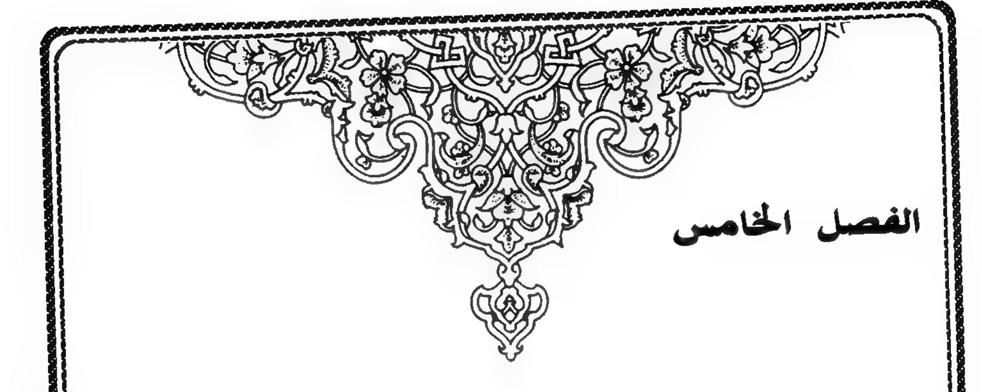
ثانياً : ان الذين انطلقوا من ثورة الحسين ، هم اليوم اكثر الفئات ثورية ونهوضاً في العالم الإسلامي .

ومن مذبحة الحسين (ع) صنعوا حاضرهم الإسلامي ، وخططوا المستقبل . وهذا تحدٍ تاريخي يعمي ضوؤه الأبصار .

وكان الإمام الحسين (ع) ضميراً ناهضا ، و « جرس » انذار للأمة ، لاتخاذ المواقف الضرورية ، لوقف الزحف التحريفي . ولذلك كانت مرحلة ما بعد الحسين (ع) مرحلة انقلابات وثورات مختلفة ، بدءاً بثورة « التوابين » لسليمان بن صرد الخزاعي بالكوفة ، وثورة المختار الثقفي ، وزيد بن علي (ع) .

أما ما عرفه التاريخ من حكم بني أمية وبني العباس ، فذلك لا يتطلب منا كبير جهد . وهو في متناول كل القراء في مراجع التاريخ الشهيرة . وتلك نتائج لا تهمنا في التاريخ الإسلامي ، بقدر ما تهمنا الأسباب ، الأولى التي شكّلت أرضية لكل فساد شهدته الأمة في تاريخها اللاحق ! .





الفصل الخامس

# مفاهيم كشف عنها الغطاء



# مفهوم الصحابي

كان هدفي من هذه الأستراحة التاريخية ، الكشف عن السلوك السياسي والأخلاقي ، للجماعة التي سميت بالصحابة ، ذلك اننا في مقام الحديث عن قيمة أئمة أهل البيت ، تعترضنا اشكالية الصحابة وموقعهم من الإسلام .

ولعل الفرق الأصيل بين الشيعة والسنة ، هو هذا ، ان السنة يرون اتباع سنة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وأخذها من أي وعاء خرجت ، ويكفيهم في ذلك الصحبة ، والصحبة عندهم تتحدد بمشاهدة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ومعايشته . بينما الشيعة ، لا يرون للصحابة سوى قيمة ادبية ، أما السنة والتشريع فانهم يتلقونهما عن النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) عن طريق آل البيت (ع) المحدّدين في مذهبهم .

ويتساءل الإنسان من العامة ، حول الأسباب التي جعلت الشيعة يرفضون أخذ السنة من الصحابي ، واقتصارهم على آل البيت (ع) فيما يتساءل الإنسان من « الشيعة » حول الأسباب التي تجعل العامة يأخذون السنة من كل من رأى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من دون أن يحددوا شرطاً قويا لذلك .

أولاً : من هو الصحابي ؟ .

ثانياً : وهل يجوز أخذ السنة عنه ؟ .

**مفهوم الصحابي عند السنة :**

كل من رأى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من المسلمين فهو صحابي . وحسب ابن تيمية ومن لفّ لفه : كلهم عدول . وعلى هذا يكون الأخذ من علي (ع) وابي هريرة سيان .

ولهم مرويات غريبة تقول : اصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم . ومن هنا ، فإن الصحابة رغم ما وقع بينهم من فتن ، يبقون عدولاً ، يهتدى بهم .

ولذلك ، كان معاوية صحابياً ، يؤخذ منه ، رغم قتاله علياً (ع) وكذلك عمرو بن العاص ، وسمرة بن جندب وأبو هريرة .

والعقل يخطىء هذا الإطلاق . اذ كيف تؤخذ السنة ممن خالفها في حياته . لقد روى السنة في صحاحهم ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال : « من مات وليس في عنقه بيعة لإمام زمانه ، مات ميتةً جاهلية » .

وعلى هذا الحكم ، تكون عائشة جاهلية ، لأنها خرجت عن إمام زمانها وهو علي (ع) فكيف يعقل أن تؤخذ منها السنة النبوية ، وهي تخالفها .

ولّما ثبت ان معاوية قاتل علياً (ع) والسنة يقولون إنهم كلهم عدول على الرغم من ذلك ، فكيف يجوز عقلاً الأخذ بسنّة صحابيين ـ حسب رأي السنة ـ على طرفي نقيض .

**والسؤال : هل يجب أخذ السنة من الصحابي !**

في البدء ليس ثمة دليل على وجوب أخذ سنة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من الصحابي . والسنة وهم يعتبرون ان كل من رأى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فهو صحابي ، فمن يكون الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد أوصى باتباع الصحابة ؟ فهل يعقل أن يأمر الصحابي باتباع الصحابي ؟! اذا جاز انهم كلهم صحابة .

ثم ان هؤلاء الصحابة كلهم اقتتلوا بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فكيف يعقل ان يكون كلهم عدول وكلهم نجوم ؟

أما الصحابي كما يعرفه الشيعة وكما يستوعبه العقل . هو ذلك الذي عاش مع الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وآمن به والتزم نهجه وأطاعه في حياته

وجاهد معه بماله وروحه . وبقي على سنته من بعده ولم يغير بعده شيئاً ، وما بّدل تبديلا وسمّاه الرسول صاحباً أو ما يفيد معناه .

وان يُحترم الصحابي شيء وأن يلزم أخذ السنة عنه شيء آخر . اذ أن الأمر الثاني ليس من الإختصاصات التي وكل بها الصحابي . وليس ثمة دليل من العقل أو النقل يوجب على المسلم أخذ السنة من الصحابي . بخلاف ماثبت عقلاً ونقلاً في حق آل البيت (ع) ذلك لأن سنة الرسول (ص) لم تترك عبثا . بل لابّد لها من مؤهلين ومختصين في استيعابها وحفظها ، لتبليغها بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ولتثبت بها الحجة على الناس . وغير آل البيت (ع) لم يكن مؤهلاً ولا مختصاً ، ولم يدع وراثة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في العلم والإمامة سوى آل بيته . واذا كان أبو بكر قد منع فاطمة الزهراء من إرثها بمبرر ان الأنبياء لا يورثون إلا علما . كان عليه اذ ذاك ، الأنقياد واتباع آل البيت في إرث العلم !! .

وخلاصة القول ، ان الصحابي ، مفهوم مطلق عند أهل السنة والجماعة ، بينما هو مفهوم محدّد ومضبوط عند الشيعة[1] .

---

(١) ـ حاول السيد مرتضى العسكري أن يحقق في بعض من أطلق عليهم أسم صحابي ، ( فوجد ١٥٠ ) منهم لا وجود له في حيز الصحبة فكان كتابه القيم « مئة وخمسون صحابيا مختلقا » ! .

# نماذج وباقات

عندما أتحدث عن الشخصيات التي انكشفت لي في التاريخ الإسلامي . فإنني لا أريد التحامل عليها . فهذا قد يفهمه من لاتهمه الحقيقة التاريخية ، ويقنع نفسه ببضع سطور في التراجم ، حيث يتحول الشخص التراثي الى جزء من العقيدة في ذهن « العامي » . وقد يتهم البعض منهم الشيعة ، لمّا يجدهم يعرضون حقيقة شخصيات تاريخية في صورتها الحقيقية . بينما لا يهمني ان ينعق هذا البعض ، وأنا أتعرض لسيرة بعضهم . ذلك أنني عامي النشأة ، وكنت من الذين يسبحون بكرة واصيلا بهذه الشخصيات . لقد كانت عندي شخصية عمر بن الخطاب أحسن شخصية على الإطلاق بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وأبو بكر يأتي بعده في المرتبة وهذا خلافاً لمذهب الجماعة بل وغلوّا في التسنّن . ولم أكن أجهل شيئاً في مذهب العامة . وربّما قصرت عن احتواء الكثير ، الكثير من مذهب الشيعة . بينما لم يكن مذهب العامة يصعب استيعابه بحذافيره . ولذلك وأنا أعرف نفسية العامي ـ تجاه هذه الشخصيات . لأنها نفسيتي التي كنتها فيما مضى ـ أعرف أنه سيمتعض البعض من ذلك . غير أن التاريخ لا أمّ له .

ثم أريد أن أؤكد ، ان ما قيل في أسفار العامة ، حول أبي بكر ، وعمر وغيرهما لايعدو ان يكون تلفيقات . وكثيرة هي الأوصاف التي أوردوها حولهم كانت أضعف وأوهن من بيت العنكبوت .

فابوبكر ، وعمر ، كما ذكرهما التاريخ السني ، بتلك الأوصاف ، هما بلا

جدال ، افضل ما رأت البشرية ، وهما جديران برضى الله عنهما . ولكنني أدرك ان عمراً وأبابكر ، كما هما في التاريخ الحقيقي ، هما شيء آخر ، وأنا اهتم بهما ، كما هما في الواقع التاريخي .

كيف كانت تلك الشخصيات اذاً ، وما مقدار صحة ما حيك حولها من مناقب وفضائل مروية ؟ .

# أبو بكر

أنا هنا لا أتحدث عن أبي بكر ، ذلك الذي انزرع في وجداني من خلال التطعيم التاريخي المزيف ، أنا هنا أتحدث عن أبي بكر الحقيقي غير ذلك الذي لايزال في اذهان الناس . وسأركّز على أمرين : الأول مدى سلوكه المخالف للشرع ، والثاني ، التحقيق واختبار ما نسج حوله من روايات مزيفة ، صنعت منه اسطورة التاريخ الإسلامي كغيره من الصحابة المختلقين .

أولا : خالف ابو بكر « النص » في أكثر من موقف :

ـ لقد عمد أبو بكر إلى حرمان فاطمة الزهراء من ارث ابيها ظلماً وعدوانا وخلافا للشرع [٢] .

ـ ويذكر ابن كثير في تاريخه [٣] ان ابا بكر بعد ان أتي « بالفجاءة » ، أوقد له ناراً في مصلى المدينة وجمعت يراه الى قفاه وأُلقي في النار فحرّقه وهو مقموط . مع ان « الفجاءة » مسلم ولا يزال يدعي ذلك .

ـ وأبى ابو بكر ان يقيم الحد على خالد في شأن مالك بن نويرة ، وقد سبق ان عمر نفسه امره بذلك فابى عليه أبو بكر .

هذا كلّه بالأضافة الى قبوله بالخلافة علما ان البيعة في السقيفة كانت قائمة على

(٢) ـ سنفرد لذلك باب أن شاء الله .

(٣) ـ وكذلك الطبري وابن الأثير والإصابة .

الغصب والأجبار كما ثبت في الأثر .

ويذكر الطبري وابن الأثير وابن قتيبة وابن عبد ربه . ان ابا بكر في نهاية عمره قال : اجل اني لا آسي على شيء من الدنيا إلّا على ثلاث فعلتهن ووددت أني تركتهن وثلاث تركتهن وددت اني فعلتهن . وثلاث وددت أني سألت عنهنّ رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فأما الثلاث اللاتي وددت اني تركتهن : فوددت اني لم اكشف بيت فاطمة عن شيء وان كانوا قد أغلقوه على الحرب . وودت اني لم اكن حرقت الفجاءة السلمي واني كنت قتلته سريحاً أو خلّيته نجيحاً ، ووددت إني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين فكان أحدهما أميراً وكنت وزيرا .

وأما اللاتي تركتهنّ فوددت أني يوم أُتيت بالاشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه ، فإنه تخيّل إلي انه لا يرى شرّا إلا أعان عليه . ووددت أنّي حين سيرت خالد بن الوليد الى أهل الردّة كنت أقمت بذي القصّة فان ظفر المسلمون ظفروا ، وإن هزموا كنت بصدد لقاء أو مدد .

ووددت أنّي أذ وجّهت خالد بن الوليد الى الشام كنت وجّهت عمر بن الخطاب الى العراق ، فكنت قد بسطت يدي كلتيهما في سبيل الله ومدّ يديه » .

لقد ثبت في صحاح السنة ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال : « فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها ، ويغضبني ما اغضبها » .

وكان أبو بكر قد أغضبها وماتت وهي غاضبة عليه . ولو كان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يعرف ان فاطمة قد تدّعي ماليس بحقها ، فلا يطلق كلمة « أغضبها » ولقال ، أغضبها في حق . فيترتب على ذلك ان ابابكر أغضبها في شيء يغضب رسول الله ، ودلّ على ذلك ندم أبي بكر قبيل وفاته ، غير ان الندم في ظلم الناس يحتاج الى مغفرتهم لا الى دموع الظالم ! .

وقد أكثرت العامة في مدح ابي بكر ، واختلفت فيه أقوالاً هي اقرب الى الاساطير منها الى الحقيقة ، وهي وان كثرت سنذكر بعضاً منها ، ونرى مدى صحتها وثبوتها .

لقد ذكروا ان قيمة ابي بكر ، تنبع من الإشادة الإلهية بموقفه في الهجرة اذ يقول تعالى : ﴿ **ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾[٤] .

واعتبروا ذلك فضيلة لا يرقى إليها احد آخر من صحابة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) اقول : ان متن الآية ، يدل على ان القرآن عرض حقيقة واقعية ، لايبدو منها اشادة فعلية ، بل كل ما في الأمر ، ان القرآن يتعرض للحالة التي عاشها الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، لما كان في طريقه الى المدينة ، وكان ثاني اثنين وكان ابو بكر قد حزن لولا ان قال له النبي : لا تحزن ان الله معنا . وهذا توجيه وتربية تعكس عدم قدرة أبي بكر على الصبر والصمود ، وروحه الى اليأس والحزن أميل منها الى رباطة الجأش وتحمل الصعاب .

هذا في الوقت الذي بقي فيه الإمام علي (ع) في فراش النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) صامدا ، ينتظر مقتله بإيمان لا يأس فيه ولا حزن . من دون أن يكون معه النبي (ع) ليوجهه ، ويعلمه ان الله معه . ثم هاجر بعد ذلك لوحده ، وهاجر المسلمون بقيادة جعفر (رض) الى الحبشة ، وما حزنوا ولا كان معهم الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، يوجههم ، وصبروا ، فهم بذلك أولى بالفضيلة ممن كان وجود الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الى جانبه لا يصرفه عن الحزن وعدم الثقة في الله .

أما قوله : اذ يقول لصاحبه . فالصاحب لا تعني بالضرورة شيئاً استثنائياً كما يرى البعض[٥] فالصاحب تطلقها العرب على رفيق السفر حتى لو كان غريبا .

بل الصحبة لا تعني بالضرورة الأنسجام الروحي والنفسي ووحدة الأتجاه . لقد جاء في القرآن : ﴿ **قال له صاحبه وهو يحاوره ★ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ★ لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا** ﴾[٦] .

واذا ما دققنا النظر وامعناه في الآية ، سنجدها لا تحتوي ما يمكن حسبانه

---

(٤) ـ سورة التوبة ( آية : ٤٠ ) .

(٥) ـ والملفت للنظر ان الله لما تحدث في القرآن عن السكينة لم يقل وانزل عليهما السكينة ، بل تحدث بالمفرد ، وأفرد رسوله بإنزال السكينة وفي ذلك لفتة تستحق التأمل ! .

(٦) ـ سورة الكهف ( آية : ٣٧ ـ ٣٨ ) .

فضيلة وميزة تذكر ، بقدر ما هي عرض لواقعة تاريخية ، قد نفهم منها ان الذي صاحب الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في السفر لم يكن على قدر كافٍ من الطمأنينة والثقة في الله .

هذا بالأضافة الى ما حكوه حوله من أساطير ، كأن قالوا إن الله استحيا من أبي بكر ، وفي مورد آخر طلب منه الرضا ، وان جبريل يسجد له مهابة ، وانه خير من في السماوات والأرض . وغيرها من الأحاديث التي لا نريد أن نطيل فيها . ومن أراد ضبطها ، فليراجع كتاب الغدير ، ليحيط بكل ما قالته السنة في أبي بكر ، والوقوف أيضاً على زيف هذه الروايات سنداً ومتنا ، كما يطلع في ذلك على الأخطاء الفقهية التي كان يقع بها أبو بكر ، والمذكورة في مرويات السنة ، فليراجع من شاء .

ولو كان ما رُوي عن أبي بكر صحيحاً كلّه ، اذن لكان أولى بعمر بن الخطاب ان يذكره في السقيفة ، علماً بأنهم لم يجدوا فضيلة أخرى غير الآية المشار اليها في الأعلى ، والحال لو كان الصحابة يدركون كل هذه الفضائل لذكروها في السقيفة وما تمرّدوا عليه بعد ذلك .

ثم كان من أكبر الأخطاء التي تجاوز بها أبو بكر حدود الشرع ، لّما حرم فاطمة الزهراء (ع) من إرث ابيها فدك . وفدك هذه كانت منطقة بخيبر ، وكانت ملكاً للرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، وكان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ينفق منها على أهل بيته (ع) فلما توفيّ ، ردّها أبو بكر الى بيت المال . ولّما تقدم إليه علي . وفاطمة ، ادعى ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال : « الأنبياء لا يورثون ما تركوه صدقة » وفي رواية لا يورثون إلا علماً . وفي تحقيق الحديث بما لا يتسع له المقام هنا ، نرى أنه حديث آحاد ، انفرد به ابو بكر وحده ولم يروه غيره . وهب أننا صدقناه في ان المال لا يورث من الأنبياء ، فهلّا اعترفوا بإرث العلم وما يترتب عليه من إمامة ؟ كنا كما سبق ان قلنا ندرك ان ابابكر كان يريد اضعاف آل البيت اقتصادياً حتى لا تقوى شوكتهم ضد الخلافة الغاصبة ، وإلا ، فلماذا يردّ عمر بن الخطاب فدكاً الى أبناء فاطمة الزهراء ، ـ علماً انه كان مدافعاً عن رأي ابي بكر ـ اذا كان الأمر ورد

فيه نص ؟ وهل أبو بكر أعلم من علي وفاطمة ، حتى يقنعهم بحرمة الارث من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكان أولى بالرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ان يخبر بهذا الحديث أهله حتى لايطمعوا في إرثه ، بينما التاريخ يثبت ان ابابكر هو المنفرد بهذه الرواية . وقد قامت فاطمة الزهراء بتلقينه درساً في الشريعة ، تردّ عليه في خطبتها الشهيرة حيث قالت : ( ..... ثم انتم تزعمون ان لا ارث لنا أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقُبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

ايهاً معشر المسلمين أأبتز إرث أبي ؟ ياابن ابي قحافة ابى الله ان ترث أباك ولا أرِثُ ابي ، لقد جئت شيئاً فريا ، جرأة منكم على قطيعة الرحم ونكث العهد ، أفعلى عمد تركتم كتاب الله بين أظهركم ونبذتموه اذ يقول : ﴿ **وورث سليمان داود** ﴾[٧] . وفيما اقتص من خبر يحيى ابن زكريا إذ يقول : ﴿ **فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا** ﴾[٨] ، وقال عزوجل : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾[٩] وقال تعالى : ﴿ **ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين** ﴾[١٠] .

وزعم ان لا حظ لي ولا إرث من أبي افخصكم الله بآية اخرج أبي منها ! أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان ؟ أولست أنا وأبي من اهل ملة واحدة ؟ أم انتم بخصوص القرآن وعمومه أعلم ممن جاء به ؟ فدونكموها مرحولة مخطومة ، تلقاكم يوم حشركم ، فنعم الحكم الله ، ونعم الخصم ( محمد ) صلى الله عليه وآله ، والموعد القيامة ، وعما قليل تؤفكون وعند الساعة تخسرون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم .

ثم ألتفتت الى قبر أبيها وتمثلت بابيات صفية بنت عبد المطلب[١١] .

قد كان بعـدك أنباء وهنبثة     لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

---

(٧) ـ سورة النمل ( آية : ١٦ ) .

(٨) ـ سورة مريم ( آية : ٥ ـ ٦ ) .

(٩) ـ سورة النساء ( آية : ١١ ) .

(١٠) ـ سورة البقرة ( آية : ١٨٠ ) .

(١١) ـ الإحتجاج (ج ١ / ٩٢ ـ ٩٣) وشرح النهج في ترجمة فاطمة (ع) .

| | |
|---|---|
| إنا فقدناك فقد الأرض وابلها | واجتث أهلك مذ غيبت واغتصبوا |
| أبدت رجال لنا فحوى صدورهم | لما نأيت وحالت بيننا الكتب |
| تهجمتنا رجال واستخف بنا | دهر فقد أدركوا منا الذي طلبوا |
| قد كنت للخلق نوراً يستضاء به | عليك تنزل من ذي العزة الكتب |
| وكان جبريل بالآيات يؤنسنا | فغاب عنا فكل الخير محتجب |

فكثر البكاء من الحاضرين .

وكان ابو بكر قد ندم على سلوكه هذا كما تقدم . ثم هو الذي أوصى ـ إن مات ـ ان يدفن الى جوار رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، واستأذن ابنته في ان يدفن فيما ورثته من أرض الحجرة ، ولو كانت تركة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، للمسلمين جميعاً ، لكان ابو بكر استأذنهم جميعا[١٢] .

وكما يذكر البخاري والبيهقي وابن كثير وغيرهم ان عمر بن الخطاب ردّ فدكاً الى ورثة رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فيترتب على ذلك ان عمر بن الخطاب قد خالف الشرع وأعطى آل البيت (ع) ماليس حقاً لهم . غير ان الواقع هو السياسة ، ثم جاء عثمان واغتصبها منهم مجدداً وأقطعها مروان ، وبقيت كذلك حتى جاء عمر بن عبد العزيز ثم اغتصبت وهكذا دواليك .

وإذا ثبت أن ابا بكر هو المنفرد برواية « الإرث » ، على أن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد أسرّ له بذلك ، فكيف يخفي الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) على ابنته ، واقرباءه وهم المعنيون بذلك .

وعلى أثر هذا الإجراء ، غضبت فاطمة الزهراء ، ودعت على أبي بكر وعمر ، وتوفيت وطلبت من بعلها علي (ع) أن يصلي عليها ويدفنها خفية ولا يجهر بجنازتها ويخفي قبرها وفعل ، وكذلك راحت الصديقة الطاهرة ، تحمل في قلبها كربا ، لو كان أبوها حيّاً ما كان لأحد منهم أن يقترب من حقوقها .

ولكن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قد راح الى رحاب الله ، وترك ابناءه لأمة تسلط عليها شرارها . ولا حول ولا قوة إلا بالله ! .

---

(١٢) ـ فدك في التاريخ .



# عائشة بنت أبي بكر

أردت أن أقدم نموذجين لشخصيات إسلامية شربنا قداستها الى حد الثمالة . فلم نجدها كما اراد القرآن . ولم نكن نريد الإطالة في سرد أخبار كل الصحابة ، واقتصرنا على ابي بكر وعائشة كشخصيتين يمكن قياس الباقي عليهما . اذ أن حصول الإنحراف في مثل هؤلاء يجعل حصوله في الباقين وارداً ، باعتبار هؤلاء ، رموزاً لا يعلى عليهم في التاريخ الإسلامي . لأن ابابكر أول « خليفة » ، انتجته سقيفة بني ساعدة بتلك الملابسات التي سبق أن اوردناها . وعائشة لأنها ابنته التي تمردت على علي (ع) في حرب الجمل . أما الباقون ، فلا يحتاجون إلا الى نفضات يسيرة في التاريخ ، لكي تسقط عنهم ورقة التوت المزيفة .

كانت عائشة من الناقمين الأوائل على عثمان ، ومرارا صاحت : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، وهي التي لم تأبه بطلب مروان اياها ، نصرة عثمان ، يوم كان في الحصار ، وهي تتأهب يومئذ للحج . ولكن من هي عائشة ، وكيف تسنى لها أن تخرج على رجل هو أقرب الناس الى زوجها ، وأجدر بإمامة المسلمين ؟ .

جاءت عائشة تطالب بدم عثمان بعد أن كانت تتمنى لو يقطع إرباً إرباً . وذلك مستمسك تاريخي بأن عائشة كانت متناقضة وغير ثابتة في مواقفها ، لم تكن تهدف الحق من وراء تحريضها على عثمان . وليس عثمان أول من خالف النصوص . فابوها فعل ذلك ، وفاروقه ايضاً . ولم تنبسْ يومها ببنت شفة . إنما القضية أوسع

من ذلك . فعثمان كان قد أنشغل بأقربائه ، فخفّض لعائشة في العطاء[13] فترك ذلك في نفسها شيئاً . فحاربته حتى مقتله . غير انها هابت خلافة علي (ع) اذ انه لا يحابي فرداً من أفراد المجتمع على آخر . وهو لن يحتاج فتوىً من عائشة . فمركزيتها ستغيب مع وجود علي (ع) على سدّة الخلافة . فهو أقرب الناس صحبة ونسبا للرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) واعلم الناس بعد رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بالإضافة الى جوانب أخرى تضمرها عائشة عنه في نفسها .

---

(١٣) ـ اليعقوبي ( ٢ / ١٥٦ ) .

# عائشة في الميزان

ومادامت قد خضعت لسياق الأحداث . نرى من الضروري وضعها قبل كل شيء في الميزان . عائشة زوجٌ للنبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أمر لاشك فيه ولا جدال ، ام المؤمنين ، وسام أُعِطَي لها بشروط لم تلتزم بها ، هي مركز كبير في الأمة له قدسيته ، وبسبب هذا المركز الكبير وتلك القدسية ، كانت خطيئتها مضاعفة .

إنها ليست أمرأة عادية تخطىء فيتقبل منها ذلك . إنها أمرأة لها موقع في وجدان الكثير ، حتى روى عنها العامة ، ان « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وسواء أكانت هي موضوع الافك أم غيرها ، فاننا نبرؤها ابتداء ، انطلاقاً من التنزيه المعطى للرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لأن ذلك ان وقع ـ لاسمح الله ـ فإنه يخدش في مقام النبوّة .

غير ان براءتها من الافك ـ ان كانت هي موضوعاً له ـ لايعني براءتها المطلقة مما قامت به من فتن ، ونحن تعلمنا من الاسلام ومن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أن الحق الذي جاء به القرآن ، أغلى من النفس ومن الأزواج والأبناء .

محمد رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، وزوجته مذنبة ، وهذا ليس عيباً ، بل حقيقة وقعت ، واذا هي لم تنافِ مقام النبوة فلأن لها نظيراً في تاريخ النبوة . ومحمد رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لم يُمنَ بزواج فاشل بناء على ذلك ، فلقد حظي بخير النساء ، أقمن أركان الدين بالتضحية ، وهي خديجة

الكبرى التي أنجب منها أبناءه ، وعلى رأسهم الزهراء الطاهرة ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . ولكي نعرف عائشة ونضعها في الميزان ، يجب أن نتوخى الحقيقة ، ونكسر في أذهاننا صنم عائشة من أجل الحقيقة الغالية فقط .

أعطى القرآن درساً لنساء النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) حتى لايغتررن ، ويظنّنّ أن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يفني عنهن شيئاً ، فرسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بعث للبشرية ، وهو لم يبعث ليحتكره هوى امرأة . ولطالما حاولت عائشة ذلك . فالتأنيب القرآني ، بيّن أن امرأة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ليست هي التي تحدد عواطفه وسلوكه ، وبأنهنّ معرّضات للطلاق اذا لم يكففن عن اذى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وإشغاله بالسفاسف ، مما يصرفه عن مهمته النبوية . قال تعالى :

**﴿ يا أيها النبي ، قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتّعكُن وأسرّحكن سراحاً جميلاً . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله اعدّ للمحسنات منكن اجراً عظيماً . يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها اجرها مرّتين واعتدنا لها رزقاً كريماً . يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً . وقرن في بيوتكنّ ولاتبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى ﴾**[١٤] .

والآية تحتوي على مجموعة من الحقائق التي يجب الوقوف على دلالاتها :

١ ـ تخيير نساء النبي بين ارادة الدنيا وزينتها التي يترتب عليها الطلاق أو إرادة الله ورسوله والدار الآخرة .

وهي حقيقة تبين نوعية الزواج النبوي . أنه زواج يفترض أن يكون في خط الله ، ومنقطعاً اليه . فاما هذه الوجهة ، وإما الطلاق ، وهذا حق لهم لم يبخسه القرآن .

٢ ـ ان الله أعدّ للمحسنات منهن أجراً عظيماً . ولم يذكر مطلق نسائه .

---

(١٤) ـ سورة الأحزاب ( آية : ٢٨ ـ ٣٣ ) .

فالمسألة مشروطة بالإحسان . أي العمل الصالح . وبالتالي يترتب عليه بمقتضى المفهوم بالمخالفة ، انه ليس ثمة أجر عظيم لغير المحسنات منهن .

٣ ـ وانه أنذر من تأتي منهن بفاحشة مبينة بمضاعفة لها العذاب لها ضعفين ، وذلك على الله يسير . وفي هذا دلالات يجب الإفصاح عنها . فالانذار بمضاعفة العذاب ، هو مقتضى العدل ، لأن الضعف يتسع ايضاً للإحسان . وذلك ايضاً لمكانتهن من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . ثم يتحدث القرآن عن الفاحشة . وهذا دليل على أن من بين زوجات النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من قد تأتي بالفاحشة . غير أن الفاحشة هنا لها مدلول خاص . فالفاحشة بالمعنى المسقط للسمعة ، كالزنا ـ والعياذ بالله ـ غير وارد في حق زوجات النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بإجماع المسلمين شيعة وسنة .

وتشمل كلمة ـ فاحشة ـ بالتالي كل المعاني الأخرى التي لا تمس شخصية الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

٤ ـ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى . وهو أمر إلهي لنساء النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) للزوم البيوت وحرمة الخروج . وضرب القرآن لهن مثلا ، بزوجات الرسل والأنبياء السابقين : **﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾**[١٥] .

أما عائشة فماذا ؟ .

لقد كانت مصدر قلق وازعاج للرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، مزعجة مشاغبة كادت تشيبه قبل المشيب .

روى حمزة بن أبي أسيد الساعدي عن أبيه وكان بدريا قال : تزوج رسول الله أسماء بنت النعمان الجونية ، فارسلني فجئت بها ، فقالت حفصة لعائشة : اخضبيها أنت ! وأنا أمشطها ! ففعلتا . ثم قالت لها أحداهما : ان النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يعجبه من المرأة اذا دخلت عليه ان تقول : أعوذ بالله

---

(١٥) ـ سورة التحريم ( آية : ١٠ ) .

منك ! فلما دخلت عليه وأغلق الباب وارخى الستر مد يده إليها فقالت : أعوذ بالله منك . فقام رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وكمه على وجهه فاستتر به ، وقال : عذت بمعاذ ثلاث مرات ، ثم خرج الى أبي أسيد فقال ياأبا أسيد الحقها بأهلها ومتعها برازقيتين يعني كرباسين . ( وطلقها ) فكانت تقول : « ادعوني الشقية » . قال ابن عمر قال هشام بن محمد فحدثني زهير بن معاوية الجعفي : انها ماتت كمداً »[16] .

ومما ورد عنها ، من إزعاج الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ما أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم عن عاشة .

قالت : « كان رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يشرب عسلا عند زينب بنت جحش . ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له اكلت مغافير؟ قال : لا ولكن أشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، لا تخبري بذلك أحداً » وفي ذلك انزل الله في القرآن : ﴿ **ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات ازواجك** ﴾[17] .

فالله الذي بعث محمداً نبياً ، لم يشأ له الشقاء ﴿ **طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾[18] كيف لا يرفع الحرج والعسر على نبيه ؟ وقد فرض على نفسه شيئاً ابتغاء مرضات عائشة وتجنبا لإزعاجها .

وذكر صاحب الأحياء قولها للرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) « أنت الذي تزعم انك نبي الله »[19] .

وخاصمت النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يوماً الى أبي بكر : فقالت : يارسول الله اقصد ـ اي اعدل ـ فلطم أبو بكر خدها وقال : تقولين لرسول الله اقصد . وجعل الدم يسيل من انفها[20] .

---

(١٦) ـ المستدرك ( ج ٤ ) ترجمة أسماء بنت النعمان والطبقات( ١ / ٨ ) .

(١٧) ـ سورة التحريم ( آية : ١ ) .

(١٨) ـ سورة طه ( آية : ٢ ـ ٣ ) .

(١٩) ـ احياء علوم الدين كتاب آدب النكاح .

(٢٠) ـ باسناد عن عائشة ، أورده صاحب الكنز ، والغزالي في آداب النكاح .

وما الى ذلك مما ورد فيها ، ويضيق عنه المقام . ككسرها الأواني في بيت الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أثناء غضبها وما الى ذلك مما ورد في آثار السنة . وحسبنا ماروته هي عن نفسها قالت :

« كان رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها فذكرها يوما من الأيام فأدركتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها ، فغضب حتى أهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال :

« لا والله ما أبدلني خيراً منها ، آمنت بي اذ كفر الناس ، وصدقتني اذ كذّبني الناس وواستني في مالها اذ حرمني الناس ورزقني الله منها أولاداً اذ حرمني أولاد النساء »[٢١] .

لقد نزل القرآن موبّخا لها على هذا السلوك : **﴿ ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وان تظاهرا عليه** ( أي على النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ) **فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ، عسى ربّه ان طلقكن ان يبدله ازواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكارا ﴾**[٢٢] .

ولم تكن هي افضل زوجات الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بنص ما سبق . فقد جاء في الحديث ، أوحي الى رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ان يبشّرها ـ أي خديجة ـ ببيت لها في الجنة من قصب[٢٣] .

وقوله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) خير نساء العالمين أربع : « مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد »[٢٤] .

كان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يتفرس فيها الفتنة ، وعلم انها

---

(٢١) ـ الإستيعاب ، ومسند أحمد ، واسد الغابة ، والإصابة ، وكذلك ذكر البخاري بلفظ آخر ومسلم والترمذي .

(٢٢) ـ سورة التحريم ( آية : ٤ ـ ٥ ) .

(٢٣) ـ صحيح البخاري ( ٦ / ١٥٨ ) و ( ٤ / ٢٣٠ ) ط دار الفكر ، وصحيح مسلم ( ٢ / ٣٧٠ ) ط الحلبي ، وصحيح الترمذي ( ٥ / ٣٦٦ ـ ج ٣٩٧٩ ) ط الفكر ، تذكرة الخواص ( ص ٢٠٣ ) .

(٢٤) ـ الإستيعاب ( ٤ / ٣٧٧ ) ، وأسد الغابة ( ٥ / ٤٣٧ ) ، والإصابة ( ٤ / ٣٧٨ ) .

ستحدث بعده فقال لهنّ مرة : « ليت شعري ايتكن تنبحها كلاب الحوأب »[٢٥] .

ولقد نبحتها تلك الكلاب ـ شرف الله قدركم ـ يوم الجمل .

ولم يكتفِ الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بذلك ، بل اكّد مراراً وتكراراً على خطورتها ، وهو لا يزال على قيد الحياة . « فلقد وقف ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مرة خطيباً فأشار نحو مسكن عائشة فقال : « هاهنا الفتنة ثلاثا من حيث يطلع قرن الشيطان »[٢٦] .

وفي لفظ مسلم « خرج رسول الله من بيت عائشة فقال : رأس الكفر من هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان » .

غير ان حجباً كثيفة منعتنا من الكشف عن الحقيقة ومنها أن عائشة راوية حديث يكاد حديثها يسود كل أسفار العامة ، والواقع ان ذلك كله تضخيم للواقع ، وقد عمد الأمويون الى التكثير من احاديث عملائهم ورموزهم واتباعهم مثل ابي هريرة . وكانت عائشة ممن وقف معهم ونادى من بعد ذلك مطالباً بدم عثمان ، وممن شاركهم في أذى البيت الهاشمي ، ومنعت استجابة لمروان ان يدفن الحسن قرب جده في بيتها .

التكثير من ذكر عائشة وأخبارها ، ليس إلا صناعة اعتادها المؤرخون ، من الطريف ما ذكره صاحب شرح الملحمة التترية لأحمد بن منير الطرابلسي .

حيث فنّد كذبة ، كون عائشة روت كل هذا الكم الهائل من الأحاديث ، فيذكر ان ما اشتهر عند أهل السير هو أن عائشة بنى عليها الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهي بنت « ٩ سنوات ، بينما بلغ حديثها ٤١ ألف حديث ويزيد » فكيف تكون العملية ؟ .

لقد بنى عليها وهي بنت ٩ سنوات ثم مات عنها وهي بنت ١٨ سنة . فتكون حياتها مع النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ٩ سنوات .

---

(٢٥) ـ الحديث مشهور ، ذكره صاحب العقد الفريد ، والطبري في التاريخ والإستيعاب وتذكرة الخواص

(٢٦) ـ صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير ، باب ما جاء في بيوت أزواج النبي (ص) ( ٤ / ٤٦ ) ط دار الفكر .

ومعلوم ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كانت تحته ٨ نساء وهي تاسعتهم ، وبمقتضى العدل بين النساء يكون لها يوم كامل من كل ٩ أيام و ٩ سنوات من حياة عائشة مع النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) موزعة على ٩ من نسائه .

بالإضافة الى انه يقضي معظم نهاره في شؤون المسلمين بالمسجد الجامع وجزءا كبيراً من ليله في التهجد والعبادة ، ثم لابد له من الراحة « كبشر » .

وعليه ، فلا يمكن أن يتجاوز حديث الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) مع عائشة أكثر من ( ١٠٠٠ ساعة ) ، واذا افترض انه حدثها خلال كل ساعة ( ١٠ ) أحاديث وهذا غير وارد ، اذ ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) كان طويل الصمت ، وصمته اكثر من كلامه ، فيكون المجموع عندئذ ( ١٠٠٠٠ ) وفي هذا مبالغة .

واذا أضفنا ( ١٠٠٠٠ ) حديث اخرى ، بمقتضى ان السنة هي قول وعمل وتقرير ، وهي اضافة مبالغة فسيكون المجموع ( ٢٠٠٠٠ ) في اقصى الحدود . فأين هذا العدد من ( ٤١ الف حديث لعائشة ) .

ويلخص صاحب الملحمة ، عمليته كالتالي :

« لعائشة ٩ سنوات في بيت الرسول ولها من هذا العدد سنة واحدة فقط » لأنها تعيش مع « ٨ » ضرات والسنة تساوي ٣٦٥ يوماً واليوم يساوي أربعا وعشرين ساعة » وحاصل ضرب ( ٣٦٥ × ٢٤ = ٨٧٦٠ ساعة ) ينقص نصفها وهو النهار لوجوده في المسجد .

و ( ثلاثة ارباع من الليل للعبادة والراحة ) فألف ساعة نصيب وافر جداً قد فرضناه لحياتها معه أي للتحدث معها »[٢٧] .

هذه هي عائشة ام المؤمنين ، كيف نجمع بين النقيضين ؟ كيف دخلت المعركة مع يعسوب المؤمنين ؟ .

---

(٢٧) ـ شرح الملحمة التترية . أقول : والمرأة التي تكذب على النبي (ص) حسب ما أوردنا ، ونزول القرآن فيها ، اليست مستعدة للكذب على الناس الذين هم دونه بلا شك .

لدي وجهة نظر قوية الدلالة ، فعائشة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم ) كانت مخطئة في حربها مع علي (ع) هذا مالا يشك فيه أحد . لأنها لم تتمالك نفسها أمام فرصة تسنح لها ، لتصفية حسابها ـ كامرأة غيور ـ مع عدو لها لدود استبد بأوقاتها مع النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الزوج ـ ودفعه المبدأ الصارم الى حل مشكلة الأفك باقتراح الطلاق ، وذلك من أجل قضية الرسول الرسالية ، فلم يراع في ذلك شعور عائشة ـ المرأة ـ الغيور ، وما يمكن أن يتركه هذا التصرف في امرأة خاصمت وكسرت الأواني في البيت وساهمت في خداع نساء النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، ليعرض عنهن .

كل ذلك غيرة ! والمؤرخون ، هم الذين خلعوا عليها قداسة زائدة ، ورأوا في نزوعها ذاك ، اجتهاداً دينياً أضافوه الى شريعة محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

واستمر الإمام علي (ع) في طريق نضاله العقيدي ، لا تشغله سفاسف الصغار . في مثل هذه الفرص ، تقدّم عائشة دليلاً على غيرتها الكبرى التي ليس بعدها مبرر اقوى لمحاربة كتلة من المسلمين على راسهم علي بن أبي طالب (ع) فهذا الأخير اذا حكم ، وعائشة موجودة اذاً سينفذ النص وسيكون كالنبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الذي لم تكن عائشة تقدر على تلبينه ، لأنه زوجها أولاً ، وثانياً لأنه مدعوم بالوحي مباشرة ، ولأنه ثالثاً زجرها بالوحي أكثر من مرّة ارادت ان تتظاهر عليه .

بينما علي (ع) هذا سوف يطبق احكاماً أشبه في صرامتها بـ « طلقها يارسول الله » .

وهذا يؤذي عائشة ، ويؤذيها كذلك ان يتألق نجم علي وبنيه ، بشكل يخبو فيه وهجها أمام المسلمين ، تريد أن تستبد وحدها بإرث الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في الشرف ، ويؤذيها أن يتولى أمرَ الناس احدُ اعداء ابيها وفاروقه وقتّال للعرب ! .

مع كل ذلك أقول ان عائشة ، رغم خطيئتها في حرب علي (ع) إلا أنها كانت ترى نفسها منطقية مع شعارها الذي هو « ان علياً قتل عثمان » ! .

وكل عاقل يدرك ان علياً لا يمكن ان يتآمر بهذه الطريقة العصبوية على رجل ضعيف ـ وان كان قوياً بعشيرته ـ ولكن المؤامرة كانت استراتيجية واعتبارية ، أي ان علياً (ع) نضّج الأجواء الثورية لهذه العملية ، فوجوده وسلوكه وتوجهاته تعكس ملامح « الرفض » ! وتحولُ علي (ع) واسرة بني هاشم على مدى سنوات من الإغتصاب الاستخلافي ، الى محطة لتزويد الجماهير بالرفض ، نقطةُ استفهام انزرعت في قلب المجتمع الإسلامي يومها ، كانت تلك هي بنو هاشم ! .

فعائشة كانت ترى انها تحمل شعاراً فيه مبررات مقبولة عند العوام ، فهي ترى أن رؤساء الوفود الذين جاءوا الى عثمان ، كانوا هم طليعة وخلّص شيعة علي (ع) وان الذين اقتحموا البيت على عثمان وتزعموا قتله ، أصبحوا من عمّال علي (ع) في البلدان ، كمحمدبن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة وأمثالهما .

وجدت عائشة في ذلك مبرراً ، لمعارضة علي (ع) بعد أن أنعقدت له البيعة ، وأشعلت فتنة في أمة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لم يطفئها إلاّ سيف علي (ع) .

أمثل هذه المرأة ، يستحق أخذ الدين عنها ؟ ! وكيف نتقرب الى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ونحترمه من خلالها وهي التي كانت لا تحترمه ولا توقره على خلاف بعض ازواجه الأخريات ؟ ! .

يقول الإمام علي في نهجه :

« لا تعرف الحق بالرجال ، ولكن اعرف الحق تعرف أهله » .



# ايديولوجيا المنطق السلفي

هناك في الفكر السلفي ما يقمع وما يوجه الأمة وثقافتها ، القمع الذي تعززه بـ « اذا ذكر اصحابي فأمسكوا » .

والتوجيه الذي تبرره بـ « اصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

والمفهوم النهائي من ذلك كله هو أن تتبع محددات ، دون معرفة .

وعندما نفهم الاسلام ، بعيداً عن التوجيه الأيديولوجي السلفي . نفهم أن الهدف منه هو إثارة عقل الإنسان . لكي يمارس حياته بوعي ، وليقوم بدوره الديني على يقين .

ولا أعتقد أن الإسلام الذي جاء ليعلم الناس الحكمة والعلم ، يرضى أن يضع الأغلال على المسلمين ، ويربطهم بأشخاص مجهولين ، ثم يمنع هؤلاء الناس من البحث عن سيرتهم الحقيقية في التاريخ .

وليس في القرآن قدوة ، غير الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ومن نص عليهم . أما الصحابة ، فقد كانوا هم موضوع الرسالة .

ونلاحظ أن في الأمر بالإمساك عن ذكر أصحاب الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ـ مهما أحدثوا ـ ايحاء بالعصمة لهم ، وهذا خلاف لما جاء به الإسلام ، فاذا لم يخضع هؤلاء الى معادلة الجنة والنار ، فمن يخضع لها أذاً ؟ ! .

وليس من المنطقي أيضا ، أن يكون كل أصحاب الرسول كالنجوم . وإلا فإن

من هدى معاوية ان قاتل علياً (ع) ونهب الأمة ، وأحدث فيها ثم جعلها في النهاية ملكاً عضوضاً . وان عمرو بن العاص باع دينه ليشتري به دنياه ، وأن أبا هريرة لم يكن يجسد سيرة الإسلام ، وهو يخالف الحق من أجل إشباع بطنه .

ثم ما حدث بين هؤلاء الصحابة دليل على أنهم ليسوا جميعاً نجوماً .

وهذا الخطاب ، ليس خطاباً لنا وحدنا ، بل هو بالدرجة الأولى ، خطابٌ موجه لهؤلاء المعاصرين له ـ الذين اطلق عليهم السنة جميعا اسم الصحابة ـ وهذا دليل على أن الصحابة الذين يعنيهم النص مع افتراض صحته ـ ليسوا إلا فئة معينة ضمن هذا القطيع الواسع من المعاصرين للرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

وكنت ألاحظ تلك السطحية في عقلية العامة بخصوص تحديد مفهوم « الصحابي » وكل ما قالوا عنه مجرد تبريرات وهمية لا ترقى الى سمّو الإقناع . يقول « أنور الجندي » في ردّه على « عبد الرحمن الشرقاوي ، في مسرحية الحسين شهيدا »[٢٨] : شهد الباحثون الذين راجعوا القصة ( . . . ) أن الأصابع الحمراء تشوه حقائق التاريخ الإسلامي وتشهر بالصحابة الاجلاء .

ثم لم يوضح كيف أساء الى الصحابة . واقتصر على « وتشهر بالصحابة الاجلاء » لاستعطاف الوجدان العامي ، من دون اللجوء الى أساليب إقناع موضوعية . ثم قال :

تردد في المسرحية تشهير بجماعة من أصحاب الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وهم قدوة لنا وقد نوه الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بمكانة أصحابه في أكثر من حديث شريف ومن واجبنا أن نبرز مفاخرهم ونركز عليها ونهتم بها وألا نطيل الوقوف أمام ما نسب إليهم من خلاف أو اخطاء .

ولازلنا ننتظر من مفكر العامة ان يفصح عن كيفية هذا التشهير ولكنه لم يبين للذين يكتب لهم ، ماذا قال الشرقاوي وأين أخطأ بل اقتصر على وجوب إبراز مفاخر الصحابة وأن علينا ونهتم بها . كما لو نركز على أن الرسول أخطأ واصاب

---

(٢٨) ـ إعادة النظر في كتابات المصريين في ضوء الإسلام .

عمر ـ ولا نطيل الوقوف امام ما نسب اليهم من خلاف أو أخطاء ـ كما لم نطل الوقوف أمام مقتل الحسين ـ لسواد عين يزيد والعامة .

واستمر « الجندي » كذلك في كلماته المطاطة التي لا تحتوي مضمونا عقلانيا يحمل مظهراً من مظاهر الأقناع . وهذه الضبابية في تحديد المفاهيم عند العامة ، ليست من مسؤولية الجندي ، بل هي كانت في صميم البنية المذهبية للعامة .

**قصة طريفة**

من القصص التي حدثت لي يوماً وعرفت من خلالها مدى تقديس الصحابة عند العامة تقديساً يفوق قدسية الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) نفسه من حيث لا يشعرون . جاءني واحد من المثقفين ، والمتوجهين الى دراسة الفكر السلفي . ورتب معي موعداً للحديث عن ملابسات السقيفة وعندما بدأنا حوارنا . كان يحاول أن يفتح لي كل مرة بابا في النقاش ، ليبرر به موقف عمر بن الخطاب ، غير أنني كنت أعرف مسبقا ـ وبحكم التجربة ـ أي باب يريد أن يفتح ، ثم أوصده في وجهه . وكان هدفه ان يبرىء عمراً من أي خطأ مهما كانت النتيجة . وكنت أحاول أن اوضح له موقف الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من قضية الإمامة مهما كلفت نتيجة ذلك ، ولو بخسران واحد من الصحابة . ولمّا رأى ان الأبواب كلها انغلقت عليه . والفى « النص » لدى كل باب يريد فتحه .

قال بكل ابتذال : اذاً لو كنت في ذلك الموقف ، لاتبعت عمراً وتركت الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لأن عمراً رأى المصلحة في ذلك ، بدليل ان خلافته كانت كلها عادلة .

قلت له : أنا لا أريد أن استعرض امامك حقيقة العهد العمري في الخلافة ونقاط الاستفهام المبهمة في فترة خلافته . غير أن الاساسي هنا ، هل أنت مستعد لاتباع عمر وترك الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ؟ .

وهل الرسول يقارن بعمر ؟ وهل « رأي » عمر أصوب من « وحي » محمد ؟ .

قال : المهم ، ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أمر في حديث له أن نتبع عمر .

هذا هو الموقف الذي يحسه كل عامي في نفسه . وكلما أوصدت في وجوههم الأبواب ، كشفوا عن هذه الحقيقة ، لأن الفكر الأساسي الذي يقوم عليه اعتقادهم ، هو فكر مضبب لذا فليس عند أي « عامي » فكر متناسق عن كل القضايا التي تعرضنا لها ، سوى ركام من التبريرات الأدبية ، المطرزة بالحوقلات والتهليلات .

# ليس كل الصحابة عدول

تحرم الشريعة الإسلامية « التقليد » في الاعتقاد . ذلك لأن العقيدة لا تورّث بل تبحث فهي قناعة واستيعاب .

واذا أردنا أن نبحث في قضية الاعتقاد نحتاج الى التاريخ أي الى الأرضية الزمنية التي تحرك فيها الاعتقاد الإسلامي ككل . وسنضطر حتماً الى بحث موضوع « الصحابي » فيكون البحث عن الصحابي جزءاً لايتجزأ من بحث الاعتقاد . لأن لهذا وذاك علاقة تاريخية لابد من فرزها .

وعندما نبحث في الصحابي ، كضرورة لبحث الاعتقاد ، سنصطدم بمجموعة العورات والأنحرافات .

والكشف عن الأنحراف لا يعني تعرضاً للصحابي ، بقدر ما يعني الوصول الى الحقيقة ، والذي يبحث عن الاعتقاد الصحيح غير الملفق ، يلزمه عدم تغطية تلك الأنحرافات وعدم تبريرها .

من ذلك مثلاً : يحاول البعض ان يغطي عن أبي هريرة ، ويعتقد بأحاديثه الداعية الى الجبر ، ولا يمكن فهم هذا الأنحراف إلا بالكشف عن انحراف أبي هريرة .

كما أن وضع الصحابي تحت المجهر التاريخي ، لا يعني بالضرورة « سبّا » للصحابي ، وفي حديث « لاتسبوا أصحابي » لفتة يجب الوقوف عندها .

أولا : لاتسبوا أصحابي ، لا علاقة له بالبحث التاريخي الموضوعي عن الصحابي .

ثانياً : ان هذا الحديث كما ورد في مرويات السنة ، جاء كتوبيخ لخالد بن الوليد لمّا تعرضّ لعمار بن ياسر وسبّه . فقال الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لخالد : لاتسبوا أصحابي ..

فالكلام موجّه لخالد ، وهو دليل على أن خالداً ليس صحابياً بمفهوم الحديث . وان صحابة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ليسوا هم الذين عاصروه وصلوا وراءه . بل هم فئة خاصة .

واذا تبين أن الصحابة ، كانوا أكثر اختلافاً في عهد رسول الله وأكثر تمرّدا عليه في بعض المواقف ، سوف نفهم تبعاً لذلك طبيعة انحراف بعضهم ، بعد وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

# بعض الصحابة سيرتد ، بالنص

روى الحميدي في الجمع بين الصحيحين في مسند سهل بن سعد ، الحديث الثامن والعشرين من المتفق عليه ، قال : سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول : « أنا فرطكم على الحوض ، منِ ورد شرب ومن شرب لم يظمأ ، وليردن عليَّ اقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يُحال بيني وبينهم » .

وجاء في الصحيحين البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس ، قال : ألا إنه سيجاء برجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فاقول : يارب أصحابي ؟ فيقال : إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم ، فلمّا توفيتني كنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد . ان تعذبهم فانهم عبادك ، قال : فيقال لي : إنهم لم يزالوا مرتدّين على اعقابهم منذ فارقتهم[٢٩] .

وروى البغوي في المصابيح ، كما رواه البخاري ومسلم في صحيحيها : قال الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) انا فرطكم عيل الحوض ، من مرّ عليّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ ابداً ، وليردنّ عليّ اقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يُحال بيني وبينهم ، فأقول : أنهم امتي ؟ فيقال : انك لا تدري ما أحدثوا بعدك

---

(٢٩) ـ صحيح البخاري ( ٩ / ٥٨ ـ ٥٩ ) ، وصحيح مسلم ( ٧ / ٦٦ ) ، وذكر مسند أحمد خبر ارتداد الصحابة ايضاً .

فاقول : سحقاً سحقاً لمن غيّر بعدي .

وقد روي هذا الحديث بطرق مختلفة واسانيد شتى ، واكتظت به صحاح السنة ، وهذا كلام صريح على بطلان مقولة « كلهم عدول » ما دام الكثير منهم بشهادة النص ، سيدخلون النار ! .

إن القرآن الكريم وهو المصدر الأول للمعرفة الإسلامية ، يعلمنا أن الصحابة ليسوا كلهم عدول بل فيهم من يستحق العقاب .

تحدث القرآن عن الصحابة يوم حنين وإعجابهم بكثرتهم ظانين انها ستغني عنهم شيئا : **﴿ ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم ولّيتم مدبرين ﴾**[30] .

ويذكر صاحب التفسير الكبير والآلوسي وصاحب الدر المنثور . أن الكثير من الصحابة ولّوا مدبرين ، تاركين الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وراءهم بين يدي العدو ، وكل ذلك طمعاً في البقاء . وهذه الآية ليس فيها « نظر » حتى يحاول العامة تحريفها أو نفيها مع وضوحها وقطعها في انكسار الكثير من الصحابة وفرارهم في الزحف .

وكان من الصحابة من يتهم الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في الصدقات ، كما جاء في صحيح البخاري والدر المنثور : أن أناساً من الأنصار قالوا يوم حنين ، حيث أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء وطفق رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يعطي رجالاً من قريش المائة من الأبل ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله ، يعطي قريشا ، ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم .

وقال تعالى : **﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾**[31] .

وروى الحميدي في الجمع بين الصحيحين وابن ماجة في سننه عن عائشة عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال : إن رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم )

---

(٣٠) ـ سورة التوبة ( آية : ٢٥ ) .

(٣١) ـ سورة التوبة ( آية : ٥٨ ) .

قال : اذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم أيّ قوم انتم ؟ قال عبد الرحمن بن عوف : تَكُن كما أمرنا الله . فقال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أو غير ذلك ، تتنافسون ، ثم تتحاسدون ، ثم تتدابرون ، ثم تتباغضون » .

هؤلاء هم الصحابة كما عرفهم العامة من دون محدّدات تضبط مفهوميتهم . « ولذا يجب ان نتحلى بروح شجاعة ، جريئة ، اي بنفسية مهذبة سليمة غير متشنجة ، تقتضي التضحية ببعض التقديسات التي هي في الأصل ، عين الأزمة » .

غابت الأزمة ، وكان من المفروض ان لاتغيب عن المنّقب ولكن السبب الرئيس لغيابها وتعسرها ، أن المؤرخ المتشنج يبحث عنها بعيداً عن جذورها ، في الوقت الذي تكمن المشكلة في ذات الأشخاص الذين تربطه بهم رابطة غيبية مقدسة لها مشروعيتها في نفسه أكثر مما هي في « النص » !! .



# مفهوم الإمامة

سأنطلق هنا من نقطة لدي فيها وجهة نظر تاريخية ، هي إن نظرية الإمامة والخلافة ، تبلورت بشكل أكثر دقة عند الشيعة منه عند السنة . والسبب في ذلك راجع الى ، ان مواقف الخلفاء تناقضت في ممارسة « الإمامة » ، وتعاطت ، باشكال مختلفة ومتناقضة ، مع مسالة الخلافة .

فالمفهوم الشوروي الذي يتسع في المنظور السني الى مسألة الخلافة ، لم يكن ثابتاً سواء في فكر السنة أو ممارساتهم .

ففي النص السني ، تتوزع مسألة الخلافة بين البعد الشوروي والبعد التنصيبي ، بالقياس على نص « مروا ابا بكر فليصل بالناس » وكانت هذه الأخيرة هي شعار « السقيفة » ! .

« بينما ظلت المسألة ثابتة في الفكر الشيعي منذ البداية فهي الخلافة بواسطة « النص » وفي حدود ـ بني هاشم » وكان لهذا الثبات المفهومي ، الفضل في انتصارات الشيعة ، الكلامية ، على خصومهم ، مستفيدين من الشرح الحاصل لدى العامة في نظرية الإمامة ، والتنوع والتناقض الذي حكم قضية الخلافة في الفكر السني .

لقد تبلورت المواقف بعد وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بشكل سريع . بحيث لم تبق فرصة للهاشميين في ابداء رأيهم .

أستغلَّ أصحاب الرأي ، غباء العامة في السقيفة ـ أي الرعاع ـ ، وأرهبوا

الخاصة مثل سعد بن عبادة ، وعمّار و . . . والهاشميين ، هذا يعني أن الأمر كان معداً سلفاً ومسبقاً .

والهاشميين كانت لديهم منذ البداية نصوص قاطعة .

والسقيفة مؤتمر قائم أساساً على مخالفة النص . لأنه لو أُطيع أمر الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في تجهيز جيش أسامة ، لما كانت لهم فرصة في إقامة مثل هذه المؤتمرات . وعندما يقول الرسول : « لعن الله من تخلف عن جيش اسامة » يترتب عليه ، أن اللعنة على ما قام على لعنة « التخلف عن جيش أسامة » . بمعنى ان السقيفة قائمة على « اللعنة » . واذا اردنا ان نخضعها لأسلوب الأحكام ، فإن كلمة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) تثبت أن الأمر واجب ، وان التخلف عنه حرام . وما دامت السقيفة قائمة على حرمة التخلف عن جيش أسامة ، ترتب عليه حرمة السقيفة ، وذلك من باب أن المبني على الحرام حرام ! .

قلت إن الإمامة عند أهل السنة ، خاضعة للمزاج والراي ، ولم تكن لهم فيها نظرية ، وحتى « قاعدة » الشورى التي تحدثوا عنها لم تكن « مؤسسة » يومها . بل كل ما في الأمر ، وضعها اللاحقون . أما المسألة في واقعها التاريخي ، فكانت تتارجح بين أشكال من « التنصيب » ونحن هنا سنعرض وجهة نظر كل من الشيعة والسنة في مسألة الخلافة . لنقف على الثغرات التي تحتوي عليها وجهة النظر العامية حول المسالة .

### أهل السنة ، والخلافة :

مع أن الخلافة في واقعها التاريخي ، لم تكن متبلورة في شكل نظرية عند أهل السنة ، إلا أن المتأخرين منهم استطاعوا أن يضعوا لها مبررات فكرية بسيطة ومحدودة .

يعتقد أهل السنة ، بأن الخلافة ، شأن من شؤون الدنيا ، يتحقق بالأتفاق . وحيثما ورد الأتفاق تجب البيعة . ولم يعتبروها من أصول الدين ، فهي اذن من فروعه ، وشذت بعض مذاهبهم ، اذ جعلتها غير واجبة ، وبأن السقيفة كانت

نموذجاً للشورى . من دون ان يركّزوا على ملابساتها . ويستندون الى قوله تعالى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[٣٢] .

ولم يشترط السنة العصمة في الإمام . بل وجوّزوا إمامة الفاسقين ، وأوجبوا الطاعة مع الفسق يقول الباقلاني في التمهيد ، قال الجمهور من أهل الإثبات . وأصحاب الحديث : لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه ، بغصب الأموال ، وضرب الأبشار ، وتناول النفوس المحرمة ، وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود ، ولا يجب الخروج عليه .

ولايشترط السنة « الأفضلية » في الإمام . فقالوا بجواز تقديم المفضول على الأفضل . والواقع ، هو ان المفهوم الذي « فبركه » أهل السنة عن الخلافة ، أنما كان استقراء لوضع فاسد ، هو « السقيفة » . فمن الأمر الواقع الذي جرى فيها ، استقرأوا مفهوم الشورى وعدم النص . . . ومن الفساد والفسق الذي أحصاه التاريخ على بعض الخلفاء ، أن أرتأوا الأبقاء على الخليفة الفاسق ! وأي عاقل ، يملك وجداناً سليماً ، ووعياً بالدين عميقاً . يمكنه هضم هذه المحددات التي وضعها السنة للخلافة ؟

**مبعث الإمامة عند الشيعة :**

لما كانت الإمامة ضرورة لتنظيم حياة المسلمين وفق احكام الله ، حيث بها يستقيم أمر المسلمين ، دنيا وآخرة . عدّها الشيعة أصلاً من أصول الدين . وعليه فانها تعتبر من الأمور التوقيفية التي يحددها الباري جل وعلا . تماماً مثلها النبوة ، أمرٌ توقيفي منوط باختيار الله عزوجل لأنها تشكل ضرورة لهداية الناس . وما دامت الإمامة هي الإمتداد الشرعي للنبوة فانها تبقى خارج دائرة الشؤون التي يبت فيها الناس . والإمامة ليست شأناً من شؤون الدنيا فقط . بل هي شأن من شؤون الآخرة أيضاً وعليه ، فإن الإمامة تخضع لمجموعة شروط ، تنسجم مع هذا الشأن .

وحيث أن الشأن الأخروي يتطلب الصفات الفاضلة والعليا . فإن البشر

---

(٣٢) ـ سورة الشورى ( آية : ٣٨ ) .

عاجزون عن اكتشاف الأجدر في هذا الشأن . أو قد تحول دونهم وذلك عوامل أخرى نفسية وسياسية ، كما جرى في التاريخ الإسلامي . ولو كان الأجدر في هذا الشأن يُدرك مباشرة ، لخّول الله للبشر اختيار الرسل والأنبياء ، والقرآن قد تحدث عن طبيعة المقاييس التي كان يملكها المشركون في اختيار جدارة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فكانوا يرون مشيه في الأسواق وأكله الطعام ، ينافي النبوة . كما رأوا في فقره ويتمه ما ينافي مقام الرسالة ، وقالوا لولا ورد علينا رجل من القريتين عظيم ، ولو أنزل الله علينا ملكاً و . . و. . .

وبسبب قصور المقاييس وضبابية المنظار الذي كان ينظر منه الإنسان الى النبوة . كان من الطبيعي أن يستأثر الله باختيار أنبيائه . ونفس الشيء لما رأى بنو اسرائيل في اختيار الله للملك طالوت ما لا ينسجم مع مقاييسهم لمفهوم الملك فقالوا : ﴿ **أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه** ﴾ ؟وهناك أسباب كثيرة ، عقلية وشرعية ، تجعل من هذا الإختيار أمراً مستحيلا :

١ ـ إن الدين شأن من شؤون الله . وإن الأجدر دينا ، لا يمكن إن يكتشفه من هو دونه . ولذلك يلزم أن يختاره الله .

٢ ـ إن الناس قد يرفضون الإمام لعدله وتقواه إذا ادركوا عدم ركونه الى أهدافهم . وقد يختارون من يرون فيه ليناً وانسكاراً ، وقد يميلون مع من يكسرهم إليه بالقوة . وتاريخ الخلافة كما سبق ذكره ، كان دليلاً قاطعاً على ذلك .

٣ ـ أن رسالة الرسول كما تركها ، لا يمكنها حل مشكلات الناس في كل الأزمنة والعصور[٣٣] . وهي تحتاج الى من يستخرج منها الأحكام ، ويوفر لكل مشكلة حلا فقهياً حاسماً . ولذلك يلزم ان يعينّ الله من هو أجدر بهذه المهمة حتى لا تبقى على الله حُجةٌ للذين لم يعايشوا الرسل ، والمستوعب للأحكام الفقهية اليوم ، يدرك أنها تكاد تخلو من الحسم ، وليس من العقل ، أن يترك الله دينه ، لرأي من يختارهم الناس ، على قصورهم . ولعل كل هذه التناقضات دليل على الفراغ الذي تركته الإمامة في حياة المسلمين .

---

(٣٣) ـ لا لقصور فيها ، وأنما لقصور في الناس عن فهمها وإستنباط أحكامها ، لأن هذا الأمر منوط بالإمام بعد وفاة النبي كما كان منوطاً بالنبي في حياته .

وحيث أن الإمام هو لطف من الله ، يوّجه الناس الى طريق الطاعات ، وينهاهم عن سلوك المعاصي ويقضي للمظلوم وينتصر من الظالم . ويقيم الحدود والفرائض ، ويصدر الأحكام في المفسدين . فلو جاز أن يعصي ـ لكان هو بالأحرى في حاجة الى إمام يرشده ويوجهه الى الطاعة ويقيم عليه الحد في الأمور التي قد يعصي فيها . وذلك كله على خلاف أهل السنة الذين لايرون مانعاً من تجويز ، إمامة الفاسق كما تقدم . واذا كان من لطفه ان بعث للناس نبيّاً معصوماً عن الصغائر والكبائر . لا ينطق عن الهوى ، يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويقضي بينهم ويحملهم على الطاعات . كان اذاً من لطفه ايضاً ان يترك للناس إماماً معصوماً لا يخطىء في الإحكام ، ولا تجوز عليه المعاصي .

واذا لم يكن الإمام معصوماً ، جاز له ان يُضلَّ الأمة في لحظة جهله وعصيانه . وكان أبو بكر يقول فيما اشتهر عنه : إن لي شيطاناً يعتريني .

فإذا احتاجت الأمة إليه في اللحظة التي يعتريه فيها الشيطان . فمن المؤكدّ أن يضلّها ، ولم يبق الإمام عندئذ حجة لله على العباد . ولكان هو في تلك اللحظة في حاجة الى من يحمله على الطاعة ، أي الى إمام آخر . واذا جاز لهذا الأخير ان يخطىء ايضاً ، احتاج الى امام آخر . ويبقى هذا التسلل سارياً الى لا نهاية . وهذا يناقض اللطف ، لأن في التسلسل ، تكراراً لنفس الثغرة ، وهي جواز المعصية على الإمام وهذا ياباه البناء العقلائي ، والعصمة هي ارتفاع الإمام عن الدنايا ، والأمتناع عن اتيان كل القبائح عمداً وسهوا وعلى طول حياته .

لأنه لو جاز عليه أن يعصي الله في الصغيره كيف يمتنع عن اتيان الكبيرة . واذا كان يجهل صغيرة في الشريعة ، فكيف يتسنى له الحكم في القضية التي تعرض عليه .

واذا جاز عليه القصور في الإحكام والجهل ببعضها ، علماً ان الموضوعات والمسائل لا تتحدد بالعدد ، ولا بالمكان والزمان . لم يكن بينه والجاهل الذي يعرض عليه المسالة ، فرق في ادراك تلك المسألة . فتنتفي الحجة . وقد أورد لنا التاريخ نماذج من المسائل التي عجز الخلفاء عن حلّها . واعترفوا بعجزهم . أو قالوا فيها بغير علم وخالفوا الشريعة .

وحيث ان الإمام هو أعلى مستوى في الأمة ، من حيث المهمّة الشرعية . كان ضرورياً ان يكون هة الأفضل على كل المستويات ، خلافاً للسنة الذين رأوا جواز أمامة الفاسق مع وجود الفاضل ، وهو تجويز لا سند له من الشرع والعقل ، بقدر ما هو تبرير للحالة الأستخلافية التي شهدها التاريخ الإسلامي . فهي فكرة مستوحاة من واقع لا أساس له من النص .

غير أن ضرورة إمامة الأفضل تبقى هي النظرية الموضوعية المنسجمة مع العقل والشرع . فالعقل يستقبح إنقياد الأعلم لمن هو دونه ، والأشرف الى من هو دونه وهكذا واليك .

والشرع ينهى في غير موضع عن هذه الفكرة : ﴿ **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنّما يتذكر أولوا الألباب** ﴾[٣٤] .

وقال : ﴿ **أفمن يهدي الى الحق أحق ان يتبع أم من لايهدي إلا ان يُهدى ، فما لكم كيف تحكمون** ﴾[٣٥] .

واذا نظرنا في نظرية الإمامة عند الشيعة ، وجدناها ترتكز على هذه الأسس الثلاثة :

١ ـ الإمامة نص .

٢ ـ عصمة الإمام .

٣ ـ الأفضلية .

وما دام الشيعة يرون الإمامة لأهل البيت . كان من الضروري البحث في الإنسجام بين هذه الأسس الثلاثة للأمامة ، وواقع الأئمة من آل البيت وما هو الدليل العقلي والنقلي ، على إمامتهم .

**١ ـ النص على الإمامة .**

يرى الشيعة ان الإمامة تعينت بالنص . سواء من الله تعالى أم من

---

(٣٤) ـ سورة الزمر ( آية : ٩ ) .

(٣٥) ـ سورة يونس ( آية : ٣٥ ) .

النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . ولهم إضافة الى الأدلة العقلية ، أدلةٌ نقليةٌ قويةٌ بهذا الخصوص .

وأريد أن أشير في هذه الفقرة الى لفتة تكاد تتجاوزها الكتابات التاريخية والعقائدية ، وهي ان الأساس الذي ركن إليه عمر في بيعة أبي بكر هو النص والقرابة . وقد سبق أن أوردنا تفاصيل السقيفة ، والمنطق الذي سيطر على المواقف والإختيارات فيها . وقال عمر أن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال : مروا أبابكر فليصلِّ بالناس . واستقرأ من خلال ذلك وجوب إمامته . غير أن في اجتهاد عمر بن الخطاب بعض الملاحظات التي تثير الإهتمام .

١ ـ استند عمر على القياس . وهو قياس ناقص ، لأنه لا يبين العلة من وراء الموضوع . فهو بناء على الظن والظن لا يغني عن الحق شيئاً .

٢ ـ طرح عمر إمامة ابي بكر على أساس أنها نص . مع العلم أن عمراً ابى على الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أن يكتب كتابه في ايام وفاته ، واكتفى بالقرآن . فلو كان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يهجر ، ـ استغفرُ الله ـ فرضاً ، فأولى أن نأخذ بهجرانه حتى في تأمير أبي بكر للصلاة بالناس . علماً أن إمامة الصلاة ليست مهمة أقرب الى الله من مهمة تولي غسل الرسول والصلاة على جنازته كما فعل الإمام علي (ع) وعلماً ـ أيضا ـ ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، استخلف في الصلاة في البلدان من ليسوا بالأفضلين . هذا إذا أضفنا ان في رواية أمر الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بالصلاة ، اضطراب ، وفساد في المتن والسند .

٣ ـ عندما استند عمر بن الخطاب على فكرة القرابة . كان يستغل وضعاً ليس له . وأوقع نفسه في تناقض كبير ، ذلك أن قرابة المهاجرين من الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يلزم أن يتساوى فيها كل المهاجرين ، فكيف لايكون استدلال عمر بن الخطاب بالقرابة والهجرة منطبقاً على المهاجرين الأول ، مثل عمّار ، وأبي ذر و . . الذين عارضوا خلافته ؟ ثم لماذا لا يتنازل . وفق هذا المنطق عن الخلافة لعلي بن ابي طالب (ع) ، الذي جمع بين السابقية والقرابة . فهو سيد المهاجرين ، وأقرب الناس الى الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وأول من

اسلم . ولذلك لما قيل لعلي إن المهاجرين استدلوا بالشجرة ، أي انهم شجرة الرسول : قال : قالوا بالشجرة وتركوا الثمرة . ويعني بها آل البيت[٣٦] وردّ على منطق عمر بن الخطاب ، في كلمته الشهيرة والتي جاءت على شكل أبيات :

فان كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيب
وان كنت بالقربى حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبي وأقرب[٣٧]

ويذكر القرآن مجموعة آيات تدل على النص في الأتجاه الذي يؤكد معقولية النص على الإمامة جاء في القرآن : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾[٣٨] .

والآية تثبت ان الإمامة تثبت بعد اختبار ، يسفر عن كفاءة الشخص ، وأهليته للإمامة . ثم تأتي مسالة الإختيار اللدّني . ثم لمّا أراد إبراهيم أن يقرب ذريته . قال تعالى : ﴿ **لاينال عهدي الظالمين** ﴾ وهو يوحي بأن الإختيار ليس إلا لله لا محاباة فيه ولا مشورة . ولو كان منطق الإمامية في الإمامة ، غريباً عن الإسلام . فأولى بإمامة إبراهيم وغيره ممن اختار الله ، ان تكون غريبة .

وجاء في القرآن اختيار الله لطالوت ملك . قال الله تعالى : ﴿ **وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال** ﴾[٣٩] .

ولما اعترض عليه القوم قال : ﴿ **ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم** ﴾[٤٠] .

وهذا ان دلّ فانما يدّل على أن مسألة النص والإختيار الإلهي للأوصياء ، ليست بدعاً في تاريخ العقيدة الإلهية .

---

(٣٦) ـ شرح النهج لمحمد عبده .
(٣٧) ـ شرح النهج لمحمد عبده .
(٣٨) ـ سورة البقرة ( آية : ١٢٤ ) .
(٣٩) ـ سورة البقرة ( آية : ٢٤٧ ) .
(٤٠) ـ سورة البقرة ( آية : ٢٤٧ ) .

هذا بالإضافة الى ما فاض به الذكر الحكيم من نماذج قرآنية ، تثبت هذا المفهوم وتُثبت ان الإمامة بالنص ، لآل البيت . وللإمام علي (ع) بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) . وتقول الإمامية ، أن الإمامة بالنص ، اختصت بإثني عشر إماماً كلهم من آل البيت (ع) أولهم الإمام علي بن أبي طالب وآخرهم المهدي بن الحسن العسكري (ع) .

ورد في القرآن قوله تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ، ورسوله ، والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾[٤١] .

جاء في الصحاح الستة : وتفاسير العامة ان الآية نزلت في حق علي (ع) وتفاصيل القصة ، حسب ما رواه ابو ذر (رض)[٤٢] قال : صليت مع رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يوماً صلاة الظهر ، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد ، فرفع السائل يده الى السماء وقال :

« اللهم أشهد اني سألت في مسجد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ، فما أعطاني أحد شيئاً ، وعلي (ع) كان راكعاً ، فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان فيها خاتم ، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمرأى النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فقال : اللهم ان أخي موسى سألك فقال : ﴿ **رب أشرح لي صدري** ﴾ الى قوله ﴿ **وأشركه في أمري** ﴾ فأنزلت قرآناً ناطقاً : ﴿ **سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً** ﴾ ، اللهم وانا محمد نبيك وصفيك فآشرح لي صدري ويّسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به أزري .

قال أبو ذر : فوالله ما ان قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) هذه الكلمة حتى نزل جبريل فقال : يامحمد اقرأ ﴿ **أنما وليكم الله ورسوله . . الآية** ﴾ وتواتر هذا الحديث ، وذكره كبار المحدثين والمفسرين من أهل السنة أنفسهم[٤٣] .

---

(٤١) ـ سورة المائدة ( آية : ٥٥ ) .

(٤٢) ـ تفسير الرازي ( ٣ / ٤٣١ ) ، في تفسيره للآية المباركة .

(٤٣) ـ انظر : شواهد التنزيل ( ١ / ١٦١ ح ٢١٧ ـ ٢١٨ ـ ٢١٩ ـ ٢٢١ ـ ٢٢٣ ) ، ومناقب ابن المغازلي ( ٣١١ ح ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ) ، وتاريخ دمشق ( / ٤٠٩ ح ٩٠٨ ـ ٩٠٩ ) ، وفصول ابن الصباغ المالكي ( ١٢٣ ـ ١٠٨ ) ، وفتح القدير ( ٢ / ٥٣ ) ، وكشاف الزمخشري ( ١ / ٦٤٩ ) ، والدّر =

وسنحاول القفز عن حديثي الدار والغدير اللذين سبق أن أثرناهما ، لنستعرض بعض الروايات الأخرى التي تؤكّد على إمامة علي ، وآل بيته .

قال تعالى : ﴿ **أني جاعلك للناس إماماً * قال ومن ذريتي** ﴾[44] .

روى الجمهور عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : « انتهت الدعوة إليّ والى عليّ ، لم يسجد أحدنا قط لصنم ، فاتخذني نبيّاً واتخذ عليّاً وصياً »[45] .

وكذا لدى ذكر قوله تعالى : ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾[46] .

وذكر ابن عبد البر في قوله تعالى : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رُسلنا** ﴾[47] قال : ان النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ليلة أُسرى به جمع الله بينه وبين الأنبياء ، ثم قال ، له : سلهم يامحمد ، على ماذا بعثتم ؟ قالوا : بعثنا على شهادة أن لا إله إلا الله . وعلى الإقرار بنبوتك ، والولاية لعلي بن أبي طالب[48] .

وذكر الجمهور عن أبي سعيد الخدري ، ان النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) دعا الناس الى علي (ع) في يوم « غدير خم » وأمر بما تحت الشجرة ـ من الشوك فَقُمَّ ، فدعا عليّاً ، فأخذ بصبعه فرفعها ، حتى نظر الناس الى بياض إبطي رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وعلي (ع) ثم لم يتفرقوا حتى نزلت هذه

---

المنثور ( ٢ / ٢٩٣ ) ، وفي تفسير الطبري ( ٦ / ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ) ، والقرطبي ، والواحدي في اسباب النزول ( ١١٣ ) ، وتذكرة الخواص ( ١٥ ) ، واحكام القران للجصاص ( ٤ / ١٠٢ ) ، وتفسير ابن كثير ( ٢ / ٧١ ) ، والبلاذري في انساب الاشراف ( ٢ / ١٥٩ ح ١٥١ ) ، وابن حجر في صواعقه ( ٢٤ ) ، وكنز العمال ( ١٥ / ١٤٦ ح ٤١٦ ) ، ومناقب الخوارزمي ( ١٧٨ ) . وغيره كثير مما لايتسع المجال .

(٤٤) ـ سورة البقرة ( آية : ١٢٤ ) .

(٤٥) ـ رواه ابن المغازلي في المناقب والكشفي الترمذي في المناقب .

(٤٦) ـ وشواهد التنزيل ( ٢ / ١٠٦ ) وفرائد السمطين ( ١ / ٧٩ ) .

(٤٧) ـ سورة الزخرف ( آية : ١٤٥ ) .

(٤٨) ـ رواه الحاكم والخوارزمي وذكر في كنز العمال .

الآية : ﴿ **اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾[49] ، فقال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) « الله اكبر على إكمال الدين ، واتمام النعمة ، ورضى الرب برسالتي ، والولاية لعليّ بن ابي طالب من بعدي ، ثم قال : من كنت مولاه ، فعليّ مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاده ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله »[50] .

ويرى الشيعة أن الإمامة ثبتت بالنص في إثني عشر إماماً . أوّلهم علي وآخرهم المهدي ، وان طريقة تعينهم تمت عن طريق النص ، من الله ، ثم نبيه ، فالإمام ، أي ان الإمام علياً (ع) بعد أن تسلّمها سلمّها ابنه الحسن (ع) استجابة للنص .

والواقع التاريخي يُثبت أن الأئمة (ع) ، كانوا يوصون الى من بعدهم استناداً الى نص منصوص ، والتجربةُ التاريخية ، تسفر عن هذا الواقع ، ان الإمام علياً (ع) لم يستشهد حتى أوصى بها الى ابنه الحسن . . . والحسن لّما عقد وثيقة الصلح ، اشترط فيها عودة الخلافة إليه ، أو إلى أخيه الحسين (ع) إذا طرأ طارىءُ على حياة الإمام الحسن (ع) .

والإمام علي (ع) الذي عارض تداول الخلافة بين أبي بكر وعمر ، وعثمان . . لم يكن ليكرر نفس الإجراء فيما لو كان الأمر لا يستند الى مسّوغات عقلية ونقلية ، تتحدد بالنص . وذكرت النصوص ، أن الولاية بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لأهل البيت (ع) ومن ذلك : ما جاء في المستدرك على الصحيحين للحاكم ، عن زيد بن أرقم : لما رجع رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من حجة الوداع ونزل غدير خم ، أمر بدوحات فقمّمْنَ فقال :

« كأني قد دعيت فأجبت أنّي قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من ألآخر كتاب الله تعالى وعترتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما . فإنهما لن يفترقا حتى يرداً عليّ الحوض ، ثم قال ، إنّ الله عزّوجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن ( ثم أخذ بيد علي فقال : من كنت مولاه فهذا وليه ، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه » .

---

(٤٩) ـ سورة المائدة ( آية : ٣ ) .

(٥٠) ـ الدر المنثور ( ٢ : ٢٥٩ ) ، وتفسير ابن كثير ( ٢ / ١٤ ) ، والبداية والنهاية ( ٧ / ٤٩٣ ) ، ومناقب الخوارزمي ( ٨٠ ) ، وتذكرة الخواص ( ٣٠ ) ، وشواهد التنزيل ( ١ / ٧٥ ح ٢١١ ـ ٢١٢ ـ ٢١٣ ـ ٢١٤ ـ ٢١٥ ـ ٢٥٠ ) .

أما ما ورد في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم . فقد قال : قام رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ثم قال :

« اما بعد ، ألا أيّها الناس ، فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ، ثقلين ، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحثّ على كتاب الله ورغب فيه ثم قال : « وأهل بيتي ، اذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، اذكركم الله في أهل بيتي »(٥١) .

وفي صحيح الترمذي ورد بهذه الصيغة ، عن جابر بن عبدالله قال : رأيت رسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) في حجته يوم عرفه وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول : « يأايها الناس إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي »(٥٢) .

وورد حديث « الثقلين » بأكثر من سند وصيغة في صحاح الجمهور .

وطبيعي أن يحتاج هذا الحديث الى نص آخر يحدد عمومه . فحصر الشيعة الإمامة في اثني عشر إماماً من آل البيت كما تقدّم ذكره . والادلّة على ذلك كثيرة بيد اننا نراها على قسمين .

الأولى ادلّة اعتبارية سندها الواقع والتجربة . اذ لمّا ثبت ان الإمامة لعلي (ع) بالنص فإن وصيته الى الحسن (ع) تبقى نصاً صادراً عن الإمام . وكل إمام أوصى بالأخر ، فيكون هذا التسلسل الإثنا عشري دليلاً على النص . وهذا هو الدليل العقلي على إمامة الإثني عشر .

كما ينضاف الى تلك الأدلة ، كون هؤلاء الإثني عشر هم رموز آل البيت

---

(٥١) ـ صحيح مسلم ، كتاب الفضائل باب فضائل علي بن أبي طالب ( ٢ ٣٦٢ ) ط عيسى الحلبي ، و( ٧ / ١٢٢ ) ط محمد علي صبيح ، وقد ذكره الكثير مثل تفسير الخازن ( ١ / ٤ ) ، وفرائد السمطين ( ٢ / ٢٦٨ ح ٥٣٥ ) ، وعبقات الأنوار حديث الثقلقين ( ١ / ٧٨ ـ ٩٢ ـ ١٠٤ ـ ١٢٦ ـ ٣٠١ .

(٥٢) ـ صحيح الترمذي ( ٥ / ٣٢٨ ) ط الفكر ـ بيروت ، و( ١٣ / ١٩٩ ) ط الصاوي ـ مصر .

الكبار ، الذين أحصى لهم التاريخ تفوقهم وكرامتهم ، ولا تلقى وصية .

أما ما جاء في روايات الجمهور حول الأثني عشر إماماً الموصى لهم . فقد ذكر الترمذي في صحيحه بسنده الى جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : يكون بعدي اثنا عشر أميراً كلهم من قريش » وفي مستدرك الصحيحين للحاكم ، عن عون ابن أبي جحيفة عن أبيه قال : كنت مع عمي عند النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فقال : « لايزال أمر أمتي صالحاً حتى يمضي إثنا عشر خليفة » ثم قال كلمة وخفض بها صوته فقلت لعمي وكان أمامي : ما قال ياعم ؟ قال : قال يابني : « كلهم من قريش » .

وحاول بعض أهل السنة ، أن يتصنعوا في تأويل هذه الأحاديث ، وما شابهها ، أنهم يكونون في مدة عزة الخلافة ، وقوة الإسلام واستقامة أموره والإجتماع على من يقوم بالخلافة . وقد وجد هذا فيمن اجتمع عليه الناس الى أن اضطرب امر بني أمية ، ووقعت بينهم الفتنة زمن الوليد بن يزيد . وحاول بعضهم مثل ابن كثير وصاحب فتح الباري وصاحب الصواعق أن يؤولوها تأويلاً إسقاطياً لا سند له من الموضوعية . فادعوا ان الأئمة الإثنا عشر هم الخلفاء الثلاثة ثم علي ، وبعده معاوية فيزيد ـ ذلك ان الحسن لم يجتمعوا عليه ـ فعبد الملك واولاده الأربعة الوليد ، وسليمان ، فيزيد ، فهشام . والثاني عشر : الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

وطبيعي ، إن هذا التأويل أكثر تعسفاً مما سبق لأنه مجرد اسقاطات تتغذى بالوضع السياسي الجاهز ولا تركن الى سند من العقل او النص .

وجاء في الصواعق المحرقة بإخراج البغوي ، بسند حسن ، عن عبدالله بن عمر ، قال :

سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول : « يكون خلفي اثنا عشر خليفة ، أبو بكر لا يلبث إلا قليلاً » ، قال الأئمة : صدر هذا الحديث مجمع على صحته .

واعتراف ابن حجر ، بالإجماع على صدر هذا الحديث ، دليل على ان المحرفين تصرفوا في مؤخرته وهذا دليل على التزوير الذي شهدته مدرسة الجمهور . وترتفع

البراءة التي تُدَّعى .

ولهذا وردّا على هذا المنطق يقول الحافظ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودة : « قال بعض المحققين ! إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده ( صلى الله عليه وآله وسلم ) اثنا عشر قد اشتهر من فرق كثيرة فبشرح الزمان ، وتعرف الكون والمكان : علم ان مراد رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) من حديثه هذا : الأئمة الإثنا عشر من أهل بيته وعترته ، اذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه ، لقلتهم عن اثني عشر ( وهم اربعة ) ولا يمكن أن يحمل على ملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر ( وهم ثلاثة عشر ) ، ولظلمهم الفاحش ، إلا عمربن عبد العزيز ، ولكونهم غير بني هاشم لأن النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال : كلهم من بني هاشم في رواية عبد الملك عن جابر » .

ولم يكن يدّعي الأثني عشر ، سوى ائمة أهل البيت (ع) . فاذا أضفنا الى ذلك كون الأثني عشر إماماً كلهم ذوي كفاءة ، وكلهم من قريش وكلهم يدّعيها . ترتب أن يكونوا هم الأثنا عشر المشار إليهم بالنص . لأن الواقع لم يأت بما كذّب ذلك .

وما دام عجز الجمهور عن تبرير هذا النص ، وتقريبه من الواقع ، فإن الروايات الشيعية اثبتته بالإجماع فقد ورد في منتخب الأثر منقولاً عن كفاية الأثر ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : معاشر أصحابي إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح وباب حطة في بني اسرائيل ، فتمسكوا بأهل بيتي بعدي ، والأئمة الراشدين من ذريتي فانكم لن تضلوا أبدا .

فقيل : يارسول الله كم الأئمة بعدك ؟ .

قال : إثنا عشر من أهل بيتي أو قال من عترتي .

وكذلك ذكر القندوزي الحنفي في الينابع : عن جابر قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) .

« أنا سيد النبين وعلي سيد الوصيين ، وإن أوصيائي بعدي اثنا عشر أولهم علي

وآخرهم القائم المهدي » .

وذكر الحمويني الشافعي في فرائد السمطين ، عن ابن عباس قال :

قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : إن خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي ، إثنا عشر أولهم أخي وآخرهم ولدي .

ولم يدّعِ الأثني عشر إماماً إلا الشيعة الإمامية . فينتفي اذن ما يعارضها . ويحتاج ردّها الى دليل قاطع نقلي وعقلي ، مثلما اثبتوها لأئمتهم عقلاً ونقلاً .

**٣ ـ عصمة الإمام .**

كذلك إذا بحثنا مدى انسجام هذه الطرحة ، مع واقع الأئمة الإثني عشر ، نجدها أكثر موضوعية فيما لو أُسندت الى الأئمة من آل البيت (ع) والادلة العقلية والإعتبارية لا تقل عن النصوص المباشرة في هذا الموضوع .

ان غير الأئمة الأثني عشر ، لم يدّعها صراحة . والعصمة تقتضي طيب المولد وعدم ارتكاب الفواحش قبل الإسلام أو بعده ، وغير الأئمة لم يتوفر على ذلك . والإمام علي (ع) هو الوحيد الذي لم يعبد الأصنام ولم يرتكب فاحشة في الجاهلية . ومهما كان الأمر والسبب فان النتيجة واحدة ، هي الطهارة والعصمة .

والباحث في سيرة الأئمة من لدن علي الى آخرهم . يتبين له مدى استقامتهم على طريق الإسلام ، ولم يحص التاريخ لأحدهم زلة تناقض العصمة .

وكلهم كانوا مصدر علوم ولم يحتاجوا الى غيرهم في شيء ، وورثوا العلم والرئاسة والعصمة بشكل متراتب أبا عن جد ، بخلاف من هم دونهم .

أما مايثبت ذلك نقلا . فإن آل البيت وردت فيهم آيات قرآنية وروايات نبوية تدل دلالة نافذة على ذلك .

آية التطهير : قوله تعالى : **﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾**(٥٣) .

ثبت بإجماع الجمهور مفسرين ومحدثين ان الاية نزلت في علي والحسن والحسين

---

(٥٣) ـ سورة الأحزاب ( آية : ٢٣ ) .

وفاطمة (ع) .

ومن ذلك ما أخرج مسلم في صحيحه عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة :

خرج النبي (ع) غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله وجاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها وجاء علي فأدخله معه ، ثم قال : **﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾**[٥٤] .

وفي صحيح الترمذي[٥٥] عن أم سلمة ، لما نزلت الآية : **﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾** في بيت أم سلمة ، فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً وعلياً خلف ظهره فجللهم بكساء ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي ، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا .

قالت ام سلمة : وأنا معهم يانبي الله ؟ .

قال : « انت على مكانك وانت على خير » .

وفي آية التطهير مجموعة دلالات ، يستحسن الوقوف على مضامينها .

فالآية في البدء منصرفة ، ـ حيث حددت آل البيت ـ في الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وعلي وفاطمة وحسن وحسين . وبذلك ترتفع الإمامة والعصمة عن غير هؤلاء . ويصبح لآل البيت مفهوم خاص غير ذلك الذي يتحدد بالنسب ، وإلا ، فأولى بأزواج النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ان يكُنَّ من أهل بيته فيما لو كانت القضية خاضعة لمفهوم عام غير محدد ، ولكان ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ادخل في كسائه ، أفراداً آخرين من آل البيت غير هؤلاء .

ثم الآية تفيد أن القضية محصورة في نطاق آل البيت ، أو بالأحرى فان الطهارة هي من خصائص آل البيت ، يدل على ذلك أداة الحصر « انما » في : **﴿ إنما يريد**

---

(٥٤) ـ صحيح مسلم ( ٧ / ١٣٠ ) .

(٥٥) ـ صحيح الترمذي ( ٥ / ٣٠ ح ٣٢٥٨ ) ، و ( ٥ / ٣٢٨ / ح ٣٨٧٥ ) ط الفكر ، و ( ٢ / ٢٠٩ ـ ٢٠٨ ـ ٣١٩ ) ط بولاق .

الله ليذهب عنكم الرجس ﴾ .

ثم تحدثت الآية عن قضيتين هما : الرجس ثم الطهارة .

والرجس في اللغة حسب ابن منظور وغيره ، تعني الذنوب . وتعني ايضاً الأقذار .

والعاقل لا يستطيع تقبل مفهوم الأقذار كتفسير للآية . اذ ان الطهارة من القاذورات ، لا تحتاج الى ارادة إلهية لدنية . وانما المسألة تتعلق بالقاذورات المعنوية ، وهي الذنوب والمعاصي .

أما الطهارة فتعني التنزيه من هذهَ المعاصي والذنوب .

وحاول البعض ان يتحايل على هذا النص ، فيقول بالطهارة التشريعية التي تعتمد الأحكام المنزلة عليهم ، أي إن آل البيت يتنزهون عن المعاصي بالأحكام التي نزلت في القرآن ، وهذا تأويل ناقص لأن الطهارة التشريعية بهذا المفهوم تستبطن أمرين :

١ ـ اذا كان الله يريد أن ينزه لدنيّاً بتشريعه ، آل البيت . فيكون هذا ظلماً ، لايجوز في حق الله تعالى ، اذ كيف ينزه هؤلاء بإرادته ولا ينزه الناس الآخرين .

٢ ـ اذا كان الله يقصد تطهيرهم بأحكام الشرع المنزّلة عليهم في القرآن . فهذا لا يتطلب آية للحصر في آل البيت . بل يعم جميع الناس من دون استثناء .

فتبقى المسألة الرئيسية أن الله طهرهم طهارة تكوينية خاصة ، تميزهم عن الباقين .

وقد يرى البعض في ذلك نوعاً من الظلم الذي لا يجوز على الله ، اذ كيف يجبر البعض على العصمة ولا يجبر الآخرين .

ولانريد هنا ان نتوسع عقلياً ونقلياً في هذا الموضوع الذي ارتأينا توفيره الى مبحث العقائد الخاصة إلا أننا سنردّ على ذلك ، بأن الاعتراض على ارادة الله في عصمة آل البيت ، يُجوّز الاعتراض على ارادته سبحانه في عصمة الأنبياء واختيارهم ، اذ ان الموضوع واحد ، ومضامينه واحدة .

ثم ان للعصمة التي نتحدث عنها هنا تفسيراً تقريباً ، يختلف مع ما يراه البعض .

الإمامية ترى ان الإمام لا يفعل إلا الحسن ، أما المكروهات فلا يفعلها ، وأن كان قادراً على الأتيان بها .

فهناك مواقع نفسية وروحية تحول دونه وذلك ، سببها التزكية ، مصحوبة باللطف الإلهي .

أي ان هؤلاء تعبوا على أنفسهم في التزكية والسمو الروحي حتى اكتسبوا عصمة تحول دونهم والخطايا ولمّا علم الله ان هؤلاء على مقدرة كافية من الاستقامة ، عزّز عصمتهم بلطفه . واذا رأى انسان في هذا ظلماً ، قلنا له أن علم الله بنزاهة هؤلاء هو الذي ترتب عليه هذا التدخل الإرادي في عصمتهم ، والله يحاسب عباده على قدر إيمانهم ، وقد وفّر التوبة لغير الأئمة في الأمور التي لا يقوون على اتيانها . واذا كانت صلاة الليل قد فرضت على الأنبياء والأولياء ، فإنها لم تفرض على من هم دون ذلك . وقد يثبت في علم الله ، ان غير هؤلاء لا يستطيعون عصمة انفسهم بذلك القدر الذي يستحق التسديد الإلهي .

يرى السيد محمد تقي الحكيم « إن الله عزوجل لما علم ان ارادتهم عليهم السلام تجري دائماً على وفق ما شرعه لهم من أحكام ، بحكم مازودوا به من إمكانات ذاتية ومواهب مكتسبة ، نتيجة تربيتهم على وفق مبادىء الاسلام تربية حولتهم في سلوكهم الى إسلام متجسد ، ثم بحكم ما كانت لديهم من القدرات على إكمال إرادتهم وفق أحكامه التي استوعبوها علماً وحكمة ، فقد صح له الإخبار عن ذاته المقدسة بأنه لا يريد لهم بأرادته التكوينية إلا إذهاب الرجس عنهم ، لأنه لا يفيض الوجود إلا على هذا النوع من أفعالهم ماداموا هم لا يريدون لأنفسهم إلا إذهاب الرجس والتطهير عنهم » .

وأهل السنة والجماعة لايرفضون العصمة إلا في حدود مصطلحها ، أما مضموناً فإنهم يقرون بها لجميع الصحابة ، ذلك انهم يرون أنهم جميعاً عدول . وليست العدالة كما هي في مفهوم العامة وذهنيتهم ، سوى تلك العصمة التي يراها الشيعة في ائمتهم .

ولا يكلفك أن تكون شيعياً أكثر من أن تتعامل مع أئمة أهل البيت ، كما تتعامل مع ابي بكر وعمر .

فالعدالة والعصمة الاعتبارية كما يراها السنة لهؤلاء لا تقل عن تلك التي يراها الشيعة في الأئمة .

والإنسان قد يصل الى درجة ما من العصمة ، فيما لو طبق القرآن . أي يكتسب عصمة معينة .

وهدف الإسلام ، هو أن يصنع أُناساً قرآنيين اي على قدر من العصمة ، واذا كان متاحاً لكل الناس ان يلتمسوا هذا القدر من العصمة عن طريق التربية والمجاهدة ، فأولى بآل البيت أن يصلها . لأنهم جهدوا على انفسهم بشكل عجز عنه غيرهم .

ومن النصوص المنقولة الدالة على عصمتهم حديث السفينة :

ورد في مستدرك الصحيحين للحاكم عن أبي أسحاق عن حنش الكناني قال : سمعت اباذر يقول وهو آخذ بباب الكعبة : أيها الناس من عرفني فأنا من عرفتم ، ومن أنكر فأنا ابوذر سمعت رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يقول :

« مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق » .

وفي احياء الميت للسيوطي عن البزار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) :

« ألا ان مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح ، من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها غرق »[٥٦] .

وفي لفظ الطبراني[٥٧] ، زاد : ومثل باب حطة من بني اسرائيل .

وهذا الحديث ، يحمل دلالة قوية على عصمة الأئمة ، ذلك أنهم لو جاز أن

---

(٥٦) ـ الصواعق المحرقة ( ١١١ ـ ١٤٠ ) ، وفرائد السمطين ( ٢ / ٢٤٦ ) ، وينابيع المودة ( ٣٠ ـ ٣٧٠ ) ، و غيره كثير .

(٥٧) ـ المعجم الصغير ( ٢ / ٢٢ ) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ( ٩ / ١٦٨ ) ، وكفاية الطالب ( ٣٧٨ ) .

يعصوا الله لما أمر الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) باتباعهم ولما جعلهم نجاة للأمة من الغرق .

وجاء في قوله تعالى : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى** ﴾[٥٨] .

ورد في صحيح البخاري[٥٩] ومسند أحمد بن حنبل عن ابن عباس قال : لما نزل : ﴿ **قل لاأسألكم عليه اجراً إلّا المودّة في القربى** ﴾ قالوا : يارسول الله ، من قرابتك الذين وجبت علينا مودّتهم ؟ قال : علي وفاطمة والحسن ، والحسين .

ولهذا الحديث دلالة اخرى على العصمة ، ذلك ان المودة يستتبعها واجب الطاعة ، ولايجوز المودّة المطلقة لآل البيت فيما لوجازت عليهم المعصية ، اذ لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق . والذي يبدو من الرواية هو الإطلاق . دليلا على عصمتهم .

وقال الله تعالى : ﴿ **انما أنت منذر ولكل قوم هاد** ﴾ [٦٠] ، وروى الحاكم في المستدرك[٦١] ، وابن كثير في التفسير[٦٢] ، وكذا الطبري[٦٣] ، وتفسير الشوكاني[٦٤] ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) « أنا المنذر وعليّ الهادي ، وبك ياعليُّ يهتدي المهتدون » .

ولايجوز عقلاً ان يكون هادياً من جازت في حقه المعصية .

وفي قوله تعالى : ﴿ **ان الله وملائكته يصلون على النبي : يأأيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما** ﴾[٦٥] .

جاء في صحيح مسلم : قال سمعت ابن ابي ليلى قال : لقيني كعب بن أبي

---

(٥٨) ـ سورة الشورى ( آية : ٢٣ ) .
(٥٩) ـ صحيح البخاري (٦ / ١٦٢ ) ط الحلبي .
(٦٠) ـ سورة الرعد ( آية : ٧ ) .
(٦١) ـ مستدرك الحاكم ( ٣ / ١٢٩ ـ ١٣٠ ) .
(٦٢) ـ تفسير ابن كثير ( ٢ / ٥٠٢ ) .
(٦٣) ـ تفسير الطبري ( ١٣ / ١٠٨ ) .
(٦٤) ـ تفسير الشوكاني ( ٣ / ٧٠ ) .
(٦٥) ـ سورة الأحزاب ( آية : ٥٦ ) .

عنجرة فقال : ألا أهدي لك هدية ، خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله فقلنا قد عرفنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك ؟ فقال : قولوا : اللهم صلِّ على محمد وآل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل ابراهيم »[٦٦] .

وهذا إنما يدل على عصمتهم . اذ لو جازت فيهم المعاصي لما أمر الله بالصلاة عليهم والتعبد الى الله بهم ، فكيف يتقرب الى الله بأهل المعصية .

وفي مسند ابن حنبل ، وفي الجمع بين الصحيحين ، ان النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال لعلي (ع) لايحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » .

واطلاق الحكم على هذا المنوال فيه دلالة على العصمة . اذ لو جاز ان يعصي الله ، إذن لما كان من الإيمان حب علي (ع) على المعصية ولا من النفاق بغضه عليها ، بل لكان من الإيمان بغضه على المعصية . واذاً فان اطلاقها يدل على أنه متواصل الأمتناع عن المعصية أي معصوم عنها .

ولا أدّل على العصمة من الحديثين التاليين :

١ ـ في الجمع بين الصحاح الستة ، عن النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال : رحم الله عليّا اللهم ادر الحق معه حيث دار . وفي تاريخ بغداد ، والحاكم في المستدرك وكنز العمال روى احمد بن موسى بن مردويه ، عن عائشة : ان رسول الله ( صلى الله عليه وآله وسلم ) قال : « الحق مع علي وعلي مع الحق ، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض » .

والتبشير بالإمام علي (ع) والحكم القاطع على أنه لا يفارق الحق ، هو شهادة من معصوم على عصمة الإمام .

٢ ـ ورد في صحيح مسلم ، عن زيد بن أرقم : أيها الناس ، إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين ، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال : وأهل بيتي ، اذكركم الله في أهل بيتي ، اذكركم الله في أهل

---

(٦٦) ـ صحيح مسلم ( ٢ / ١٦ ) .

بيتي[٦٧] .

والحديث ـ بالتواتر الذي ميَّزه ـ يُعدّ دليلاً على العصمة ، لأن ألله قرن بين القرآن وآل البيت . وفي حديث آخر للترمذي « فانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » . وتلك شهادة على العصمة .

**٣ ـ أفضلية الإمام .**

كنا قد اثبتنا ضرورة إمامة الأفضل على خلاف أهل السنة والجماعة ، ذلك أن هؤلاء يجوّزون إمامة المفضول وتبعية الفاضل ، وهو أمر مخالف للوجدان وعليه فاننا في مقام البحث في الإنسجام بين طرحة « أفضلية الإمام » وآل البيت ، الذين هم طلائع الأمة الأول ، فالقرآن قال : **﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾** .

وهذه الآية دليل على خصوصيات آل البيت وافضليتهم على مستوى الكفاءة الروحية والعقلية .

وكذلك لمّا رفعهم الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) الى مقام القرآن وقرنهم به في حديث الثقلين كما تقدّم .

وفي رواية أحمد في المسند والزمخشري في الكشاف ، قال ابن عمر : كان لعلي ثلاثة ، لو كان لي واحدة منها ، كانت أحب اليّ من حمر النعم : تزويجه بفاطمة واعطاؤه الراية يوم خيبر واية النجوى .

وفي مسند أحمد والجمع بين الصحاح الستة ان الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) بعث « براءة » مع أبي بكر الى أهل مكة ، فلما بلغ ذا الحُلَيْفَة بعث أليه عليا ، فردّه ، فرجع أبو بكر الى النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) فقال :

يارسول الله أنزل فيَّ شيءٌ ؟ قال : لا ، ولكن جبرائيل جاءني وقال : لايؤدي عنك إلا أنت ، أو رجل منك .

---

(٦٧) ـ صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أهل بيت النبي ( ٢ / ٣٦٨ ) ط الحلبي ، و( ١٥ / ١٩٤ ) ط مصر بشرح النووي .

وفي ذلك تفضيل للإمام علي على أبي بكر ، وهو الظاهر والصريح .

وفي حديث المنزلة كما اخرجه البخاري في صحيحه[٦٨] ، ومسلم[٦٩] ، والترمذي[٧٠] من طرق مختلفة : ان النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) لما خرج الى تبوك ، استخلف عليّاً في المدينة ، وعلى أهله ، فقال عليّ : ما كنت أؤثر أن تخرج في وجه إلّا وأنا معك .

فقال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنه لانبي بعدي .

وهذا الحديث يدل على أن الذي يأتي بعد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) هو علي (ع) في الأفضلية . الى غير ذلك من النصوص الدّالة على ذلك .

والتاريخ يشهد أن الإمام عليا والأئمة (ع) ، كانوا هم الأفضل في كل الميادين .

ولو قارنّا عليّاً (ع) مع باقي الصحابة ، وجدناه أكثرهم شجاعة وجهاداً ، وأفضلهم تقوى وورعاً وافضلهم علماً وفقهاً وقضاءً .

كما يؤكد التاريخ ان ائمة أهل البيت (ع) ، كانوا ملجأ لكل سائل في العلم ، ولم يثبت عنهم انهم قالوا كما كان يفعل الآخرون « لا نعلم » وكلهم كان يستقي علمه من أبائه ، ابا عن جد . ولم يروِ التاريخ ان واحداً من آل البيت ، درس على واحد من العامة . وأهل البيت هم مصدر العلوم .

والإمام الصادق هو الفقيه الأول وتتلمذ عليه باقي علماء وفقهاء أهل السنة ، وأخذ منه الأئمة الأربعة وقالوا فيه كلاماً كثيرا .

والتحديات التي واجهها آل البيت على مستوى الكفاح والجهاد ، كانت أكبر مثال في تاريخ الشجاعة والجهاد البشري . ولا أدلّ على ذلك من ملحمة كربلاء

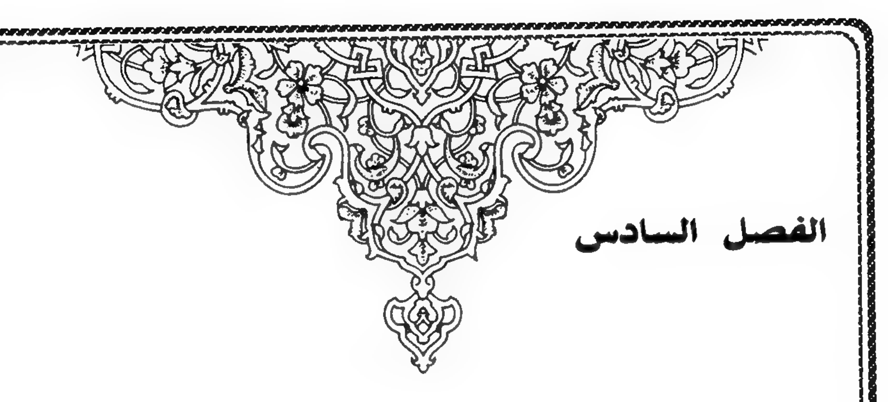
(٦٨) ـ انظر البخاري كتاب المغازي باب غزوة تبوك ( ٥ / ١٢٩ ) ط الفكر ، و( ٦ / ٣ ) ط صبيح ، و( ٣ / ٦٣ ) ط الخيرية .

(٦٩) ـ مسلم كتاب الفضائل ، باب فضائل علي بن ابي طالب ( ٢ / ٣٦٠ ) ط الحلبي ، و( ٧ / ١٢٠ ) ط صبيح .

(٧٠) ـ الترمذي ( ٥ / ٣٠١ ح ٣٨٠٨ ) ط الفكر .

وقبل ذلك مواقف الإمام علي (ع) .

نريد من هذا كله ان نؤكد على انسجام الإمامة والعصمة والأفضلية باشخاص أئمة أهل البيت (ع) ليتبين مفهوم الإمامة عند الشيعة ، حيث انفردوا عن باقي المذاهب في تقييدها وبلورتها وإزالة اللبس عن مفهومها .



## الفصل السادس

# في عقائد الإمامية

## وفيه تركيز على خصائص العقيدة الإمامية :

- في الصفات
- في التفويض والجبر
- في الرؤية
- في البداء



لقد ظهر علم الكلام ـ أو ما يسمونه بالفقه الأكبر ـ على أثر الأحداث التي تلت وفاة الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) اذ أن أمواجاً من التحديات الفكرية والفلسفية التي وردت على المسلمين من البلدان المفتوحة ، كانت تفرض على المسلمين ، الإهتمام بالكلام ، لإثبات عقيدتهم اثباتاً عقلياً يلزم حتى الخارجين عن الإسلام .

وحيث غزت المجتمع الإسلامي مذاهب فلسفية إغريقية ، وأخرى دينية غنوصية وردت من المدرسة الأسكندرانية المسيحية . كل هذا فرض على المسلمين التماس البرهان العقيدي في مناهج وأقيسة الإغريق .

والمتتبع لحركة الفكر الديني ومسائل علم الكلام ، يتبين انها لم تكن جديدة في تاريخ الفكر البشري ، ذلك أن قضايا الذات والصفات ، والحدوث والقدم . والوحدة والفيض ، كل هذه القضايا عولجت في فكر الإغريق منذ مئات السنين ، وقبل ظهور الإسلام .

فمثلاً كان الفيثاغوريون يفسرون قضية التوحيد من وجهة النظر العددية . اذ أن الباريء واحد كالآحاد ، ولا يدخل في العدد ، مثلما ان الواحد في العدد تصدر عنه جميع الأعداد الأخرى دون أن يشتق هو منها . وقالوا بأن الله لا يدرك مباشرة ، بل من آثاره وافعاله .

وتحدث الايليون عن الالوهية ، فذكروا أنها وحدة شاملة ، وهي الوجود

كله ، وكان اكسنوفانس يقول : « ان هذا العالم كلّه وحدة تامة هي الله » .

كما ان اهل الديانات الأخرى ، سبقوا متكلّمة الاسلام ، الى استعارة الآلية الفلسفية في البرهنة على قضايا الإلهيات . وكمثال على ذلك فيلون ( ٣٥ ق . م ـ ٥٠ ب . م ) . وهو عالم يهودي كان يستدل على صحة الدين بالفلسفة .

وكذلك بالنسبة لأفلوطين ، الذي تكلّم في الفيض والاشراق .

نريد من هذا ، كله . التأكيد على الحقيقة التاريخية ، لواقع علم الكلام عند المسلمين ، وأنه تكرار للتجربة التي قام بها علماء النصرانية واليهودية ، في الاستدلال بالفلسفة على المسائل الإلهية[1] .

وعندما نتحدث عن علم الكلام في المجتمع الإسلامي ، فإننا نصطدم بثلاث فرق كبرى هي :

ـ الشيعة .

ـ المعتزلة .

ـ الأشاعرة .

أما المرجئة ، وأهل الحديث ، والماتريدية ، فهي من الفرق البائدة والسطحية التلفيقية التي لا ترتقي الى مستوى الفرق الثلاث .

والأصل هم « الشيعة » لأن الإمام علياً (ع) كان هو الملهم الأول لعلم الكلام ، بمعنى الاستدلال العقلي على قضايا العقيدة ، كما نرى ذلك في نهج البلاغة ، وكان الحسن البصري ممن اخذ العلوم في بدء سنه عن الإمام علي (ع) ، ولكنه ترك تعاليم الامام الربانية وبالخصوص في اثناء حربه مع الخوارج واتهمه

---

(١) ـ أنني لا أريد من ذلك تخطئة علم الكلام ، اذ أن إستناد بعض العلماء النصرانية واليهودية على المنطق الأغريقي في أثبات أعتقاداتهم لا يدل على خطأ هذا المنطق بالضرورة ، لأن العقل واحد . ومصداقية الأفكار والمعتقدات هي في مدى قربها أو بعدها عن العقل ، لكن أريد أن أشير الى أن تعقيل العقيدة لم يكن من أبداع المسلمين فقط . وهذا ما عرفناه من التاريخ .

بالاسراف في دماء المسلمين ، ولذا نرى الامام علي (ع) يصفه « سامري الامة » ويمكن التعرف على ذلك جليا عندما ننظر الى احتجاج الطبرسي ( ١ / ١٧١ ) قائلاً له : « انك تقول لاقتال كما قال السامري لامساس » ، ويعد البصري مؤسساً لكثير من المدارس الفلسفية ، فقد تتلمذ على يديه واصل بن عطاء الذي انفصل عنه ـ حيث كان معه ـ فتشكل الإعتزال ، وظهرت اشكال أخرى للإعتزال كالجبائية والنظامية . ومن الجماعة الإعتزالية ، أنشق الأشعري ، ليشكل في النهاية فرقة الأشعرية .

ولست في الواقع أروم التعمق في هذا المبحث من كل زواياه . لأنه أوسع من ان يحتويه فصل واحد من فصول الكتاب . غير انني اريد ان أشير الى نقطة ، هي أن أغلب ما قيل حول هذه الفرق ، لم يكن أمينا للحقيقة ، ومن جهة أخرى ان كل الشطحات التي وقع فيها أصحاب الفرق الكلامية ، كانت بسبب الفجوة الواسعة التي تركها الأبتعاد عن توجيه الأئمة .

ومن تلك الأدعاءات غير الأمينة ، أن يكون التشيع وليد الإعتزال . أو ان المعتزلة كانوا أكثر دفاعاً عن التوحيد بينما كان الأشعرية أكثر فهما له .

وكان ايضاً للحالة السياسية تأثير مباشر على حركة التفكير الإسلامي ونشأة علم الكلام ، اذ ان التبرير الذي جرى عليه علماء البلاط الأموي للظلم الأموي ، ولّد ردّة فعل في نفوس اشخاص ، فقالوا بالإختيار المطلق في مقابل قول الآخرين بالجبر المطلق ، ومن ثم ظهرت أفكار واتجاهات كالقدرية والمفوضة ، وتشعبت المسائل الكلامية واتخذت بعداً سياسياً ، أسفر عن محنة شديدة حول « خلق القرآن » .

نريد هنا أن نستعرض بإيجاز وجهة نظر كل من الفرق الثلاثة ، لنضعها في الميزان ، ونبرز مدى قيمة التفكير العقائدي لدى الشيعة ، من دون أن نطيل في استعراض الترجمات والملابسات التفصيلية .

**ـ في التوحيد والصفات**

اختلف اهل الفرق الاسلامية في تحديد علاقة الصفات بالذات ، فمنهم من

رأى انها « معانٍ زائدةٌ » على الذات ، مرتبطة بها ، وقديمة قدمها . وذلك مذهب الاشاعرة .

ومنهم من قال بأن الصفات هي عين الذات ، ولا تختلف صفة عن أخرى وعلى ذلك مذهب الشيعة ومن سار بعدهم من المعتزلة ، فيما ترى الكراميّة ان الصفات زائدة على الذات محدثة ليست قديمة ، وهذا رأي لم يحتفل به الحكماء ولا غيرهم .

والثغرة التي توجد في قول الأشاعرة ، هي في تعدد الصفات واستقلالها عن الذات ، ذلك ان الذات الواجبة هي بسيطة وكاملة وأزلية لا تحتاج الى عوارض مستقلة لتحقيق كمالها المطلق . اذ ان استقلال الصفات عن الذات ، يناقض مقولة البساطة في الذات . ثم اذا كانت الصفات مستقلة وزائدة وقديمة ، ترتب ان يوجد أكثر من ذات قديمة ، فالعلم الزائد على الذات قديم قدم الذات ، يترتب على ذلك وجود قديمين ، وإذا قسنا ذلك على الصفات السبع التي وضعها الأشاعرة ، يكون هناك الى جانب الذات ، سبع قديمات وواجبات . يقول العلامة السيد الطباطبائي [2] : « وأيضاً لازمه فقدان الواجب في ذاته صفات الكمال ، وقد تقدّم أنّه صرف الوجود الذي لا يفقد شيئاً من الكمال الوجودي » .

ومن هذا المنطلق ، غاص أهل الفرق في متاهات اخرى . كان الأشاعرة صراحة فيها اكثر سطحية وتلفيقا .

فلو كانت صفة البقاء مستقلة عن الذات ، للزم ان يتوقف بقاء الله على شيء مستقل عنه هو « البقاء » والله باقٍ بذاته لا بغيره . ولذا لزم ان تكون صفة البقاء هي هو من دون ان نلغيها .

ولو كان الله في حاجة الى غيره في البقاء ، اذن لكان ممكنا غير واجب ، وتكون صفة البقاء هي الواجب وفق هذا القول ، وعلى هذا الرأي الشيعة فيما رأى الأشاعرة ان الله تعالى باقٍ بالبقاء[3] .

---

(٢) ـ نهاية الحكمة ( ٢٨٩ ) .

(٣) ـ شرح التجريد .

والغريب عندما رأوا انه باق ببقاء ليس هو .

ونخلص الى القول ، بأن الشيعة وقفوا موقف الوسط في مسألة الصفات ، فيما غلا كل من الأشاعرة والمعتزلة ، كما صور ذلك الشاعر :

الأشعري ( بازدياد ) قائل وقال ( بالنيابة ) المعتزل

فالأشاعرة اثبتوا كل الصفات الزائدة ، ونفى المعتزلة الصفات وقالوا بالنيابة ، فيما قال الشيعة ، بثبوت الصفات العينية ، دون ان يلغوها ، وفي نهج البلاغة يقول الإمام علي (ع) أوّل الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له . وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كلّ صفة انّها غير الموصوف ، وشهادة كلّ موصوف انّه غير الصفة : فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثناه فقد جزّأه ومن جزّأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومن قال « فيم » فقد ضمّنه ، ومن قال « علام ؟ » فقد اخلى منه . كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم . متوحد اذ لاسكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده » .

ونلاحظ ان الإمام علياً (ع) تكلم بنفي الصفات ، وهو بالطبع لا يقول بما قالت به المعتزلة فيما بعد ، وإنما يعني نفي الصفات الزائدة ، الت تنافي كمال الذات .

يقول مرتضى المطهري : « وصف نهج البلاغة ذات الله سبحانه بالأوصاف الكمالية، وفي نفس الوقت نفى ( مقارنته ) بالصفات الزائدة على ذاته . والمعتزلة ينفون عنه كل صفة ، والأشاعرة يصفونه بكل صفة زائدة على ذاته »[4] .

والرأي الوسط ، هو الرأي الموضوعي ، لأنه لا ينفي صفات اثبتها البارىء في كتابه . ولا يجمع بين الذات والصفات الزائدة وينسب لها القدم والوجوب ، فيطرق بذلك بابا للشرك .

---

(٤) ـ في رحاب نهج البلاغة ( ص / ٦٣ .

في العدل الإلهي .

يعتبر العدل أحد اصول الدين عند الشيعة ، ويعتبر أيضاً من أصول المعتزلة . وعليه فان الإمامية ومن سار بعدها من المعتزلة ، يرون الحكمة وراء كل افعال الله . ويقولون بحسنها . والله لا يفعل القبيح من قبيل الظلم اذ ان الله « ليس ظلاما للعبيد » . وكل القبائح الموجودة هي من أفعال العباد بينما يتنزه الله عن ذلك .

وخالقت الأشعرية الى رأي آخر فترى أن أفعال الله تعالى حكيمة وحسنة وإن القبيح هو ايضاً صادر عن الله وذلك لا يتنافى مع عدله .

كما ترى الأشاعرة أن الله يقضي بالكفر والظلم وكل القبائح[٥] .

وترى أيضاً أن الله يفعل الأشياء من دون مصلحةٍ وغرضٍ حكيم ، ويعذب العبد من دون مصلحة وقد يخلق خلقاً في النار من غير معصية اقترفوها .

ويرون أن الله قد يضل العباد ويغويهم تعالى عن ذلك وقد يدخل الجنة من عصاه ويدخل النار من عبده وان الله قد أمر بكثير مما كرهه ، ونهى عما أراده[٦] .

وهم بذلك يخالفون الشيعة ومن سار خلفهم من المعتزلة اذ يرى الشيعة ان الله لا يجوز في حقه معاقبة العبد على فعلٍ هو أجبره عليه . وبأن الله لا يفعل الأشياء عبثاً من دون مصلحة وغرض . ولا يجوز في حق الله وبمقتضى العدل الالهي أن يعذب المطيع ويدخل الجنة العاصي وبأن الله لم يكلف احداً فوق طاقته كما ترى الأشعرية .

نحن نقول للأشاعرة ، بأنه اذا كان الله لايتنزه عن تعذيب المطيع وإثابة العاصي خلافاً للعدل . بمقتضى أن الله مريد في ملكه لا يلزمه شيء ، نريد ان نقول ان الأشاعرة بذلك أثبتوا قشريتهم ، وتجزيئيتهم ، فالله في وحيه وعد بعقاب الكافرين ومجازاة المؤمنين . فاذا لم يفِ بوعده يتناقض ذلك مع صفة الوفاء والصدق الإلهيّين . واذا كان بمجرد ان يكون الله قادراً على كل شيء يفعله فيكون

---

(٥) ـ شرح العقائد والملل والنحل .

(٦) ـ التفسير الكبير والفصل لإبن حزم .

عدلاً ، فلماذا يرِّدّ بالاستحالة ان يكون له ولدٌ ؟

الواقع ان الاشاعرة جعلوا الأفعال هي مقياس العدل ، وليس العدل هو مقياس الأفعال فضلّوا وأضلّوا .

واذا كان الله يفعل الشيء من دون غرض ، وانه أجبر الخلائق على الفعل ، وان ابا نواس يشرب الخمر لأن الله اراد له ذلك . فلماذا يبعث رسله وانبياءه لهداية الناس وتوفير الحجة على الناس ؟ وبهذا تظهر سخافة القائلين ان الأشعرية كانوا أكثر فهماً للتوحيد .

ولما قال الأشاعرة بأن الإنسان مسير ليس مخيراً وانه يكتسب ولا يفعل ، وخالفهم المعتزلة الى ان الإنسان مخير غير مسير ، وانه يفعل ولا يكتسب . قالت الشيعة انما الأمر بين أمرين ، فقال الإمام الصادق (ع) لاجبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين وبذلك نفهم ان الله ليس ظلاماً للعبيد بجبرهم على المعصية ثم معاقبتهم على ذلك وان الإنسان مسؤول عن افعاله وبالتالي يستحق العقاب فيكون عقابه عدلا .

ولعل الثغرة التي وقع فيها الفريقان هو ان المعتزلة تتطرف في العقل وتتجاوز بذلك كل « نص » ، ومنهجها العقلي لا يعدو ان يكون منهج الاقيسة المنطقية الأغريقية فيما تكمن الثغرة عند الاشاعرة في انهم يلفقون بين بعض طرق الكلام المعتزلي الذي ورثه أبو الحسن الأشعري من فترة اعتزاله وبين بعض الاراء السطحية والتجزيئية والجمود على بعض آراء أهل الحديث ، بينما الشيعة كانوا لا يتجاوزون بالعقل حدود النص ولا يعارضون بالنص حدود العقل ويوازنون بين المعقول والمنقول . ولم يكتفوا بنفي القبح عن فعل الله عقلاً فحسب ، وأنما استندوا مباشرة الى ظاهر النصوص القرآنية :

﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾[7] .

﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[8] .

---

(٧) ـ سورة الزمر ( آية : ٧ ) .

(٨) ـ سورة فصلت ( آية : ٤٦ ) .

﴿ والله لا يحب الفساد ﴾[9] .

﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾[10] .

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[11] .

﴿ واذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها . قل : أن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾[12] .

وانطلاقا من روح القرآن ، نستلهم حُقيقة العدل الإلهي ، وبأن الوجود قائم عليه ، بخلاف ما ذهب إليه الاشاعرة .

في الرؤية والتجسيم .

ذهب أهلُ الحديث الى التجسيم وأوردوا روايات اكتفوا بظاهرها واتبعهم في ذلك الأشاعرة فرأوا ان الله له يد حقيقية ووجه وعينان .

وكان ابن حنبل ، وداود يروحون الى التجسيم . ويصفه الزمخشري في الكشاف قائلاً :

فانْ حنبلياً قلتُ قالوا : بأنني ثقيلٌ حلوليٌ بغيضٌ مجسم .

وكان ابن حنبل يرى أن لله يداً ووجهاً وعيناً ، ومثل ذلك ذكر مالك بن أنس[13] .

كما ذكروا أن لله جسماً ، وهو يجلس على العرش ، وإنه يضع قدمه على جهنم حتى تقول قط قط وينزل الى السماء الدنيا ويقول هل من تائب ، هل من مستغفر[14] . وعلى هذا المذهب سار ابن تيمية ـ في منهاج السنة ـ ، واتباعه

(٩) ـ سورة البقرة ( آية : ٢٠٥ ) .

(١٠) ـ سورة الكهف ( آية : ٤٩ ) .

(١١) ـ سورة هود ( آية : ١١٧ ) .

(١٢) ـ سورة الأعراف ( آية : ٣٨ ) .

(١٣) ـ الملل والنحل .

(١٤) ـ الغريب في الأمر أن أهل السنة يأخذون بهكذا حديث من دون أن يعملوا العقل في فهم أبعاده وكيف ينزل الله الى السماء الدنيا وهل تتسع له وهو خالقها ، بينما الشيعة يروون الحديث بطريقة أُخرى =

الوهابيون .

وتطرف بعضهم كثيراً فرأى جواز المصافحة عليه تعالى والعناق[15] .

وورد عن داود انه قال : اعفوني عن الفرج ، واللحية ، واسألوني عما وراء ذلك ، وقال ان معبوده جسم ذو لحم ، ودم وجوارح وانه بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة[16] .

وأقرهم الأشاعرة على ذلك ، واكتفوا بظاهر الآيات التي يبدو منها التجسيم ، ورفضوا حملها على المجاز . ومن ذلك ان قال تعالى : ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾[17] .

﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان** ﴾[19] . ﴿ **وأنّ الله سميع بصير** ﴾[18] .

وما إليها من الآيات التي يبدو في ظاهرها تجسيمُ الذات الإلهية .

والذين رفضوا تأويل هذه الآيات بالمجاز ، سقطوا في مطبات من الأعتقاد الفاسد واذكر قصة ذلك العالم الوهابي ، عندما رفض التأويل بالمجاز وأبى إلا أن يحتفظ بالمفهوم الظاهري للآيات ، قال له أحد الحاضرين : ان الله يقول : ﴿ **ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا** ﴾[20] . فيلزم ان لا تبصر في الآخرة وكان هذا العالم أعمى .

ونفس الاعتراض تجسده النكتة الكلامية أنه اذا اقتصرنا على الظاهر دون التأويل فماذا نقول في الآية ﴿ **كل شيء هالك الا وجهه** ﴾ فاذا كان الوجه المعني هو الوجه ، للزم ان يفنى كل جسده سبحانه الاّ وجهه ! تعالى الله عما يصفون .

---

= أقرب الى الوجدان ، هو : أن الله يبعث ملكا ينادى ليلة الجمعة : هل من تائب ، وهل من مستغفر .

(١٥) ـ الملل والنحل .

(١٦) ـ الملل والنحل .

(١٧) ـ سورة القصص ( آية : ٨٨ ) .

(١٨) ـ سورة المائدة ( آية : ٦٣ ) .

(١٩) ـ سورة الحج ( آية : ٦١ ) .

(٢٠) ـ سورة الإسراء ( آية : ٧٢ ) .

ان المجسمة هم أضعف مخلوقات الله على فهم العقائد واي إله يعبد هؤلاء فيما لو جسدوه أمامهم .

والغريب ان الأشاعرة راحوا وراءهم بغباء عقلي يندى له الجبين .

واتفق المعتزلة مع الشيعة في تنزيه الله عن التجسيم . ولهم في ذلك أدلة عقلية واخرى نقلية .

أما عقلياً فان التجسيم يترتب عليه التحديد والحصر والتركيب وكلها لا تجوز في حق الذات الألهية عقلاً ونصاً . فالتجسيم يترتب على التحديد اي ان الجسم يتحدد بالطول والعرض والعمق فهو محدود . ثم إن الجسم يقتضي أن يكون له بداية ونهاية تركيبية أي انه مركب ، والمركب يتفاوت زمنياً وهو ما ينافي الوحدة والقدم الالهيين ، هذا بالأضافة الى أن المركب لا يكتمل إلا باجزائه كلها ، فهو محتاج اليها وفي حاجته اليها ينتفي كونه واجباً ويكون بالتالي ممكنا .

ثم ان الجسم بمحدداته الثلاث يحتاج الى حيز والحاجة في هذا المقام تنفي عنه الوجوب وتجعله ممكنا ايضاً وقد يكون واجباً كوجوب الحيز فيترتب على ذلك وجود تعدد الواجب وهو شرك صريح ، او أن يكون الحيز ممكنا ، وكان الله اقدم منه فخلقه وحلّ فيه ، فتكون النتيجة ان الواجب احتاج الى الممكن وهو مستحيل عقلا .

واذا كان الله تعالى بعد ذلك جسماً كانت له جهة وهذا يدل على انه غير موجود في وجهة أخرى وانه خاضع لحدود الحيز وهو من مخلوقاته فكيف يخضع الواجب الوجود الى ممكنه .

أما نقلياً فإن القرآن يناقض التصور التجسيمي .

يقول تعالى : ﴿ وهو معكم اينما كنتم والله بما تعلمون بصير ﴾[٢١] .

ولايمكن للجسم اذا كان جسماً ان يحل في اكثر من حيز .

ويقول : ﴿ ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع

---

(٢١) ـ سورة الحديد ( آية : ٤ ) .

عليم ﴾[٢٢] .

فلو كان لله جسم لاستحال تواجده في كل مكان وفي كل جهة ، ذلك ان الجسم الواحد لا يتجاوز جهة واحدة . وردّا على من رأى الوجه في الآية حقيقيا لا مجازا انه فرضاً لو كان الوجه وجهاً حقيقياً ، اذاً لكان لله أكثر من وجه لأنه اينما كنتم فثم وجهه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

يقول القرآن صراحة : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[٢٣] .

والجسم شيء فيكون الله ليس كذلك ! .

واقتصر المعتزلة على الجدل العقلي في ردّ شبهات المجسمة وأنصارهم الأشاعرة في حين اعتمد الشيعة على نصوصهم الصريحة .

فرداً على الذين ظنوا أن الله يسكن السماوات قال الإمام علي (ع) ، بعد أن قال له السائل اين كان ربنا قبل ان يخلق السماوات والأرض ؟ قال : أين ؟ سؤال عن مكان ، وكان الله ولا مكان[٢٤] .

وقال عليه السلام عن الله : ما وحده من كيفه ، ولا حقيقته أصاب من مثله ولا إياه عنى من شبهه ، ولا حمده من أشار أليه وتوهمه[٢٥] .

وذكر البغدادي قول أمير المؤمنين علي (ع) : إن الله تعالى خلق العرش إظهاراً لقدرته ، لا مكاناً لذاته .

ولا يتردد عاقل في أن العقيدة السليمة التي تنزّه الخالق وتجعل حقيقته منسجمة مع الوجدان هي عقيدة أهل البيت (ع) في الألهيات .

وحيث ان الأشاعرة قالوا بالتجسيم تبعا لأهل الحديث والظاهرية فانهم اثبتوا الرؤية .

وحيث ان الشيعة والمعتزلة نفوا عنه التجسيم لزم ان ينفوا الرؤية .

---

(٢٢) ـ سورة البقرة ( آية : ١١٥ ) .
(٢٣) ـ سورة الشورى ( آية : ١١ ) .
(٢٤) ـ رواه المبرّد في الكامل .
(٢٥) ـ نهج البلاغة .

اذ ان الرؤية عقلاً تستبطن التجسيم لأن الرؤية تشترط وجود المرئي في وجهة ما حتى تتحقق رؤيته وهذا يعني ان الله حال في حيز وقد سبق بطلان هذا الأعتقاد .

ثم ان عين الإنسان اذا رأت الله في مداه المجسم يعني ان رؤية المخلوق استطاعت احتواء جسم الخالق كله . وهذا منافٍ للإعتقاد السليم .

واستند الأشاعرة وأهلُ الحديث على النص القرآني مكتفين بظاهره على عادتهم وهو : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ★ الى ربها ناظرة ★ ووجوه يومئذ باسرة ★ تظن ان يفعل بها فاقرة** ﴾[٢٦] .

وقال أصحاب الرؤية ، كما ذكر القوشجي في شرح التجريد : إن النظر هنا يعني الرؤية وليس الأنتظار كما أَوَّل الشيعة والمعتزلة ، ذلك ان النظر اذا اريد به الانتظار يستعمل من دون صلة مثل قوله « انتظرت » أما لو اريد به الرؤية استعمل بصلة « الى » .

وذلك قول الشاعر :

وجـوه نـاظـرات يـوم بـدر الى الـرحمن يـأتي بـالفـلاح

يقول الشيخ جعفر السبحاني :

« يعلم ذلك ـ رأي عدم النظر الى الله ـ بمقارنة بعض الآيات المذكورة ببعضها وعندئذ يرتفع الإبهام عن وجهها . وإليك تنظيم الآيات حسب المقابلة :

١ ـ وجوه يومئذ ناضرة يقابلها قوله وجوه يؤمئذ باسرة .

ب ـ الى ربها ناظرة يقابلها قوله تظن ان يفعل بها فاقرة .

ولاشك إن الفقرتين الاولين واضحتان جداً ، وانما الكلام في الفقرة الثالثة فيجب رفع إبهامها عن طريق الفقرة الرابعة التي تقابلها »[٢٧] .

---

(٢٦) ـ سورة القيامة ( آية : ٢٢ ـ ٢٥ ) .

(٢٧) ـ الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل .

فاذا كانت الوجوه الباسرة تظن وتنتظر ان يفعل بها فاقرة ، فانّ الوجوه الناضرة ، تنتظر من ربها الرحمات .

أضيفُ الى هذا أن من قال من الشيعة بأن النظر بمعنى الأنتظار يردهما كتبه الشيخ السبحاني : أما ( ناظرة ) فواضحٌ انها تنظر الى ( رحمة ربها ) بتقدير حذف المضاف لأنها متعدية بالحرف ( الى ) ، ولو كانت نحوياً بمعنى الأنتظار لما تعدّت بحرف الى ، ويعضد هذا الكلام ، قول الله تعالى ﴿ **رب أرني أنظر إليك** ﴾[28] ، و ﴿ **أفلا ينظرون الى الأبل كيف خُلقت** ﴾[29] ، بمعنى النظر لذا تعدت بإلى وأما قوله ﴿ **قالوا انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾[30] ، وقوله ﴿ **هل ينظرون إلّا الساعة أن تأتيهم بغتة** ﴾[31] ، فهو بمعنى الأنتظار وإذ لم يتعدَّ الفعلان بحرف الجر . ثم على فرض ان بعض الشيعة قال إن المراد الانتظار فمن لا يسهو؟ والّا فالخلاف اضحى لفظياً وليس عقيدياًلأن من قال بهذا ومن لم يقل متفقان أن النظر الى رحمته الله لا الى الله كما يقول العامة . ويؤيد هذا الكلام آيات كثيرة وروايات جمة عن أهل البيت (ع) ، مما يعضد حمل الاية على المجاز بتقدير حذف الأصل والحمل على الحقيقة .

ثم كان أولى أن يناقش المجسمة واهل الرؤية في السر من استخدام ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة** ﴾[32] بدلاً من عيون يؤمئذ ناظرة فتكون أقرب الى مفهوم الرؤية .

يقول الإمام الرضا (ع) متجل لا باستهلال رؤية باطن لا بمزايلة .

وقال الإمام علي (ع) لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ولاتراه النواظر ولا تحجبه السواتر ( النهج ) .

---

(٢٨) ـ سورة الأعراف ( آية : ١٤٣ ) .

(٢٩) ـ سورة الغاشية ( آية : ١٧ ) .

(٣٠) ـ سورة الحديد ( آية : ١٣ ) .

(٣١) ـ سورة الزخرف ( آية : ٦٦ ) .

(٣٢) ـ سورة القيامة ( آية : ٣٥ ) .

# في كلام الله

هذا المبحث يعد من أخطر مباحث الإلهيات . ذلك انه أحدث هزّة قوية في زمنه ، وتنافرت ، بل تقاتلت الفرق حوله . وخلاصة المسالة ، تتعلق بحدوث أو قدم الكلام .

وقد أثيرت المسألة في القرن الثاني للهجرة وكان أول من قال بها الجعد بن درهم حيث قال بأن كلام الله غير مخلوق ، وكان ابن حنبل قد تلقى ضرباً شديداً على ذلك فتمسك برأيه .

ويقف الاشاعرة الى جنب أهل الحديث في القول بقدم القرآن بينما وقف الشيعة والمعتزلة ضدهم . يقول ابن حنبل : والقرآن كلام الله ليس بمخلوق فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي كافر ، ومن زعم ان القرآن كلام الله ووقف ولم يقل مخلوق ولا غير مخلوق ، فهو أخبث من الاول[٣٣] .

وقال ابو الحسن الاشعري من جهته : ونقول إن القرآن كلام الله غير مخلوق وإن من قال بخلق القرآن فهو كافر[٣٤] .

وقال المعتزلة أنه من قال بأن القرآن غير مخلوق او قديم ، أشرك بالله . والذي يثبته العقل ان الكلام محدث ليس قديماً ذلك لأنه يعني اللفظ والحروف ، وعليه يكون الكلام غير خاضع لوحدة الزمن وذاك دليل على حدوثه ، وورد في القرآن

---

(٣٣) ـ ابن حنبل ـ كتاب السنة .

(٣٤) ـ الابانة .

﴿ مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾[٣٥] .

ولو ثبت ان كلامه ـ سبحانه ـ كان قديماً للزم وجوده قبل الخلق ، ووجوده قبل الخلق ضرب من العبث لا يجوز على الله تعالى لأنه قبح والقبيح لا يصدر عنه .

ورأى الأشاعرة ان التكلم صفة ذاتية لله وقالوا بأن كلامه ، كلام نفسي وهو غير العلم والإرادة والكراهية .

وكان رأي الأشاعرة في التكلم مبهما حتى بالنسبة اليهم .

ورأى الشيعة ان كلام الله ، متقوم بما يدل على معنى خفي مضمر ، اما بقية الخصوصيات كالصوت الذي يحدث في صدر الإنسان وخروج الكلام من الحنجرة و . . . و . . . كل ذلك ليس داخلاً في حقيقة المعنى الذي يتقّوم به الكلام[٣٦] .

وكل ما أظهر الله من عظمته وقدرته في ملكوته يسمى كلاماً مثل قوله : ﴿ انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ﴾[٣٧] .

فالله يخلق الكلام فهو فعل انشأه وأوجده في الأشياء .

قال الإمام علي (ع) يُخبر لا بلسان ولهوات ، ويسمع لا بحروف وادوات ، يقول ولا يلفظ ويحفظ ولا يتحفظ ويريد ولا يضمر ، يحب ويرضى من غير رقة ، ويبغض ويغضب من غير مشقة ، يقول لمن اراد كونه كن فيكون ، لا بصوت يقرع ، ولابنداءٍ يُسمع ، وانما كلامه سبحانه فعل منه انشأه ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً ( نهج البلاغة ) . صدق سيدُ المتكلمين وباب مدينة العلم وقائد سفينة النجاة .

وقد حاول ابن حنبل كما سبق أن يجبر في خطابه كل الناس على اتخاذ موقف بين الخلق والقدم .

ورأى ان من اقتصر على ذكر « كلام الله » ليس أقل خبثاً من القائلين بحدوثه .

---

(٣٥) ـ سورة الأنبياء ( آية : ٣ ) .

(٣٦) ـ الميزان .

(٣٧) ـ سورة النساء ( آية : ١٧١ ) .

وهذا التطرف كانت له مضاعفاته الفكرية والسياسية بحيث أدخل المجتمع الإسلامي في متاهات من السفسطة ، أخرجته عن دائرة العمل لاستنهاض المسلمين وشلتهم وتاهت بهم في يوتوبيات فكرية مرتكزها المزاج . غير ان الأئمة من آل البيت (ع) التزموا بموقف محايد في أزمة القول « بالخلق والحدوث » وان كان يبدو من كلامهم القول بحدوثه تمشياً مع منطق العقل والنقل ، الا انهم لم يتيهوا بعيداً في لجاج اللغط الذي سيطر على الأشاعرة وأهل الحديث من جهة ، والمعتزلة من جهة أخرى معتمدة على سلطة المأمون .

وحفاظاً على استقرار الأمة ، كانت اجابة الإمام الرضا (ع) على مسألة القرآن كالتالي :

كلام الله لا تتجاوزوه ولاتطلبوا الهدى في غيره فتضلوا[٣٨] .

ثم قال مرة أخرى : بسم الله الرحمن الرحيم عصمنا الله واياك من الفتنة فان يفعل فقد اعظم بها نعمة ، وان لا يفعل فهي الهلكة . نحن نرى أن الجدال في القرآن بدعة ، اشترك فيها السائل والمجيب ، فيتعاطى السائل ماليس له ، ويتكلف المجيب ماليس عليه ، وليس الخالق إلا الله عزوجل ، وماسواه مخلوق والقرآن كلام الله ، لا تجعل له إسماً من عندك فتكون من الضالين ، جعلنا الله ، وإياك من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون[٣٩] .

كانت تلك هي الكلمة التي كتبها الإمام الى بعض شيعته ببغداد .

والعقل يرى ان كلام الله اذا كان هو علمه فهو اذن تعبير عن علم الله الازلي الذي هو هو ، وقد يكون عبر وسائط غير الالفاظ والحروف ، كما لو كان انساناً مثل المسيح ، يُسمى كلمة الله ، لأنه تعبير عن عظمة الله فيكون بالنتيجة حدثاً ، وإذا لم يكن علماً ، وكان شيئاً آخر ، فلن يكون بقاطع العقل إلا ألفاظاً وحروفاً ، وهي خاضعة للتركيب والزمن ، فيترتب على ذلك ان يكون حادثا .

---

(٣٨) ـ التوحيد .

(٣٩) ـ نفس المصدر السابق .

# البداء

ما آخذ اعداءُ الشيعة الشيعة على شيء مثلما آخذوهم على مسألة البداء انطلاقاً من أن البداء في مفهومه الظاهر ينافي علم الله المطلق . وخلاصة القول في معنى البداء ، ان الله يبدو له في أمر فيغيره وفي شيء آخر فيستبدله .

وطبيعيٌ ان ترفض مثل هذه العقائد ، فيما لو بقينا واقفين على عتباتها الظاهرة ، ولم نقترب من مفهومها الحقيقي . وبما أن البداء يعتبر من القضايا المهمة في الإعتقاد الإمامي فإن أهل السنة اعتبروه ضرباً من الكفر ، يخرج به الشيعة عن دائرة الإسلام .

ولست أدري كيف أن أهل السنة ، مذهبهم في الكلام « الأشعرية » ، ويرفضون البداء ، علماً انهم يؤمنون بأن الله يفعل كل شيء في ملكه ، وان ما يصدر عنه كله عدل وان كان قبحاً ، ولو كان البداء قبحاً في رأيهم وثبت بالنص صدوره عن الله لزم أن يقبلوه من زاوية أنه القبح الذي جوزوا صدوره عن الله ، واذا رفضوه يكونون قد ناقضوا أولياتهم في الكلام ، وهي أن ما يصدر عن الله عدل وان كان قبحاً .

غير ان الحقيقة تبقى معلولة للجهل بمفهوم البداء لغة واصطلاحاً وإلّا فان البداء أحد العقائد الراسخة في مذهب العامة نفسها كما سنرى .

والسؤال : ما هو البداء ؟ وما هي عقيدة الشيعة فيه ؟ .

ليس البداء في اللغة ، سوى الظهور ، فنقول بدا الشيء اي ظهر . وكذلك في

معاجم اللغة العربية ، والقرآن يقول ﴿ **وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون** ﴾[٤٠] .

وحسب هذا المفهوم رفض السنة « البداء » ولم يجوزوه على الله مع انهم يؤمنون عملياً بالبداء في مفهومه الاصطلاحي كما يؤمن به الشيعة .

والشيعة ايضاً ، لاتجوز البداء على الله حسب هذا التعريف اذ ان علم الله مطلق وواسع ظاهر وباطن اذ لا يغيب على الله شيء فيبدو له ﴿ **وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء** ﴾[٤١] ويقول الإمام علي (ع) : كل سر عندك علانية وكل غيب عندك شهادة . ( نهج البلاغة ) .

وكلام الشيعة في البداء كثير وله أوجه كثيرة كلها ترتكز على أدلة عقلية ونقلية ونحن في هذا المقام المحكوم بالإجمال والايجاز ، نرتأي الأقتصار على بعض من تلك الأوجه ، توخياً للإيجاز .

هناك البداء في الأقدار بمعنى التغير الذي يطرأ على قدر الإنسان بالطاعة والعمل الصالح وذلك يقوم على أساس الاعتقاد بنوعين من القدر قدر مطلق لا يتغير كأن يقدر الله على الأنسان الموت اذا انقطع عنه الأكسجين ويموت أذا هوى من الطائرة على صخرة من الأرض . وقدر آخر غير مطلق ، قيده الله بشرط كأن يقدر عليك طول العمر بشرط صلة الرحم ، ويقدر عليك الموت العاجل بشرط الزنا .

وهذا النوع من القدر ، هو موضوع البداء أي القدر الذي يتغير بأعمال العباد : ﴿ **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[٤٢] .

وهو على هذا الضرب أي هذا القدر سيبقى ساري المفعول بشرط الاّ تغير من أحوالك فاذا غيرت من احوالك بدا لله فيه الحكم الآخر ، الذي هو القدر المشروط بذلك الفعل .

---

(٤٠) ـ سورة الزمر ( آية : ٤٧ ) .

(٤١) ـ سورة إبراهيم ( آية : ٣٨ ) .

(٤٢) ـ سورة الرعد ( آية : ١١ ) .

ولعل هذا النوع من البداء يدل على مسألة العدل والاختيار . فمن عدل الله ، ان لا يجبر الانسان على قدر واحد ، حتى ولو غير حاله ، وما التوبة والاستغفار سوى تعبير عن هذا البداء اي ان الدعاء كما ورد عن اهل السنة انفسهم يرد القدر .

وما يبدو لله بهذا الخصوص هو داخل في دائرة علم الله المطلق ، وقدر ناسخ لقدر .

فالإمام علي (ع) لّما انزاح عن الحائط المتهاوي وساله واحد : أهروباً من قدر الله فقال : ان الهرب هو من قدر الله الى قدره . كما أن في ذلك دلالة قوية على اختيار الإنسان وقدرته على تغيير مصيره بالطاعة والعمل الصالح . وهو أمر ينسجم مع عقيدة العدل في الجزاء والعقاب ، الإلهيين .

واذا كان البداء تعبيراً عن العدل الإلهي والاختيار البشري ، كان ذلك اعتقادا سليما ، ومن هنا يقول الأئمة : « ما عُبدَ الله بشيءٍ مثل البداء » .

ولهذا حدد الشيعة البداء فيما كان مشترطاً في التقدير . يقول الشيخ المفيد :

أقول في معنى البداء ما يقوله المسلمون بأجمعهم في النسخ وأمثاله ، من الإفقار بعد الإغناء والأمراض بعد الاعفاء وبالإماتة بعد الاحياء وما يذهب اليه أهل العدل خاصة من الزيادة في الآجال والأرزاق والنقصان منها بالأعمال[٤٣] .

ومن ذلك أيضاً النسخ فيقول القرآن ﴿ **ما ننسخ من آية أو نُنسيها نأتِ بخير منها أو مثلها** ﴾[٤٤] .

فعملية النسخ هذه هي التعبير عن البداء الذي لا يناقض علم الله المطلق فينسخ الله حكماً بحكم ، عندما لم يعد في الحكم المنسوخ مصلحة . ويكون عامل الزمن مرتبطاً بعملية النسخ هذه ، وبالتالي فان النسخ هذا لا يعدو ان يكون تقييداً لإطلاق الحكم من حيث الزمان[٤٥] . والنسخ ليس محصوراً في الأطار

---

(٤٣) ـ أوائل المقالات / باب البداء والمشيئة .

(٤٤) ـ سورة البقرة ( آية : ١١٦ ) .

(٤٥) ـ الإلهيات .

التشريعي فكذلك في الاطار التكويني ، فان الانسان قد يخضع لمشيئة الله والبداء ، فيطول عمره بعد ان كان مكتوباً عليه قصره ، أو يقصر بعد أن كان مكتوباً عليه طوله ، وذلك بإتيان شروط ذلك البداء . فيكون البداء هو التقدير الإلهي ، لتغيير حكم على الإنسان ، وإخضاعه للقدر الإلهي المشروط . فيكون بداءً يجري في حدود الأقدار التي خلقها الله ، وليس خارجها . تجاوباً مع الإرادة التي منّ بها الله على الإنسان ليكون مسؤولاً عن أفعاله .

وحتى لا أطيل في الكلام العقلي ، أودّ أن أقف على الآيات والمرويات التي تحدث عن البداء وهي كلها آيات قرآنية ظاهرها وباطنها تدل عليه ، كما أن المرويات كلها بسند أهل السنة والجماعة .

يقول تعالى : ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾[٤٦] .

ذكر الزمخشري : إن عبدالله بن طاهر دعا الحسين بن فضل وقال له : أشكلت علي ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي . قوله تعالى ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾ وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن الى يوم القيامة .

فأجاب الحسين بقوله : « كل يوم هو في شأن فانها شؤون يبديها لاشؤون يبتدؤها » .

ويقول القرآن : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾[٤٧] .

وقوله : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض** ﴾[٤٨] .

وكان يونس (ع) قد أخبر قومه بعذاب[٤٩] ، واقع ، غير أن الله بداله في ذلك فلم يُنزل عليهم العقاب .

وقال تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا**

---

(٤٦) ـ سورة الرحمن ( آية : ٢٩ ) .
(٤٧) ـ سورة الرعد ( آية : ٣٩ ) .
(٤٨) ـ سورة الأعراف ( آية : ٩ ) .
(٤٩) ـ الدر المنثور وقصص الأنبياء لابن كثير .

كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين ﴾[٥٠] .

وهذا البداء يتعلق بالقدر المشروط . والشرط هنا هو الإيمان .

أما الأحاديث فقد كثرت في هذا المجال :

ذكر الحاكم في مستدركه ، عن ثوبان قال : قال رسول الله : « لايرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر . وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

وورد في آثار أهل البسنة ان عمر بن الخطاب كان يقول في الدعاء : اللهم ان كنت كتبتني لي شقياً فامحه واكتب لي سعيدا[٥١] .

وعلى هذا تكون عقيدة الشيعة في البداء ، هي نفسها عند السنة . إلا ان الأولين فهموها ، وضبطوا إيقاعها العقائدي . بينما جهلها أهل السنة واعتقدوها من دون وعي .

وخلاصة القول إن قدر الله على قسمين . الاول مطلق لا يطرأ عليه تغيير من الخارج .

والآخر مشروط بافعال الناس . ومعرض للتغيير ، غير أنه ليس تغييرا في العلم والعزيمة ، وإنما تغيير يجري بواسطة الأقدار المشروطة بفعل الناس ، ويتحولون بواسطتها من قدر الى آخر والكل في فلك واحد ، هو قدر الله الذي لا يلغي ارادة الإنسان في إتيان الأفعال أو تركها . وفي ذلك نلمس عقيدة العدل والأختيار .

---

(٥٠) ـ سورة يونس ( آية : ٩٨ ) .

(٥١) ـ أريد أن أجعلها نكتة للذين لا يضحون بالرجال في سبيل العقيدة التي يرون فيها ، صحة لقد ذكر الرسول في احد أن الله ما كان ليجعل كبدة حمزة في جوفٍ يدخل النار ، وهو في جوف هند زوجة أبي سفيان ، ثم يرى السنة أن هنداً قد أسلمت ستدخل الجنة . وهندُ عين بداء ، والسنة هنا أمام خيارين إما أن يؤمنوا بالبداء ( وهم يؤمنون به عملياً ) أو يكفّروا أحدى الصحابيات .

# وأخيرا

نخلص من هذه الرحلة السريعة ، القاسية . في رحاب المعتقد ، ومن تلك الجولة التاريخية الطويلة ، لنعلن أهمية الرجوع الى أصل المعتقدات لإعادة بناء القناعة ، على أسس علمية دقيقة ، بعيداً عن ذوي « التقليد » إنني لم أتذوق حلاوة العقيدة ، إلا في ظل هذه الجولة وفي ضوء تلك الرحلة . عندما أوقفني البحث الطويل ، المضني ، على عتبة آل البيت النبوي ، الذين ظلمهم التاريخ ـ الأموي ـ ووضع بديلاً عنهم ، نماذج وهمية ، كانت هي حقا ، سبباً في تشتت الدين ضمن مذاهب متفرقة ، أدخلت المسلمين في فتن ضارية .

إن واجب الأمة في اقتفاء آثار آل البيت الائمة ـ مطلب شرعي ، يستوي فيه الصحابة والتابعون ومن بعدهم ، أما غير الائمة ، فليس هناك نص يفرض على الأمة الأقتداء بهم ، بل هم انفسهم يعلنون ذلك . فهل بهذا التفريط ، والتسيب الشرعي ، تثبت الحجة على الناس . واذا كان بعض أئمة الجماعة ، يعلن تمرده عن السابقين ، ويدعي انهم رجال .. فأولى باللاحقين ان يتمردوا على هؤلاء الأئمة . إنني كمسلم أبحث عن تكاليفي الشرعية ، ومصادرها تبين لي اني مشدود بالواجب الى الأئمة من آل البيت (ع) مثلما شدّ الشرع الصحابة بهم من قبلنا ، ولكنني لم أر دليلا واحدا ينهض بوجوب اتباع غيرهم .. والأئمة الأربعة هم علماء لأهل السنة بلا شك ، ولكن هل وجوب اتباعهم ، يسند الى نص صريح ، أو بناء عقلاني متين ؟ ! .. وعليه ، ما حكم الذين أتوا قبل الأئمة الأربعة ؟ من يتبعون وممن يأخذون الدين ؟ ! .

ثم لماذا كانوا أربعة وليس أكثر؟ لماذا لا ينفتح باب الأجتهاد لغيرهم ليكونوا أكثر؟ هل ثمة نص محدد لذلك؟ .

الأئمة من آل البيت (ع) ثبتوا بالنص، وبالعقل أيضا .

وتوضح لي أن سيف « ديموقليس » هو الذي انزلها تنزيلا على عقول الناس .

ولمّا قادني بحثي الى الإمام الصادق (ع) شعرت بأنني كنت طيلة حياتي مخدوعاً بعظماء وهميين . إذ أن هذا العملاق المجهول الذي كان معلماً لمئات من علماء هذه الأمة، لم يوفه تاريخ « الجماعة » حقه، بالرغم من أن الائمة الاربعة أخذوا عنه . وبالرغم من أن علماء السنة انفسهم لم يكونوا يتقدمونه لعظيم مقامه . لكن التاريخ المزيف يقلب دائما تلك الصفحات، في حركة بهلوانية مريعة وخاطفة، فيبقى السؤال موحودا في ذهن الباحث، ويخفت شيئاً فشيئاً، فيتبدد .

لقد بقيت زماناً طويلاً، أربي نفسي على شيء واحد، أن أكون شجاعاً، أن أكسب نفسية قوية لا تتأثر بمسبقاتها . وإنها ـ لعمري ـ أخطر ممارسة واجهتها، لأن مجتمعاً بكامله، وبكل ثقله العرفي والثقافي والبشري، كان ضد اتجاهي هذا . غير أن الدعاء والتصميم والتفاني، جعلني اتجاوز هذه المعوقات فهل تراني اذاً طالب فتنة في لجج التاريخ؟ إن هذه هي العبارة التي طوقت ألوف المخلصين، الجوعى الى الحقيقة المقدسة، في صفائها وشفافيتها التي افتقدناها في فكرنا وتراثنا لقد كنت دوماً أتساءل حول ما إذا خرجت بنتيجة من هذه الرحلة المعتقدية! وخشيت أن أكون مفلساً في ذلك، راجعاً بخفي حنين . كانت هذه الاسئلة، جزءاً من منهجي في تركيز المعتقدات وتمحيصها . وفي الأخير أثلج صدري، أن أكون قد خرجت بقيم النجاة، وسبل الرشاد . لقد الفيت نفسي في موكب البيت النبوي، أسير وفق هداه، وأسلك وفق خطاه ورايت نفسي منفّذاً، حقيقةً لمطالب الإسلام . ووجدت نفسي ممارساً لحديث الثقلين، اذ ما أن أذكر القرآن إلا وأذكرهم، وما أذكرهم إلا وأذكر القرآن .

أصبح حبلهم بيدي، متصلاً بحبل القرآن . ترى، أي زاد كنت سأخسر واي المعاني كنت سأفقد! وهكذا دارت علي دائرة الشكوك، ورأيتني منسجماً مع عقيدة منسجمة، من أولها الى آخرها . وما أكثر تلك الأسئلة التي غاب عني

حلّها ، فألفيتها قارّاً في مدرسة آل البيت (ع) .

لقد خرجت من الضيق وشدّته الى سعة الحق ورحابته .

ومن غبش المعاني الى الوضوح والجلاء .

وانه لجدير أن أكشف عن مدى الفجاجة التي لمستها في كل المذاهب التي انفتحت عليها . لقد قادني التفكير الى مراجعة كل معتقداتي .

وامتدت محاولاتي في البحث والتنقيب في كل المذاهب بل والديانات بما فيها الديانات الاسطورية . إنني حاكمت يوماً نفسي في خلوتها . واشترطت عليها التجرد الكامل في البحث عن الحقيقة العليا .

عن « الله » الحقيقي . وعن وحيه الأخير ! لقد انفتحت على الانجيل باحثا فيه عمّا يشفي غليلي ، فرجعت أجر أذيال البؤس ويدي بيضاء من ذلّ السؤال .

إنني أنعى أن تكون أمتي الباحثة عن الحقيقة قد ضلت طريقها . وأحمل مذهب العامة مسؤولية بؤس عقيدتهم . أنعى أن يقودها « تبرير » مذهب الرأي الى أن تلوذ بـ « شهود يهوه » وترى دينهم أكثر انسجاماً من مذهب العامة ! .

وأنني أحمّلُ مسؤولية الكثير ممن ضل عن الطريق ، هذا المذهب الذي ظل معرضاً عن تقديم اجابات منطقية لاتناقض البديهة .

وكذلك سارت بي الراحلة ، من مذهب الى آخر ، من دين إلى آخر ، أنقب ، أبحث فراوحت الى حضيرة الثقلين . منبت الهداية ، وموطن الحق . . .

سأقول للتاريخ مرة أخرى . انني زاولت مسؤوليتي « العقلية » فرايت الحق مأسورا خلف قضبان التحريف ، مقيداً على أعمدة التضليل . . .

فاللهم ارنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه .

وارنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

ياغاية أملي !!! .



# المصادر


١ ـ إبن خلدون .

( ايف لاكسون ، ترجمة : ميشال سليمان ) .

٢ ـ اثبات الوصية .

أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ( ت ٣٤٦ هـ ) .

بيروت ـ دار الاضواء ـ ط ٢ .

٣ ـ الاحتجاج على أهل اللجاج .

أبو منصور أحمد الطبرسي ، ( النجف ١٣٨٦ هـ ) .

٤ ـ الامام الحسن بن علي (ع) .

باقر شريف القرشي .

بيروت ـ مؤسسة الوفاء .

٥ ـ أسباب النزول ( بهامشه الناسخ والمنسوخ لإبن سلامه ) .

ابو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري .

بيروت ـ دار المعرفة .

٦ ـ الإستيعاب في معرفة الأصحاب .

يوسف بن عبدالله بن عبد البر .
تحقيق محمد علي البجاوي ، ط ١ القاهرة ـ نهضة مصر .
**٧ ـ أُسد الغابة في معرفة الصحابة .**
عزالدين علي بن الأثير .
بيروت ـ دار أحياء التراث العربي ، وبيروت ـ دار الفكر ١٩٨٩ .
**٨ ـ اسلاميات .**
طه حسين .
ط ١ ، بيروت ـ دار الأدب ، ١٩٦٧ .
**٩ ـ الاصابة في تمييز الصحابة .**
ابن حجر العسقلاني .
حقق أصوله ووضع فهارسه علي محمد البجاوي ، ط ١ بيروت ـ دار الجيل ، ١٩٩٢ .
**١٠ ـ الإمامة والسياسة ( تاريخ الخلفاء ) .**
ابو محمد عبد الله بن قتيبة ( الدنيوري ت ٢٧٦ هـ ) .
تحقيق الأستاذ علي شيري ، ط ١ قم ـ منشورات الشريف الرضي ١٤١٣ ، وبيروت ـ مؤسسة الوفاء .
**١١ ـ الانتقال الصعب .**
أدريس الحسيني ( المؤلف ) .
ط ١ بيروت ـ دار النخيل ، ١٩٩٤ .
**١٢ ـ أنساب الأشراف ( الجزء الأول ) ( سلسلة ذخائر العرب رقم ٢٧ ) .**
أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري .
تحقيق د : محمد حميد الله ط ١ القاهرة ـ دار المعارف ومعهد المخطوطات ـ ١٩٥٩ .

**١٣ ـ بداية المجتهد .**
القرطبي .
**١٤ ـ البداية والنهاية .**
عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤ هـ .
بيروت ـ دار الكتب العلمية ، وبيروت ـ دار الفكر العربي ، عن طبعة دار نهر النيل بالجيزة .
**١٥ ـ التبيان .**
أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ت ٤٦٠ هـ .
دار احياء التراث العربي .
**١٦ ـ التاريخ الاسلامي : دروس وعبر .**
العلامة السيد محمد تقي المدرسي .
بيروت ـ دار الجيل .
**١٧ ـ تاريخ ابن خلدون .**
بيروت ـ دار الفكر .
**١٨ ـ التاريخ الإسلامي .**
محمود شاكر .
ط ٤ بيروت ـ المكتب الاسلامي ، ١٩٨٥ .
**١٩ ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام .**
أحمد بن علي الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ .
بيروت ـ دار الفكر .
**٢٠ ـ تاريخ الخلفاء .**
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ت ٩١١ هـ .

تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد بيروت والقاهرة مطبعة السعادة ١٣٧١ هـ .

٢١ ـ تاريخ الطبري ( تاريخ الرسل والملوك ) .

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ .

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٤ القاهرة ـ دار المعارف .

٢٢ ـ تاريخ مدينة دمشق ( ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ) .

الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الشافعي ت ٥٧١ هـ .

تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، ط ٢ بيروت ـ مؤسسة المحمودي ١٩٧٨ .

وترجمة عثمان بن عفان ، تحقيق سكينة الشهابي ، ط ١ دمشق ـ دار الفكر ، ١٩٨٤ .

٢٣ ـ تاريخ دمشق ( بكامله ) .

إبن عساكر .

القاهرة ـ مكتبة الصاوي .

٢٤ ـ تاريخ اليعقوبي .

أحمد بن أبي يعقوب العباسي اليعقوبي .

بيروت ـ دار صادر .

٢٥ ـ تاريخ العرب .

فليب حتي .

٢٦ ـ تجارب الأمم .

أبو علي مسكويه الرازي ت ٤٢١ هـ .

حققه وقدم له د . أبو القاسم أمامي ، ط ١ طهران ـ دار سروش ١٩٨٧ .

٢٧ ـ تذكرة الخواص .

شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط بن الجوزي ت ٦٥٤ هـ .

قدم له السيد محمد صادق بحر العلوم ، بيروت ـ مؤسسةأهل البيت ١٩٨١ ـ و ط الحيدرية .

٢٨ ـ تفسير ابن كثير .

ابن كثير الدمشقي .

بيروت ـ دار العلم ـ و ط دار احياء الكتب العربية .

٢٩ ـ تفسير الخازن .

الخازن .

ط مصطفى محمد .

٣٠ ـ تفسير الرازي ( التفسير الكبير ) .

فخرالدين أبو عبدالله محمد القرشي الشافعي الرازي .

ط ٢ طهران ـ دار الكتب العلمية .

٣١ ـ تفسير الطبري ( جامع البيان عن تأويل آية القرآن ) .

ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ .

بيروت ـ دار الفكر ، ١٩٨٤ و ط الميمنية ـ القاهرة .

٣٢ ـ تهذيب التهذيب .

ابن حجر العسقلاني .

بيروت ـ دار صادر ، عن ط ١ حيدر آباد الركن ١٣٢٦ هـ .

٣٣ ـ جامع الاصول .

ابن الاثير الجزري .

القاهرة ـ ط السنة المحمدية .

**٣٤ ـ التوسل والوسيلة .**

ابن تيمية .

الطبعة الثانية .

**٣٥ ـ الالهيات على هدى الكتاب والسنة .**

الشيخ جعفر السبحاني .

**٣٦ ـ إيران والإسلام .**

العلامة الشيخ مرتضى المطهري .

طهران ـ منظمة الإعلام الإسلامي .

**٣٧ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء .**

الحافظ ابو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ت ٤٣٠ هـ .

بيروت ـ دار الكتب العلمية .

**٣٨ ـ جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد .**

محمد بن محمد بن سليمان المغربي ت ١٠٩٤ هـ .

ط ٢ بيروت ـ مؤسسة علوم القرآن ، و ط جدة دار القبلة ١٩٨٨ .

**٣٩ ـ خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .**

الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي .

بذيله كتاب الجلي بتخريج خصائص علي لأبي إسحاق الحويني الأثري ، ط ١ بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٩٨٧ ، وطبعة أخرى ، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ١٤٠٣ هـ .

**٤٠ ـ الخصائص الكبرى .**

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ت ٩١١ هـ .

بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٥ .

٤١ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور ( بهامشه تنوير المقباس ) .
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي ت ٩١١ هـ .
بيروت ـ الناشر محمد أمين دمج و ط مصر .
٤٢ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة .
أبو بكر أحمد بن الحسيني البيهقي ت ٤٥٨ هـ .
وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه ، د . عبد المعطي قلعجي ، ط ١ بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٥ .
٤٣ ـ ديوان ابو تمام .
٤٤ ـ ديوان المتنبي .
٤٥ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى .
الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري .
بيروت ـ مؤسسة الوفاء ١٩٨١ .
٤٦ ـ روح البيان في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ( تفسير الآلوسي ) .
أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي ت ١٢٧٠ هـ .
بيروت ـ دار أحياء التراث العربي .
٤٧ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة .
الحافظ أبو جعفر محي الدين أحمد الطبري .
ط ١ بيروت ـ دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤ .
٤٨ ـ سنن إبن ماجة .
بيروت محمد بن يزيد القزويني .
بيروت ـ دار الكتب العلمية .
٤٩ ـ سنن أبي داود .

الحافظ أبي داود الأزدي السجستاني .
ط ١ مصر ـ ، ١٣٧١ هـ .
**٥٠ ـ سنن البيهقي ( السنن الكبرى ) ( بزية الجوهر النقي للمارديني ) .**
الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ت ٤٥٨ هـ .
وضع فهارس الأحاديث د . يوسف عبد الرحمن المرعشلي ـ بيروت دار المعرفة .
**٥١ ـ سنن الترمذي ( الجامع الصحيح ) .**
أبو عيسى محمد بن عيس الترمذي ت ٢٩٧ هـ .

( ج ١ و ٢ ) تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وج ٣ تحقيق وتخرج وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي و( ج ٤ و ٥ ) تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض بيروت ـ دار أحياء التراث العربي ـ وط القاهرة ـ مكتبة الصاوي .
**٥٢ ـ سنن النسائي .**
**٥٣ ـ السيرة الحلبية في سيرة ( الأمين المأمون ) ، ( إنسان والعيون ) .**
علي بن برهان الدين الحلبي ت ١٠٤٤ هـ .
بيروت ـ دار المعرفة و القاهرة ـ ط البهية .
**٥٤ ـ السيرة النبوية .**
ابن هشام .
ط ٢ بيروت ـ دار الكتاب العربي ، ١٤٠٩ هـ وط دار الجيل .
**٥٥ ـ السيرة النبوية .**
أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٤٧ هـ .
تحقيق مصطفى عبد الواحد ، بيروت ـ دار إحياء التراث العربي .
**٥٦ ـ شرح الملحمة التترية .**

رؤوف جمال الدين .

بيروت ـ مؤسسة الأعلمي .

**٥٧ ـ شرح نهج البلاغة .**

عزالدين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي المدائني .

تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم بيروت ـ دار إحياء التراث العربي ، عن الطبعة الثانية دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ، ١٩٦٥ .

**٥٨ ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل في الآيات النازلة في أهل البيت (ع) .**

الحافظ عبيد الله بن عبد الله بن أحمد الحاكم الحسكاني الحنفي .

حققه وعلق عليه الشيخ محمد باقر المحمودي ط ١ بيروت مؤسسة الأعلمي ، ١٩٧٤ .

**٥٩ ـ شيخ المضيرة أبو هريرة .**

الشيخ محمود أبو رية .

ط ١ قم ـ دار الذخائر ١٤١٠ .

**٦٠ ـ صحيح البخاري .**

أبو عبد الله محمد بن أسماعيل البخاري .

ضبطه ورقمه وشرحه ومزجه ووضع فهارسه د . مصطفى ديب البُغا مطبعة الهندي ، وطبعات اخرى .

**٦١ ـ صحيح مسلم .**

أبو الحسن مسلم القشيري النيسابوري ت ٢٦١ هـ .

تحقيق وتعليق د . موسى شاهين لاشين ، و د . أحمد عمر هاشم ط ١ بيروت مؤسسة عزالدين ١٩٨٧ وبيروت دار المعرفة ، وطبعات اخرى .

**٦٢ ـ الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة .**

الحافظ أحمد بن حجر الهيتمي الملكي ت ٩٧٤ هـ .

خرج أحاديثه وعلق حواشيه وقدم له عبد الوهاب عبد اللطيف ط ٢ ( مزيدة محققة ) القاهرة مكتبه القاهرة ، ١٩٦٥ .

**٦٣ ـ الطبقات الكبرى .**

بيروت ـ دار صادر ، ١٩٨٥ .

**٦٤ ـ العقد الفريد .**

أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي .

بيروت ـ دار الكتاب العربي ١٩٨٦ .

**٦٥ ـ العدالة الإجتماعية في الإسلام .**

سيد قطب .

بيروت ـ دار الشروق ـ ط ٨ .

**٦٦ ـ عمدة التحقيق .**

العبيدي المالكي .

**٦٧ ـ عبدالله بن سبأ واساطير أخرى .**

العلامة السيد مرتضى العسكري .

بيروت ـ دار الزهراء .

**٦٨ ـ عقيدة الشيعة .**

روايت . م . زونلدس .

**٦٩ ـ العقل السياسي العربي .**

محمد عابد الجابري .

بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية .

**٧٠ ـ الغارات ( الإستنفارات والغارات ) .**

أبو أسحق إبراهيم بن هلال الثقفي .

حققه وعلق عليه السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب ط ١ ايران ـ مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ١٩٩٠ .

**٧١ ـ الغدير في الكتاب والسنة والأداب .**

الشيخ عبد الحسين أحمد الأميين النجفي .

طهران ـ دار الكتب الإسلامية .

**٧٢ ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري .**

العسقلاني .

**٧٣ ـ فجر الاسلام .**

احمد امين .

**٧٤ ـ فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة في ذريتهم .**

المحدث إبراهيم بن محمد بن المؤيد الجويني الخراساني ت ٧٣٠ هـ .

حققه وعلق عليه وتصدى لنشره الشيخ محمد باقر المحمودي ، ط ١ بيروت ـ مؤسسة المحمودي ١٩٨٠ .

**٧٥ ـ فصل الأصول الإسلامية في نظرية إبن خلدون السياسية .**

هاملتون جيب .

**٧٦ ـ في رحاب نهج البلاغة .**

العلامة الشيخ مرتضى المطهري .

**٧٧ ـ الكافي .**

ثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني ت ٣٢٩ هـ .

ضبطه وصححه وعلق عليه الشيخ محمد جعفر شمس الدين ، ط ١ بيروت ـ دار التعارف ١٩٩٠ .

**٧٨ ـ الكامل في التاريخ .**

عزالدين أبو الحسن علي بن الأثير .

بيروت ـ دار صادر ١٩٨٢ م ، بيروت ـ دار بيروت ، ١٣٨٥ هـ .

**٧٩ ـ الكشكول .**

العلامة الشيخ يوسف البحراني .

بيروت ـ دار مكتبة الهلال .

**٨٠ ـ كتاب الفتوح .**

بيروت ـ دار الندوة الجديدة ، عن الطبعة الأولى الهندية .

**٨١ ـ الكشاف عن حقائق التزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .**

أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري ت ٥٣٨ هـ .

بيروت ـ دار الفكر ، عن طبعة انتشارات آفتاب طهران .

**٨٢ ـ كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب .**

محمد بن يوسف الكنجي الشافعي .

تحقيق د . محمد هادي الأميني ، ط ١ طهران ـ دار أحياء تراث أهل البيت ١٤١٤ هـ .

**٨٣ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال .**

علاء الدين علي المتقي الهندي ت ٩٧٥ هـ .

ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حياني ، وصمم ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ صفوة السقا ، بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٧٩ و ط ٥ ١٤٠٥ هـ .

**٨٤ ـ لسان العرب .**

أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور .

قم ـ نشر ادب الحوزة ١٤٠٥ هـ .

**٨٥ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد .**

الحافظ نورالدين علي الهيثمي ت ٨٠٧ هـ .
بيروت ـ مؤسسة المعارف ١٩٨٦ .
**٨٦ ـ مجلة البصائر .**
مركز الدراسات الاسلامية في حوزة القائم (عج) .
العدد ٨ ، عام ١٩٩٢ .
**٨٧ ـ مختصر تاريخ دمشق .**
محمد بن منظور .
تحقيق د . نسيب نشاوي ، ط ١ دمشق دار الفكر ١٩٨٥ .
**٨٨ ـ مروج الذهب ومعارف الجوهر .**
أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ت ٣٤٦ هـ .
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت ـ دار المعرفة ، ١٩٨٢ .
**٨٩ ـ المستدرك على الصحيحين (بذيله التلخيص للذهبي) .**
الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري .
بيروت ـ دار المعرفة .
**٩٠ ـ مسند الإمام أحمد (بهامشه منتخب كنز العمال للهندي) .**
أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني .
بيروت ـ دار صادر .
**٩١ ـ مصابيح السنه .**
أبو محمد الحسيني بن مسعود الغراء البغوي ت ٥٦١ هـ .
تحقيق د . يوسف عبد الرحمن المرعشلي ومحمد سليم سماره وجمال حمدي الذهبي ، ط ١ بيروت ـ دار المعرفة ١٩٨٧ ، و ط محمد علي صبيح .
**٩٢ ـ المصنف في الأحاديث والآثار .**

الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ت ٢٣٥ هـ .
تحقيق وتعليق محمد سعيد اللحام ، ط ١ بيروت ـ دار الفكر ١٩٨٩ .

**٩٣ ـ المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين علي وبيان أفضلية .**

الشيخ أبو جعفر محمد بن عبدالله الإسكافي المعتزلي ت ٢٤٠ هـ .
تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، ط ١ بيروت ـ ١٩٨١ .

**٩٤ ـ مقاتل الطالبين .**

أبو الفرج الأصفهاني ت ٣٥٦ هـ .
شرح وتحقيق السيد أحمد صقر ط ١ قم ـ منشورات الشريف الرضي ١٤١٤ هـ .

**٩٥ ـ مقتل الحسين .**

أبو المؤيد الموفق بن أحمد أخطب خوارزم الخوارزمي ت ٥٦٨ هـ .
تحقيق وتعليق الشيخ محمد طاهر السماوي ، قم ـ منشورات مكتبة المفيد .

**٩٦ ـ الملل والنحل .**

أبو الفتح الشهرستاني ت ٥٤٨ هـ .
ط ٢ بيروت ـ دار ومكتبة المتنبي ، ١٩٩٢ ، و ط دار المعرفة .

**٩٧ ـ المناقب .**

الموفق بن أحمد بن محمد الملكي الخوارزمي ت ٥٦٨ هـ .
تحقيق الشيخ مالك المحمودي ، ط ٢ قم ـ مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم ، ١٤١١ هـ .

**٩٨ ـ مناقب الإمام علي بن أبي طالب .**

أبو الحسن علي بن محمد بن المغازلي الشافعي .
تحقيق وتعليق محمد باقر البهبودي ، بيروت ـ دار الأضواء ١٩٨٣ .

**٩٩ ـ الموافقات .**

أبو إسحاق الشاطبي .

**١٠٠ ـ الموطأ .**

مالك بن أنس .

**١٠١ ـ ميزان الأعتدال في نقد الرجال .**

أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ت ٧٤٨ هـ ، تحقيق علي محمد البيحاوي .

بيروت ـ دار الفكر .

**١٠٢ ـ نهايةالحكمة .**

العلامة السيد الطباطبائي .

قم المقدسة ـ مؤسسة النشر الاسلامي .

**١٠٤ ـ النظم والفلسفة والدين في الإسلام .**

هاملتون جيب .

**١٠٥ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر .**

مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير .

تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي بيروت ـ المكتبة العلمية .

**١٠٦ ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ( بهامشه أسعاف الراغبين للصبان ) .**

الشيخ مؤمن بن حسن بن مؤمن الشبلنجي .

القاهرة ـ البابي الحلبي ، ١٩٤٨ .

**١٠٧ ـ وقعة صفين .**

نصر بن مزاحم المنقري .

تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، بيروت ـ دار الجيل ، ١٩٩٠ .

**١٠٨ ـ ينابيع المودة .**

الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي ت ١٢٩٤ هـ .

قدم له السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان ط ١ قم ـ منشورات الشريف الرضي ١٤١٣ هـ وبيروت ـ مؤسسة الأعلمي .

## الفهرس


مقدمة الناشر للطبعة الاولى ........ ٧

الاهداء ........ ١١

مقدمة الطبعة الاولى ........ ١٣

مقدمة المؤلف للطبعة الثالثة ........ ١٩

لماذا الرجوع الى التاريخ ........ ٢٣

لماذا الحديث عن الشيعة والسنة ........ ٢٧

مدخل ........ ٣٣

السنة ........ ٣٤

الشيعة ........ ٣٥

ثم ماذا ........ ٣٧

**الفصل الأول :**

**كيف كان تصوري للتاريخ الاسلامي ؟** ........ ٤٣

الخلافة الراشدة ........ ٤٧

**الفصل الثاني :**

**مرحلة التحول والانتقال** ........ ٥٩

**الفصل الثالث :**

**وسقطت ورقة التوت !** ........ ٧٣

كلمة البدء ........ ٧٥

الزرادشتية الإيرانية والتشيع ........ ٩١

وأثرت السؤال ! ........................ ٩٧

**الفصل الرابع :**

**من بؤس التاريخ الى تاريخ البؤس ! ........ ١٠١**

رحلة جديدة مع التاريخ ........................ ١٠٣

سيرة الرسول : المنطلق والمسيرة ! ............... ١٠٥

السقيفة ........................ ١٢٩

الوفاة و ملابساتها ........................ ١٣١

عصر ما بعد السقيفة ........................ ١٥٣

عمر بن الخطاب مع الرعية ........................ ١٦٥

الخلافة بعد وفاة عمر ........................ ١٨٥

عثمان أو الفتنة الكبرى ........................ ١٩٥

مقتل عثمان . . الاسباب والملابسات ............... ٢١٧

بيعة الإمام علي (ع) ........................ ٢٢٩

صفين : مأزق المآزق ! ........................ ٢٤٥

ما حدث في خلافة الحسن (ع) ............... ٢٦٧

الامام الحسن والواقع الصعب ............... ٢٧٣

قتل الحسن . . المؤامرة الكبرى ............... ٢٨٥

واشرأبّ الملك بنفسه ........................ ٢٨٩

وملك يزيد ........................ ٢٩١

ملحمة كربلاء ........................ ٢٩٣

لقد شيعني الحسين ........................ ٣٠٧

**الفصل الخامس :**

**مفاهيم كشف عنها الغطاء ........................ ٣١٧**

مفهوم الصحابي ........................ ٣١٩

نماذج وباقات ........................ ٣٢٢

أبو بكر ........................ ٣٢٤
عائشة بنت أبي بكر.................... ٣٣١
ايديولوجياالمنطق السلفي .................. ٣٤٣
ليس كل الصحابة عدول.................. ٣٤٧
بعض الصحابة سيرتد ، بالنص ................ ٣٤٩
مفهوم الإمامة ........................ ٣٥٣
**الفصل السادس :**
**في عقائد الإمامية** .................... ٣٧٧
البداء............................ ٣٩٦
وأخيراً .......................... ٤٠١
**المصادر**........................ ٤٠٥